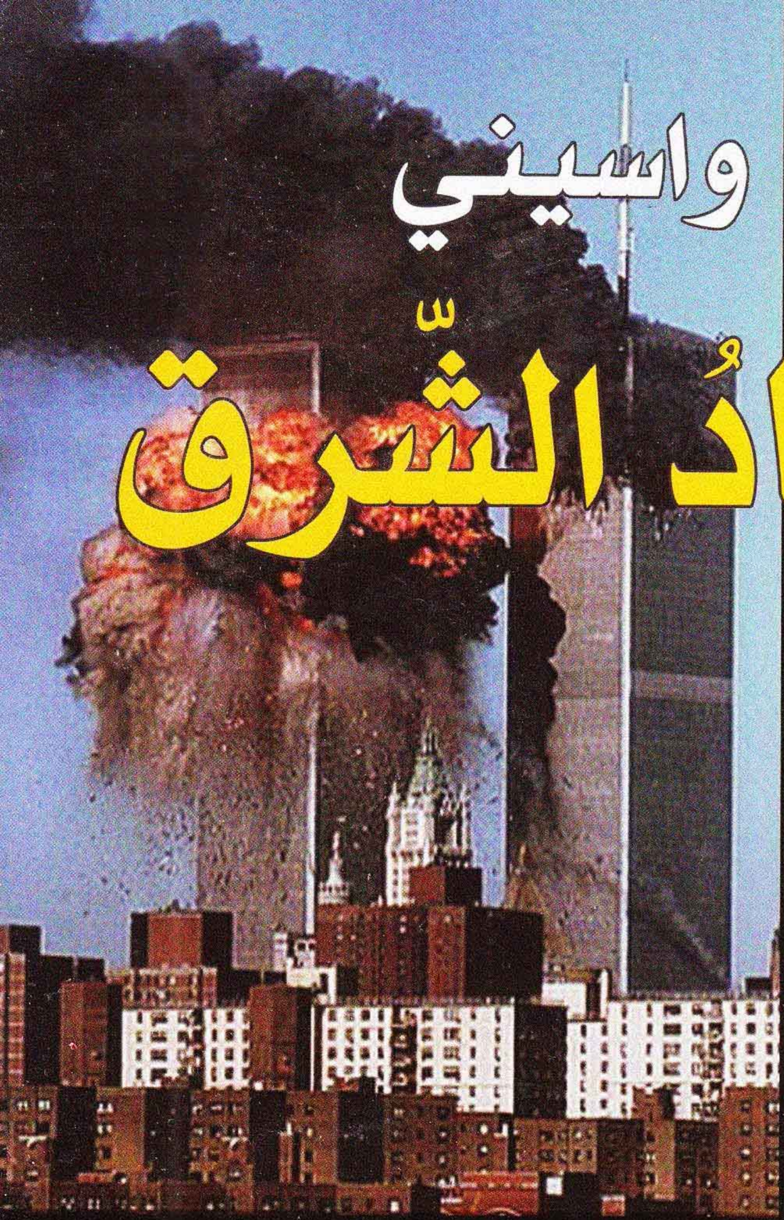


واسيني

رَمادُ الشّرق

I

خريف نيويورك الأخير

منشورات الجمل

رواية

واسيني الأعرج: رَمادُ الشّرق – I

واسيني الأعرج

رَمادُ الشّرق

I

خريف نيويورك الأخير

رواية

منشورات الجمل

واسيني الأعرج. مواليد ١٩٥٤ بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون في باريس. يعتبر أحد أهمّ الأصوات الروائية في الوطن العربي المنفتحة على أفق إبداعي إنساني. تنتمي أعماله إلى المدرسة الجديدة التي لا تستقرّ على شكل واحد، بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجادّ على اللغة وهزّ يقينياتها.

حصل سنة ١٩٨٩ على **الجائزة التقديرية** من رئيس الجمهورية، ونال سنة ٢٠٠١ جائزة **الرواية الجزائرية**، على **شرفات بحر الشمال** ومجمل أعماله الروائية. اختير سنة ٢٠٠٥ كواحد من **خمسة روائيين عالميين** لكتابة التاريخ العربي الحديث روائياً، في إطار جائزة **قطر العالمية للرواية** على روايته: **سراب الشرق**. وحازت روايته **كتاب الأمير** سنة ٢٠٠٦ جائزة المكتبيين، وسنة ٢٠٠٧ الجائزة الكبرى للآداب (الشيخ زايد). كذلك حصل سنة ٢٠٠٨ على جائزة الكتاب الذهبي على روايته **كريماتوريوم (سوناتا لأشباح القدس)**، في المعرض الدولي للكتاب. تُرجِمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية، الإسبانية، العبرية... صدر له عن منشورات الجمل رواية **البيت الأندلسي** (٢٠١٠) **وجملكية آرابيا** (٢٠١١).

واسيني الأعرج: **رَمادُ الشّرق: I – خريف نيويورك الأخير**، رواية، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

للتاريخ حركيته الخاصة التي لا تخضع إلا لقوانينها الذاتية التي تظل مستعصية الفهم على الإنسان. حتى الشخصيات الاستثنائية ليست في النهاية إلا وسائط لاشعورية للتاريخ. فهي تنجز أهدافا كثيرا ما ينفلت معناها منها.

ليون تولستوي: *الحرب والسلام.*
Léon Tolstoi: *La Guerre et la Paix.*

«إن الإنسان هو من يتقدّم داخل الضباب. ولكنه عندما ينظر إلى الخلف ليحكم على ناس الماضي، لا يرى أيّ ضباب في طريقهم. من حاضره الذي كان أيضا مستقبلهم البعيد، يبدو له مسلكهم واضحا بشكل كامل ومرئي في كل امتداده. وهو ينظر إلى الوراء يرى الناس وهم يسيرون إلى الأمام، يلمس أخطاءهم، لكنه لا يرى ضبابا.»[1]

ميلان كونديرا: *الوصايا المخدوعة*

---

(١) L'Homme est celui qui avance dans le brouillard. Mais quand il regarde en arrière pour juger les gens du passé il ne voit aucun brouillard sur leur chemin. De son présent, qui fut leur avenir lointain, leur chemin lui parait entièrement clair, visible dans toute son étendue. Regardant en arrière, l'homme voit le chemin, il voit les gens qui avancent, il voit leurs erreurs, mais le brouillard n'est plus là.

Milan Kundera: *Les Testaments trahis.*

I - حرائق نيويورك

النَّشيد الغائب

-١-

- .... ؟

- No Mitra[٢]... No... No... يكفي هكذا... أرجوك... هذا الطريق مسدود.

قام جاز من مكانه وهو يمسح العرق البارد الذي لمع على جبهته. ترك البيانو بانفعال ظاهر. لم يستطع أن يخبئ علامات الخيبة التي ارتسمت على وجهه بشكل واضح. أغمض عينيه قليلا بحثا عن توازن مفقود. تنفس عميقا حتى يقلل من حالة الاختناق التي ضغطت على صدره ورئتيه، ثم التفت من جديد نحو ميترا متفاديا النظر إلى عينيها المرتبكتين كعيني عصفور:

- ميترا... جدي يستحق أحسن من هذا... لقد أحرق عمره وهو يبحث عن مسالكه المستحيلة داخل وضع معقد اسمه المسألة الشرقية. عندما كانت الدول العظمى تبحث عن بوابات داخل البحار، كان هو يحاول عبثا أن يتشبث بسواحله، ويلتصق بتربته ومائه الذي سرق منه. جدي خسر كل شيء مقابل ألا يخسر ما تبقى من كرامته. أنا حزين يا ميترا. حزين جدا لدرجة الانكسار. شيء ما فينا صار معطلا تماما. منذ أيام ونحن ندور بشكل مغلق بدون أي جدوى. أشعر بفوضى عارمة

(٢) لا يا ميترا... لا... لا...

تعتريني وتفقدني كل توازني. كلما أحسست بشيء ما فيَّ، دفع بي إلى الأمام، سحبتني يد قوية ونزلت بي نحو الأسفل، لتطفئ كل الشعلة المتبقية فيَّ. حلقة مفرغة. لم نتقدم أبدا في عملنا.

- Sorry، ولكنك تبالغ يا جاز. لم يحدث ما يعكر صفوك إلى هذا الحد؟ كل شيء يسير على ما يرام. أخطاء صغيرة في ضبط الكمان، ربما أسرعت كثيرا أو تباطأت في هذا الموقع أو ذاك، ليس أكثر. ما تحس به تجاه جدك يعنيني وإلا ما دخلت معك في هذا المشروع. سننتهي من إنجاز هذا المقطع من السيمفونية وسنكون قريبين من أنين جدك إلى أقصى حد. أنا متأكدة من ذلك.

لم يرد جاز ولكنه التفت نحو شوارع نيويورك التي كان الخريف قد بدأ يكنس أوراق أشجارها المصطفة بانضباط عسكري على الأطراف والحواف. ترك بصره يتوغل عميقا في الممرات المتقاطعة مثل لعبة شطرنج. قلق ما كان يلف المدينة ويعتري هواءها، يشبه حرائق الحروب والهزائم والانكسارات الفائتة.

بدا له فجأة خريف نيويورك حزينا ومنكسرا على غير العادة.

لا شيء إلا الشمس الصباحية الصفراء المشنوقة بين غيمتين جافتين ورياح علت فجأة، بدأت تكنس شوارع حي ليتل-إيطالي من الأوراق الميتة اليابسة والوجوه المنكسرة التي علتها الظلال والعراء.

عندما شرع النافذة على اتساعها، كان يريد أن يرى المدينة التي اشتهاها والتي ملأته بتفاصيلها الصغيرة، في هذا الفصل بالذات: نيويورك التي تحتله مثل وردة متوحشة. عندما يغادرها ولو لأيام أو لساعات، يشعر بها معه، يسمع تقطع أنفاسها مثل عشيقة في لحظة ألقها، يسحبها وراءه في ذاكرته وبين أشيائه الصغيرة. عندما يفتح حقائبه في المدن البعيدة، تسبقه هي بروائحها وعطرها وألوانها وفوضاها الجميلة وشوارعها التي لا تنتهي وموسيقاها التي تأتي من المخابئ المنسية وتستقر في القلب بدون استئذان.

«خريف هذه المدينة وخيباته يذكرني بمايا، أمي التي لم تشبع

قدسها ولا ألوانها فظلت أحلام العودة معلقة بخيط رقيق وهش لم يستسلم أبدا لثقل الهموم. ولدت ذات خريف في أرض لم تملك الوقت الكافي لمعرفتها، وجرت إلى هذه البلاد ذات خريف كذلك وهي لا تعرف شيئا عنها. حتى والدها الذي ظل يحمل صور تاريخه الصامت وانكساره، لم يفهمها جيدا. ماتت في نهايات الخريف الماضي وعلى أصابعها بقايا ألوان فراشات القدس. تقول إنها محظوظة لأن الله منحها فرصة الخروج النهائي في نفس الفصل الذي تشتهي فيه الأوراق أن تحلق عاليا بكل حرية، ولآخر مرة.»

عاد جاز من جديد نحو ميترا. كانت تحاول أن تثبت الكمان عند صدرها، بالضبط بين يدها اليسرى وذقنها، وتعيد وحدها عزف المدخل الموسيقي.

- ساعدني من فضلك، سأحاول من جديد؟

- أخطاء موسيقية منهكة للسيمفونية. تسرع كبير لم أره فيك أبدا. ليس هكذا؟ كأن هناك رغبة محمومة للتخلص من المقطع والانتهاء من كل شيء بأقصى سرعة ممكنة. من يسمعك يشعر بقوة دفع مناقضة لرهافة حسك، تقف وراءك وتدفع بك نحو الانزلاق السريع. تعرفين ماذا ينقص هذا الكمان يا ميترا؟ إحساسك، نعم إحساسك به فقط، الحب، قلبك، أصابعك مثبتة في مكانها ولكنها صماء وثقيلة. منذ أكثر من ساعة ونحن نحاول المستحيل الذي لا يفضي إلا إلى مزيد من الأخطاء ومزيد من الإرباك والحيرة. لو كان الأمر يخصني أنا فقط ما انتفضت، ولكنه يخص منطقة مقدسة لدى جدي... لقد عبر عصرا بكامله بأشواقه وأحزانه. تخيلي للحظة طفلا لم يتجاوز عمره الخمس سنوات، يرى والده يتدلى على أعواد المشانق؟ بعد سنوات، عندما حاول أن يستحضر صورة والده، امتلأت كفاه بالرماد وغابت ملامح وجه والده نهائيا وكان عليه أن يهز ذاكرته بعنف لكي تعود الصور التي قتلتها الخيبات المتتالية. هل تدرين ما هو رهاني؟ على من يسمع السيمفونية أن يرتقي للأحاسيس التي نريد إيصالها له بنفس القوة وألا يعتبر المسألة

مجرد موسيقى عابرة. غير ذلك سأعتبر مجهودي فاشلا ولا يستحق أي اهتمام.

- .I'm sorry, my dear Jazz . . . لست في يومي. أشعر بأصابعي ثقيلة

- ضعي في رأسك كل الوقائع وكل الحروب وقسوة الترحال التي حدثتك عنها واتركيها تنساب عميقا بين أناملك. هدير السفن وهي تحتل البحار، كبار الضباط الإنجليز والفرنسيين وهم يعقدون الصفقات المدروسة، تخيليهم كلهم وهم يأخذون مشرطا ويقطِّعون به الخرائط وكلما سطروا خطا بمشرطهم الحاد، نزف الورق ليحول الخطوط إلى وديان من الدم، وجوه بدو الشام والجبلِ المكدودة وأنفاسهم المتقطعة، حشرجات بوانكاري وهو يبرر الاحتلال بصوت يكاد يختنق: لنا مصالح تقليدية في سورية ولبنان بوجه خاص، وإننا مصممون على حمل الجميع على احترام هذه المصالح. وهل سأل نفسه أن مصالحه هذه كان من نتائجها حرق الزرع والضرع والإبادات التي لا تحصى؟ أريد لكل هذه الأصداء أن تصل من خلال أنين هذا الكمان الذي بين يديك. ميترا، أنت موهوبة ولكنك اليوم غائبة عن آلتك.

أغمضت عينيها قليلا. بدت لها هذه المرة الحرائق أكثر اتضاحا. رأت ذرات الرماد وهي تتكاثف عند النوافذ وأبواب البيوتات العربية. رأت ألسنة النار وقد حولت الحياة في الأمكنة التي مستها إلى أخبار في الجرائد أو إلى فتوحات تشيد بها الجرائد اليومية القديمة. رأت البحر يتلوى من كثرة السفن الحربية الراسية، يغادر حواشيه ويترك أسرَّته وأبوابه الطبيعية ليفيض على كل الجهات.

فتحت عينيها من جديد. دخلهما شعاع حاد البياض، أتى من بعيد. وقفت باستقامة واستعدت للمرة الأخيرة. في لحظة هاربة، بدا جسدها مستقيما كتمثال يوناني من مرمر صاف. مثل البلور الهش، لمسة واحدة، قاسية قليلا، تفجِّر الكل إلى آلاف القطع الصغيرة التي يصعب جمعها. لباسها الأسود الذي كانت ترتديه وحزامها ذو اللون الأحمر الذي يشق

خصرها بعنف، عمّقا صفاء وجهها وخيبة ملامحها التي كانت تقاوم الانكسار.

أغمض جاز عينيه قليلا متجاوزا لحظة اليأس، ثم وضع يده من جديد على كمان ميترا التي تجمدت في مكانها باستقامتها المعهودة. وجهها الطفولي المرتبك غيب بياض عينيها الواسعتين.

- هنا بالضبط يا ميترا، في هذه النوتة بالذات. هذا الخيط الذي لا تضغطين عليه جيدا يمرر كل شيء رخوا ومنهزما. السيولة لا تعني الليونة أبدا. هناك فرق بين الرخاوة والدفء الجميل الذي يصحب الافتتاحيات الموسيقية. الليونة هذه تدفع بالأذن إلى الخمول وليس إلى الرعشة والاستفاقة. أريد أن يكون الإيقاع حزينا ولكن حيا كذلك. هل أنت معي؟

كان جاز يشعر بإنهاك كبير في أعماقه وبخوف ما، من شيء غامض لم يكن قادرا على لمسه.

هزت ميترا رأسها بدون أن تفوه بكلمة واحدة. كانت ما تزال جامدة في مكانها كأن كل ثقل الملاحظات نزل من رأسها فجأة ليشلها نهائيا. بلعت ريقها بصعوبة. جاءها جاز بكأس ماء. بللت شفتيها قليلا.

مد يده إلى شعرها ثم مرر أصابعه على وجهها المشدود.

- لا تغضبي مني. إننا نراوح مكاننا، وكأننا في بداية المشروع. أنت اليوم غير طبيعية. لم أعد أفهم حركاتك، فقدت انسجامها. ينقصك الكثير من التركيز، على غير عادتك. نفس الخطأ يتكرر معك باستمرار. تخيلي للحظة أوبرا بروكلين غاصة عن آخرها بالبشر؟ الناس يأتون ليروا شيئا جميلا ومريحا لا لأن يقهروا. وفي نيويورك، إذا وضعوك في خانة الفاشلين انتهى أمرك، حتى ولو أنجزت أجمل سيمفونية في الدنيا، لا أحد يلتفت نحوك. بصراحة، لا أريد أن أجد نفسي في هذه الوضعية التي لم أهيأ لها. حياتي كلها وضعتها في الميزان يا ميترا، إما أن ننجح أو أتخلى عن كل شيء وأعود إلى مهنتي القديمة وأنسى الموسيقى نهائيا. الطب ليس شيئا سيئا. أحيانا أتساءل إذا لم أكن قد ارتكبت حماقة

بسيري في هذا المسلك المسدود ولم أسمع لحلم المجنون، والدي؟ العشق وحده لا يكفي. كالفينو ربما كان على حق، من يدري؟ كان يريدني طبيبا، ولا أغفر لنفسي حماقة قد أرتكبها في حق جدي. هذه السيمفونية له ولروح أمي. تعرفين يا ميترا، إنني في سباق مجنون مع الموت. أريد أن يرى جدي شريف أو بابا شريف كما نناديه أحيانا، هذه السيمفونية، فهي منه وإليه، أن يعيشها بكل العمق الذي تستحقه. يجب أن تكون هي صوته الذي فقده طوال هذه السنوات، تتحدث عن الشيء الصامت فيه. فقد خاض، على مدار قرن بكامله، حروبا تركت فيه فجوات وجروحا يصعب رتقها. فإذا خسرته قبل ذلك ستؤذيني المرارة والخيبة. أتمنى أن يمنحني الله صبرا كبيرا، وأن يمنحه عمرا آخر لكي يسمع نداءاتي. مايا كانت تريد مني ذلك وربما كان في هذا عزاؤها الوحيد. أرجوك يا ميترا... ساعديني... إني أطلب منك ذلك. أرجوك...

- I'm Sorry. حبيبي. متأسفة جدا... نبدأ؟

عندما رفع رأسه قليلا، واجهته لوحة مايا [**خريف نيويورك الأخير**]. الشمس وقلق المدينة الكبيرة. رأى أنامل أمه الرقيقة وهي تعجن الألوان الصفراء والآجُرّية والبنفسجية على الرغم من الآلام التي كانت كل يوم تأكل مساحة جديدة من جسدها. كانت ترسم في الحديقة أو داخل الصالة الواسعة عندما تمنعها الأمطار من متعة الرسم في الخارج.

- أنت تهذي يا جاز. قالت ميترا. أعرف أنك منشغل بجدك كثيرا وبالذاكرة الثقيلة التي يحملها، التي تخشى ضياعها. أعرف أنك مسكون بأشواقه وبوفائك لأمك، ولكن اليوم، أنا نفسي لا أفهم ما يحدث لي، كأن يدا ثقيلة تمتد إلي لتسحب أصابع يدي اليمنى نحو خاتمة موسيقية أنا غير مقتنعة بها. إذا كنت ترى أن الوضع سيئ إلى هذه الدرجة، سأتوقف الآن ونحاول غدا. أحتاج إلى قليل من الهواء. أنا كذلك أشعر بالاختناق. هناك شيء أكبر مني يضغط على صدري بقوة. أشعر كأني

حيوان ضائع بين أدغال البنايات، يتحسس زلزالا سيعصف بكل محيطه ويغرقه في فجوة يزداد فراغها كلما نزل عميقا. لا أدري ما مصدر ذلك كله ولكن أحيانا تستيقظ فينا الحواس الحيوانية الدفينة وهي التي تحركنا نحو أشياء لا ندركها إلاَّ لاحقا.

عندما انسحب جاز نحو المطبخ ومشت هي نحو الشرفة، تأكدت أنه غير رأيه ولان قليلا. كان يهيئ قهوة قوية، مرة وحادة لكي يواصل من جديد عمله. هكذا يفعل عندما تنغلق السبل في عينيه.

عندما انزلقت القطرات الأولى في حلقه أدرك كم كان بحاجة ماسة إلى هذه القهوة المرة!

كل شيء في المدينة كان يبدو من الشرفة كأنه يهرب من شيء مجهول، كان واضحا ومستقيما ومرتبكا أحيانا في خطوطه وكأنه رسم طفل صغير يسهو بين لحظة وأخرى قبل أن يتذكر عمله. كأن المدينة تأتي نحو البيت. الأبراج العالية تجعل من نيويورك مدينة تنزلق كل يوم أكثر نحو السماء وكل فجر تشعر كأنها صارت أطول من الليلة السابقة. السيارات، حركة الناس، البنايات المتعاظمة والشوارع المتوازية، تبدو من هذه الشرفة العالية خطوطا مستقيمة ومتناسقة.

انكفأت ميترا قليلا إلى الأمام، على مقبض الشرفة. أغمضت عينيها، قبل أن تفتحهما على يدي جاز وهما تتزحلقان من الوراء بهدوء لتطوقا خصرها ويحضنها بقوة ثم يرفع شعرها قليلا من الوراء. تبدو رقبتها بيضاء صافية كقطعة مرمر، يلثمها تحت أذنها اليسرى حيث تعتريها رعشة الارتباك. يبتسم. يعرف جيدا أسرار جسدها الناعم:

– أووووه... أرجوك جاز لا تكن مجنونا... ليس هذا وقته.

– من المعتوه الذي قال ذلك؟ طيب... خذي قهوتك المرة.

وضع الكأس في عمق كفها. كانت رائحة البنّ قوية وتشم من بعيد.

– هذه القهوة تعلمتها من أمي. هي من الأشياء النادرة التي قبلت أن تورثها لي من أجدادها. تقول مايا وهي تحاول دائما أن تخفف من ثقل الأشواق التي تملأها: التربة الأولى كالحبر الأسود، عندما يلتصق

بالحرير الأبيض لا يمحى أبدا وإذا أصررت عليه، سيتلف القماش بين يديك ولا يذهب السواد. أعتقد اليوم أن أمي كانت على حق، مثلها مثل أبي الذي ظل ملتصقا بتربة قضى العمر يلح على استنطاقها حتى أسكتته أمي بقوة شخصيتها. لابد أن يكون فيه شيء من مزاج أمي ولا بد أن يكون في أمي شيء من صمته حتى التقيا وإلا من المستحيل أن يتفاهما. جزء من حياته قضاه على حواف بترا وانتهى به الأمر على ضفاف البحر الميت. في أول زيارة، التصق بها وأصيب عشقا بأسرارها قبل أن يواصل بوهيميته التي قادته إلى صلصال الجهة الأخرى من البحر وهناك انطفأت أخباره باستثناء المرة الوحيدة التي رأته فيها مايا في شريط تليفزيوني من الجهة الإسرائيلية من البحر الميت.

- معك حق. ليلة أمس لم أنم جيدا. اعذرني، يحدث ألا أكون في يومي. خذ الأمور هكذا ولا تعمق حالة الانفعال.

- يحدث ألا يكون المرء في يومه. ليكن. هذه المدينة جميلة ومخبِّلة للعقل. تفاحة آدم الضخمة **Big Appel** من يستطيع قضم هذه الخطيئة؟ نيويورك مدينة ضخمة وجميلة والذين أصيبوا بعشقها لم يكونوا مخطئين مطلقا. تحتاج إلى يد قوية تسيَر كل ذلك بدقة متناهية. أحب هذا المكان لأنه يمنح الإنسان، وسط هذه الكتل المتراصة التي تأكله وتصغّره، الإحساس بالسيطرة على الضخامة والاستحالة. لولا البحر لأصبحت نيويورك مدينة لا تطاق. ومع ذلك لا نملك إلا أن نحبها. يحدث معي أن أكرهها ولكن بمجرد رؤيتها من أعالي الطائرة، أو من جسورها أو حوافها البحرية، يبدو الافتقاد عظيما وينتابنا الإحساس بأننا عندما نموت سنخسر شيئا استثنائيا.

- الجميل فيك أنك لا تتخلى عن رومانسيتك أبدا حتى في أحلك الظروف وأقساها.

- في الوقت الحالي نحن أمام أزمة. لم يبق أمامنا الوقت الكثير. ميترا، أنت ستقودين معي فرقة فيلارمونية كبيرة وراءك. يجب أن تنسي كل شيء بما في ذلك أنا وتركزي على الفرقة التي تقتفي خطاك وتتبعك

حركة حركة. كلما أخطأت في إيقاعك، انزلقت هي وراءك. وضاع من يدنا ما هو أساسي.

مد يده نحوها مطوقا جسدها. تنفس عميقا بحثا عن لحظة متوارية في أعماقه. كانت نيويورك تبدو هادئة ومنشغلة بيومياتها المتكررة. رأى شارع برودوي وهو يتزحلق من الأعالي كالثعبان، وشارع الإيست هيوستن[٣] الذي يخترقه في وسطه بعنف مخففا من تماديه فاصلا الجزء السفلي من مانهاتن عن جزئها العلوي. شوارع كثيرة تمتد في منافسة غير واضحة حتى تخترق ضواحي المدينة قبل أن توقفها بحيرة هودسون[٤] التي تنزل من أعالي مانهاتن قبل أن تحوط جنوبها وتحوله إلى جزيرة معزولة لولا جسر جورج واشنطن ونفقا لينكولن وهولندا التي تربط شمال المدينة بنيوجيرسي وجسر بروكلين الذي يربط جنوب مانهاتن بشمال بروكلين ويلصقه بكوينز شرقا. تبدو نيويورك من هذا الطابق العشرين وكأنها مدينة الحواف الصعبة. مجموعة من قطع مركبة بشكل قسري: البرونكس[٥] شمالا، مانهاتن، كوينز ثم بروكلن جنوبا. لا شيء يحد من حركتها المجنونة. كلها أجزاء عائمة وسط بحيرات وهمية. ثم فجأة استقرت عيناه على البرجين التوأمين[٦] قليلا. مسحهما بعينيه شيئا فشيئا كما تعود أن يفعل كل صباح كأنه يريد أن يشبع نظره منهما. بدا له سطحهما أملس كجلد ثعبان. منذ أن شاهدهما لأول مرة في طفولته وهو يتصورهما كذكر وأنثى مثلما حدث مع أمه. ربما كانت هي التي ورثته ذلك الإحساس المبهم. حدد في رأسه منذ ذلك الزمن البعيد، من الذكر ومن الأنثى؟ البارحة زار البناية الذكر حيث يوجد البنك الذي يتعامل معه. حتى البنايات تموت بفعل العزلة ولهذا فهو يزور هذه المعالم باستمرار، كلما وجد فرصة.

---

(٣) East Huston

(٤) Hudson River

(٥) Bronx

(٦) Twin Towers

عندما التفت نحو ميترا، كانت شبه غارقة في تأملاتها، تحتضن من جديد الكمان. كان شعرها يتلألأ تحت ألوان الشمس الصباحية الكثيفة التي انكسرت على مربعات زجاج النافذة المشرعة وهي تحاول أن تستعيد علاقتها بالكمان الذي استعصى بين يديها. تعزف إيقاعات حرة كانت تسمعها وحدها.

– ميترا؟ تريدين أن نجرب مرة أخرى؟ المشكلة أن الوقت الذي بين أيدينا يتقلص كل يوم قليلا. أعرف أنك مرهقة ومتعبة من كثرة المعاودة والتكرار. أَليست الموسيقى في النهاية معاودات مستمرة؟

– لا يا جاز. أنت تعرف أحسن مني، في الموسيقى لا توجد معاودة. كل شيء نقوم به وكأننا نفعله لأول مرة. الحركة التي نقبض بها على الآلة لا يمكن أن تتكرر مرتين، وهنا المأزق. وراء كل ملمس وضع نفسي وشعور خاص تجاه الأشياء. والدي الذي ظل ملتصقا بأرض أجداده الفارسيين وهو يعزف على آلة السنطور، يقول: عندما ندخل في دائرة الإعادة ندخل في السأم، والموسيقى وجدت أصلا لقتل السأم والعزلة. أنا أدين له بالكثير ولابد أن يكون حزينا لأني لم أتعلم العزف على آلته التي أفنى العمر في عشقها. الخميني عندما أحرق شارع النساء أو حي المومسات كما كان يسميه حراس الثورة، لم يلغ والدي من حسابه، فدفنه في السجن حتى الموت. أمي هربت بنا وقادتها الدنيا إلى هذا المكان إلى اليوم لا أعرف في أي شيء يمكن للموسيقى أن تؤذي البشر وماذا كان في رأس الخميني وهو يصدر بياناته المتلاحقة ضد والدي ومن شابهه؟ والدي كان عازفا في الأوركسترا الوطنية وكان مؤلفا كبيرا ولم تغْرِه الآلات الحديثة بل ظل مشدودا إلى سانتوره الذي توارثه عن سبعة أجداد.

– لنقل هذه المرة سيكون الحظ في جانبنا. نشبك الأصابع؟

– نشبكها.

ثم نظرت إلى ساعتها. بدا كأن القلق الذي اعتراها قد قل بعض الشيء ولكن الوقت كان يحاصرها.

- واووو. . . التاسعة إلا ربعاً؟ لم يبق على موعد الساعة العاشرة الكثير من الوقت. أحيانا نصاب بالعمى أو الحيرة. ربما الكوابيس والانشغالات الكثيرة. إذا لم أفلح هذه المرة سأترك كل شيء للغد.

- اتفقنا. يبدو أني أتعبتك. لن أصر عليك أكثر. . .

- لا تكن غبيا.

عندما وضعت ميترا مرتكز الكمان بين أناملها وثبتته جيدا عند الكتف اليسرى ومسكت نهاية مقبضه بشدة، محررة اليد اليمنى، أغمضت عينيها وتنفست عميقا.

- جاز، أرجوك ساعدني.

شد على كتفيها من الوراء كعادته. ضبطت أصابعها على عصا الكمان ثم على الخيوط ليخرج أول نغم مصحوب بأنين عميق سرعان ما تبعه أنين موجع آخر اختلط فجأة بانفجار ضخم وجاف صم أذنيها، طيَّر من يديها الكمان كأنه يد متوحشة لملمت كل شيء ورمته نحو الأقاصي بينما تدحرجت هي كالورقة الخفيفة قبل أن تسقط على الأرض. حاولت أن تقبض على أي شيء ولكنها لم تكمش إلا الهواء قبل أن تنشب بعض أصابعها في صدر جاز الذي حاول أن يتماسك بصعوبة. كانت الضربة عنيفة وكأنها وقعت داخل البيت.

- ج. . . . ا. . . . . ز. . . . . الحقني. . . لا أرى شيئا. . .

صرخت ميترا وهي تشعر أنها فقدت للحظة بصرها.

- ميترا. . . أنا بجانبك. . . أنا هنا. . .

طمأنها جاز وهو يجلسها على الكرسي ويركض نحو النافذة.

- My God. يا إلهي ماذا أرى؟

كانت لوحة [**خريف نيويورك الأخير**] التي تدحرجت في مكانها قليلا، قد سقطت على الأرض وتكسر زجاجها إلى مئات القطع الصغيرة مخلفا خدوشا على وجه اللوحة وعلى صفرة الشمس المشعة وانشقاقات عديدة في الإطار الخشبي وعلى التوقيع الصغير الذي ما تزال نعومته ظاهرة على الجانب الأيسر من اللوحة.

كان البرج الشمالي يشتعل وأدخنته تتصاعد عاليا لتتحول فجأة إلى فرن عال لمصنع قديم.

بقي جاز مشدودا إلى ميترا ويده تحاول أن تكتم صرخة ملأت صدره الذي ضاق فجأة.

- My God !?

دفن رأسه بين يديه كأنه كان يخشى على بصره من العمى. رفع عينيه من جديد قبل أن يغمضهما على النيران والأدخنة وهي تتصاعد عاليا من البرج الشمالي.

مد يده بشكل آلي إلى حبات زجاج إطار اللوحة التي انتشرت هنا وهناك كعقد لؤلؤ تقطع خيطه.

- زلزال؟ لابد أن يكون زلزالا مدمرا.

رددت ميترا وهي تحاول أن تفهم ما كان يحدث.

- هل ترين ما أرى؟ لا. ليس زلزالا. نيويورك تشتعل يا ميترا. الانفجار جاء من مانهاتن. انظري الأدخنة الكثيفة وألسنة النار التي تتصاعد من المركز التجاري. ماذا يحدث؟ انظري... انظري...

بقيا ملتصقين بالمكان لا يفهمان ما كان يحدث، بينما بدأت الطرقات الواسعة تكتظ بالسيارات وسيارات الإسعاف التي كانت أصواتها تسمع وهي تأتي من أمكنة ليست بعيدة.

لم يمر وقت كثير. بالضبط سبع عشرة دقيقة. كانت الساعة الحائطية تشير إلى التاسعة وثلاث دقائق عندما غيرت الطائرة التي كانت تعبر سماء نيويورك، مسارها فوق مانهاتن بنصف دورة واتجهت مباشرة صوب البرج الجنوبي بسرعة جنونية وكأنها كانت في سباق محموم مع الموت، لتخترقه بعنف ويخرج الحطام الملتهب من الجهة المقابلة. اشتعلت النيران التي اصفرت ثم احمرت ثم اسودت في النصف العلوي من البرج وصعدت ألسنتها عاليا. تشبث جاز بميترا وحاول ألا يرى ما كان يحدث أمام عينيه.

- لا. هذه حرب. حرب. لا يمكن أن يكون ذلك زلزالا أو حادثا

عارضا. والضربة مقصودة ولا يمكنها أن تكون خطأ بشريا. لابد أن تكون الطائرة قد غيرت مسارها، فليس هذا مسلكها الاعتيادي. لا يعقل. هل هو كابوس يا ميترا؟ قولي لي إنه مجرد كابوس مزعج؟؟؟

فجأة تحول البرجان إلى فرنين عاليين ينفثان دخانا أسود.

وضعت ميترا رأسها بين يديها ودفنت وجهها في صدر جاز:

- لا أريد أن أصدق ما تراه عيناي.

بحركة آلية أشعلت ميترا جهاز التليفزيون بينما بقي جاز مشدودا إلى مشاهد الأدخنة والصرخات المكتومة وأصوات سيارات الإطفاء وسيارات الإسعاف بحثا عن مسالك ممكنة وسط فوضى أعادت المدينة إلى بدائيتها الأولى.

أغمض جاز عينيه من جديد وحاول ألا يصدق. هز رأسه مثل الذي لم يفهم شيئا.

- كابوس؟ البرجان يحترقان. ماذا يحدث؟

جاءها بكأس من الماء. كانت شفتاها يابستين. كان الوقت يسحق كل شيء بسرعة. قالت ميترا وهي تستجمع كل قواها:

- ننزل لنرى ماذا يحدث؟ لا يمكن أن نظل مشلولين هكذا؟

- الأفضل أن نعرف على الأقل ماذا حدث بالفعل من التليفزيون والإذاعة. الناس يركضون في كل الاتجاهات ولن تجدي مسلكا. أمر مثل هذا لن يغيب عن CNN س.ن.ن. كيف يشتعل البرجان؟ اصطدام طائرات ركاب أو ماذا؟ طيب، لماذا تم تغيير مساراتها؟ أنا لا أفهم.

كان الزمن يمر ثقيلا كالرصاص.

جلسا يشاهدان صور التلفزيون التي كانت تبث في شكل حلقة مغلقة ومباشرة. كان شريط الأخبار واضحا ومربكا لجاز وميترا: «**الرحلة رقم ١١ التي اصطدمت بالبرج الشمالي أقلعت من بوسطن. الرحلة رقم ١٧٥ التي اخترقت البرج الجنوبي أقلعت هي كذلك من بوسطن...**» كانت الصور تشبه كابوسا سينمائيا من كوابيس هوليوود الافتراضية. الأدخنة تتصاعد إلى السماء سوداء كثيفة. من حين لآخر تقطع سلسلة

الصور بخبر عن إمكانية هجمة إرهابية منظمة. كل الجسور والمعابر المائية أغلقت بدءا من الساعة التاسعة وإحدى وعشرين دقيقة. شريط الأخبار يقول إن طائرة ثالثة هوت على البنتاغون عند الساعة التاسعة و٤٥ دقيقة وخلفت أضرارا جسيمة كبيرة.

وضع جاز رأسه بين يديه بينما خرجت ميترا إلى النافذة وهي تردد بلا توقف:

- كنت أعرف بأن هذا اليوم لن يمر على خير. أرجوك يا جاز نخرج من هذا الاختناق الرهيب.

- لنذهب إلى أين في مدينة سدت كل بواباتها وطرقاتها؟

رد جاز من داخل الصالون.

ثم صرخت فجأة ولم تستطع كتم صوتها حينما رأت البرج الجنوبي يهوي بكل ثقله.

- انظر يا جاز ماذا يحدث، انظر؟ يا الله هل نحن في كابوس أم في حقيقة؟

عندما قام من مكانه كالمجنون وجرى نحو الشرفة، رأى بقايا البرج الجنوبي وهو يتهاوى لينهار نهائيا وتغطيه الأدخنة والغبار الكثيف، محدثا رجة عنيفة داخل البيت. كانت الساعة العاشرة وخمس دقائق بالضبط. كانت الأنفاس تتقطع من شدة الرعب والخوف وهول الفاجعة. فوجئ جاز عندما رأى في شريط الأخبار، وهو يتحرك بانفعال كبير بين الغرفة والشرفة، أن البيت الأبيض تم إخلاؤه وكل أجنحته أفرغت من العمال والقادة المدنيين والعسكريين. ثم تحدث الشريط عن طائرة غيرت مسارها قبل أن تسقط في غابات بنسلفانيا عند الساعة العاشرة وعشر دقائق.

لم تعرف ميترا أي لحظة هدوء وتمنت أن تخرج من البيت بأقصى سرعة ممكنة. كانت النيران تشتعل في البرج الشمالي الذي ظل واقفا، عندما صرخت من جديد.

- سنموت جميعا يا جاز. انظر هول الكارثة.

كان البرج الشمالي الذي كان عرضة للأدخنة والنيران، يتهاوى بدوره مثل لعبة كرتونية. في البداية سُمع صوت جاف يشبه تكسر الموج عندما تكون بحيرة هودسون في حالة غليانها الأقصى بين حواف نيوجيرسي وحواف مانهاتن. ثم كان صوت الانهيار الحاد الذي اهتز له كل شيء. أغمض جاز عينيه وبلع ريقه بصعوبة وحاول أن يقنع نفسه مرة أخرى بأن ما كان يراه لم يكن إلا مشهدا هوليوديا سرعان ما ينقشع.

- ميترا؟ قولي لي إن ما أراه ليس هو الحقيقة. لا يمكن أن تسقط هذه البنايات العتيدة بسهولة؟

- سقطت ولا يمكن لأربع عيون أن تخطئ أو أن تكذب على نفسها... أخرجني من هذا الغبار الأسود أرجوك، أشعر به يسد تنفسي... أرجوك...

كانت الأدخنة تتصاعد من بقايا البرجين كأنها كانت تخرج من فوَهة بركان.

عندما هدأ كل شيء، أجلس جاز ميترا على الكرسي ثم جاءها بكأس من الماء. كانت جامدة ولا تتكلم. مندهشة من اللوحة التي تكسر زجاجها إلى مئات القطع ومن الكمان الذي انشق إلى قسمين وتطايرت أسلاكه وكأنه ضرب بعنف على الأرض في لحظة غليان. الشيء الوحيد الذي بقي جامدا ولم يتحرك من مكانه إلا قليلا هو البيانو.

التليفزيون كان مثبتا على صورة بقايا البرجين وفوضى الحركة في قلب المدينة. فتح الراديو على كل محطاته. لم يسمع شيئا يشفي غليله. كانت سيارات الإسعاف تخترق كل الشوارع بعويلها. والأدخنة تزداد كثافة وثقلا. الناس مثل النمل، يتجهون في كل الأمكنة. ثم فجأة سمع في الراديو نداءات الاستغاثة لتجنيد كل الأطباء والمختصين والممرضين للالتحاق بالمستشفيات القريبة منهم. ثم رأى رئيس البلدية الجمهوري رودولف جيولياني[٧] قريبا من مكان الحادث وقد نشفت شفتاه، يطلب

(٧) Rudolph Giuliani (1993-2001)

الهدوء والمساعدة من كل سكان المدينة وينادي أطباء نيويورك وممرضيها للالتحاق بالمستشفيات القريبة منهم. لم يفكر جاز طويلا.

- ميترا، أنا مثلك مرتبك وخائف ولكن يجب أن نفعل شيئا. لا يمكن أن نظل هنا. سأنزل إلى المستشفى. لابد أن يكون هناك ضحايا كثيرون وراء هذا الحادث الفظيع.

كانت الصفرة التي علت وجه ميترا قد زادت تعمقا. كانت رخوة مثل قطعة قماش. شعرت بشلل كبير في كل أعضائها التي لم تعد قادرة على جرها ولا حتى على تحريكها. احتضنها قبل أن يخرج. بقيا لحظة صامتين كأن سكينا حادا قطع لسانيهما وكأن ما حدث لم يكن إلا كابوسا انتهك صمتهما وموسيقى الظلال التي غرقا فيها طويلا قبل الفاجعة. فجأة رن الهاتف. شعر بصوته مضخما يطن في أذنيه. ربما منحه مهربا لم يخطط له ولكن يجب أن يخرج من هذا البيت الذي تحول فجأة إلى قبر.

- نعم. جاز كالفينو معك.

- أنا مارك. الجراح، مارك طوني. هل رأيت ما حدث؟

- كارثة يا بروفيسور... كارثة...

- نختصر. أنا بحاجة ماسة إليك. لا أعلم كيف سيتصرفون ولكن المستشفى سيغرق بالجرحى بعد قليل. أعرف أنك في عالم آخر غير عالم الأدوية ولكني أعرف كذلك جديتك وحبك للناس وأنا الآن بصدد الاتصال بالأصدقاء وطلبتي القدامى للالتحاق بالمستشفى الذي انتموا إليه، لمساعدة الجرحى. الأمر خطير جدا يا جاز وأنا أحتاج إلى مجهودك وتفهمك. الأمور ما تزال غامضة، وجودك هنا سيساعدني كثيرا.

- مسافة الطريق فقط يا بروفيسور. أتمنى أن أجد مسلكا للمرور.

- تستطيع العبور. قل إنك طبيب وإذا كانت لديك أية وثيقة طبية حتى ولو قديمة، خذها معك، ستساعدك.

ثم أقفل السماعة. استخرج جاز من علبة أوراقه القديمة بطاقته الطبية. كانت ميترا عند رأسه، ما تزال تحت وقع الصدمة، تحاول أن

تلملم بقاياها بين شرفة تملأها مشاهد القيامة وغرفة كل ما كان بها بدا في فوضى وكأنها ناجمة عن زلزل. شعرت بنفسها مزقا وأشلاء موزعة في أمكنة متعددة.

- يا إلهي. كنت أعرف أن هذا اليوم لن يمر على خير. سأنزل معك. لا أريد أن أموت وحيدة مختنقة في هذه العزلة وهذه العلبة التي ضاقت فجأة.

وقبل الخروج رن الهاتف مرة أخرى. كان من وراء الهاتف صوت جده شريف ببحته المعتادة.

- أهلا بابا. جاز أنت بخير..؟

- بخير يا جدي، بألف بخير... كيف حالك أنت؟ كل شيء على ما يرام، لا تشغل بالك. أنا الآن ذاهب إلى المستشفى. سأكلمك من المستشفى أو بعد عودتي إلى البيت.

- احذر بابا. أردت فقط أن أطمئن عليك مع ما جرى في نيويورك...

ثم أقفل جاز السماعة من جديد.

بحركة آلية سحبت ميترا محفظتها الصغيرة وبحثت عن مفاتيح سيارة شيروكي 4x4، قبل أن تلحق بجاز الذي كان قد وقف عند مدخل الباب الخارجي ليطلب المصعد، تعلو عينيه سحابة من الخوف ورعشة لم يكن قادرا على مقاومتها.

- ميترا، أرجوك بسرعة...

- جاز... ها أنا ذي.

تناهى إليه صوتها مخنوقا وخافتا، يكاد لا يسمع من عمق البيت، مختلطا بصوت سيارات الإسعاف التي لا يسمعها أبدا إلا عندما يفتح نافذة بيته المطلة على الشارع الهائج الذي ينتهي في ماء بحيرة هودسون.

ارتبك كل شيء في ذهنه. شعر بالزمن يطول أكثر من المعتاد وبالتوازنات الهندسية التي عرفت بها نيويورك تتكسر وتفقد نظمها الأولى وأطوالها وعرضها وتتحول إلى أشكال مبعوجة ومخروطة في الوسط كأية

قطعة حديدية رقيقة لعب بها الأطفال طويلا قبل أن يتركوا عليها مواقع أياديهم وأقدامهم.

في اللحظة الفاصلة بين خروج ميترا من البيت والالتحاق به، ووصول المصعد، أحس جاز بدهر يمر، مع أنها لم تكن إلا دقائق معدودات انكسر على أطرافها المحدودبة زمن كان يسير وفق مزاجه الخاص وجنونه الدائم، لم يكن يعبأ مطلقا بأشواق الناس وأنينهم الآتي من بعيد.

-٢-

لأول مرة يشعر جاز بأن حركة نزول المصعد كانت ثقيلة على غير العادة. تبدو شمس نيويورك المسائية حمراء وهي تنزل ببطء وهدوء على مرأى الآلاف من الذين ينتظرون على جسر بروكلين أو على حواف بحيرة هودسون في جهتها الشرقية. غابت مبكرا وبدأت رائحة الموت تعبر الشوارع في صمت وخوف كالوحش الضاري. حتى أضواء الإعلانات ظلت تشع في عزلة تامة، لا أحد يرفع رأسه نحوها. وإذا فعل أحدهم، فقط ليقرأ الشريط الضوئي الأحمر: *تعرضت نيويورك لعمل إرهابي*... الذي يقطع بعض المعابر الكبرى، أو ليوقف بعض المارة قليلا، يسألهم برعشة وخوف عن الجديد قبل أن يواصل هرولته باتجاه المسالك التي يعتقد أنها أقل عرضة للإرهاب. الحيرة تقرأ في وجوه كل الناس وهم يلتفتون حولهم بسرعة خوفا من شيء يمكن أن يحدث في أية لحظة في غفلة منهم ويتفادون السير بمحاذاة المحلات الكبرى التي يعتقدون أنها خطيرة، أو رموز الدولة أو المشي على الجسور العالية.

كيف انهار البرجان التوأمان مثل لعب كرتونية؟ ثم كيف احترقا وتحولا إلى كومة من الرماد والغبار وإلى حجارة وحديد متراكم في فوضى تشبه القيامة أو مرور عاصفة هوجاء؟

أمام هول الفاجعة كانت الأسئلة القلقة ترتد إلى الأعماق منكسرة،

بدون إجابات. لا أحد يعرف بالضبط ماذا حدث وكيف حدث؟ سوى أن عدد الضحايا كان يزداد باستمرار مع مرور الوقت. رئيس البلدية رودلفو جيولياني الذي كان يعبر الشوارع كمجنون ويقطعها صعودا ونزولا، لم يقل شيئا أكثر من ذلك، وحثَّ سكان المدينة على أن يتضامنوا فيما بينهم، ثم غاب عن الشاشات ليلتحق بسكان الأحياء المتضررة تحت أدخنة وبقايا البرجين.

بدأت الأخبار تزداد وضوحا مع مرور الوقت. لم يصبح ما حدث للمدينة سرا على أحد. طائرات عديدة اصطدمت بمعالم المدن الكبرى، اثنتان احترقتا على البرجين، ثالثة وجهت نحو البنتاجون ودمرت جزءا مهما منه، ورابعة سقطت على غابات بنسلفانيا أو أسقطت في الخلاء خوفا من خراب آخر في مدينة أخرى. لا أحد يعرف السبب ولا التفاصيل إلا ما كانت تبدعه الخيالات المنهكة للأفراد والجماعات. ما كان مجرد حادث عابر كثيرا ما يحدث لطائرة ضلت مسارها وحاولت عبثا أن تدور حول نفسها، سرعان ما اتضح أنه عمل محكم ومسبق التنظيم.

قلت الحركة في شوارع نيويورك الواسعة، وسادت حالة ذهول غريبة تشبه إغفاءة الموت المخدر، لولا أصوات سيارات الإسعاف التي كانت تبحث عن مسالكها الصعبة، لا تقطعها إلا الأصوات الحادة والجافة التي تشبه نداءات الاستغاثة، تأتي من بعيد، بعضها خافت وبعضها الآخر كان كأنه يأتي من عمق الدماغ.

عندما أراد جاز أن يرتاح قليلا في شرفة المستشفى، امتلأت رئتاه وأنفه بروائح الأدوية وأكياس المصل المختلفة وأحيانا رائحة الدم المحروق. أغمض عينيه من جديد وضيق من تنفسه قليلا حتى لا يبلع كل هذا الكم الخانق من الروائح المتنافرة. حاول أن يغرق في عالم آخر غير عالم الأدخنة والرعب. رأى مرة أخرى جده وهو يتشبث بأطياف الحياة ولا يستسلم للموت الذي كان يرتسم في كل الأمكنة.

بالمستشفى طغت رائحة الحرائق والأدخنة التي ظلت عالقة بالأنف.

لأول مرة يشم جاز رائحة اللحم البشري. عندما وقف في الشرفة الصغيرة التي تعبر من فجواتها رائحة البحر، بعد أن غسل وجهه، انطمس كل شيء في نيويورك ولم تبق إلا الأصداء التي كانت تملأ رأسه الذي كان يغلي مثل الفيضانات وهدير الحمم التي تسحب وراءها كل الكتل المتراصة والأثقال التي تملأ المدينة. رأى الشمس في لحظة احتضارها ولم يرها كما تعودها. الشمس هي الكائن الوحيد الذي يموت ويحيا بين كل يوم وليلة أو على الأقل يعطي الانطباع بذلك. رآها تنحدر مسرعة نحو البحر الذي غطته البنايات العالية والأدخنة المتصاعدة بكثافة، كأن القرص الملتهب كان يدخل عميقا في البحر مخلفا وراءه شيئا يشبه الأبخرة البيضاء التي سرعان ما تغطي الشوارع القريبة من البحر بكثافتها. كان يسمع لهيب الحرارة الكبيرة وهي تنطفئ في عمق البرودة وكأنها قطعة معدنية بين يدي حداد أدخلت في إناء من الماء.

لقد انطفأت الشمس.

كل ما رآه جاز وسمعه داخل المستشفى كان خرافيا. لم يكن يعرف قبل هذا اليوم أن الفداحة يمكن أن تمس هذه المدينة في عمقها وحميمياتها. نيويورك، هذه الغابة الأسمنتية، التفاحة الضخمة التي لا تؤكل، تبدو غير آبهة بعشاقها الذين كلما نفروا من دلالها زادوا التصاقا بها.

منذ يومين لم يغمض جاز عينيه. مسح وجهه مرة أخرى لكي يقلل من متاعب النوم، قبل أن يناديه أستاذه البروفيسور مارك طوني لكي يساعده في العمليات الجراحية ويضع من جديد القفازات البلاستيكية في يديه وينغمس في العمل متناسيا تعبه ومتاعب الإرهاق وقلة النوم.

عندما صعد الأدراج الخمسة للمستشفى لأول مرة، لم يكن يقدر هول الفاجعة. عبر بهو المستشفى الذي اشتغل فيه بصحبة أستاذه في فترات تخصصه في الجراحة. لقد اختلط فجأة في رأسه صراخ الناس ونحيبهم وحركة المارة الذين منعوا من الاقتراب من مكان الحادث. انهمك في المساعدة على رتق الجراح. قص الأرجل والأيدي. الحفاظ

على الحياة. في لحظة هاربة، شعر بنفسه في مسلخ. تساءل جاز إذا لم يكن قد أخطأ بالفعل باختياره الموسيقى التي تؤذي أكثر مما تفيد.

لم يطلب من المرأة التي جلس عند رأسها ليطمئنها على نتائج العملية الجراحية التي أجريت لها على ساقها، أن تتكلم. لم يسألها. ولكنها أحست بالرغبة في الحديث إليه.

- لا تشغل بالك سيد جاز، أعرف أن ساقي بترت. كنت أشتغل بشكل طبيعي في الطابق الخمسين، عندما رأيت الطائرة الأولى تصطدم بالبناية المقابلة. ظننا أنه حادث طائرة غير مقصود ومع ذلك شرعنا في النزول على الرغم من إصرار بعضنا على البقاء في العمل. ولا أدري ماذا حدث لي سوى أني سمعت صوتا عنيفا وصرخات قريبة من رأسي. ثم شعرت برجلي تغوص في عمق الدرج الحديدي وبتمزق عنيف في ساقي وبرفس الأرجل على جسدي ثم بانتفاء الألم كليا. قيل لي فيما بعد إن الإطفائي الذي أنقذني والطبيب الذي اضطر إلى بتر ساقي لتخليصي من الحديد ماتا حرقا في انهيار البناية. أشعر بعقدة تجاه الحياة. أحمل على ظهري روحين بريئتين زهقتا ظلما. تتمنى في حالات اليأس لو أنك تعرفتَ على هؤلاء الناس وتمكنتَ على الأقل من شكرهم ولكن...

لم تستطع أن تقاوم لحظة انكسارها العميق، فغرقت في نوبة قاسية من البكاء. بدت لها فجأة سنواتها الخمس والعشرون قد حالت وصارت كومة من رماد عبثت به أولى رياح خريف لم يكن رحيما معها.

قالت بصوت ضيقت عليه غصة جافة، وهي تحاول أن تكتم أنفاسها.

- هل تعرف يا سيدي ماذا حصل؟ بعدما عرفت ما حدث لي حزنت، حزنت كثيرا. خمس وعشرون سنة، بدون ساق؟ هل تتصور ما يعنيه ذلك من خسارات في الحياة ومن عقد؟ هل تتصور يا سيدي هول الفجيعة؟ لماذا؟ سؤال كلما طرحته على نفسي أتتني الإجابات بيضاء، تشبه الريح التي لا تحمل شيئا غير صوت خافت يصفر فينا أكثر مما يصفر في الخارج؟ ماذا ربحوا؟ قل لي أرجوك إذا كانت لديك إجابة

واحدة مقنعة؟ إنهم يصنعون مزيدا من الأعداء. قبل أيام فقط كنت في مظاهرة مع عائلتي ضد بناء المستوطنات الإسرائيلية مع أنصار البيس-ناو[٨] ومناهضة الحرب والمكارثية الجديدة. تعرف من كان على رأس مسيرتنا؟ اثنان: يهودي وفلسطيني، أعطيانا درسا كبيرا في التسامح بلا خطابات زائفة ولا كذب ولا جعجعة: نعوم شومسكي وإدوارد سعيد. وذكّرنا الذين لا يعرفون أو نسوا أو تناسوا، أن المأساة في فلسطين لم تنشأ اليوم، ولكن منذ الأربعينات وأن المشكلة، هي في الجوهر مشكلة احتلال. شعب بكامله طرد من أرضه والكثير من الناس ما يزالون أحياء وبإمكانهم أن يشهدوا في صالح حق مسروق. ماذا يكلف البشر أن يعيشوا جنبا إلى جنب بلا قتال ولا حروب؟ اليوم أقول بلا أدنى تردد، هنيئا للقتلة، فقد منحوا المتطرفين فرصة لا تعوض أبدا. دمروا الثقة المتبقية بين الناس، برافو! أحرقوا طائرات مدنية، برافو! أسقطوا بنايتين كبيرتين لا قواعد عسكرية بهما، برافو على الفتح الكبير؟ قتلوا آلاف المدنيين الذين لا جرم لهم سوى أن الصدفة المشؤومة شاءت أن يوجدوا في المكان السيئ، في الوقت الأكثر سوءا، برافو... برافو... شجاعة خارقة! أرعبوا سكان نيويورك والعالم في ديارهم، برافو. ثم ماذا بعد هذه البطولات الخارقة؟ لا شيء سوى أنهم وضعوا كل الانحرافات في مساراتها التي كانت تبحث عنها. أعطوا لمخبر صغير كساموبل هنتجتون كل المبررات لتحريك صليبيته وحروبه المقدسة ضد العرب وضد الشعوب المستضعفة. برافو... برافو..! ولا أجد كلمة أقوى من هذه للتعبير عن احتراقي الداخلي. لم يكن الذين جعلوا من نظرية صِدام الحضارات إنجيلهم ينتظرون إلا ما يؤكد جنونهم، وهاهم قد مُنِحوا الفرصة التي لا تعوض أبدا.

فوجئ جاز بدرجة وعيها وقوة حسها العميق. كان ذهنها صافيا، كأنها لم تفقد شيئا من جسدها على الرغم من مرارة حديثها. لم يسألها

---

(٨) Peace Now

كثيرا ولكنه زم فمه وهو يعطيها دواء مهدئا لكي تنام.

- هل تسمعني يا سيدي؟

- طبعا أسمعك جيدا لكني لا أجد ما أقوله لك وحزين مثلك أو ربما أكثر. حماقات البشر كبيرة وغير محسوبة. إنهم يحضرون الظروف والأسرَّة للقتلة الجدد. يستحسن أن ترتاحي قليلا. ما رأيتِه مفجع وقاس.

أغمضت عينيها بكل وداعة على دمعة لم تستطع مقاومتها.

ثم تدحرج باتجاه المرأة التي عرف أنها كانت تشتغل في معهد التجميل والكوسمتيك والتي لم تجد نفسها بمحيط المركز التجاري إلا بالصدفة، فهي من بروكلين. طلبت من صديقتها التي وجدتها بعد يومين من البحث أن تضع عند سريرها في المستشفى صورتها الأولى المنشورة في مجلة إشهارية وهي تضحك، تغمرها سعادة كبيرة. لم تنم الليل كله مما اضطر جاز إلى إخبار مارك طوني الذي حضر بسرعة قادما من المستشفى الثاني في المدينة. كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحا.

تحدث مارك معها طويلا بينما ظلت تستجديه أن ينهي حياتها:

- أبصم لك بما تبقى من أصابعي المحروقة يا سيدي. هل تتصورني قادرة على العيش بهذه الصورة؟ لا. يد مهروسة وأصابع مقطوعة ووجه محروق أكثر من ثمانين بالمائة وجزء سفلي مشلول.؟ أرجوك يا سيدي. افعل شيئا يريحني ويريح مَنْ حولي. لا يكلفك الشيء الكثير. إبرة فقط.

- المسألة يا سارة لا تتوقف عند هذا الحد. الحياة دائما شيء مقدس. أصطف دائما بجانب الحياة مهما كانت الظروف.

- عن أية حياة تتحدث يا بروفيسور؟

طلب مارك من الممرضات تغيير ضماداتها وتحضير مهدئ أقوى لكي تتمكن من النوم قليلا.

عندما رآها مارك في المرة الأولى لم يسأل عن درجة الخطر الذي كانت تعاني منه وقلة فرص الحياة ولكنه قال لمعاونيه الذين كانوا يحيطون به:

- ما تزال حية وهذا يعني أن لها فرصة لكي تنجو من هذا الكابوس. بأي حق أتدخل فيما منحه لها الله؟ لست وصيا على حياة الناس، أمنحها وأنزعها مثلما أشاء وكأننا في سيرك سخيف. لا. يجب أن نفعل المستحيل لإنقاذها. الحياة رهان دائم... ما عداها لا يساوي الشيء الكثير.

مارك لا يخبئ ميله الديني في مثل هذه المواقف الصعبة. كلما سئل عن الموت الإرادي، الأوتانازيا[٩]، أو الموت المريح في الأوضاع الميئوس منها، شبك يديه ونزع نظارتيه، كعادته كلما بدأ مناقشة ما:

- نحن أطباء ولا نختلف من حيث الشكل عن الجزار الذي يقطع الأرجل والقوائم ويفتح البطون إلا في الرحمة وتقديس الحياة. نفعل ذلك لربح رهان الحياة. لماذا يتسابق البشر نحو الحلول السهلة التي لا علاقة لها بالطب؟ وظيفة الطبيب مثل الجندي، أن يعمل حتى في الحالات الميؤوس منها. تخيلوا للحظة أن الضابط الذي يقود وراءه مئة روح تحت مسؤوليته شعر بأن معركته خاسرة وهرب حفاظا على حياته؟ تخيلوا للحظة النتائج الوخيمة له ولجيشه ولوطنه. لا. ما دام الإنسان حيا، لا يوجد وضع ميئوس منه. هذا قتل. الرب منح الناس أرواحا وعلى هذه الأرواح أن تظل حتى يشاء هو استرجاعها. من أراد أن ينهي حياته فليفعل ذلك بنفسه ولكن خارج حيطان هذا المستشفى. فلو استمعت لمرضاي اليائسين لقتلت المئات وندمت طوال حياتي لأن الكثير منهم، بإرادة استثنائية، استطاعوا أن يخرجوا من وضع يشبه وضع الميت.

- بروفيسور، تساءل جاز، افرض أنها عاشت، فكيف تتعامل مع صورتها الأولى التي تعلقها عند رأسها. هل ستقبل بنفسها كما هي الآن؟

«ارحمني يا بروفيسور، أرجوك... لا أريد أن أعيش هكذا... ارحمني.»

التفت جاز نحو مارك وهو يحاول أن يخبئ تأثره الكبير تجاه أنين

---

(٩) L'euthanasie

المرأة الذي كان يصله مجروحا ومنكسرا وأحيانا يغرق في بحة النشيج المتواصل.

- أنت تعرف جيدا يا جاز، ولو أنك انسحبت نحو دفء آخر هو الموسيقى، أن الطبيب لا يعوض المريض. المريض سيد نفسه في نهاية المطاف. ولكنني أعتقد في حالات مثل هذه على المريض أن يقطع العلاقة مع صورته الأولى. أن يمحوها نهائيا وكأنه بدون ذاكرة أو على الأقل يحاول أن يصنع ذاكرة جديدة ويتعامل مع جسده الجديد لأن هذا الجسد هو الذي سيرافقه بقية عمره وليس الجسد الذي انتفى ومات. لا توجد حلول سحرية إلا ما يفعله البشر بأنفسهم في النهاية. قد يبدو الأمر صعبا ولكنه مثل القدر، علينا أن نواجهه بكثير من النبل والشجاعة.

شعر جاز فجأة بالدوار. لم ينتبه إلى الساعة ولا إلى جوعه لأنه لم يأكل طوال اليوم والليلة الماضية إلى أن نبهته مونيكا الممرضة ذات الملامح الهندية القادمة من سان فرانسيسكو هي وزوجها لزيارة الأهل، والتي التحقت بالمستشفى عندما سمعت النداء:

- سيد جاز؟ أنت لم تأكل طوال اليوم. عليك أن تأكل شيئا لتقاوم هذا العدد الهائل من الجرحى الذين يؤتى بهم من كل مكان. المطعم مفتوح إذا أردت أن تأخذ شيئا خفيفا.

- لا أشعر بالجوع سيدة مونيكا. أشعر أكثر بألم في مكان ما في جسدي، أجد صعوبة في تحديد موضعه.

- نحتاج إلى أن نأكل لكي نتمكن من الوقوف على أرجلنا. وإلا لن نستطيع فعل أي شيء.

- أشعر بنفسي منهارا سيدة مونيكا من بشاعة ما يحدث، بأي حق نمحو إنسانا وكأننا نتعامل مع بعوضة؟ بأي حق ننزع روحه؟ نحرق ملامحه؟ نحطم على رأسه سكنه...

- لو كانت البشرية تملك ذاكرة لما فعلت في نفسها ما فعلته. قد يبدو لك كلامي غير معقول ولكنني أتساءل أحيانا هل كان بإمكان رجل لا يعرف القراءة والكتابة مثل كريستوف كولومبس أن يفعل أكثر مما

فعله؟ هل أغبطه لأنه فتح البشرية على عهد جديد تسارع تطوره حتى وصل مرحلة الاختناق، أم أشتمه لأنه شرع أبواب الإبادة الجماعية. تصور، بيننا وبينه أكثر من أربعة قرون وإلى اليوم أهلي لا يغفرون له إبادة قبائلنا عندما نزل أول مرة على حافات البحر. الحقد مثل الجمرة المتقدة تحت الرماد، الرياح لا تطفئها ولكنها تزيدها اشتعالا.

- وماذا يقول جدي الذي واجه كريستوف كولومبس من نوع آخر وفي عصر آخر؟ أطعمه كذبا على مدار كل الحرب العالمية الأولى وجره نحو حروب كان هو الخاسر الأكبر فيها، خرجت ألمانيا وعادت إلى أرضها، مدت تركيا يدها على كيليكيا وسواحلها وأغلقت حدودها التقليدية. بينما جدي، جردته الاتفاقيات السرية من كل حق في بناء يوتوبيا جميلة قضى شبابه يبحث عنها مع أبناء جيل كان في النهاية طعما للحرائق والمدافع. تخيلي للحظة، عندما رفعت أعلام الانتصار على ألمانيا وتركيا المريضة في أوروبا، ضربوا جدي على يده وقالوا له: انتظر. هذه الأرض ليست لك وابتدعوا لها اسما اختزلوه بسرعة: ويطا OETA[١٠] ومزقوا أرضه بالمسطرة. خطان، أحمر وأزرق، خطان فقط كانا كافيين لإعادة صياغة الجغرافيا والتاريخ ومصير بشر المنطقة. في مارس ١٩١٦، في أتون الحرب العالمية الأولى، عندما كان السكان الأصليون يموتون، كان أصدقاؤهم من الإنجليز والفرنسيين والروس يوقعون اتفاقات تقسيم التركة التركية ويرفعون الأنخاب. أُطلِقت يد روسيا لبسطها على شرق آسيا الصغرى وجنوبها بشكل دموي، واستفادت فرنسا من السواحل السورية من الناقورة إلى الاسكندرونة مع جبل لبنان وكيليكيا، أما بريطانيا، فقد بسطت نفوذها على العراق الجنوبي من بغداد إلى البصرة والسواحل الممتدة من خليج البصرة إلى نهاية البحر الأحمر، ووُضعت فلسطين وأماكنها المقدسة تحت إدارة خاصة وفق اتفاق يعقد فيما بعد بين الدول الثلاث قبل أن تؤول فلسطين

(١٠) Occupied Enemy Territories Area (أراضي العدو المحتلة)

في النهاية إلى بريطانيا؟ قد لا تعني لك كل هذه الأسماء التي ذكرتها الشيء الكثير كما كنت أنا كذلك، ولكنها كانت جغرافيا آهلة ببشر طيبين، متعطشين للحرية والحب. فجأة وجد كريستوف كولومبس الجديد نفسه هو سيد الأرض بينما وضع السكان الأصليون بين كماشتي الموت والمنافي التي لا تنتهي. لا تشغلي بالك سيدة مونيكا، لكل عصر كولومبس وظيفته السمو الحضاري بالرعية المتخلفة بإبادتها وسرقة خيراتها وتعطيل مستقبلها؟ في العالم شيء يسير بشكل مقلوب سيتحول مع الزمن إلى قنبلة موقوتة أو إلى عدمية تدميرية سيصعب على الجميع تسييرها، حتى الذين يستفيدون اليوم من جنونها.

- تتحدث وكأنك مؤرخ ومحلل سياسي.

- لست مؤرخا سيدة مونيكا، إني موسيقي مجتهد. جدي، عبر كل حروب القرن وما يزال واقفا على قدميه. رهاني الكبير أن أعيد كل هذا التاريخ المنسي إلى الواجهة بواسطة الموسيقى ولكن. . . تلك قصة طويلة. . .

- أنت مرهق جدا. . . ما رأيك في كأس شاي ساخنة؟

- فكرة جيدة. أشكرك.

تناول جاز كأس الشاي بالليمون الذي قدمته له مونيكا. احتسى منه قليلا، شعر بقوة الحرارة تخترق أمعاءه وبلذة خاصة. فجأة سرى الدفء في كامل جسده.

- أنت متعب. لم تنم منذ البارحة. من الأفضل أن ترتاح قليلا وإذا حدث أي شيء سأوقظك.

تمدد بظهره على الكرسي الطويل المخصص لاستراحة الجراحين وعمال المستشفى وغفا قليلا قبل أن يستيقظ على عويل أحد الجرحى.

طلب منه مارك أن يلتحق به في غرفة العناية المشددة:

- جاز، بسرعة. لقد نزع المريض كل الأجهزة التي كانت تشده إلى الحياة.

مسح جاز على وجهه بضمادة قدمتها له مونيكا ثم سار في أثر مارك وهو لا يعرف إذا كان الزمن قد توقف أو كان يسير وفق منطقه. كان عليه أن يواجه كل الطوارئ.

وفي آخر الليل طلبه مركز الاستعلامات في المستشفى. كانت ميترا وراء الهاتف. منذ أن التحقت بأحد المستشفيات، على أطراف المدينة كممرضة متطوعة تسهر على المرضى وتساعدهم، لم يسمع صوتها. لقد نسيها تماما تحت عويل سيارات الإسعاف التي لم تتوقف في نقل المرضى والجرحى الذين كانوا يوجهون نحو عيادات متخصصة.

- كيف حالك... ميترا؟

- أنا بخير جاز اهتم بنفسك وارتح قليلا، أعرفك جيدا وأعرف قلبك الهش.

- أنا بخير. أبذل مجهودا كبيرا لكي أظل واقفا. البروفيسور مارك يقوم بكل شيء. رجل من طراز عال من البشر. قلب طفل ونباهة شاب وصبر رجل حكيم.

- هكذا الناس الكبار. حركاتهم كبيرة كذلك.

- أنت كذلك ارتاحي قليلا وحافظي على نفسك.

- الأمور أفضل قليلا هنا. لقد هدأ كل شيء وانتهت حالة الرعب والفوضى الأولى التي أشعرتني بالفعل بالنهاية. بيننا وبين القيامة حالة صغيرة، إذا اختلت، تغير كل شيء وعدنا إلى بدائيتنا الأولى وإلى ردود أفعالنا التي تحضر فيها الغريزة وينسحب منها العقل تماما.

- اهتمي بصحتك وانسي ما وقع بيننا من خلافات تافهة، لم نكن في يومنا، ربما لأننا ما زلنا نملك حواس حيوانات تترصد كل الأصوات التي لا يسمعها بقية البشر.

- مجنون. هل تتصورني أنزعج من ملاحظات حقيقية وحساسة تأتي منك؟ لن أنسى يديك وأنت تحتضنني من الخلف كعادتك وتوشوش في أذني: أحبك.

- شكرا...

- OK، حبيبي. . . أعرف أنك مشغول بعملك. أردت فقط أن أطمئن عليك. باي يا روحي. . . باي. . .

لقد هدأ كل شيء في المستشفى على الرغم من أن نحيب سيارات الإسعاف لم يتوقف طوال الليل أبدا. يصم الآذان ليستقر في النهاية في عمق الرأس، قبل أن ينسحب في آخر الليل عميقا، مبتعدا عن المكان شيئا فشيئا مخلفا وراءه صمتا عابرا سرعان ما تملأه سيارات إسعاف أخرى تأتي من جهة مقابلة، متوجهة نحو مستشفى آخر على أطراف مانهاتن أو متسرسبة عميقا في معابر وطرقات بروكلين أو كوينز أو تصعد البرونكس، سالكة الممرات الضيقة التي تقود إلى مستشفيات الضواحي الكبيرة.

-٣-

غربت الشمس مبكرا على نيويورك.

ضغط جاز على زر الراديو، تسللت موسيقى دافئة مخترقة صمت المدينة الذي ملأ فجأة رأسه. كانت السيارة تتزحلق على الماء في سلاسة ناعمة وتغرق شيئا فشيئا في كومة الأنوار المشتعلة والأضواء الملونة بمئات الألوان في شارع برودوي(١١) الذي يتسرسب كحزام من الأنوار من أعالي مانهاتن الغربية متوازيا مع شارع أمستردام وعلى امتداد سنترال بارك(١٢) وينحدر باتجاه وسط المدينة مخترقا جارمنت ديستريكت(١٣) محاذيا للماديسون سكوير بارك(١٤) قبل أن يغوص نهائيا بالمركز التجاري وينتفي تماما على حواف جنوب بحيرة هودسون(١٥) في الجهة الغربية لمانهاتن.

---

(١١) Broadway

(١٢) Central Park

(١٣) Garment District

(١٤) Madison Square Park

(١٥) Hudson River

لم يكن جاز راضيا عن نفسه لما صدر منه تجاه ميترا التي أصرت على عودته لعمله.

«- اسمع هذه حالة تعام. ليس لأن غبيا في مدينة ضخمة قال كلاما عنصريا لأحكم على كل سكان المدينة بأنهم عنصريون وتافهون. هذا عمى لا يختلف كثيرا عن عمى الآخرين.

- حكم سهل لأنك لم تتعرضي لكل الشتائم التي تقصدك شخصيا.

- أنت تهذي. أين تضع إذن حياة فيليب غلاس الذي عرض نفسه للخطر من أجلك؟

- لن أعود إلى أوبرا بروكلين. أعتقد أن مهنة الطب أنسب لي. على الأقل لا أحد هناك يسأل عن جلدك وعن أصلك.

- افعل ما تشاء. المهم جئت فقط لأبلغك بأن فيليب يريدك بعد الدوام.»

ثم خرجت ولم يطلب منها البقاء.

شعر بالألم يتوغل عميقا في قلبه. كان يريد أن يسألها لماذا أصرت طوال الأمسية على أن يستجيب لدعوة فيليب غلاس مع أنه أبلغ الجميع أنه لم يعد له مكان في أكاديمية بروكلين للموسيقى. كان يتمنى أن يعتذر منها ولكنها عندما خرجت لم تلتفت وراءها. لم يسمع إلا حركة باب المصعد وهي تفتح وتنغلق في آلية جافة كالمقصلة. فجأة شعر بأنه لا يساوي الشيء الكثير في مدينة كان يظنها تحزن عليه على الأقل عندما يموت. يشعر بنفسه كأنه قطعة رخامية بدون شكل، ألقي بها من أعالي أومبير ستيت بولدينغ(١٦)، فعبرت بعنف المائة واثنين طابقا والألف وثمانمائة وستين درجا، قبل أن تصل إلى الأرض وتتفجر إلى آلاف القطع الدقيقة التي تناثرت حتى مست الشوارع الخلفية للمدينة.

أمطار الخريف الأولى تأتي دائما فجائية وهادئة. كانت تمسح وجه المدينة بنعومة. تتزحلق على زجاج السيارة الأمامي مثل حبيبات اللؤلؤ.

---

(١٦) Empire State Building

تتجمع في الأعلى ثم سرعان ما تنكسر محدثة خطوطا متعرجة لا تحصى تنعكس عليها كل ألوان شارع برودوي المتداخلة. ثم تتجمع من جديد في حركة دائمة لتنزلق مرة أخرى داخل تعرجات جديدة.

كانت السيارة تبحث عن مخارجها وسط شبكة من الشوارع والطرقات التي لا تنتهي مثل نسيج صوفي مخترق بآلاف الألوان. أخذته مرة أخرى إغفاءة الموسيقى والدفء والغوغاء ووجه فيليب الطيب. حك رأسه. لم يعد يفهم ما يحدث في هذا البلد. حالة جنون وهستيريا استقرت في أدمغة الناس. هنا «أحرق مسلم حيا هو وأبناؤه.»، هناك «ضُرب رجل حتى الموت ظن المعتدون عليه أنه عربي، وعندما عرفوا أنه هندي سيخي سحبوه إلى أقرب مستشفى وتركوه هناك ينزف عند الباب.»، «أحرق مسجد كان الناس يصلون فيه صلاة العشاء...» لو قيل لجاز قبل هذا الزمن، هذه هي أمريكا وهذه هي نيويورك التي ولدت فيها من أم عربية وأب من أصل إيطالي، لما صدق ولشجب مثل هذا الكلام المغرض والعدواني. ليست هذه أمريكا التي منحت لأمه طفولة هادئة وفرصة لكي تملأ المعارض والمتاحف الفنية حياة جديدة بلوحاتها وأعمالها الفنية. ليست هذه أمريكا التي سحبت جده من موت أكيد كانت تحضره له جماعات الهاغانا على حواف القدس ومنحت له وطنا مؤقتا. هذه أمريكا أخرى ظل ربما يتغاضى عنها. كلما حاول أن ينسى، طنَ في أذنيه الحجر الذي كسر زجاج الباب الخارجي واخترق وقار **الهيرفي ثياتر**(١٧) وصمته حيث كانت تتدرب فرقته. الضربة لم تخترق زجاج المبنى فقط ولكنها هزت يقينه في الأشياء التي تسكنه ومزقت ذاكرته. جاءت متبوعة بأصوات الغوغاء «**اخرج أيها الإرهابي، اخرج أيها العربي النتن من مدينتنا. بروكلين ليست للقتلة**». ما بدا له مجرد فعل طائش، تأكد له فيما بعد أنه كان عملا منظما ومرتبا. منذ أكثر من أسبوع وهو يفكر في الموضوع ولولا إصرار ميترا عليه للتريث لاتصل بأستاذه مارك

---

(١٧) Harvey Theater (ex: Majestic)

طوني ولعاد إلى المستشفى ليندفن فيه بقية عمره. الناس هناك متساوون أمام الموت والضعف أمام بكاء المرض والخيبة. عندما خرج عند مدخل الهيرفي ثياتر ليتأكد مما حدث، كاد أن يقتل. لم يصدق ما كان يراه. فوجئ بأحد أصدقائه الموسيقيين وهو يقود المظاهرة ويدفع أمامه امرأة وجهها محروق ورجلها مبتورة وهي تصرخ بأعلى صوتها: **أعد لي أيها الإرهابي القاتل رجلي ولحمي الذي أحرقته. لا نريد بيننا العرب والمسلمين الذين تسللوا إلى بروكلين. هذه الأرض ليست لهم. ليخرجوا... ليخرجوا...** كان فيليب غلاس قد وصل إلى المكان قبل الشرطة. صعد فوق سيارته وقال بأعلى صوته بثقة كبيرة:

«- أريد أن أعرف ماذا تريدون؟ ما حدث كان مفجعا، ولا أحد هنا له مسؤولية في هذه الجريمة. يجب أن نتضامن جميعا ونتكاتف، لنجعل من نيويورك مدينة العدالة والحب والتعددية لا مدينة للظلم والتعدي على حريات الغير والانعزال والضغينة. لا تخطئوا في أعدائكم. أعداؤكم وأعداؤنا ليسوا في هذا المكان...

- سلموا لنا الجواسيس العرب والمسلمين الذين يتخفون من وراء جدران هذا المسرح...

رد أحد الذين كانوا على رأس المجموعة. لم تكن في فمه أي سن. ينضح برائحة البيرة الرديئة.

- هذه المدينة التي تآلف فيها أكثر من تسعين جنسية وتجمعاً، ترفض العنصرية وترفض مثل هذا الكلام الذي لا معنى له. لا يوجد جواسيس في هذا المسرح. يوجد أمريكيون مثلكم ومثلي. عليكم أن تحترموهم لأن ما قدموه في المستشفيات من مساعدات وسهر على المرضى والجرحى، لم يقدمه الكثير منكم. عليكم في هذه الحالة أن تمروا على جسدي قبل الدخول إلى هذا المكان. الأفضل أن تعودوا إلى بيوتكم وتتركوا الشرطة تقوم بعملها وتحرياتها.

- أنت معنا أم معهم؟ إنك تحمي القتلة. أيها الخائن لوطنه

ودينه. . . نعرف جيدا ماذا فعل والدك الذي انتحر لإخفاء العار الذي لحق به. يستأهل كل ما حدث له. سنكشف أوراقه في الوقت المناسب. ولولا رادع المكارثية لبعتم كل شيء لأعداء الأمة. سيأتي وقتك ونحرق على رأسك هذا العش الذي تخبئ فيه قتلة مواطنينا.

اشتهى في لحظة من اللحظات أن يصرخ بأعلى صوته وبكل ما أوتي من قوة: جـ. . . هـ. . . لـة. . . أنتم لا تعرفون شيئا مما يحيط بكم ولا الزبالة التي أنتم فيها، ولكنه خبّأ امتعاضه بسخريته المعهودة وبابتسامة ارتبكت بين شفتيه.

- شكرا. شكرا جزيلا على هذه العواطف النبيلة. قال فيليب غلاس وهو يحاول أن يكتم غضبه الذي كان يشتعل في داخله ويسيطر على نفسه. أنا أحمي مكانا أنا مسؤول عنه، كان دائما فضاء للحب والحرية. مرة أخرى أرجوكم لا تزيدوا من جراحات إخوانكم وأحزانهم. كلنا جرحى بما أصاب مدينتنا ولا يمكننا أن نكون طعما سائغا لمن يريدون جرنا نحو الاقتتال.»

ما حدث أمام عينيه لم يفهمه جاز جيدا. حتى فيليب غلاس لم يفهم سر هذا الوحش الذي استيقظ فجأة وخرج من قمقمه في وقت كان يفترض أن يركن فيه الناس إلى تأمل أعماقهم وحواسهم المرهفة التي صنعت من مزق متعددة:

«هل يوجد في هذه البلاد رجل أمريكي جاء من عدم أو من لاشيء؟ كلهم جاءوا من آفاق متعددة، من الشرق، من إيطاليا، إسبانيا، أيرلندا، هولندا وكولومبيا وبورتوريكو والإكوادور ليشكلوا اليوم غالبية سود البرونكس(١٨) وهارلم(١٩)، وهايتيي بروكلين، وروس ليتل أوديسة ويونانيي كوينز ويهود أوروبا الوسطى وبلدان أخرى؟ كيف يمكن فهم هذه الحالة من الجنون والقسوة المجانية؟»

---

(١٨) Bronx

(١٩) Harlem

قبل أن ينهي فيليب كلمات التهدئة، اصطدم حجر بواجهة سيارته فكسر زجاجها الأمامي عن آخره. وكاد وجهه أن يتلقى الحجر الثاني لولا أن حنى رأسه في اللحظة التي مرَ فوق شعره. لولا تدخل الشرطة في الوقت المناسب لانتهت الشتائم إلى حرب حقيقية. بأمر من ضابط الشرطة، أدخلت الفرقة الموسيقية والمدير إلى عمق المسرح وسدت كل الأبواب والمنافذ وطوق المسرح عن آخره لحمايته وتم تفريق المتظاهرين.

عندما انعطفت السيارة شمالا تاركة مانهاتن وجسر بروكلين، عبرت الطريق الكبير المفضي إلى شارع أدامز[٢٠] على مرتفعات بروكلين الموازي لشارع واشنطن قبل أن تتجاوز مقاطع نهج تلاّري[٢١] وجونسون[٢٢] لتتوغل بعدها يسارا في شارع فولطون[٢٣] قبل أن تستقر في شارع لا فاييت وتتوقف عند الرقم: ٣٠. خف هدير المحرك ثم انطفأ نهائيا. رفع جاز رأسه في حركة صارت جزءا منه وتأمل قليلا المكان الذي كان يقف في ظله: **بروكلين أكاديمي أوف ميوزيك**[٢٤]

هذا الطريق حفظه جاز عن ظهر قلب منذ أن كان صغيرا وهو يعبره يوميا برفقة أمه قبل أن يستمر فيه وحده. لا شيء إلا هذه العمارة الضخمة التي بنيت في ١٨٥٩ وهي أقدم معلم في مرتفعات بروكلين قبل أن تهدم وتنقل أكاديمية الموسيقى إلى فور غرين (البرج الأخضر). الحائط الآجريَ لواجهتها الجميلة يخبئ وراءه أوبرا أنيقة بأكثر من ألف ومائة مقعد. تعتبر أقرب مكان إلى النزعات الفنية التجديدية المتفتحة. أجمل شيء فيها هو النظام الأكوستيكي المتطور جدا. تقدم الأكاديمية إمكانات عالية للعمل. في امتداد شارع الفولطون، في ٦٥١، **هيرفي**

---

(٢٠) Adams St

(٢١) Tillary St

(٢٢) Johnson

(٢٣) Fulton St

(٢٤) Brooklyn Academy of Music أكاديمية بروكلين للموسيقى.

ثياتر[٢٥]، الماجستيك سابقا الذي يتسع لتسعمائة متفرج، ويستقبل الفرقة الفيلارمونية لبروكلين التي توقفت أنفاسها البارحة بسبب المظاهرات المتطرفة التي نادت برمي العرب والمسلمين في البحر.

كان فيليب غلاس في الانتِظار. في موعده الدقيق.

كان هو من بادر بالكلام لأن جاز لم يجد ما يقوله، بعد التحية ما عدا بعض الكلمات المتقطعة.

- طلبتك بعد العمل لكيلا تكون تحت ضغط أي شيء وأنا كذلك، لأقول لك بضرورة ترك الماجستيك أو الهيرفي ثياتر إذا شئت، مازلت مرتبطا بالقديم وأحن إليه. والتدرب هنا في الأوبرا. كل أعضاء فرقتك صاروا هنا. يأتون، وكل يوم يعودون بعد تدريبات شكلية حتى لا يصيبهم الصدأ بسبب غيابك المستمر. أنت تعرف أن الموسيقي مثل النحاس، عندما لا يشغل يخضر ويصدأ ويفقد ألقه وبريقه.

فهم جاز المعنى الذي قصده فيليب غلاس.

- بروفيسور فيليب، أشعر بخيبة كبيرة. لقد انسحب ثلاثة أعضاء من الفرقة؟ أحدهم كان على رأس المظاهرة؟ هل تعرف ماذا يعني هذا؟ يعني بكل بساطة بأن هؤلاء البشر لا يريدونك. الأمر لا يتعلق فقط بالكراهية ولكن بوهم تُربى طوال عمرك عليه ثم تكتشف فجأة أنك كنت أولا ضحية نفسك وتربيتك قبل أن تكون ضحية موقف من الآخرين. أشعر بمرارة وقلق كبيرين.

لم تغادره عينا فليب غلاس الزرقاوان اللتان كانتا تشعان حيوية ونشاطا.

- فهمتك وسبق أن قلت لي ذلك في التليفون ولم أقتنع أبدا به ولن أقتنع بالكلام العام الذي يقوله أي شخص، بلا ثقافة ولاوعي. إذا لم يكن لديك شيء آخر أسألك سؤالا بسيطا، كم عدد أعضاء الفرقة الفيلارمونية التي تشتغل معك؟

(٢٥) Harvey Theater ex. Majestic

- أكثر من مائة؟

- ماذا تفعل بأكثر من تسعين شخصا من الذين صمموا على البقاء معك والعمل باستماتة؟ أريد أن أعرف رأيك؟ ماذا يمثل المنسحبون أمام من صمم على البقاء والوقوف بجانب الحق؟ الناس تحركهم الأوهام والمغالطات والهويات الزائفة، البعض الآخر غارق في الجهل وآخرون في الخوف من كل شيء مختلف. أمك ورثتك أشياء راقية ولكنك بدأت تنساها على ما يبدو. دخلتْ إلى هذه الأرض وهي طفلة مرعوبة من الموت والحروب بعد أن خسرت طفولتها وأهلها وأرضها، وهل تعرف ما معنى أن يخسر إنسان طفولته وأرضه وأهله؟ وفرضت نفسها في أرقى الأوساط الفنية. هذه المدينة تدين لها بالكثير. أتظن أن كل شيء جاءها على طبق من ذهب؟ كان عليها أن تثبت للجميع قوتها وجدوى عملها. جدك الذي تريد أن تكرِّمه قبل فوات الأوان وتحفظ ذكراه لقد خسر أرضه ولكنه لم يخسر حلمه في الحياة في هذا البلد. جد والدي الذي ظل يحمل رائحة إشبيليا حتى آخر عمره وهو لم يرها إلا مرة واحدة في حياته، لم ينج من آلة العنصرية ومعاداة السامية، فقد ظل مارانوسا منكسرا حتى آخر عمره ولكنه لم يسلم في حقه في الحياة لعصابة من القتلة والجهلة الذين جعلوا من الأحقاد مقياسهم الحياتي. يجب ألا نستسلم يا جاز عندما يكون الحق في صفنا. المكارثية العفنة لم تستثن والدي العالم الطيب، وحاربته في عمله وقوته وألصقت به كل التهم السخيفة كالجاسوسية والتعاطي الجنسي غير القانوني والعمل لدوائر أجنبية تصور؟ والدي الذي قضى كل عمره يربينا على حب هذه الأرض، يجد نفسه في آخر السلم وأسوئه.

- بروفيسور، الزمن يتبدل بسرعة فائقة. لم نعد في الأربعينيات والخمسينيات. لا علاقة لوضعنا بالمكارثية أبدا. شيء خطير وغير مرئي لم أكن أعرفه من قبل في هذه المدينة. كنت أظن أن عقلية الناس أكثر رقيا وتفهما. وأن زمن محاكم التفتيش المقدس قد ولّى وانتهى، ولكن! الظاهر...

فهم فيليب غراس جيدا تردده وارتباكه.

- اسمح أن أقول لك، على الرغم من شعلة الذكاء التي في عينيك، أنت ساذج يا جاز... الديكورات العامة تتغير. وتتغير باستمرار لمزيد من الإيهام، لكن البشر الذين يسيِّرون السوء هم هم، لا يتغيرون أبدا، وإن تغيرت أدوارهم بحسب الحاجة. سادة في كل زمان ومكان. هُمْ من يخطط المصائر الخفية للكثير من البشر وهم من يعدل الساعات بحسب الوقت المطلوب، لا أقصد الزمن البشري المتداول ولكن الزمن الذي يشكل ميقاتهم الذي يريدونه؟ لقد ظلموا أناسا كثيرا ودفعوا بهم إلى المنافي أو كره أرضهم، وكانوا وراء العديد من جرائم القتل. المكارثية ليست لفظة سهلة نتقاذف بها متى نشاء. مثلها مثل محاكم التفتيش المقدس، كان الناس عندما يسمعونها يرتعدون ويجمدون في أمكنتهم، يبولون في سراويلهم ويفقدون كل شرط إنساني. حدث هذا في أمريكا، أكبر ديمقراطية في العالم، وليس في مكان آخر بعيد عن هذه الأرض الأمريكي يُعلَّم كل علوم الدنيا البراغماتية إلا التاريخ البشري الذي يفتح أعين الناس على الحقائق المخفية. من يتحدث اليوم عن المكارثية في بلادنا؟ الشرُّ ما يزال على الأبواب. هل تعرف أن والدي أُخذ من بيته في البيجاما وانتزع من فراشه وعزَ نومه وهو لا يدري لماذا؟ ماتت أمي بعده بيومين من هول الفاجعة الليلية وهو لا يدري لماذا؟ عندما سأل عن السبب، قالوا له تذكر ماذا فعلت ببلادك ومواطنيك؟ قال: منحهم العلم وسهلت عليهم الاستفادة من الرياضيات التطبيقية، ضُرب على فمه، فصمت نهائيا. سجن وهو لا يعرف أيضا لماذا؟ وخضع لاستجوابات طاحنة وقاسية وهو لا يعرف بماذا يجيب؟ فاجأه مكتب HUAC[٢٦] باسمه في القائمة السوداء. اتُّهِم في جلسة علنية بالمثلية[٢٧] مع زميله العالم الكبير تورينغ[٢٨] وبالتعامل مع المخابرات السوفيتية. صرخ مثل

(٢٦) House of un-américan activities committee

(٢٧) Homosexualité

(٢٨) Turing

الذئب حتى إنفجر أنفه دما، ولم يسمعه أحد. ندب وجهه ولم يلتفتوا نحوه. تضاحكوا عاليا من يأسه. صرخ بأعلى صوته في حالة بين الجنون والهستيريا: أمقتك يا ترومان... لماذا سرقتَ انتصارات روزفلت؟ ليست هذه هي أمريكا التي حلمت بها؟ اعتبروه مجنونا. عذب طويلا هو وصديقه لينزعوا كل الأسرار الخفية من أدمغتهم وألسنتهم، قبل أن يتخذوا قرارا إجراميا بشأنهما: فقد تم حقنهما بكابح كيمياوي مضاد للهياج الجنسي، بالمعنى البسيط، لقد سرقت رجولتهما نهائيا. تخيل عملية القتل الشنيعة؟ ماذا اخترعنا في هذه البلاد وماذا صدرنا سريا؟

- وتورينغ. أعرف جيدا هذا الاسم في علم الرياضيات. عالم كبير.

تساءل جاز وقد نسي بداية احتجاجاته.

- وهل شفع له ذلك أمام القتلة؟ تورينغ لم يتحمل قسوة الحكم، فانتحر بقضم التفاحة المسمومة ومات، بينما أرجع والدي إلى البيت ليلا، مقهورا ومقتولا داخليا وهو لا يعلم بالضبط لماذا فعلوا به ذلك كله لم يكن يملك شيئا سوى أنه كان عالما وباحثا متميزا في علوم الرياضيات التطبيقية مع صديقه وصاحب المخبر تورينغ. وتجمع كل الدراسات العلمية أنهما كانا الأساس الأول لما سُمِّي فيما بعد بالمعلوماتية والكمبيوتر. ظل والدي صامتا وعندما كانت طائرات هاري س. ترومان تقصف كوريا الشمالية، وتفرغ، على قراها ومدنها وناسها، حمولة ٤٥٠,٠٠٠ طن من القنابل على مدار ٣٧ شهرا، بمعدل ١٢٢٧٠ طنا شهريا، كان والدي، في الزمن نفسه، يتدلى على شجرة استوائية عملاقة في حديقة البيت بعد أن كتب على صدره بالحرف البارز: **أرضي ولكنها ليست بلادي**. والدي لم يكن خائنا لوطنه، كان مثلك ومثلي، يحب فكرة العدالة والخير ويرى في الآلة الرأسمالية آلة طاحنة إذا لم تصحب بإصغاء للفقراء. أنت لست ابن لادن ولا واحدا من أعوانه ووالدي لم يكن جاسوسا لموسكو؟ ولست أنت من حطم البرجين التوأمين وليس والدي من هدد استقرار أمريكا وأدخل العالم في الحرب الباردة. على

العكس من ذلك، لقد فعلتَ ما لم يفعله الكثيرون غيرك، فلماذا إذن كل هذه السلبية التي ستقتلك إذا لم تنتبه لوضعك؟

- بروفيسور فيليب أنا لا أعرف هذا المجتمع الأمريكي الحاقد ولم أتربَّ في هذه الثقافة. أنا لم أعرف بلدا آخر غير هذا. هذه تربتي وهذه أرضي التي منحتني الحياة، فلماذا يحدث ما يحدث؟ هل هناك حلقة مفقودة لا أعرفها؟

- لا شيء يا صديقي سوى الغباء ومحدودية الثقافة. من حسن حظ العالم أن الغباء لا يقتل وإلا لانتهى الكثيرون. الهوية غابة يا جاز. غابة لا حدود لمسالكها المعقدة. احذر من أن يزجوا بك نحو أدغالها. أنت تعرف ماذا فعلت هذه العقلية بالبشرية وأين أوصلتها. الهوية نفق مظلم عندما تفقد العقل الذي يوجهها.

- جرجروني نحو مساحة لم أكن أعرفها، نحو هذا النفق الذي تتحدث عنه. تعلمت من والدتي قبل أن تموت بغبنها، أن أرضي هي ذاكرتي والمساحة التي تمنحني الحياة وقلبها. وأنا لا أعرف بلدا آخر غير هذه الأرض. اليوم أحاسب على رائحة ما في جلدي وعلى بقايا علامات لا أدري بالضبط إذا ما كانت عربية أم خليط أقوام عبروا هذا الجسد. من يستطيع اليوم أن يعرف بالضبط الجينات التي تكونه وموروثات أهله؟ أحس كأننا بدأنا ندخل زمنا مجنونا وبلا قلب ولا ذاكرة.

- الهوية أكثر من غابة، مرض قاتل. لا تهتم. عودتك للطب كانت إنسانية. تشرفك. لكنها مجرد صدفة عابرة. في الموسيقى مآلك الذي اخترته عن حب. ستكون طبيبا إنسانيا لا أكثر ولكنك لن تكون جراحا استثنائيا، ما ينقصك هو الاقتناع الداخلي، لكن ستكون موسيقيا عظيما إذا شئت. فرصتك في تسيير هذا الفضاء العظيم تتوقف على شجاعتك. سأقف بجانبك إذا وقفت مع نفسك. عليك أن تنجز مشروعك، هذا هو خيارك الوحيد. فلا تكن أبله. قلت هذا لميترا البارحة، وأقوله لك في وجهك. يحزنني ألا تأخذ موضوعك بجدية. لا أفرض عليك شيئا لكن الوضع الذي أنت فيه يحسدك عليه الآلاف. فلا تكن غبيا وتدعه يفلت

من بين يديك وتقدم بذلك خدمة جليلة لمن يريد وضعك في الزاوية الضيقة. أتظن أني عندما اقترحتك لإدارة الأوبرا لم أعرفك. لقد مر على هذا المكتب العشرات من الذين أخبروني عن كل الخزعبلات التي لم آخذها بجدية واحتقرت أصحابها. كنت دائما أقول لنفسي: لا أحد يعرف هذا الشاب الذي تربى في الكونسرفتوار منذ أن وضعته أمه في هذا المكان وهي تلح على الاهتمام به، مثلما أعرفه. فكل ما أسمعه هو كلام لا يزيدني إلا يقينا بأن البشر تحركهم أهواء أخرى غير التي يجهرون بها. أنا لا مقياس لدي إلا ما تتركه فيّ الموسيقى من صفاء إنساني وقوة في الأداء. البقية أتركها للذين لديهم وقت كاف للكلام الفارغ. اتخذ قرارك بحرية كاملة لأتخذ قراري تجاهك. ساعدني...

كان رأس جاز مليئا بالأسئلة التي لم يكن يملك لها إجابات ولا وقت لطرحها. فقد أحدث رد فعل فليب غلاس في نفسه فراغا كبيرا يشبه الضباب أو الهوة العميقة.

عندما خرجا إلى بهو المسرح المؤدي إلى الشارع، كانت ميترا جالسة هي وجون بوفّا، عازف الكونترباس، ينتظران خروج جاز.

- ميترا.

ناداها فيليب غلاس.

- نعم بروفيسور فيليب.

- ميترا حبيبتي؟ كنت أظنك أشطر بكثير مما لاحظته. أضع هذا المجنون بين يديك، اغسلي مخه جيدا فهو لا يرى إلا السواد. نبهيه أنك مازلت بجانبه وأن هذا البروفيسور العجوز باع كل شيء مقابل أن ينجز هو مشروعه وأن حبك له أكبر من كل الحماقات التي تملأ معظم مدن العالم.

- هذا المجنون يا سيدي يعرف رأيي فيه جيدا. على كل لا وقت لديه للتفكير، الفرقة كلها جاهزة تحت وهي تنتظره لبدء العمل. أول عقوبة له هي ألا يخرج مطلقا طوال اليوم وسنرى فيما بعد ما يمكن فعله معه إذا تحسن قليلا. أرى في عينيه الكثير من الليونة. يبدو أنه فهم قليلا

ما ينتظره. لا تهتم بروفيسور سأعرف كيف أرده إلى الطريق المستقيم وإلا فلا يساوي سحر أجدادي الفرس شيئا.

- وماذا نفعل بالغائبين؟

رد جاز وهو يحاول أن يكتم ابتسامته من كلام ميترا التي اشتاق إلى مزاحها.

- اثنان عوضا مؤقتا. الثالث... سنرى...

- مسألة إدارية، سنحلها في وقتها، قال فيليب. أنت تعرف جيدا مشكلة هذه المدينة هذه الأيام. نحن في حالة غليان، لكن الأمور ستعود إلى وضعها الطبيعي، أنا متأكد من ذلك. ليست المرة الأولى التي يحدث فيها شيء خطير كهذا، لا تشغل بالك. المهم أن تواصل ما بدأته، والأهم من ذلك، أن تنهيه. العمل الذي ينتظرك كبير جدا إذ عليك أن تسيطر على تفاصيل ما لا يقل عن قرن من الأحداث والوقائع الكبيرة. مشروعك ضخم وأرأف عليك من كثرة التفاصيل وتناقضها. لكن ثقتي فيك كبيرة يا جاز وأعرف جيدا أن ما تقوم به، مصدره قلبك وعقلك.

- انظر يا بروفيسور... انظر...

سحب عازف الكونترباس جون بوفاً، مدير الأوبرا في إثره ومعه جاز وميترا.

- انظروا من هذا البلكون. كأن المكان أنجز على مقاس الفرقة.

كانت الفرقة تبدو من فوق كأنها ألعاب مسطرة بانتظام كبير. الخطوط في استقامة استثنائية والأيدي تتحرك بهدوء في انتظار أوامر المايسترو.

- ولكني اليوم لست مهيأ بالشكل الكافي...

- من سيحاسبك يا مايسترو؟ قالت ميترا. سعداء أولا أن فيليب استطاع أن يقنعك حيث فشلت أنا. مجرد بروفا بعد كل هذا التوقف بسبب الأحداث الأليمة. لو توقفت هذا يعني أن أعداء الحق انتصروا على الخير والحب. سترى بأن المقدمة أو البريلود الافتتاحي الذي كنت خائفة منه أعددته بشكل جيد. لم يعد هناك ما يوقفني الآن ولا حتى

إنت. حرك يدك فقط وسترى كل شيء يسير من تلقاء نفسه. لقد أعدت مع الفرقة كثيرا في غيابك على أمل أن نراك. كنت على يقين من أنك ستعود. في لحظة من اللحظات أحسست أني خسرتك إلى الأبد لكن الحمد لله. ليذهب القتلة إلى الجحيم. الحياة ستستمر في هذه المدينة.

مد جاز يده إلى خصرها. قبلها تحت حلمة الأذن، عند مهوى القرط تماما، ثم انحدرا مع الأدراج المؤدية إلى قاعة التدريبات الواسعة التي وضعها فيليب غلاس تحت تصرف الفرقة بعد التعدي على أعضائها.

تمتمت ميترا وهي لا تستطيع كتم سعادتها.

- أمام خشونة رأسك، ظننت أن كل شيء قد تبخر. يبدو لي أحيانا أنك لا تشبه مايا. أمك كانت رقيقة وتنصت إلى كل شيء. ربما فيك شيء من جدك، أحس بذلك، كلما انزعجتَ من شيء، تصرفتَ كطفل.

لم يُسمع إلا صوته من عمق صالة التدريبات وهو يخترق هدوء المكان.

- الإضاءة يا فرديريكو، الأضواء من فضلك. الفرقة جاهزة. سنبدأ الآن...

- حالا يا يا مايسترو... حالا...

فجأة، اشتعلت الأضواء بخفوت ظاهر في بعض الزوايا وتوزعت على رؤوس الفرقة كشلالات من الأشعة المتداخلة في سمكها وألوانها واتجاهاتها. بينما تحولت في بعض الزوايا إلى خطوط مستقيمة حادة موجهة إلى بعض المقابض الحديدية لتظهر في شكل دوائر ناصعة البياض، نوتات المقطوعة أمام أعين العازفين. كانت الألوان الهاربة التي لا تستقر على شكل، تعطي إحساسا غريبا بصغر الأشياء وبعظمتها.

عندما عدل جاز من هندامه الأسود قليلا ورفع يده اليمنى عاليا، لمعت القصبة الفضية التي يدير بها الفرقة تحت الأضواء التي تقاطعت من أعالي البناية التي تفضي إلى اتساع الفراغ اللامحدود. مدها قليلا إلى الأمام باتجاه ميترا التي كانت واقفة مثل التمثال باستقامة تنتظر أوامره.

جاءته كموجة مندفعة إلى الأمام، صرخاتُ الناس المتداخلة في المستشفى، البنايات وهي تحترق والمضربون ضده وهم يشتمونه ويلصقون به كل الصفات المشينة. لم يكن يرى إلا أفواههم التي كانت تنغلق وتنفتح وكأنها كانت تنبح. لم يسمع شيئا سوى هدير ضخم يشبه هدير العواصف التي تتحرك في مثل هذا الوقت على بعض السواحل الأمريكية. سرعان ما انسحب الكل ليخلف وراءه بحرا وموجا عاتيا بدأ يهدأ شيئا فشيئا ليتحول إلى صفحة ملساء لم يرها إلا في الأيام الأولى للخريف عندما تغطي أوراق الأشجار القادمة من المدينة، جزءا كبيرا من سواحل مانهاتن. بحث عن الشمس التي كانت تأتي من جهة غير معتادة، رآها تشرق على وجه جده الذي لم تفقده السنوات ألقه العميق على الرغم من حالات الصمت التي فرضتها عليه.

دخل بسرعة في عمق السيمفونية. لم يتساءل كثيرا عما كان يفعله. بحركة لينة دارت القصبة الفضية في مكانها قبل أن يمدها باتجاه ميترا. فجأة بدأ أنين الكمان يأتي حزينا منكسرا وصافيا. رأى اشتعالات المدينة مساء بأضوائها وهي تكشف من تحتها جسر بروكلين العامر بالبشر والسيارات. رأى كل ما تشتهي العين أن تراه. رأى العشاق وهم يملؤون الممرات وينتظرون الشمس المحمرة قبل أن تغوص في بحيرة هودسون. رأى ليل نيويورك الذي لم ير له شبيها في أية مدينة أخرى، مضاء بآلاف الألوان والأشكال والأنجم، مخترقا بمئات الأصوات التي تتنافس على الإيقاعات والموسيقى. رأى القمر يضيء أعالي الناطحات بريشتها الحمراء التي تتوغل عميقا داخل الغيوم العالية لإعلام الطائرات بعلوها. رأى كل ما تراه العين من استثناءات جميلة وكل ما تسمعه الأذن من إيقاع نادر.

شعر جاز بلذة لم يشعر بها منذ زمن طويل. كان يتهاوى باشتياق في عمق الأجزاء الأولى من السيمفونية، خفيفا كريشة وعاشقا مرهفا. بدأ أنين الموسيقى يتصاعد عاليا من الفراغات والفجوات العديدة ليصل حتى مكتب فيليب غلاس الذي ترك باب مكتبه منفرجا قليلا.

- لا قوة تضاهي قوة المرأة. عاصفة عندما تقهر وحمل عندما تعشق.

تمتم فيليب غلاس، ثم غرق من جديد في أوراقه وكتبه وهواتفه الكثيرة، مصغيا في الوقت نفسه إلى وقع الموسيقى الذي شعر بألوانه وتعرجاتها وهي تصعد عاليا نحو سماء كانت تحترق.

لم يستطع أن يكتم سعادته الداخلية.

أعراس مؤجلة

-١-

يستيقظ الصباح الخريفي ثقيلا ومتكاسلا في ليتل-إيطالي. يتثاءب الحي قليلا قبل أن ينغمس في نشاطه اليومي. فجأة، تتسرب شمس نيويورك بصعوبة إلى البيت، من وراء فجوات الستائر الصغيرة، حادة ومستقيمة وتعوم الغرفة فجأة في النور ويبدو واضحا ما كان قبل قليل مجرد أشكال متداخلة.

شعر جاز بالتعب في كل أطراف جسده. تململ قليلا في الفراش ثم رمى بصره نحو الطاولة التي بات منكفئا عليها طوال الليل، يعدل ويرتب الإيقاعات الموسيقية ويحدد الفجوات في النسخة الأولى من التوزيع السيمفوني ويقرأ الكتب التاريخية التي احتلت كل زوايا الغرفة ومساحة كبيرة من سريره. حيثما رمى يده، وقعت ملامسه عليها. صار يعرفها برؤوس أصابعه من أغلفتها الخشنة أو الناعمة جدا. تأمل بعضها كمن يكتشفها للمرة الأولى:

The Seven pillars of wisdom, The historical geography of Asia Minor,The story of the moderne Near East, The partition of Turkey, A Short history of the Middle Esat, Correspondance between Sir Henry Mc Mahon and the Sharif Hussain of Mecca, *Poincarré*: Au service de la France, Les Documents secrets des archives du Ministère des affaires étrangères de Russie, Orientations by Ronald Storrs, Jews and arabs under

British Mandate,Lawrance in Arabia and after, History of Palestine, Storia del Nazionalismo Arabe, *Djemal Ahmed Pacha*: Memories of a Turkish Statesman, The Arab War, *Jewish Agency for Palestine*: Documents Relating to the MacMahon letters...

فتح آخر كتاب امتدت له يده. قرأ بعينين نصف مغمضتين: «في الرابع من شهر مايو استدعى كليمنصو ويكهام ستيد وشكا له بمرارة من أن لويد جورج كان دوما ينقض الوعود التي كان يقطعها على نفسه: في بادئ الأمر أبدى لويد جورج موافقته التامة على أن تكون فرنسا الدولة المنتدبة على سوريا، إنما كان الرئيس ولسن يقف عقبة دون ذلك. فكان لويد جورج يقول لي اذهب واتفق مع ولسون أولاً فتراني أقف إلى جانبك في كل أمر شريطة: ألا تستولي على سوريا بقوة السلاح وشريطة أن تتخلى عن مطالبك في كيليكيا وأن تترك الموصل ضمن منطقة النفوذ البريطاني، وقد نفذت هذه الشروط كلها. وبعد أن اتفقت مع ولسن ومعاونه الكابتن هاوس، لم يفعل لويد جورج شيئا.»

ورق الكتاب قليلا بعينين نصف مغمضتين، وتوقف عند صفحة كان قد وضع عليها علامة «علل وينستون تشرشل سقوط الحكم الفيصلي أمام المؤتمر الملكي سنة ١٩٢١ بقوله: لقد زحف الجنرال غورو على رأس جيش باتجاه دمشق واستولى على المدن الأربع: دمشق، حلب، حمص وحماة. كما أنه احتل البلاد السورية بأسرها. وقد تمت هذه العملية العسكرية على أيدي جنود معظمهم من زنوج إفريقيا. وما كان يؤلم الرأي العام البريطاني، وما كان يحز في نفوس الضباط البريطانيين ولاسيما أولئك الذين خدموا في الجيش العربي، أن يشاهدوا رفاقهم في السلاح وحلفاءهم في الحرب، ومنذ مدة قصيرة، الذين كانوا يتطلعون إلينا لحمايتهم واستعادة حقوقهم المهضومة. أقول إنه من المؤلم أن يقفوا جانبا ليروا فرنسا تسحق هذا الجيش وتمتهن

كرامته وليشاهدوا مدنه يُستولى عليها خلافا لروح المعاهدات لا بل خلافا لحرفية المواثيق. ولكن مهما يكن من أمر فإن هنالك روابط وثيقة بفرنسا وينبغي لهذه الروابط أن تبقى. . .»

أغمض جاز عينيه قليلا لكي ينسى آلام الظهر وما انتابه من رغبة في التقيؤ ليلا وهو يتوغل في تفاصيل هذه الكتب. بدا له وجه بابا شريف حزينا ومكدودا كما لم يره أبدا، ويائسا.

«- من أين يأتي كل هذا القدر من النفاق وهذه القدرة على الكذب؟ احترقوا مقابل أن ينعموا بأرض ووطن، فوجدوا أنفسهم في المنافي والموت؟ لابد أن يكون في العالم شيء بُنِي على الغلط في العمق.»

أحس كأنه بات داخل عاصفة هزت كل يقينياته. المسالك المغلقة بدأت تتضح الآن وتنفتح شيئا فشيئا. بدا له كأنه عثر أخيرا على الحلقات المفقودة الرابطة بين مختلف الآلات، التي تعطي للسيمفونية هارمونية وانسيابية وقوة.

تمنى لو كانت ميترا بجانبه لاقتسم معها رغبته في الصراخ ولكنها اختارت أن تمضي نهاية الأسبوع مع أمها في نيوجيرسي بعد القلق والتعب الكبيرين.

مع أنه انتظرها في هذا اليوم بالذات لكي تصبّح عليه كعادتها ولكنها لم تأت. تعودت، في كل عيد ميلاد، أن تضع في يده، وهو ما يزال مغمض العينين في فراشه، باقة من الورد يتوسطها عرق من الياسمين. هو يعرف جيدا لماذا تختار له دائما عرقا من الياسمين. كان ينتظر أن تقول له عيد ميلاد سعيد حبيبي كعادتها، ولكنها لم تأت.

مساء البارحة كان يفترض أن ترافقه ولكنها في آخر لحظة غيرت رأيها واعتذرت منه لأنها كانت مضطرة للذهاب إلى أمها في نيوجيرسي. في آخر الليل فاجأته من حيث لم يكن ينتظر. رن التليفون. كان غارقا في عمله. رفع رأسه تلقائيا صوب الساعة وصوب الفراغ الذي خلفه سقوط لوحة **خريف نيويورك الأخير**. العاشرة ليلا بالضبط. لم يستطع

أن يكتم ابتسامته. لم يرفع السماعة. بعد الدقة الثالثة جاءه صوتها دافئا متسللا عبر الفجوات مثل هواء آخر الليل:

«اسمع البقية حبيبي، نحن لم ننته من كلام الساحرة الفارسية التي يمكنها أن تأكل حبيبها في أية لحظة... **فلما سمعت الساحرة صوته استبشرت وفرحت وقالت: قد ظفرت بصيد ثم تصورت في صورة حورية بيضاء ذات مقلة كحلاء وقامة هيفاء وتبرجت وحضرت لديه. فأظهر الفرح بها وسقاها قدحا من ذاك الشراب. وكان معه سلسلة يزعم زرادشت أن أباه أتي بها من الجنة. فألقاها على الساحرة وخنقها بها. فاستحالت في الحال في صورة سبع عظيم...**[٢٩] إلى هنا سأتوقف حبيبي وأتركك لعملك، الساحرة لا تموت كما ترى ولكنها تتحول. عليك أن تحذر إذن من غضبها. أنت تعرف ماذا يحدث عندما تشعر بأنها مستفزة في يقينها؟ اعمل جيدا ولا تفرط في صحتك واعتن بظهرك، وإلا لن أضمن العواقب الوخيمة... هل عرفتني؟ لا تتعب نفسك، فلن تعرفني. تصبح على خير. باي حبيبي. الساحرة الفارسية في انتظارك دوما.»

ثم... لم يسمع إلا السماعة وهي تقفل بهدوء.

«- مهبولة ميترا. الساحرة الفارسية؟ ربما تكون الأيام العصيبة قد أنستها عيد ميلادي. المهم أنها تذكرت كعادتها وتكلمت وروت بعض هبلها اليومي عن الساحرة الفارسية»

كيف مر الحدث على ميترا؟ تساءل جاز وهو يحاول أن يجد تفسيرا لصمتها. في العادة أن تصبح عليه بباقة ورد، وفي المساء هي التي تحضر طاولتهما في البيت وترفض أن تخرج في ذلك اليوم إلى أي مطعم من مطاعم المدينة. منذ أن عرفها وهي تعيد نفس الجملة: «أنت في يومك الأول وتحتاج إلى الراحة وإلى يد تضعك في صدرها. لن يسرقك مني أحد ولا حتى الموسيقى التي تحب وتشتهي». ثم تحضر الطاولة وتلونها

---

(٢٩) الشهنامة (كتاب الملوك). ص: ٣٤٥. ١٩٩٢.

بالورد والشموع والشمبانيا والويسكي الذي تعرف أنه نقطة ضعفه.
«يومك الأول أحسدك فيه.»

حاول أن ينسى كل التفاصيل المحيطة به ولا يتذكر إلا عمله. الأيام الأخيرة التي قضاها وحده معزولا عن كل محيطه، بين العمل والقراءة والتأليف والعودة إلى العمل ساعدته كثيرا في استرجاع حالة صفائه التي فقدها. كلما تذكر كلمات ميترا عن السحر الفارسي توقف قليلا، ضحك، تذكر أمسياتها وهي تقرأ مقاطع طويلة من شعر الشاهنامة الجميل، بحماس يصل أحيانا حد الهستيريا والبكاء والشتائم:

«- جاز يبدو أن العالم يسير بالمقلوب وعندما ينتبه إلى حماقاته متأخرا، سيأكل نفسه. هل يعقل أن تنجب أرض سمحة وغنية مثل أرضي العريقة، فقهاء مجانين لا يفرقون بين الدين والجريمة؟ من فوَضهم؟ من أعطاهم حق الكلام باسمه؟ أين النور الذي منه جاء ليبهرنا وصاغ حكمته العالية وخطوط كتبه العظيمة؟ لابد أن يكون في الدنيا شيء ما يسير بالمقلوب. ملوكنا الأوائل كانوا أقل قسوة وأكثر حبا للشعر وإنصاتا للحب. عالم في غير وضعه الطبيعي وفي غير شأنه الاعتيادي. القاتل في أعالي الدنيا والموسيقي والشاعر الذي يحمي المدينة من الحرائق والتلف، في الحفر وأقاصي الخوف؟ لعنة الله على القتلة. من أين جاءوا بكل هذا الكم الهائل من الخراب؟؟»

وعندما تكون ميترا في صفائها العالي، لا تفعل شيئا. تفتح محفظتها الصغيرة وتذهب آليا نحو قارئ الأقراص المضغوطة وتضع في عمقه قرص ماريا كالاس التي يحبها جاز، وتعود إلى الكنبة، تفتح كتابها الكبير الشاهنامة للفردوسي وتشرع في الغوص في قصصه القديمة، ولا تتكلم طوال الليل عن شيء آخر غير الشعر.

شعر بشوق يغمره باتجاه ميترا. عندما قال لها بعد الأمسية الموسيقية وعودته إلى الفرقة: «تعالي». قالت «اليوم أخاف عليك مني». تمتم في أذنها، بالضبط عند مهوى القرط: «تعالي». اهتزت في مكانها ولم

تستطع مقاومة وجهه الطفولي، ونظرت إليه بعينين مملوءتين بالألوان المتقاطعة والأشواق:

«- حبيبي . . . كم أشتهي الآن أن أترك نفسي أتمادى في جسدك وأتهاوى بين يديك. لكنني لا أريد أن أعطلك ثم أني اشتقت لأمي. تحتاج لأن تسترد كل وقتك الذي ضاع منك وإلا ستمرض. أعرفك جيدا يا مهبول. يمكنك أن ترمي بكل شيء في الفراغ بسبب قلق صغير. أخاف عليك من كل هذا. أحيانا أخاف عليك مني ومن أسئلتي وأخطائي. أعرف كم هي غالية عليك هذه السيمفونية. قل لي كيف كنتُ اليوم؟

- مذهلة. شخص آخر. غريب، عزفك أدخلني في عالم من الدهشة والسحر والأحاسيس الجميلة. رأيتك في ساعات صفائك وأنت تقرئين أجمل مقاطع الشاهنامة. رشاقة كبيرة وليونة في حركة اليد وانزلاق هادئ على الخيوط كأننا على سطح بحر لا نسمع موجه ولكننا نحس وقعه كلما عبرناه، كلما مررنا على سطحه. أتساءل أحيانا وأنا أعيش رشاقة عزفك، إذا لم تكوني تعبثين بأعصابي المحترقة في ذلك اليوم الذي أتمنى أن أخرجه من ذاكرتي بأقصى سرعة ممكنة.

- يوم الكارثة كانت كل حواسي معطلة. لم أكن في كامل قواي، هذا كل ما في الأمر. كان بي قلق غريب لم أفهمه إلا فيما بعد. ليس سرا إذا قلت لك بأني كنت أشعر بشيء مخيف. رأيتُني في الحلم أفتقدك. رأيتك تذهب وتتركني عند باب منزلك في ليتل-إيطالي. عندما ناديتك بأعلى صوتي: جـــــ. . . . . . . .ـــاز . . . . . جـ. . . . . . .ـاز. . . . . لم ترد عليَّ ولم تلتفت. اختنق صوتي ولم ترد علي. شعرت بأن مكروها سيحدث، لا أدري من أين جاءني ذلك الإحساس الغريب. فكرت أن أعتذر لك عن العزف في ذلك الصباح ولكن سبب الاعتذار بدا لي سخيفا. وحدثت الكارثة التي رأيتها بعينيك. هناك أحاسيس يصعب تفسيرها والتحكم فيها.

- إذن لا تأتين الليلة؟

- قلت لك، نهاية الأسبوع وأنا اشتقت لأمي. ولا تنس، موعدك مع عازف الكونترباس، جون بوفًا، ستشتغل معه حلقات الربط في المقطوعة، سأمر عليك ونتيه وسط المدينة إذا شئت.»

في الليل لم يفعل جاز شيئا سوى الانهماك عميقا في كتبه التاريخية والفنية وفي نوتاته الموسيقية وألبحث عن صيغ الربط التي كانت تزيد من حدة الانفصالات المتعددة التي تكسر الريتم. شرع في إعادة ترتيب الإيقاعات والاستماع إلى بداياتها ونهاياتها واختبارها على البيانو قبل تدوينها. يكتب ثم يمحو مثل طفل بصدد تعلم الأحرف الأولى. امتلأت الورقة بالمحو وكتابة الرموز فوق بعضها البعض بشكل جد متكدس حتى صارت غير مقروءة. لم يبق أي بياض، في الوسط، الجوانب والحواشي. كل الورقة تحولت إلى خربشات وانزلاقات قلمية كان هو الوحيد القادر على فهمها وفكها.

عندما تمدد في الفراش للمرة الأخيرة، ثم قام بسرعة مقاوما غواية الفراش، كان قد استعاد علاقته بعمله ورتب كل التفصيلات الأخيرة مع عازف الكنترباس جون السمين أو جون بوفا كما تعود أن يناديه أصدقاؤه. فوجئ بأن اليوم هو يوم أحد. يوم راحة. أراد أن يعتذر لجون، ولكنه تردد قليلا قبل أن يفعل. ثم قرر أخيرا أن يكلمه:

- جون، اعذرني يا صديقي. نسيت أن اليوم هو يوم نهاية الأسبوع.

- أعرف. ما وجه الغرابة؟

- يوم عطلتك. عذرا فقد كان مخي غائبا.

- لا يهم. أنا أتهيأ للذهاب للأوبرا. سأخصم منك مقابل هذا اليوم أسبوعا كاملا أقضيه مع أهلي في هارلم. مشتاق إليهم. طبعا، عندما ننتهي من كل شيء.

ضحك جاز. اندهش من طيبة الناس التي كادت أن تنطفئ في عينيه المرهقتين.

- طيب. نلتقي إذن بعد قليل في الأوبرا.

بمجرد وصوله إلى الأوبرا، انغمس مع جون في العمل.

انتظرها طويلا ليقول لها صباح الخير، وتقول له عيد ميلاد سعيد، عذرا حبيبي، قبل أن ينهمك في تدقيق إيقاعات الكونترباس، ولكنها لم تأت. وعدته بالمجيء. قالت إنها ستأتي لزيارته ولكنه لم يرها. ربما تأخرت وخصوصاً أن اليوم يوم راحتها الأسبوعية. قضت ليلتها في نيوجيرسي.

عندما دخلت ميترا إلى الأوبرا كانت مصممة أن تخرجه من دائرته التي غرق فيها. لم يعد يرى شيئا منذ أن عاد إلى العمل إلا عمله والسيمفونية التي تشغله. لم تزعجه فقد انتحت جانبا في الزاوية الأكثر ظلاما وجلست تتأمله وهو يضبط إيقاعات الكونترباس مع جون بوفا. لم يرها وهي تدخل متسللة كالسارق ولم ينتبه لها وهي في الركن المظلل، بعيدا عن أنوار الصالة الكبيرة.

كان جاز منهمكا مع جون الذي يحتاج إلى وقت خاص لكي يدقق مساراته الخاصة ضمن الإيقاع العام للسيمفونية. فخامة الصوت تعطي الإحساس بالفقدان والغياب والخوف من حدوث مكروه ولكنها إذا خرجت عن المسار أصبح النشاز ظاهرا ومكسرا للنظام. منذ عودته، لم يفكر جاز إلا في حل هذه المعضلة التي تنبني عليها هارمونيا النظام العام للسيمفونية.

- الأصوات الخلفية هي أهم شيء في أوضاع تتخللها المآسي والانكسارات ولا بديل لذلك لتعميق أحاسيس الناس. أنت مع ميترا، مثل القرار والجواب في الإيقاع العربي، كلاكما يسند الآخر. تعرف يا صديقي، يجب أن تتخيل أنك في فيلم قريب من الحقيقة، أو في الحياة نفسها بثقلها ومآسيها، وإلا لن تدخل في عمق الصورة. الكل يسير عندك بوتيرة واحدة وهذا ليس جيدا من ناحية التجسيد الإيقاعي والحسي. التاريخ الذي نحكيه متعدد كثيرا وبه الكثير من التعرجات والكدمات وليس تاريخا أملس وبسيطا. علينا أن نعمل على أن ينزل وقع الكونترباس عندما يجب ويعلو كذلك عند الضرورات القصوى.

التراجيدية الكبرى هي أننا أمام حيوات انكسرت وبشر ماتوا وهم يعتقدون بصدق في الانتصار النهائي. كانوا مقتنعين بذلك وهم يسيرون نحو حتفهم الأكيد. أبحث عن هذا النفس الملحمي الغائب في إيقاعاتك. يجب أن أضع كل أحاسيس الفقدان والتراجيدية في هذا العمل وإلا سيكون تكرارا لما يقوم به جميع الموسيقيين عندما يشتغلون على موضوعات تاريخية مشابهة ونحن لا نريد أن نكون مثل أحد. ضع في رأسك رجالا تضامنوا مع أوروبا وأمريكا وقاتلوا في نفس الخندق جور الألمان والأتراك، وعندما انتصروا، حولت بنادق الحلفاء إلى صدورهم وظهورهم وهم لا يصدقون ما كان يحدث لهم. أكثر من ذلك، سرقت أموالهم وخيرات تربتهم قبل أن يطردوا نحو الحفر والوديان. أريد يا جون أن ألمس تلك اللحظة التي يفتح فيها الإنسان عينيه عن آخرهما أمام الحقيقة القاسية وعلى هول الفاجعة. صحيح أن كل شيء انتهى الآن ولكن يجب أن ندخل الناس في غمار هذه اللحظة القوية التي لا نستطيع حيالها إلا الاندهاش. هل تحس بما أحس به الآن؟

- أحاول ولكن. . . التراجيدية؟ ألا تخشى أن ترهق الناس خصوصا في ظروف مشابهة لتلك التي نعيشها.

- على العكس من ذلك. الظرف مناسب. علينا أن نعطي لآلامهم معنى آخر. ليس فقط الإحساس بقوة الضرر ولكن يجب أن نشركهم في تاريخ البشرية. نحن غير منفصلين عما يحدث في العالم من حولنا يا صديقي جون. مشكلة الأمريكي هي هذه، مكتف بذاته. ربما كان مرد ذلك هو قوتنا الاستثنائية ولكن هذا لا يكفي. تاريخنا القريب والبعيد يعطينا درسا كبيرا في هذا المجال. ولهذا فالاتكال عليك كبير جدا. بدونك من الصعب تجسيد هذا الإحساس.

وعلى الرغم من تعب جون إلا أنه واصل مدققا في كل ملاحظات جاز. كانت ميترا تراهما من آخر القاعة الواسعة ولم يكن جاز يراها بسبب انعكاس شلالات الضوء على أوراقه وأوراق جون. وقفت في

مكانها وهي تراه يشرف على الانتهاء، قبل أن يصيح ملء فمه في وجه جون:

- برافو. أرأيت درجة الاختلاف يا عزيزي جون؟ تخيل للحظة عندما يدخل هذا العزف ضمن الإيقاع الكلي للسيمفونية كيف سيكون الحال؟ أنا سعيد جدا أننا نسير وفق وتيرة جيدة.

بانت علامات السعادة على محيا جون وأعاد عزف المقطوعات المنفصلة بشكل أكثر دقة بينما ظلت ميترا تصفق في آخر القاعة بحماس كبير:

- برافو جاز... برافو جون... برافو...

- شكرا ميترا. هل تريدين أن أدعوك على قهوة. قهوة مضبوطة.

كان ينتظر مرة أخرى أن تقول له: كل سنة وأنت بخير. ولكن هذه المرة كذلك كانت يداها فارغتين من الورد ومن عرق الياسمين الذي يختبئ في عمق الباقة.

- لا أنا جئت لآخذك وأتمنى ألا تخيبني. وإلا عليك أن تتحمل العقوبة مدة أطول. وستضطر لأن تكتفي فقط بسماع صوت الساحرة كل مساء عبر التليفون بدون أن تتمكن من رؤيتها أو لمسها.

- لماذا لم تكملي قصتك البارحة وتركتها معلقة؟

- إنهاؤها في غير صالح الساحرة. لم أكن أريد لساحرتي أن تموت. الفردوسي يقتلها وهذا لم يكن يناسبني. أريدك الآن أن ترافقني إذا شئت.

- وإلى أين؟

- أن تخرج قليلا من فضاء الأوبرا. هل انتهيت مع جون؟

- تقريبا. أشياء صغيرة يستطيع جون وحده...

- إذن اترك جون يرتاح قليلا، لقد أهلكت المسكين بكثرة ملاحظاتك. الرجل له أولاد واليوم يوم راحة رسمية. من حقه أن يقدم شكوى ضدك لمسؤوليه.

التفت جاز نحو جون كأنه يستنجد به، ولكن هذا الأخير فهمه جيدا.

– لا تهتم مايسترو. سنواصل غدا أو بعد غد مع كل أعضاء الفرقة. يستحسن أن ترتاح قليلا حتى تعود لنا في كامل قواك. لقد اشتغلت كثيرا. ميترا على حق.

ثم انسحب جون باتجاه الزاوية ليضع آلة الكونترباس في مكانها ويغادر الأوبرا.

– بذهنك فلم جديد يا ميترا؟ أنا كذلك مشتاق إلى رؤية فلم.

– جاز. . . لم آت لهذا. تذهب معي إلى ICP، الإنترناشونال سنتر أوف فوتوغرافي[٣٠]. جمعية **ثقافات الشرق** بالتنسيق مع عرب أمريكا المنشغلين بموضوع العنصرية تنظم اليوم معرضا صغيرا عن تاريخ العرب، عن ثقافتهم وإشعاعهم عبر العالم. صعب أن يفكر المرء في أشياء كهذه الآن لكن الأمر يحتاج إلى تشجيع لهم. يحتاجون إلى أسماء معروفة من أدباء وفنانين وعلماء وغيرهم لتغيير الصورة التي بدأت ترسخ في الأذهان وقد تلقينا دعوة أنا وأنت ويصرون على حضورنا. علياء رئيسة الجمعية، صديقة كبيرة وتحبنا كثيرا وقد تأثرت لما حدث لك ولا يمكن أن نخيبها. أعرف أنك لا تحب هذه الوجاهات ولكن الأمر هنا يختلف ويهمك كثيرا. هناك أشياء تهم مشروعك لأن الكثير من المعروضات تدخل في صلب ما أنت بصدد إنجازه. قد تخرج بفكرة جديدة تضاف إلى السيمفونية.

– الآن؟

– لنحضر الافتتاح على الأقل، سيسعدهم ذلك ونذهب بعدها إذا شئت إلى مسرح برودوي Broadway لنحضر العرض الأخير من الكوميديا الموسيقية **شيكاغو**. أيعجبك هذا البرنامج؟

لم تنتظر ميترا إجابته ولكنها أخذته من يده ونزلت به نحو الأدراج

(٣٠) International Center of Photography (المركز الدولي للتصوير)

السفلى المؤدية إلى الكاراج الأرضي. ثم انطلقت كالسهم بسيارتها شيروكي 4x4 في شوارع نيويورك، باتجاه مانهاتن.

كانت الأمطار قد بدأت تتكسر تحت العجلات. ترك جاز نفسه يتدحرج داخل الإيقاعات الأخيرة. كلما عبر جسر بروكلين شعر بشيء يدغدغ حواسه وسمع إيقاعات موسيقية متعددة غير متكررة أبدا. أحيانا يسترجع شتراوس الذي يسكنه وفي أحيان أخرى يشعر بأن الإيقاع من عنده. يتمنى لو تستمر الهدهدة الجميلة ولا تتوقف أبدا. الذي سمى جسر بروكلين معبر العشاق، لم يكن مخطئا. سمع رشقات الأمطار وهي تتساقط على سطح السيارة كأنها إيقاعات موسيقية في حالة انسجام كلي ورأى البحر من تحته ينسحب بقوة إلى ما لانهاية. وعندما فتح عينيه قليلا لم ير شيئا إلا مدينة تغوص عميقا في الماء ووحشة كبيرة تندفع نحوه كلما شعر بالحزن وانطفاء كبير لأشواقه.

كان يريد أن يغمض عينيه وألا يفتحهما أبدا إلا على عيني وجسد ميترا ولكنه فضل أن يعبر المدينة هذه المرة بعينين مفتوحتين. مايا، أمه، كانت كلما أرادت أن ترسم أحاسيسها المرتبكة، عبرت الجسر العديد من المرات كمن يبحث عن شيء ضيعه. المكان الوحيد الذي لا يمكن أن تمل من عبوره وهي تكتشف تفاصيله الصغيرة في كل مرة بشكل مخالف.

«- المدينة يا جاز، مثل النهر، لا نمر عليها مرتين متشابهتين.»

هكذا كانت تقول مايا كلما عبرت الجسر مفتوحة العينين.

-٢-

«شهر أيلول فتحت الشبابيك.»

قبل أن يتخطى جاز عتبة المركز، عندما انفتح المدخل، جاءه الصوت خافتا من زاوية بعيدة وسط فضاء مفتوح على البياض، مناقضا بذلك أغلبية مساحات نيويورك الثقافية التي تكسر رتابة البياض باستدعاء

الألوان الحارة. شعر جاز بحنين كبير نحو الصوت ولم يستطع مقاومته.

- هل تعرف هذا الصوت؟

قالت ميترا وهي تحاول أن تستفز جاز.

- هذا سؤال يشككني في ذكائك يا ميترا؟ تسألينني عن فيروز وأنا كل يوم أدفع بك للاستماع لنشيجها الجميل؟ يمكنني أن أخطئ في كل شيء إلا في هذا الوجه السمح الجميل. مايا كانت مولعة بها حد الجنون. هذه الأغنية بالذات كانت تؤنسها، تملأ بيتها كلما جاء الخريف وبدأت شوارع نيويورك تصفر وتموت. كل شيء فيها كان يذكرها بالقدس، بوالدها وبطفولتها الهاربة. هناك مواعيد شبه قدرية مع الموسيقى لا نعرف مطلقا اليد الخفية التي سحبتها نحونا ثم أدخلتنا في غمارها. طبعا، كلما مرت فيروز على أمريكا، ركضت مايا نحوها بعينين مغمضتين، ولا تسأل عن بعد المكان أو قربه. حضرت معها إحدى حفلاتها في لوس أنجلوس.

قال جاز بصوت خافت وهو يترك باب المعرض ينغلق من ورائه ويشعر بدفء القاعة.

كان الصوت ناعما وهادئا ولكنه كان كافيا لكي يقوده نحو مايا التي بدأ يشعر بغيابها الكبير. مايا ورَثته كل الأشياء الجميلة، الموسيقى وحكايات بقيت تعوم في الذاكرة قبل ذهابها المبكر. لم ير أمه يوما في المطبخ أو متكئة أو ترسم، بدون أن تكون فيروز بصحبتها. عندما سمعتْ بمجيئها للوس أنجلوس، ذهبت إلى سهرتها وصحبته معها لكي يراها ويسمعها عن قرب. كان عمره عشر سنوات أو أكثر بقليل. يتذكر أن اليوم كان ماطرا وعاصفا وأن الطائرة كادت أن تغرق في فجوة هوائية قبل أن تستقيم بعد نصف ساعة. منذ ذلك اليوم علق شيء برأسه وقلبه وذاكرته.

كانت الحركة كبيرة وكان من الصعب أن تفرز أحدا من أحد. كلما حياه شخص، كان جاز يرد برأسه منحنيا قليلا. لا يدري من كان صاحب الفكرة بوضع موسيقى خلفية لفيروز، ولكنه كان ذكيا وحساسا،

علّق جاز. من بعيد ركضت **جوديث** مديرة المركز بصحبة **علياء** رئيسة جمعية **ثقافات الشرق**. عرفتهما ميترا وهما تعبران البهو المؤدي إلى الصالة الكبيرة. ميترا لا تحب جوديث كثيرا. تشعر أنها تثرثر باستمرار وأنها تلتصق بالرجال، ولكنها امرأة طيبة وتحب كل ما تفعله بشكل كبير وجيد. امرأة غير منغلقة. فقد استقبلت معارض كثيرة للصور مضادة حتى للسياسة المهيمنة. من أصل بولوني، والدها أعدم في الغرف الغازية وكان عمرها لا يتجاوز السنة. الفضل في بقائها حية يعود إلى خالتها التي هربت بها إلى أمريكا واختبأت معها. اشتغلت في جمعيات خيرية كثيرة قبل أن تستقر في هذا المكان.

- شكرا ميترا على مجيئك. شكرا مايسترو. أنا سعيدة بزيارتك وتشريفك لنا. المركز في حاجة ماسة إليكما. نبذل مجهودا كبيرا لكي نبقي الذاكرة الشرقية حية على الرغم من الأفكار المسبقة السائدة في البلاد والحروب الغبية، ونحتاج إلى توضيح وجهة نظرنا لكيلا نُفهم خطأ. ما تقوم به أنت في الموسيقى عظيم. وإلا ما الذي يدفع بك إلى الغوص عميقا في تاريخ جدك وأرضه الأولى لو لم يكن لديك ذلك الإحساس المرهف للقيام بشيء ما في صالح البشر ورفض الاختزال والسهولة؟ أنا متأكدة من أننا يمكن أن نعيد الناس إلى الصواب بواسطة الفن إذا بقي فيهم شيء من الإنسانية.

- ما تقومين به يا سيدة جوديث عظيم، خصوصا في ظرف صعب كهذا حيث الكل يختبئون وراء عوالمهم الصغيرة وبذخهم الوهمي وينامون على مكاسبهم الصغيرة.

- متى نرى عملك الجديد؟ الصحف بدأت تتحدث عنه. لابد أن يكون شيئا استثنائيا.

- الصحف تسبق الأحداث دائما وتحملنا مسؤولية أحيانا أكبر من طاقاتنا الفعلية. ما زلت أحتاج إلى بعض الوقت وبعض الترتيبات التاريخية، لكن كل شيء يسير على ما يرام الآن. ربما ربيع السنة القادمة أو الخريف، بحسب شطارتنا. يجب أن نوقّت ذلك بشكل جيد مع ربيع

نيويورك الموسيقي، لا أريد أن يكون الحدث عابرا وإلا سيسقط كل ما قمنا به في الفراغ. على كل ما يزال هناك الكثير من البياضات التي أحتاج فيها إلى مختصين آخرين. أحداث نيويورك كسرت الجميع وأخرتنا كثيرا ولكني أعتقد أننا بدأنا نجد المسالك الصحيحة.

- يقول الذين كان لهم حظ رؤية البروفات التدريبية إن أشياء كثيرة غيَرْتها في بنية السيمفونية التقليدية. وأنك بصدد القيام بثورة كبيرة. وهذا ليس أمرا سهلا. التقليديون سيطلقون عليك النار في صحفهم.

- هذا كلام كبير علي ولا أدري إذا كنت أستحقه. أجمل شيء في نيويورك هو هذه الحرية الكبيرة وهذه الرغبة المحمومة بعدم التكرار. هذا هو رهاني الكبير. البقية، ليقولوا ما يشاءون، العمل الجيد يفرض نفسه بقوته وجماله، إذا كان فيه نفس جديد. عندما تكون مؤلفا وقائدا للفرقة نفسها عليك أن تكون متنبها لكل شيء، حتى التفاصيل الصغيرة، وقادرا باستمرار على تغيير كل ما يعيق سلاسة الإيقاع. ما زلت في عمر يسمح لي بالتعلم الكثير. ولكن نبذل مجهودات كبيرة لكيلا نكرر الآخرين.

- أنا متأكدة من ذلك. أتمنى لكما زيارة مفيدة وأترككما مع علياء ترافقكما.

كانت سعادة علياء كبيرة أن تراهما. رحبت بهما من جديد. راهنت علياء على هذه الأمسية، فهي الأولى بعد انفجارات ١١ سبتمبر ٢٠٠١. هي تعرف أن نجاحها يمكن أن يفتح مسالك جديدة أمام الجمعية، فقد وجدت لدى جوديث كل المساعدة والإصغاء.

- جوديث امرأة طيبة ومتواضعة، لولاها لما حدث كل هذا. كل الصور التي هنا أصلية، بعضها جئنا به من مراكز متخصصة، البعض الآخر اشتريناه وهو قليل والبعض الآخر إعارة لأنه ملكية شخصية لأصحابه أو لمؤسسات. وأعتقد أننا بأكثر من ألفي صورة نستطيع أن نقول إن معرضنا يمكن أن يؤدي وظيفة صغيرة لتنبيه الرأي العام إلى خطر الانزلاق العرقي خصوصا في بلد مبني أصلا على التعددية. العرب

ليسوا لا أقل ولا أفضل من بقية الأقوام التي يتكون منها النسيج الأمريكي المعقد. يجب أن يقلل الناس من عماهم المستشري ومن أحكامهم الجاهزة.

- لا تعيري ذلك انتباها، المهم، على الإنسان أن يعمل أولا باتجاه خير الناس وسعادتهم، وستجد هذه المجهودات من يثمنها، اليوم، غدا، أو حتى بعد غد، لا يهم. أنا متأكد من أن ما تقومين به سيصادف آذانا مصغية ومقدرة وسيدخل بعض النور على الكثير من العقول المنغلقة.

ثم سارت علياء بالجميع عميقا حيث تم افتتاح المعرض. انفصل جاز قليلا بعد أن ترك ميترا وعلياء في حديث ثنائي طويل. وتدحرج يتأمل الصور بدءا من الزاوية. لا يعرف لماذا كلما دخل مكانا عاما بحث عن الزوايا الأكثر اختفاء والمغطاة بظل ما أو بإنارة خفيفة.

وهو يتأمل الصور شعر بالعالم يعود دفعة واحدة. رأى صورة بلون حائل بين الصفرة العميقة واللون الرمادي الباهت. كتب تحتها: **فلسطين ١٥ مايو ١٩٤٨**. طفلة تركض في فراغ غير محدود. شعرها المبعثر ينتشر في الهواء ويخبئ قليلا من ابتسامتها. في يدها لعبة صغيرة لم تظهر في الصورة إلا الخيوط التي تقبضها. «المؤكد أنها طائرة ورقية» تمتم جاز. تذكر أمه وهي تضحك وتقص قصصها الجميلة عن طفولتها وعن والدها عندما كان يكذب عليها ويقول لها إنه اشترى لها طائرة بينما كان يصنعها في الخفاء من الورق الذي يرميه جاره، صاحب الدكان المواجه لبيتهم. عاوده وجه مايا وهي تتكئ على ظهرها في زاوية البيت في بروكلين هيتز[٣١]، تتأرجح على الكرسي القصبي وتستمع بحب كبير إلى أغنية فيروز:

«- جاز هل سمعت بهذه المرأة؟ طبعا لا. أحيانا لا أفهم ما الذي يدفع بشخص إلى الالتصاق بتربة هو يعرف أنها ترفضه وقد تقتله. هناك علاقة حميمية بين الجسد والتربة تشبه أحيانا الأم والجنين الذي ينام في

---

(٣١) Brooklyn Heights

أحشائها. فيروز امرأة كبيرة وعالية، تركت كل شيء وبقيت على الحافة بين المسيحيين والمسلمين وكانت الحرب تشتعل بينهما. حرب جادة، يموت فيها الناس حقيقة. كان الرصاص يمر فوق رأسها، يقتل هنا ويقتل هناك بينما كان يتفاداها. أتذكر أمي. عندما كانت عصابات اشتيرن والأرغون والهاغانا تقتل الفلسطينيين، وضعت في عنقي تميمة وهي مقتنعة بأنها ستحميني من أية رصاصة طائشة وأنا أذهب لدروسي عند أستاذتها وصديقتها ماريا، في الحي المسيحي بالقدس. لهذا، كلما سمعت صوت فيروز شعرت بأن أرضا وماء وهواء آخر يسرح فيَّ، حرمت منه لا أدري لماذا، في كل منفى نربح أشياء ونخسر أشياء أخرى؟ ربحت هذه الأرض وخسرت مساحات كبيرة وكثيرة في. فجأة تصحرت. العظيم فينا اليوم هو من يستطيع أن يلملم كل الكسورات ويبني منها عالمه الجميل، وهو على التربة التي هو فيها اليوم. يجب أن يعيش كذلك حاضره وإلا مات وهو يمشي على الأرض. البلاد ليست ترابا ولكنها أحاسيس أكثر تعقيدا يا جاز.

- لم أفهم جيدا يا أمي. هل كان والدي يحس بنفس الشيء هو كذلك؟

- لا أدري ولكنني أعتقد أن كالفي الذي ضاع في عالم الأتربة والمدافن القديمة، هو كذلك شعر بافتقاد شيء ما وهو يأتي إلى هذا المكان. الأمر قد يختلف في الدرجة. بين المنفى الاختياري والمنفى الإجباري مسافات تحدد درجة حساسيتنا نحو الأشياء التي لا سلطان لنا عليها مطلقا. ربما لأن والدك لم يأت مجبرا ولكنه جاء إلى هذه الأرض لمزاولة دراسته فقط وبقي هنا. كانت آماله للحرية أو على الأقل هكذا تصور في البداية. كان مولعا بعلم الحفريات. قضى عمره كله يبحث عن شهيته حتى ذهب نحوها واستقر هناك على ضفتي البحر الميت ليس بعيدا عن المخطوطات التي سحرته وعن آثار بترا التي شغلت عمره كله قبل أن يبتلعه الغياب الكبير. لا أدري إذا ما كان في الأردن أو في إسرائيل أو ربما في مدافن البحرين التي ظلت شغله الشاغل. أنا دخلت إلى هذه

الأرض بعد أن تركت شمسي وجزءا من ذاكرتي. لقد اختاروا في مكاني ولهذا حملت معي هذه الأسئلة المعقدة والحيرة التي لا أجد لها أجوبة.

- هكذا إذن يذهب كالفينو من أجل تربة لا يعرفها.

- عمله. كل الأتربة المليئة بالأسئلة والخوف، كانت ملكه. أعذره كثيرا لأنه لم يكن أمامه سوى الذهاب عميقا في عشقه للتراب وأسراره. لم نفهم بعضنا أو على الأقل لم نفهم أنانياتنا الصغيرة. أنانية الفنان صعبة جدا. كان عالمه هو حياته وكان عالمي الفني وألواني هي كل شهوتي الدفينة. خالتي دنيا أو ليتل-مام(٣٢)، ظلت وفية لحريتها وعشقها للبيانو في مطعمها في بروكلين، حتى ماتت، وأبي بابا شريف، لم يعرف شيئا في حياته إلا الجري وراء سرابه الجميل: وطن واحد يعيد أمجاد الذين ماتوا ولكنه لم يحصل إلا على مزق. كلما توغل أكثر شعر بأن وطنه صار شتاتا وأن الأرض الواسعة التي تعددت بعد أن كانت واحدة لم تعد قادرة على تحمله. تصور أرضا تضيق بأصحابها الأكثر حبا لها، أشعر كأن في هذه الدنيا التي نعيشها اليوم، شيئا غير عادل مطلقا.

- وأنا، هل أشبهكما؟ أنا لم أولد هناك ولم أركب سفينة هاربة مثلك ومثل جدي ولم آت للدراسة مثل أبي. كبرت بين بروكلين ومانهاتن ولا أعتقد أنه يوجد في العالم أجمل من هذا المكان الذي عشت فيه.

- معك حق. إذا أردت أن تعيش سعيدا احسم الأمر وهذا ما حاولت فعله وأفعله بصعوبة. لو سرتُ على هدي والدي لبقيت معلقة بين تربتين لا أملك أية واحدة منهما. أنت شيء آخر يا جاز. أنت خلاصة الاستثناء في حياتنا الصعبة. أنت الكسور العميقة التي لملمت لتنتج شيئا رائعا. أنت هذه النفحة الهاربة من زحام نيويورك وتعقيداتها. أنت ولدت في هذه الأرض وأنت منها مثلك مثل الآخرين. الجميل في هذه البلاد أنه لا يوجد فيها غرباء، كل ناسها غرباء، صنعوا وطنا من

---

(٣٢) Little Mamm

تشردهم وخوفهم وجوعهم، لهذا هم براغماتيون. هذه أرضك التي عليك أن تحبها وتعيد تركيبها باستمرار. عندما تكبر ستضيف لها أراضي أخرى، بعضها غريب وبعضها منك، وتسكنها لأنها تصير وقتها أرضك وجزيرتك الجميلة التي لن ينافسك فيها أحد. وقد نمضي العمر كله ونحن نصنع هذه الجزيرة بدون أنْ نتوصل إلى الإقامة فيها.»

انتبه جاز إلى مجموعة من الصور المرصوصة المنتقاة بألوانها الفاقعة والمستفزة. تأملها جيدا، ثم عبر بسرعة على الفتوحات العربية في مجالات التصنيع التي لم تكن عادية ومصافي النفط والمصانع الكبيرة. فقد شاهد بنايات كثيرة شاهقة تشبه ما يراه يوميا في بروكلين ومانهاتن والبرونكس وكوينز ونيوجيرسي... لم يتوقف عندها كثيرا وكأنه كان يبحث عن شيء آخر بين هذه الملامح التي لم تفض بأسرارها.

كانت المساحات منتظمة تاريخيا وكان يشعر بنفسه وسط عالم مائي لا يعرف له لا بداية ولا نهاية. لملم أفكاره قليلا. وهو يعبر الأمكنة، توقف فجأة عند كتاب مخطوط موضوع داخل علبة زجاجية وقد كتب على غلافه: **مراسلات الشريف حسين والسير ماكماهون**. كان الكتاب محاطا بمجموعة من الوثائق والمراسلات. ثلاث صور أثارت انتباه الكثير من الزوار الذين تحلقوا حولها كشيء غريب. وقف قليلا، وعندما انسحب الجميع، تقدم نحوها قليلا قبل أن يجد نفسه فيها. تأملها جيدا. علته مرارة مفاجئة. ثلاث صور داخل إطار قديم موحد. عندما التفت متسائلا وقع وجهه على عيني علياء التي قرأت دهشته.

- هذا الكتاب أتينا به من مركز الوثائق الإنجليزية. مراسلات الرجلين اللذين غيرا وجه المنطقة بقراراتهما. اقرأ هذه الرسالة لترى كيف صُنعت الجغرافيا صناعة. مذكرة الشريف حسين المؤرخة في ١٤ جويلية ١٩١٥، وتبين شروط العرب للقيام بالثورة والانضمام إلى الحلفاء: «**نريد أن تعترف انجلترا باستقلال البلاد العربية بأجمعها... من مرسين وأضنه حتى البحر المحيط الهندي. ومن بلاد فارس وخليج البصرة حتى البحر المتوسط والبحر الأحمر**». الرسالة الثانية هي للسير

هنري ماكماهون الذي أجاب في ٢٤ أكتوبر ١٩١٥: «**إن مرسين وأضنه وبعض الأقسام السورية الواقعة غربي دمشق وحمص وحماه وحلب لم تكن عربية محضة... والحكومة البريطانية مستعدة للاعتراف بالحدود التي ذكرها الشريف حسين بعد تعديلها على هذا المنوال.**». الرسالة الثالثة هي رد الشريف حسين في ١٥ نوفمبر ١٩١٥ على كتاب السير ماكماهون: «**نتنازل عن طلب ضم مرسين وأضنه إلى المملكة العربية، بغية تسهيل الاتفاق وخدمة السلام... ولكن لا يمكن أن نتنازل عن بيروت وسائر السواحل السورية لأنها عربية صرفة وليس هناك فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي، فكلاهما من نسل واحد.**»، وهذه الوثيقة الصغيرة المؤرخة في ٣٠ جانفييه ١٩١٦ هي آخر المراسلات بين الرجلين: « **والآن... وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق والحريات وتعمل معنا في سبيل هذه القضية المهمة، فإننا نرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد صداقة دائمة تعود على الجميع بالغبطة والسرور.**»، مايسترو... أترك لك تخيل ما آلت إليه الأمور بعد ذلك. الثورة العربية أعلنت بعد تاريخ هذا الكتاب بأربعة أشهر وعشرة أيام، في ١٠ جوان ١٩١٦. لا أدري إذا كان ذلك غباء أم حنكة سياسية لكن العرب كانوا الخاسرين دائما.

- وهذه الصور الثلاث؟

- هذه الصور مهمة. ربما هي أهم ما في المعرض إضافة إلى مراسلات الشريف حسين والسير هنري ماكماهون. استعرناها من الجامعة الأمريكية ببيروت. وهي عن الثورة العربية الأولى ورغبة العرب في التحرر من الأتراك وتكوين دولة مستقلة. ما تراه هنا، صور التقطت في سجن عاليه بمرتفعات بيروت في سنة ١٩١٦ لنفس الأشخاص وهم يبتسمون وكأنهم في عرس جماعي ثم وهم معلقون على أعواد المشانق في ساحة البرج. التاريخ المكتوب تحت هذه الصورة بالذات يحدد يوم الإعدام: ٦ ماي ١٩١٦. ساحة البرج. والتفاصيل الأخرى هي قائمة

أسماء الذين أعدموا في ذلك اليوم وكلهم من القادة والصحفيين والمثقفين: **سعيد بن فاضل عقل، باترو شادي، جرجي بن موسى الحداد، عبد الغني بن محمد العريسي، عمر بن مصطفى حمد، عارف بن محمد سعيد الشهابي، توفيق بن حمد البساط، سليم بن محمد سعيد الجزائري، أمين لطفي الحافظ، الشيخ أحمد بن حسن طبارة، محمد بن حسين الشنطي، سيف الدين بن أبي النصر الخطيب، جلال بن سليم البخاري وعلي بن الحاج عمر النشاشيبي**. وكومة الأتربة التي تراها في الصورة الثالثة، هي رمل الصنائع، المكان الذي دفنت فيه جثث الذين أعدموا في بيروت. هذا ما استطعت معرفته.

- يُقتلون وهم يضحكون؟

- ربما بكل بساطة، لم يكونوا يتوقعون أنهم سيقتلون.

رد جاز بعفوية طفولية.

- ليس هذا. كانوا مقتنعين لدرجة أنهم سخروا فعلا من الموت. هذه الصورة مأخوذة في سجن عاليه. لو تأملتها جيدا ستبدو لك الابتسامات في النهاية ضحكات سخرية باطنية. تأمل جيدا. لا أشك في أنهم يسخرون من المصور ومن القاتل. أنظر. أكثرهم قهقهة، الرجل الذي في الوسط.

اقترب جاز أكثر من الصورة حتى كاد أن يصير جزءا منها ونسي الناس الذين كانوا وراءه والعالم الذي كان يحيط به. شعر بالفعل بما قالته علياء.

- ما قرأته في بعض الوثائق وأنا أحضر لهذا المعرض، أن الرجل الذي في الوسط وهو يسخر بشكل واضح، هو رئيس الأركان، سليم بن محمد سعيد الجزائري الذي أعدم بلباسه العسكري مثلما هي عادة العسكر. قبل أن يموت قال لجلاده الذي كان يقوده نحو المشنقة: «**قل للخنزير جمال باشا ألا يفرح بموتي؛ لأن روحي ستظل حية. وسيتعلم أبناء البلاد دروس الوطنية من وراء القبر.**» ثم التفت نحو أصدقائه الذين

أخذت رجفة الموت الأخيرة بكل أحاسيسهم، «**لو متنا ونحن على أسرتنا لما بكانا إلا أهلنا. ولكن بفضل استشهادنا من أجل قضية وطنية سيتذكرنا أبدا الآلاف من النساء والرجال.**» الشخص الثاني الذي يتكئ عليه وهو يحاول أن يكتم ضحكته هو أمين لطفي الحافظ، هو كذلك أعدم بلباسه العسكري لأنه هو كذلك كان من كبار الضباط. أو على الأقل هكذا تقول الوثيقة التي قرأتها.

ثم تساءل جاز عن الوثيقة المصورة التي تحت الصور تماما. قالت علياء:

- هي وثيقة مصورة عن أصل حقيقي. هي مهمة لأنها بيان رسمي. بيان الإعدام الذي نشره الحاكم التركي جمال باشا مباشرة بعد تنفيذ الإعدام لتبرير فعله. يمكنك أن تقرأ بوضوح الترجمة، هي واضحة إلى حد ما: **جرى القصاص على بعض الأشخاص المنتسبين إلى الحزب المتشكل في مصر والممالك العثمانية تحت تمويه عنوان: حزب اللامركزية، الذين حوكموا في ديوان حرب العرفي بعاليه. كنت كتبت في البيان الذي نشرته في أوائل أغسطس سنة ١٩١٦ بأن التحقيقات جارية بصورة دقيقة بحق أعوانهم الأشرار الذين لم يكن قبض عليهم قبلا. وسيق إلى ديوان حرب عاليه الأشخاص الذين ظهر أن لهم علاقة في هذه المسألة بدرجات متفاوتة، مع من تبين أن لهم دخلا في المساعي الخائنة، التي تدل على اشتراكهم مع العدو، ضد الخلافة الإسلامية واستقلال الوطن، بتنفيذهم ترتيبات الجمعية وتشبثاتها وأعمالها. وفي ختام التحقيقات والمحاكمات التي أجراها الديوان، صدرت الأحكام المقتضاة بحق المظنون فيهم والموقوفين والفارين، كل حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن راية السلطة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة. وحكم بالإعدام على. . . لثبوت اشتراكهم في هذه التشبثات بالدرجة الأولى وبصورة فعلية.**

بقي جاز ملتصقا بالصور وببيان الإعدام بينما ذهبت علياء مع امرأة

أخرى، شدتها من يدها وقادتها إلى صور المدخل وهي تحاول أن تستفسر عن بعض التفاصيل.

شيء غريب انتابه. دقق في البيان طويلا ثم في الصور التي كان أصحابها ما يزالون يبتسمون ولم يكتب لهم أن يقرأوا البيان الذي يبرر قتلهم. ثم في صورهم وهم معلقون على أعواد المشانق والذين لا يعرف فيهم، كما قالت علياء، إلا الشيخ أحمد طبارة بطربوشه وبنيته القوية.

شعر جاز بارتباك كبير لم يعرف مصدره. ربما كان الإعدام وهذه الأعواد التي لا لون فيها إلا بياض الجثث المعلقة. دقق مرة أخرى في الصورة وفي ابتسامات الأشخاص. بدت له أليفة جدا. هذه الابتسامة رآها في مكان ما. في زمن ما لم يعد يتذكره. بدت له قريبة لدرجة شعر نحوها بألفة لا يعرفها إلا مع الأصدقاء والقريبين منه جدا.

- هل أوحت لك الصور بشيء؟

قالت ميترا وهي تقف وراءه.

- ربما كان التعب هو السبب ولكني أشعر بشيء غريب تجاه هذه الصورة تحديدا. هذا الرجل الذي يبتسم بقوة والذي اسمه سليم كما قالت علياء وكما هو مدون في الإشارة التحتية، أشعر أني أعرفه. ابتسامته رأيتها في مكان ما. مجرد شعور باطني مبهم.

- جاز. كل الابتسامات تتشابه. أنت في حالة إبداع وهذه الحالة تقرب منا كل الأشياء التي نشتهيها حتى تصير جزءا منا. الرجل شبع موتا منذ ١٩١٦. ألم تقرأ التفاصيل تحت الصورة؟

- بلى. قرأتها وقرأت بيان الإعدام المصاحب لها، وليس هذا ما أقصده. هذه الصورة رأيتها. عند أمي؟ لا أدري. ربما... عند جدي. أغلب الظن. حتى اسم سليم لا يبدو لي غريبا مطلقا. زرت جدي مع أمي العديد من المرات وأرانا الكثير مما كان يخبئه وسمعته يتحدث عن أسماء كثيرة مثل هذه. لا يمكن أن يكون ذلك كله مصادفة.

- ربما؟ ولكن ما هو السر في ذلك؟ قد يكون جدك مرتبطا بنفس

هذه الذاكرة من بعيد. لكن ما دخله بتفاصيل ١٩١٦ وهو ولد في ١٩٠٥؟ أي إن عمره كان محدودا.

- أمي يا ميترا كانت دائما تحدثني وهي تبحث عن أعذار لتصلب والدها معها عن جد اسمه سليم. جدي شاهد والده وهو يعلق على أعواد المشانق. كانت أنانيتي كبيرة. لم أسمع لها جيدا في الأوقات التي كانت تنفتح فيها شهيتها للكلام ولم تكن تريد أن تثقل علي بهموم كانت تحس أنها ستسجنني أكثر مما تحررني من قيود التاريخ والهوية. عملي هذا كله من أجل جدي ووفاء لوعد قطعته لأمي وهي تحت رعشات الموت. الأشياء بدأت تتغير فيَّ بقوة. علي أن أفهم التفاصيل التي تختبئ من وراء هذه الصور. قد لا يكون الأمر بكل هذه الأهمية ولكني أشعر كأن مخي مرتبك وفي غير مكانه. ثقيل جدا. الصدفة لا يمكن أن تكون مجنونة إلى هذا الحد. كيف لم أنتبه لكل هذه التفاصيل من قبل يا ميترا؟

- أنت تضخم من صدفة قد تكون عابرة. أعتقد أنك في الأيام الأخيرة أتعبت نفسك كثيرا قراءة وعملا. ماذا تريد أن نفعل، أن نسافر إليه في طوليدو بولاية أوهايو ونسأله؟ لا جديد في ذلك، اتفقنا أن نزوره في أقرب فرصة ممكنة، ونبقى معه الوقت الذي تشاء. ولكن لا تخلط الأشياء، أرجوك. لا يوجد سليم واحد في الدنيا.

- ولكن لا يوجد سليمان ماتا بنفس الطريقة. أشعر برغبة كبيرة لزيارة جدي وإقناعه بالمجيء إلى نيويورك التي يكرهها والتي يعتبرها المدينة التي تسرق كل شيء جميل ويحملها سرقة مايا منه. أستغل الفرصة للبحث في أرشيفه الذي لا أعرف منه إلا القليل والاستفادة منه للسيمفونية. كل ما أعمل عليه هو معلومات أتت من تفاصيل التاريخ العام ومن أمي خصوصا. أشعر بالحاجة للذهاب إلى أبعد من ذلك.

- خلاص. مادام الأمر مهما إلى هذه الدرجة والحيرة مربكة إلى هذا الحد، طوليدو ليست في آخر الدنيا. يمكننا أن نرتب الزيارة بسهولة. نتشاور مع فيليب فقط. ثم إن افتتاح موسم الأوبرا سيصادف وجودنا هناك، سنستفيد من زيارتنا. ربما استطعنا أن نقنع جدك لكي

يذهب معنا إلى السهرة لتكون لديه فكرة صغيرة عَما ننوي القيام به. مهم جدا أن يخرج من عزلته وأن يلمس عن قرب هذه الأشياء.

- صحيح. قد أكون مخطئا ولكني أشعر كأن شيئا كبيرا وغامضا يهزني من الأعماق. أمي كانت تقول لي دائما «جدك طيب ولكن حياته القاسية علمته الانفراد والعزلة وأية زيارة له هي اغتصاب لمساحة ما من هذه العزلة القاتلة. ثم أني لم أكن دائما البنت التي اشتهاها. أبي دخل أمريكا بعقل حي ولكن الهزائم المتكررة كسرته حتى صار هشا.» ومع ذلك سأزوره. أعتقد أنه يحبنا، فقد سأل عنا يوم الاعتداء على برجي المركز التجاري قبل أي شخص آخر. وعندما كلمته فيما بعد، كان ممتلئا بالحنان ووعدته بزيارة وسيرحب بنا دون شك.

- يمكن أن نبرمج سفرة في نهاية الأسبوع. نقضي معه ليلة أو ليلتين إذا كان وضعه الصحي يسعفه قليلا ثم نعود.

- صحيح سيكون من الصعب دعوته للكلام. أمي تقول إن جدي صمت نهائيا منذ ١٩٦٧ وانكسر. هذا التاريخ كان الضربة القاضية التي قذفت به في أتون المنفى الداخلي. منذ ذلك التاريخ تأكد له أن تاريخا آخر كان يصنع بمعزل عنه ولم يكن يملك له الأدوات التي توصله إليه، هو الذي قضى العمر كله هاربا كالذئب من أجل قضية ظنها طوال عمره عادلة وأن الظلم زائل لا محالة وأن الأرض التي عشقها ستظل واحدة. وفوجئ ذات صباح وهو يتوضأ عند باب غرفته، بهزائم تلد الهزائم وأنظمة فاسدة تلد أنظمة أكثر فسادا وبانفجار كل شيء حتى صارت الأرض العربية كمرآة ألقي بها من أعلى طابق في البناية. كيف نجعله يتكلم وهو الصامت المبهم؟

- لكل حادث حديث. سيتكلم إذا عرفنا كيف نقترب من آلامه. احذر فقط أن تنعكس علاقته مع مايا عليك.

- آخر مرة رأيته كان ذلك في المقبرة. كنت مسافرا إلى لوس أنجلوس مع الفرقة الفيلارمونية لبروكلين. استقبلته في المطار هو وعائشة الطالبة المغربية التي تسهر عليه، وضع باقة الورود على القبر وقرأ القرآن

على روحها. لم يبك ولكن وجهه كان مثل الزجاج المنكسر ثم عاد في نفس اليوم إلى طوليدو. عندما اقتربنا من المطار، سألني عن الموسيقى. قلت: كل شيء على ما يرام. قال: الطب لم يكن سيئا ولكن مايا كانت عنيدة. ثم صمت. ولم أرد عليه مطلقا. فقد كان داخله منكسرا. ربما سؤالي نفسه كان سيبدو له سخيفا. ولكني مع ذلك متأكد من أن صورة المعدومين رأيتها أو رأيت ما يشبهها عند جدي.

- نتصل به.

- لا لن أتصل به. سأفعل مثلما كانت تفعل أمي معه، كلما اشتاقت إليه، ركبت في أول طائرة وطارت نحوه لمدة يوم أو يومين ثم تعود. طلبتْ منه أن يعيش معها في مرتفعات بروكلين هيتز(٣٣) حيث كانت تقيم وحيث يوجد مرسمها لكنه رفض بشكل قاطع. «- أبدا. قال لها: لا أريد أن نخسر أحدنا الآخر بشكل سخيف ونهائي. لنحافظ على الأقل على الخيط المتبقي.». ولم تلح عليه. كانت تعرف عناده جيدا ويعرف إصرارها عندما تقتنع بشيء. فقد كانت حريته وحزنه أكبر من أن يقتسمهما مع الآخرين. سنفاجئه ولن يطردنا. هو يحبني. أشعر بذلك.

- أتظن أن زيارتك هذه ستسعده؟

- أنا في حالة حداد وعليه أن يسمع إلى قلبي على الأقل؟ تعرفين يا ميترا أن تعاونه سيساعدني كثيرا في تعميق الإحساس موسيقيا بقصته. أنا أعرف أن وراء حياة رجل مثل جدي مأساة كبيرة، هي مأساة جيل كما كانت تقول أمي. جيل أشبع بالأفكار والبطولات واليقين المطلق حتى صار أعمى عما يحدث حوله. أصعب شيء يصيب جيلا من الأجيال هو حالة العمى. ثم اكتشف ذات صباح عجزا مفجعا لم يكن مستعدا لتقبله. قرأت كثيرا عن هذا التاريخ وأستطيع أن أرتب إحساسا خاصا من الناحية الموسيقية ولكني أريد أكثر من ذلك. أنا متأكد من أن كلام جدي سيغير لدي الشيء الكثير. أنا أرى بالفعل أن ما يحدث يمكن أن يتحول إلى

---

(٣٣) Brooklyn Heights

أوبرا من الطراز الرفيع أو كوميديا موسيقية. تخيلي للحظة كوميديا موسيقية في برودوي؟ ألا يغير هذا نظرة الناس للأشياء السهلة ويدفع بهم على الأقل نحو التفكير قليلا؟

- أنت تتحدث عن حدادك، يجب ألا تنسى أنه هو كذلك في حالة حداد منذ أن ترك أرضه وأحبابه؟ ولم تزده الخيبات المتراكمة إلا وجعا. تصور رجلا يضرب عن الكلام قرابة نصف القرن؟ إذا لم يكن قويا وصلبا سيموت لا محالة. أنت تعرف يا جاز أن كل إنسان في النهاية كتاب. وكل كتاب لا يشبه الآخر، وان الشوارع التي نعبرها يوميا هي مكتبات واسعة، مفتوحة على الهواء الطلق وكتبها في متناول الأعين التي تريدها، ولكن هناك أقلية قليلة قادرة على القراءة. لا تتمركز حول آلامك. الآخرون لهم مآسيهم كذلك، وجدك من هؤلاء. عليك أن تقوى على فهمه.

- ولكني أريد أن أستمع إلى صوت جدي. مسألة حيوية ليس فقط بالنسبة إلى ما أريد معرفته، ولكن بالنسبة إلى عملي الموسيقي نفسه. بدأت أشعر بتصدعات فيه وبياضات كثيرة ربما استطاع جدي أن يمدها من روحه.

- قلتها بنفسك. تريد أن تستمع إلى أنين جدك؟ أنصت له، هذا هو المهم. أعتقد أنه في حاجة إلى من يستمع إلى أنينه وأشواقه أكثر من حاجته إلى الإجابات. ربما أمدك بفكرة جديدة للمشروع، أليس هذا هو القصد في النهاية؟ جميل أن تمنح جدك عملا يرى نفسه فيه.

- ربما. وربما أكثر من ذلك. معرفة هذا الرجل الذي فضل الموت صمتا على الكلام.

كانت أضواء المدينة قد اشتعلت بألوانها المنعكسة على زجاج البنايات والطرقات المنداة بمياه الأمطار، عندما غادرت سيارة شيروكي 4x4 شارع أمريكيز[٣٤] كالسهم باتجاه عمق المدينة. بعد لحظات توقفت

---

(٣٤) Americas Avenue

على رصيف شارع برودوي الطويل، في حي المسارح بثياتر ديستريك[٣٥] بمحاذاة إمبسيدور ثياتر[٣٦]، (مسرح السفراء) في تقاطع برودوي مع الشارع ٤٩ حيث بدت صورة الكوميديا الموسيقية «**شيكاغو**» تملأ الجزء العلوي من الحائط.

- استلم البطاقات، الأماكن محجوزة باسمي منذ البارحة. أوقف السيارة في الباركينغ وألحق بك في بهو القاعة. لن أتأخر حبيبي.

- طيب. أنتظرك.

قالها جاز وهو يمد يده نحو وجهها الطفولي وشعرها المنسدل على كتفيها كشلال من النور. شعر بالوقت يمضي بسرعة غريبة. كانت ملامسه تبحث عن كل ما ضاع منه طوال الأيام الماضية التي كادت أن تعصف بكل شيء. شعَّت ابتسامتها تحت الأضواء التي كانت تتكسر على المكان بكثافة، عندما مس شفتيها المنفرجتين قليلا، بإبهامه وتركه يسرح عليهما كمن يكتشف بدهشة لحظة استثنائية يخاف أن تنتهي قبل أن يقبض على نبضها، ثم بشفتيه، شعر بدفء وبنعومة لم يشعر بهما منذ مدة طويلة.

اندهش جاز كيف أن غمرة الحياة اليومية أخذت ميترا بعيدا وحرمتها حتى من تذكر عيد ميلاده الذي كانت أول من يستحضره في الساعات الأولى من الصباح بباقة وردها التي تخبئ في عمقها فرع الياسمين. هذه المرة، بدا له أنها كانت تتحرك بآلية وكأن أمر ميلاده لم يكن يهمها قط.

«- أي عيد ميلاد وسط خراب كهذا بدأنا نخرج من ركامه بصعوبة؟ تساءل جاز وهو يبحث لها عن مبررات: من يدري؟ ربما لأنها هي كذلك مأخوذة معي بنفس هاجس السيمفونية التي يجب أن أنتهي منها. هذا وحده كاف لأن يخلق حيرة كبيرة لدى الإنسان ويحجز فكره ونباهته المعتادة في دائرة ضيقة هو الأقدر على الإحساس بها.»

---

(٣٥) Theater District

(٣٦) Ambassador Theater

لا يعرف إذا ما كان عليه أن يذكّرها أم يترك الأشياء تسير من تلقاء نفسها.

- لا تتأخري، أرجوك.

- دقيقة واحدة، حبيبي. أوقف السيارة وأعود لك. أنا كذلك لا أريد تركك.

ثم غابت في الشارع الخلفي.

كانت أمطار الخريف قد بدأت تغطي نيويورك وضواحيها وتكسوها بغلالة من الماء الشفاف والرقيق جدا. زادت البرودة أكثر مما جعل جاز ينكمش وهو يتخطى عتبات باب المسرح حيث تعرض منذ سنوات طويلة، الكوميدية الموسيقية: **شيكاغو**.

-٣-

رفع رأسه قليلا نحو واجهة المطعم متحملا قوة المطر التي انهالت على وجهه. لم تكن باردة. أمطار نيويورك في هذا الوقت تكون عادة دافئة وخفيفة، ولكنها هذه المرة كانت كثيفة وثقيلة. بان له اسم المطعم «**مطعم تشيكانو**» مجرد ألوان وخطوط عمودية. صعد بسرعة الدرج لكي يقي نفسه من المطر الذي زادت حدته.

- متأكدة أنه هذا هو؟

- هذا هو. مطعم تشيكانو، يا حبيبي ولا يوجد غيره في حي المسارح. هو. بالضبط في دوار التايمز سكوير[٣٧] حيث يختبئ في تقاطع استثنائي يجعله حميميا ولا مرئيا: من جهة شوارع برودوي، الشارع السابع وأمريكيز[٣٨] التي تنتهي كلها عبر امتداد سنترال بارك[٣٩]،

(٣٧) Times Square

(٣٨) Americas

(٣٩) Central Park

ومن جهة أخرى الشارع الثاني والأربعين[٤٠] الذي يقطعها في وسطها، قبل أن ينتهي غربا عند حواف بحيرة هودسون. الآن عرفت أين نحن، لا يمكنني أن أخطئ.

- طبعا. . . طبعا. . .

نظر إليها مليا. شعر بأنها تخبئ شيئا. هل هي المصادفة فقط؟

ابتسمت. بدت بوضوح سخريتها على طرفي شفتيها.

- كما تشتهي. لم أجد مكانا أجمل من هذا نتعشى فيه بعد **شيكاغو**، الكوميديا الموسيقية المذهلة.

- تعرفين يا ميترا، هذا المكان يذكرني بأول لقاء لنا في مقهى جاز شبيه بهذا. كم يبدو الزمن بعيدا وكم تبدو آلة الوقت ساحقة! ما زلت أتذكرك في سهرة الجاز وأنت مختبئة في الزاوية وسط كومة من الأدخنة المنبعثة من كل مكان والتي لم تكن تظهر إلا جزءا صغيرا من وجهك المضاء بالقنديل الصغير الذي كان عند رأسك وكيف وقعنا في لعبة الأسماء. عندما سألتك عن اسمك قلت ميتا. لم يثرني اسمك. ثم أضفتِ: هو تصغير لميترا. أعجبني الإيقاع. رددت ممططا اسمك: مـ. . . يـ. . . ت. . . را، جميل. سألتني بدون انتظار: واسمك أنت؟ قلت جاز. ضحكت طويلا ثم قلت: أرجوك كن جادا قليلا ولا تسخر مني. جاز يحضر حفل جاز. كريمر ضد كريمر[٤١]. ضحكة مجنونة بلا توقف، قبل أن أخرج بطاقتي للتأكيد من أني لم أكن أسخر. كانت صدفة مثل هذه بالنسبة إليك أمراً مستحيلاً. ومنذ تلك اللحظة تغيرت أشياء كثيرة. أخيرا رأيت نورا صافيا يخترق عينيك. تمتمتِ غير مصدقة ما كانت تراه عيناك: يحدث.

- أنت تعرف جيدا أنك لو لم تبادرني بالكلام، كنت أنا فعلت ذلك.

---

(٤٠) 42nd Street

(٤١) Kramer contre Kramer (فلم أمريكي)

- كنت وسط بحر من الأدخنة الكثيفة.

- أراك ولا تراني.

كانت الأمطار ما تزال تسقط وزادت قوتها أكثر.

انزلقا في عمق المطعم. شعرا بالدفء الكبير. نزع جاز من على ظهر ميترا معطفها الصغير ونزع هو معطفه الخشن وعلقهما على مشجب المدخل. طلب منهما عامل المطعم الذي عرف ميترا أن يتبعاه نحو الزاوية المعتمة قليلا.

- هل يعجبك المكان؟ قالت ميترا، أنا اخترت هذه الزاوية حتى لا يرانا أحد ويثقل علينا، ثم لأذكرك بالفعل بلقائنا الأول في هذه المدينة.

- نسيت أن أسألك عن رأيك في الكوميديا الموسيقية «**شيكاغو**».

- رائعة وشخصيات مذهلة. كل شيء جاهز لتشحيم هذا الجهاز الضخم الذي اسمه آلة المال والمافيا والمخدرات. انقلابات الدنيا صعبة ولهذا نحن في زمن لم يعد فيه أي شيء مؤكدا.

- موسيقى مثل هذه تشغلني. منذ أيام أفكر في شيء مهم وأخشى أن ينسف كل العمل الذي أقوم به من أساسه. بي رغبة كبيرة لأن أفعل شيئا آخر يجعل من السيمفونية دراما عميقة. طبعا لا أريد أن أحول عملي إلى أوبرا مع أن الأمر يتعلق ههنا بتراجيدية تستطيع الأوبرا أن تجسدها. ولكن ذلك يحتاج إلى أموال كثيرة ومختصين وراقصين ورجال استثنائيين وإلى إستراتيجية أخرى غير تلك التي أسير عليها. هل تتصورين ضخامة المشروع؟

- فيم تفكر إذن؟

- في شيء قريب من هذا لم تتضح بعد معالمه بشكل جيد. كله مترتب على تعامل جدي معنا وعلى مرونة فيليب غلاس. أن أبقى في نفس مسار السيمفونية واستغلال الوسائل السمعية البصرية الحديثة، شاشة كبيرة مثلا توضع في خلفية الفرقة أو على الجوانب تجسد كل المراحل التاريخية التي تضبطها الإيقاعات. أعتقد أن ذلك ممكن من الناحية التقنية. لن يروق طبعا للمدارس الفيلارمونية المغلقة في نيويورك

وخارجها، غير مهم. أحتاج فقط أن أملك الوسائل الكافية لإقناع فيليب لأن المصاريف ستزيد قليلا ولكن العمل سيكون مقنعا وكبيرا وأعتقد جميلا كذلك.

- فيليب يحبك. بل يشعر نحوك بأبوة كبيرة، ولن يرفض لك طلبا، وعملك في النهاية خدمة لأوبرا بروكلين المعروفة بنزعاتها التجديدية الكبيرة. الفكرة جيدة ولكن تأملها من كل جوانبها. ادرسها مع الفرقة التقنية ومع فيليب. أرأيت سحر الزوايا المعزولة وشبه المظلمة، إنها توفر علينا عناء التكلم والرد على الذين يعرفوننا.

- لا يوجد من يعرفنا؟

- من يدري؟

كان مطعم تشيكانو، الأرجنتيني متخما بالزبائن. لكل مطعم عاداته في نيويورك. هذا مثلا عندما يمتلئ ويلتحق كل الزبائن الحاجزين بأمكنتهم، يسد أبوابه مثل قاعة سينما، ويضع عند المدخل إشارة: **الرجاء عدم الإزعاج. مملوء**. خصوصا في الأمسيات السبتية.

كان بخار الأكلة المحلية التي وضعها الشاب أمامهما مغريا. الملعقة الأولى لم تكن لذيذة. كانت الأكلة حارة وساخنة وكانت بهاراتها تشق الأنف من الداخل كأنها أتربة مطحونة. تحمَّلها ولكنه سرعان ما بدأ يستلذ الأكلة تماما مثلما قالت له ميترا.

- هه، ما رأيك الآن فيها؟ أليست أكلة خارقة؟ أكلة أرجنتينية قديمة ما تزال إلى اليوم العائلات في أمريكا اللاتينية تطبخنها في المناسبات الاستثنائية لأنها تذكر بالأوائل ولها خصائص سـ. . . حـ. . . ـر. . . يـة.

ضغطت على كلمة سحرية وهي تخوِّر عينيها بابتسامة تحمل الكثير من الألغاز.

- جيدة ولكنها حادة جدا.

- يبدو أن جانبك الشرقي ليس قويا. تعرف أن الأكل في الهند والخليج وإيران لا يحلو إلا بهذه البهارات التي تعطيه طعما آخر وتسخن من الداخل. اتركنا من الأكل، أنا اليوم أشتهي أن أرقص معك التانغو.

على كل في هذا المطعم لا خيار لديك، التانغو مثل الأكل، خصوصية أرجنتينية.

- فكرة جيدة؟

- لأن أول رقصة رقصتها معك كانت عبارة عن تانغو. لاقتنا الصدفة في البداية ولكن في المرة الثانية الصدفة صارت ترتيبا. تعشينا هنا، في هذا المكان. أحسست بك ليلتها ممتلئا بالأشياء الجميلة. وجدت فيك حساسية مدهشة تجاه ما يحيط بك. دعوتك للرقص فلم تمانع.

- سنوات مرت على تلك اللحظة الأولى. أكاد أنسى التانغو والرقص؟ تخيلي؟ مايسترو المفترض أن يظل مختبئا في الأوبرا يكرر حركاته وعمله مع فرقته، يراقص عازفته الأساسية على الكمان، على نقرات التانغو؟ لابد أن يكون في الأمر التباس؟

- الموسيقى كالدنيا فيها متسع لكل شيء. البشر هم من يضيِّق المساحات الممنوحة.

بدأ العزف خفيفا. وميترا الدقيقة في شربها لم تعد تحسب كؤوس الويسكي التي احتستها.

التمعت الشمعات الحمراء التي تزين طاولات المطعم بتعب ظاهر وبدأت تتماوج على الماء في الكؤوس قبل ذبولها، على إيقاع موسيقي كان يتسارع باستمرار.

كانت مثل نجمة في سماء واسعة. لباسها الأحمر وكعبها الطويل زادا من شموخها وحضورها. مدت له يدها اليمنى فاحتضنها في عمق يده اليسرى، كعصفور هارب. وعندما قبضت قليلا بيدها اليسرى على ذراعه الأيمن، كان يمد هو كفه مفتوحة عن آخرها على ظهرها العاري. سحبها قليلا نحوه. عطرها الساحر يورث حالة من الرعشة والدوخة. شعر بها قريبة منه أكثر من أي زمن مضى. كانت دائما تنزلق من كفه، من بين أصابعه كالضوء الهارب، كالشعر والكلمات. أحس بأنفاسها قريبة من وجهه عندما التصقت به. تذكر حركة الإيقاع. خطا خطوة نحو

الجهة اليمنى مع التفات خفيف باتجاه اليسار في آخر الحركة الثالثة ليترك رجله تتمادى بين حافتي ساقيها وبين اللباس المنفتح حتى الأعلى. وقبل أن يستقر على الوضع، تنسحب هي في حركة شبه مماثلة، ترفع قدمها اليمنى، يظهر كعبها العالي وساقها التي كانت كشمعة ثم تنسحب قليلا إلى الوراء، تتحرر قبل أن تعود إلى نفس وضعية الأسر. ضغط جاز على الأرضية، توازن قليلا، ثم سحبها نحوه. وقبل أن تصل إليه تتراجع قليلا بشراسة ثم تنسحب دون أن تترك رؤوس أصابع يده اليمنى التي شدت عليها بقوة. لباسها الدافئ الذي التصق بجسدها منحها خفة استثنائية وغواية لا تقاوم. تبتعد قليلا بتمايل خفيف. تترنح. تمنحها حركتها نفسا يصعد بها عاليا دون مشقة. ترفع رأسها نحوه. يرى ابتسامتها وقد غرقت في ألوان الضوء الذي كان ينزل من كل جهة. خطوة، خطوتان. ثلاث. ترفع ساقها قليلا كمن يستعد لهجوم مباغت. يمد يده ويرفعها أكثر ليلصقها بجسده بقوة قبل أن يحرره. ترتمي باتجاهه كالورقة ثم تلتصق به بعنف، وجها لوجه. العين في العين وفمها يكاد يلامس شفتيه. تلتفت قليلا صوب اليمين وكأنها ترفض أن تستسلم للشهوة التي غزت جسدها. تتمنع بنظرة عينيها الحادتين. تلتفت نحو الضوء لتندفن رغبتها داخل الألوان وتغرق في تداخلاتها وإشعاعاتها. يشد على خصرها. يتذكر قسوة كارمن. يتبعثر شعرها وراءها كشلالات لا متناهية تبرق بآلاف التموجات التي كانت تتناغم مع الموسيقى المنبعثة بشكل مضخم من زاوية المطعم. وضعت يدها في يده مثل المرة الأولى. شعر بحرارتها. تسحبها من ذراعه ثم تمررها على وجهه ثم على شفتيه ثم رقبته وصدره، قبل أن تحاول الانفصال عنه ولكن يده التي كانت تطوق خصرها منعتها من الانزلاق إلى الوراء. تترك صدرها يرجع إلى الوراء وينزل شيئا فشيئا حتى يلامس شعرها أرضية الحلبة. تبدو في انحناءاتها أنها مقبلة على انكسار كلي. وبحركة سريعة تعود إلى وضعها الأول وتقف كالصفصافة، مستقيمة وصدرها في حالة نفور كلي، نهداها مثل قرني ثور. اليد في اليد. العين في العين والفم يكاد يلامس شفتيها. تتوحد بجاز إلى درجة

أحس بانضغاط نهديها على صدره وسمع دقات قلبها التي كانت تتسارع بقوة كبيرة. ثم التصقت بكامل جسده وتداخلت سيقانهما.

عندما اشتعلت الأضواء من جديد، أشرق وجهها بالنور وامتلأت عيناها بالرغبة الحية والأشواق، وشوشت في أذنه. كانت ممتلئة به.

- ما رأيك؟

قالتها بأنفاس متقطعة وسعادة كبيرة وهي تعبر بعض الطاولات للذهاب إلى الزاوية المظللة.

- لا أدري ماذا أقول لك، ولكنك كنتِ مثل الغيم الهارب. كمشة ماء. كلما حاولت أن أقبض عليك، انسحبت. لا أدري إذا كنت فارسا جيدا أم كهلا بدأ يفقد رشاقة حركاته؟

- هل تعرف كم أحبك؟ ولكنك طبعا لا تعرف؟

قالتها وهي تقف بين طاولتين وتنظر إلى وجهه بدفء. رقصت في عينيها لغة غير معهودة وأشواق كسرتها الأيام الماضية حتى كادت تدخلها في دوامة الفراغ واليأس.

- أحبك ولا أدري كم يلزمني من الوقت لكي أعرف أن لك عالمك الذي علي أن أتعود عليه عندما يسرقك مني! لك مزاجك الذي أحب جنونه ولكنه يؤذيني. كم يلزمني من الوقت لأشبع منك إذن؟

- ميترا. حبيبتي. أعتبر اليوم نفسي بحظ روكفيلير وربما أحسن قليلا. معرض صور مدهش. كوميديا موسيقية جميلة، أعادتنا إلى زمن خلا بأحزانه ومسراته ونسائه الخارقات، ثم هذا المطعم الأرجنتيني الأنيق الذي أعيد اكتشافه. عشاء فاخر وامرأة فوق أي تصنيف؟ ماذا بقي من شهوات الدنيا الآسرة؟ لا شيء. وحياتك أحسن من روكفيلير. هل بقي ما أطلبه؟

- طبعا، اطلبني أنا.

سحبها نحوه قليلا حتى صارت المسافة أقل من نسمة هواء. كان يشتهي أن يغمض عينيه ولا يراها إلا هي وبلمسة يد سحرية تفرغ كل هذه القاعة من بشرها. قبلها ثم سارا نحو طاولتهما.

كانت الشمبانيا باردة داخل سطل مليء بالثلج.

- هل أطلب فتحها؟

- لا. لذة الشمبانيا هي هذه، اللحظة التي يسقط فيها الغطاء. حاجز السعادة.

- ولكن الصوت قد يزعج الحاضرين.

مد كفه إلى رأس القنينة شعر بنعومتها. وضع الغطاء الفليني في عمق كفه ثم بدأ يدوره بهدوء وفجأة طار الغطاء محدثا انفجارا قويا داخل المطعم.

ملأت ميترا الكأس حتى فاضت. ضحكت.

- يا مجنون لماذا لم تنبهني أن زبدها كثير.

- أريد من الكأس أن تغرق ببهائك.

مصت بقايا الزبد الذي فاض على أطراف الكأس مشكلا خيوطا بيضاء وفقاعات صغيرة تمحي بمجرد انحدارها قليلا على أطراف الزجاج. ثم قامت في مكانها. أشعلت الأضواء من جديد. صارت الزاوية نفسها مضاءة عن آخرها. رفعت كأسها عاليا ونقرتها مع كأس جاز الذي ظل ملتصقا بملامحها التي اندمجت مع تفاصيل الأنوار.

- ليرفع الجميع كأس حبيبي جاز.

التفت. لم يفهم شيئا كبيرا. ظنها سكرانة. شنشن صوت الكؤوس بقوة، فتداعت له الأصوات في أماكن متعددة من المطعم. التفت جاز وراءه وهو يحاول أن يضع يده على عينيه لتفادي شلال الضوء الذي نزل على رأسه. رأى الكؤوس مرفوعة في كل المطعم وفي حركة واحدة. لم يفهم كثيرا ما كان يحدث. ردَد الصوت في شكل جماعي وكأنه جوقة موسيقية:

«- **سنة حلوة يا جميل... سنة حلوة يا جاز.**»

وضع رأسه بين يديه وهو لا يدري إذا ما كان يحلم أم في كامل وعيه؟

- مـ...يـ...تـ...را... ماذا فعلت بي؟ من أين جئت بكل

هذه الدهشة؟ من علمك كل هذا البهاء يا مجنونة؟ انتظرتك صباحا ففاجأتني ليلا. انتظرت باقة ورد منك فوجدت نفسي في حديقة، عرق ياسمين فكنت أنت. أنا فعلا غبي. لا أجد شيئا آخر أؤنب به نفسي. شكرا لك.

ثم احتضنها بقوة وبكل الحرارة التي في جسده وهو لا يعرف ماذا يقول. مدت أصابعها إلى تفاصيل وجهه وهي تخرج من ذراعيه وتحاول أن تخفف من دهشته التي لم يستطع مقاومتها.

- هذه طريقتي للاحتفاء بك حبيبي. كل سنة وأنت رائع وشامخ.

كلهم كانوا هنا. وكلهم رفعوا كأسه عاليا وهتفوا بصحته وطول العمر، وكلهم تركوا الشمبانيا تفيض على الأطراف. عاملو وعاملات المطعم الأرجنتينيون والآسيويون، فيليب غلاس، جون بوفا، مسؤول الإضاءة فريدريكو، كارولين عازفة الكلارينات، كادي صاحب الآلة الشرقية الطارة أوالشنيشنة، وكل أعضاء الفرقة الفيلارمونية لأوبرا بروكلين، جوديث، علياء، إرنستو... لم يصدق عينيه. مطعم كامل من أجله.

- أتمنى ألا أكون قد أقلقتك. مثل هذه اللحظة يُحتفى بها لأنها لا تتكرر كثيرا.

قالت ميترا وهي تحاول أن تخفف من دهشة جاز الذي وضع وجهه الصغير بين يديه كالطفل وهو يتذكر غباوته مع ميترا التي رتبت كل شيء دون أن تترك أي مسلك للمفاجأة.

ثم قام فيليب غلاس من طاولته وأخذ ميترا من يدها تحت تصفيقات وهتافات جميع الحاضرين وقادها إلى حلبة الرقص. طلب من الشاب الذي كان بقربه أن يأتيه بالكمان. سحبه من الزاوية الخلفية، من غلافه عرف جاز أنه لميترا. ثم عاد فيليب إلى مكانه. تلمسته. أخرجته من غلافه. قبل أن تمد يدها إلى القصبة وتعدل نهائيا الكمان على مستوى الكتف والذقن، قالت وهي تبحث عن كلماتها المرتبكة:

- اسمحوا لي أن أكون أنانية قليلا. قلبي يخفق الآن لحبيبي جاز

الذي عجنته نيويورك بحبها وحريتها وجنونها ومائها وجسورها وحرائقها. مسكون بهذه المدينة. ويذهب فكري نحو أستاذتي التي كانت في الرحلة المتوجهة من بوسطن إلى لوس أنجلس ولكنها للأسف لم تصل أبدا، إلى مارينا التي ما تزال تعيش على وقع ألم افتقاد صديقها وصديقنا جميعا فرانكي الطيب، وإلى كل الذي تركوا أرواحهم تحت ركام البرجين ونيران الحرائق، على بعد أمتار من هذا المكان. لهم جميعا قلبي وحبي. شوقي يذهب أيضا نحو والدي شيرازي الذي لم أعرفه لأنه عندما قتل تحت التعذيب في سجن طهران كنت أرحل مع أمي خارج أرضنا الطيبة. ولكني متأكدة من أنه سعيد بنا ونحن نصر على أن نجعل الحياة تنتصر على الموت. أبي الذي لم يعرف في حياته شيئا آخر إلا الشعر والعزف على السنطور، وإلى صديقه الشاعر الكبير ميرزاده الذي عندما طلب منه القتلة أن يدفع الشبهة عن نفسه قال بكل بساطة: أنا شاعر. ووقوفا عند رغبة صديقنا الكبير: فيليب غلاس، إليكم هذه الافتتاحية، أستسمح سلفا المايسترو جاز على بعض الأخطاء التي قد تصدر مني، أرجوه أن يتحمل هفواتي، فهذه الافتتاحية، كما يعرف الجميع، ما تزال في طور التكوين.

ثم رفعت يدها اليمنى وكأنها تطلب من الحضور الصمت الكلي. الصمت الذي يشبه الموت أو دهشة اكتشاف الحياة الأولى. وضعت القصبة على الكمان ثم سحبت بهدوء وبحركة انسيابية تكاد لا تسمع على الخيط الأول، فخرج الصوت نقيا وصافيا وعذبا. تحركت أصابعها قليلا لتضغط أكثر على الخيط تحرره من تردده. بدا كأن للحزن لونا وصوتا وحياة. ثم بدأ يتداخل على ريتم هادئ يستدعي بحنينه حياة مضت في البحث عن انكسار الروح. رأت ميترا شعلات النار وهي تأكل حي الملاهي في وسط طهران التي كانت ترفع الأعلام الخضراء وتنزل كل الألوان الأخرى. تصاعدت الأصوات المرتبكة والمذعورة تطلب النجدة لكن لا أحد يسمع للصراخ. لا أحد إلا النار وعراء موحش كان يمسح كل معالم الزهو والسعادة. يتحول العزف إلى ألم يشبه النحيب ودعوة

إلى الانعتاق المستحيل. يركض الرجال والنساء في كل الاتجاهات. يأتي صوت الموج متكسرا على شواطئ لم تعد قادرة على صده. تتعرى الأشجار الطيبة من أوراقها وتتحول إلى حطب يابس، بعضه يتحول إلى مشانق عالية مصطفة على أطراف الطرقات كجنود مهزومين ينتظرون زيارة رسمية، وبعضه الآخر يتراكم ويشتعل بقوة. تجرجر الوجوه الأنيقة التي سوَدها رماد الحرائق على الحجر المسنن والأتربة الخادعة الخالية من أية رحمة. ثم تحمل وترمى في عمق اللهب الذي كانت تتعالى ألسنته، كلما حول جسدا إلى رماد طلب المزيد. يصرخ الشاعر ميرزاده بأعلى صوته. يضع يديه حول فمه لتكبير صوته ويصرخ أكثر. يعوي مثل الذئب في خلاء موحش. لا أحد يسمع: ألم يكن الخيام شاعرا وعاشقا للدنيا ولسحر الكأس؟ تزداد بحة الكمان الذي يفقد ألقه الأول ويدخل في غمرة إيقاع يشبه النشيج والبكاء. يتأرجح بين الحدة والليونة. ينحدر، مثل قطعة ثلج، يذوب. تنحني ميترا متتبعة تلونات الإيقاع، يتدلى الشاعر الكبير على أعواد المشانق المصطفة بانضباط عسكري، تموت الكلمات في حلقه ويجف ماء الأرض وتشيخ الأشجار ثم تتهاوى بسرعة. ينزل ضباب مفاجئ يشبه الدخان، يعمي كل شيء ويدخله في غلالة داكنة اللون. كانت المدينة تعلن قداسها الجنائزي في الخفاء. تسبقها دمعة. تنزل على خيط الكمان فتصعد رقته من جديد ويتضاءل بهدوء حتى يصير صمتا. ثم صمتا نهائيا تعقبه عاصفة من التصفيق. تنحني ميترا قليلا، ثم تقوم وتنحني مرة أخرى وهي تردد:

- شكرا. . . شكرا لكم أيها الأصدقاء على هذه الأمسية الجميلة. شكرا. لقد منحتموني سحر هذه اللحظة الجميلة.

استمرت الجلسة طويلا قبل أن يقوم كل الذين قاسموا جاز عيد ميلاده.

عند مدخل المطعم الذي صار فارغا فجأة وباردا، سألت ميترا عن الساعة.

- الثالثة صباحا.

- أرأيت؟ الليالي الجميلة تنسحب دائما بسرعة. تتسرب دون أن نلحق بها للقبض على ألقها الجميل.

- أعتبر نفسي أسعد إنسان.

- بي رغبة كبيرة للذهاب إلى حافة بحيرة هودسون لأرى فجر نيويورك الجميل. لم أره منذ مدة طويلة.

لم يقل شيئا. لف خصرها بذراعه. وضع معطفها الصغير على ظهرها. ودَّعا عمال المطعم ثم خرجا.

كانت الأمطار الدافئة قد خفت قليلا.

-٤-

ترنحت ميترا في مكانها وهي تقف بجانب سيارتها.

- جاز حبيبي، يبدو أني سكرت.

- شربت كثيرا.

شعرت بالبرودة تصعد من رجليها حتى رأسها. كانت ملامح الفجر قد بدأت تتضح في الأفق، منداة بالأمطار الخريفية. أخرجت مفاتيح السيارة من حقيبتها اليدوية.

- يبدو أني سكرت بك. هل هناك امرأة تسكر برجل؟ أنا. الشمبانيا والويسكي لم يفعلا شيئا أمام ما تفعله أنت فيَّ، سوى أنهما قرباني منك. ولهذا إذا أردت أن تحافظ على حياتنا ونرى فجر نيويورك كما نشتهيه، يستحسن أن تسوق السيارة بنفسك. مع هذه الأمطار لا أضمن شيئا.

- شربت كثيرا. خفت وأنت تعزفين أن ينكسر كل الذين كانت لهم رهافة وحساسية مفرطة مثل حالتي. كانوا كثرة. البشر مثل الزجاج، كثرة الألق والحرارة تفجرهم إلى آلاف الأجزاء والقطع المتطايرة والذرات الدقيقة.

- فعلت ذلك من أجلك حبيبي. مجنونة بك في هذا الفجر ولأني أريد أن أحبك أكثر فلا أطيق الحواجز، من كان لديه اعتراض فليرفع

أصبعه أو ليصمت إلى الأبد. لا أحد. إذن، أنت لي الليلة.

عندما توغلت السيارة في عمق الشارع التاسع والأربعين وقبل أن تنعطف باتجاه شارع برودوي الطويل وتنزلق صوب شمال الحي الإيطالي، ذكّرت ميترا مرة أخرى، جاز أن يقودها على حافة بحيرة هودسون؛ فهي تشتهي أن ترى البحيرة وهي تستقبل أمطار الخريف فجرا.

- أشتهي المطر وأنت معي...

ثم بدأت تدندن كلمات بوقع حزين ولكنه كان عاجزا عن فهمها.

- هذه قصيدة كان يرددها والدي المعلم شيرازي وهي لصديقه الشاعر ميرزاده الذي أعدم ولم يرفع أحد من العالم الحر أصبعه ليقول لا. عندما يقتل شاعر في العالم ولا يتحرك الناس هذا يعني أن خللا كبيرا قد أصاب البلاد والعباد وأن الدنيا تستعد لزوالها. الشعر هو الوسيلة الوحيدة لمنع الموت من الانتصار على الحياة. موت شاعر هو انهيار لذاكرة من الرهافة والحساسيات. شنق في الساحة العامة على تصفيقات الجمهور الذي رجمه بالحجارة. الشعوب تستحق من حين لآخر أن يقف على رؤوسها طغاة لكي تتعلم قليلا من ألمها.

- أتذكر أني قرأت شيئا عنه. ولكن هل يحتفى بالشعراء هنا؟

- على الأقل لا يحرقون ولا يشنقون. جريمة ميرزاده أنه كان يغني الحب مثل أبي. كان أبي يخرج معه في أمسيات كثيرة. هو بالسنطور والشاعر بصوته، يتغنون بالخيام والسهروردي وديك الجن والفردوسي... وعندما حاصر الحرس الثوري الحي، كان أبي مع صديقه وعشيقة هذا الأخير. كان الحرس الثوري يملأ الأحياء. كان أبي يعرف أن خرابا كبيرا سينزل على المدينة وأن جرائم الشاه ستبدو ناعمة وجميلة وصغيرة بالقياس إلى القتلة الجدد. فدفع بي وبأمي إلى أمريكا، عند أقاربها قبل أن تستقل ببيتها. لم يكن أمامها أي خيار آخر، فغادرت طهران، بينما بقي هو هناك مع شاعره المجنون الذي لم يخرج. قال لأبي عندما دعاه إلى المغادرة: التربة التي على ظهري تفضحني. لون

عيني، بشرتي، رائحة الشعر التي أحملها على جسدي. وبقي معه حتى فوجئا في مكانهما المعتاد في حالة ضياع بين الشعر وإيقاعات السنطور وكؤوس الخيام. أبي سجن حتى مات هناك وصديقة الشاعر ضمت إلى راقصات حي الملاهي اللواتي أغلقت عليهن كل الأبواب وأحرقن أحياء. بينما ميرزاده اقتيد إلى المحكمة وعندما طلبوا منه أن يدافع عن نفسه، قال أنا شاعر. قالوا له، كنت تشرب وتنشد الخيام. قال والسهروردي والحلاج وديك الجن والفردوسي كذلك. قالوا: انف التهم التي عليك. قال: أنا شاعر فقط. وبعد يومين من الحجز حكموا عليه بالموت. في اليوم الذي رفعت فيه أعلام الانتصار النهائي، كان ميرزاده يتدلى على رافعة كبيرة في وسط طهران بعد أن كتب على صدره: ***والشعراء يتبعهم الغاوون***. . .

– لا يخلو عصر واحد من قتلة الشعر والشعراء. من يتذكر اليوم القتلة، صحيح أنهم قتلوا الكثيرين ولكنهم ذهبوا مع الريح. أبوك في القلب وصاحبه في العينين والذاكرة وفقهاء الظلام صاروا غبارا. ستأكلهم العواصف التي تمحو كل شيء.

– يا الله ما الذي دعاني إلى هذا الحديث؟ اعذرني حبيبي. طبيعتي السيئة تعرفها جيدا. كلما تجاوزت حدود الكأسين وجدتني هناك، خارج دوائر العقل التي سطرها لنا العارفون منذ قرون خلت. أنت تعرف بيرة واحدة تجعل عقلي يخذلني بسرعة واليوم شربت معك قنينة الشمبانيا بكاملها لأنني كنت أريد أن أحتفل معك بخروجك من حلقة الفراغ التي كنت فيها وبعيد ميلادك وأنت في عزك. خفت عليك وخفت على نفسي منك. وقاسمتك الويسكي الذي تشتهيه فقط لأكون أقرب منك من نفسك، وزادني حضورك الدائم وشوقك للنور، فأصابني الهبل وصرت أهذي.

كانت الأمطار قد عادت إلى السقوط بعد أن توقفت للحظات. وكانت المدينة شبه خالية، من حين لآخر يظهر عاشقان في زاوية ما أو على أطراف الشارع وهما يقبلان بعضهما بعضاً في وسط الطريق. كانت

كل الواجهات الضوئية قد عادت بأنوارها بعدما كسرت حركتها الانفجارت الكبيرة التي هزت هدوء المدينة. تمر السيارات مسرعة لتختبئ فجأة في الشوارع الخلفية أو تنطفئ وهي تتجه نحو مرتفعات هارلم أو نحو البرونكس أو نحو شارع دلانسي[٤٢] الذي ينتهي في جسر وليامزبورغ[٤٣] للعبور باتجاه كوينز. بينما كان جاز يحس كأنه ينحدر من قمة جبل نحو البحر. دخل في فضاء من الضباب خففت الأمطار من حدة انتشاره في بعض الزوايا. كان شارع برودوي الذي يتلون بلون الأحياء التي يعبرها، يشق مانهاتن طولا إلى قسمين مثل النهر الطبيعي. لف جاز حول بيتري بارك[٤٤] قبل أن يدفع بسيارته عميقا باتجاه نهاية شارع الجهة الغربية ويوقف السيارة على حواف ر. ف. فاغنر[٤٥].

- ميترا. نحن في بحيرة هودسون. فتنة مذهلة.

تدحرجت قليلا. أحست بمتعة كبيرة وسعادة عكستها عيناها وهي تفتح ذراعيها عن آخرهما. تركت الهواء يتسرب إلى صدرها المشرع على البحر. كانت تمشي وكأنها المسيح مصلوبا على موجة. شعرها ينسحب قليلا إلى الوراء مشكلا دوائر وحلقات كهالات ضوئية وأكاليل انعكس نورها على قطرات الماء التي علقت على رأسها. تقدمت باتجاه البحر حتى سالت على وجهها بقايا الموجات التي تكسرت على الأطراف ثم وقفت عند حدود المعبر الأسمنتي الذي يفصل اليابسة عن البحر. مدت نظرها بعيدا حيث لا بحر ولا ماء ولا ظلمة ولا نور إلا الفراغ في طور البحث عن أسمائه وتعبيراته. فجأة، خرج من الماء شكل أسطوري ضخم مخلفا زبدا كثيرا متطايرا من حوله. بدا لها تمثال الحرية الذي كان مكللا بالضباب، قريبا من قلبها ومرمى ذراعيها. قبضت على يد جاز. شعرت بالهبة الباردة القادمة من البحر محملة بالندى والملوحة وبقايا

---

(٤٢) Delancy Street

(٤٣) Williamsburg Bridge

(٤٤) Battery Park

(٤٥) R.F. Wagner Park

المطر. أغمضت عينيها قليلا ثم دفنت رأسها في صدره. غطّاها بمعطفه الخشن. دخلت فيه كقطة ثم طوقته وحاولت أن تنام. شعرت بدفء وطمأنينة لم تشعر بهما منذ زمن بعيد. أهو الويسكي يوقظ المدافن البعيدة أم رقة جاز الذي لا يعرف كيف يؤذي حتى أعداءه، لم يسمع إلا غمغماتها التي كانت وكأنها تأتي من بعيد، من عمق سحيق يشبه الألم والسعادة القصوى.

- حبيبي.

- هل تشعرين بالبرد؟

- لا. أشعر بك فقط. أنت وحدك تملأني من رأسي حتى قدمي. حلمت بهذا عندما خفت فعلا أن أفقدك، وها أنا ذي كالمجنونة أعيشه بكل ما يمكن أن يمنحنا الهبل من حرية وانطلاق.

وقفا طويلا ملتصقين. هدوء كلي. لا صوت إلا للبحر وزخات المطر التي كانت تنكسر على الأسطح والفراغات التي تنتهي كلها في البحر أو في الحديقة. تناهى إليها صوت سفينة قديمة يأتي من بعيد ثم يقترب وهو يبحث عن مرساه في إليس آيلند. تسمع الأبواب وهي تنفتح على نور المدينة وأحلامها. يأتيها صوت الأغنية القديمة التي علقت في الذاكرة، تدغدغها مثل رذاذ البحر وزخات المطر وعالم برودوي الساحر.

كان يأتي خفيفا وناعما:

نيويورك... نيويورك...

أخبروا الجميع بأني سأرحل اليوم إلى نيويورك،

زادي، حذائي وحقيبتي مثل الجوال

أريد أن أفتح عيني في مدينة لا تنام (...)

نيو... يوووووورك...(٤٦)

---

(٤٦) أغنية أمريكية مشهورة: نيويورك... نيويورك New York, New York لجون كندر John Kander وفريد إيب Fred Ebb.

يملأها الصوت بعنفه ونعومته. يذوب وسط إيقاعات البحر ونقرات الأمطار التي كانت تتكسر في عمق الطرقات والأمكنة الخالية. تشد بقوة على خصر جاز حتى لا تنكسر مثل قطعة كريستال حساسة. تبدو لها الأوجه مخيفة. تخاف من أن ينتفي الحلم عند الأبواب والمداخل المغلقة. فجأة تسد كل الفتحات التي كان يدخل منها الهواء. يعوض دفء الكلمات صليل السلاسل والأبواب الحديدية وهي تنغلق وتنفتح بقوة وعنف ظاهرين. ثم صفا كل شيء ولم يبق إلا نشيد والدها واشتعالاته التي أخذها معه وصوت السنطور بخيوطه الناعمة والحادة مختلطا بتكسر الموج الذي كان يتقاتل على الحواف وكأنه يريد أن يخرج من الحاجز الذي يفصل بينه وبين باتري بارك سيتي[٤٧] ونحيب الشاعر ميرزاده وقهقهاته الجنونية التي اختلطت بصوت النار التي كانت تأكل الأجسام والحيطان ونساء الملاهي.

عندما التفتت نحو التمثال الذي كان كأنه ينصت إليها ويسمع صوتها الداخلي. سمعت نشيده الذي لا يموت. جاءت للتأكد من أنه ما يزال هنا، في مكانه الأول حيث الذين وضعوه انسحبوا إلى الأبد. الفرنسيون صنعوه والأمريكيون هيَّأوا له قاعدة صلبة تتكسر على مركزها كل الأمواج العاصفة. كان النشيد يخرج من البحر رقيقا، رقيقا تخترقه أصوات كنسية آسرة بأناشيد غريغورية لا تموت ولكنها تستقر في عمق القلب وتحفره لتنام فيه أبدا. عندما انكسرت موجة على الحافة وغطتها برذاذها، شدته إليها أكثر وكأنها كانت تخاف من أن ينزلق من بين يديها.

التفتت نحوه وكأنها تكتشف وجودها معه لأول مرة.

– كم أشتهي ألا أتكلم!

– أمام رعشة الأشياء الجميلة، كل شيء حي يتكلم فينا، حواسنا، أجسادنا، غيابنا الكلي عن المكان، ذاكرتنا المتعبة. الأكثر عجزا في هذه الحالات هو اللسان. لا يجد لغته الاعتيادية.

---

(٤٧) Battery Park City

- ياه يا جاز ما أجمل قلبك! ماذا أفعل لكي تبقى دوما هنا؟ هنا بالضبط حيث لا ينافسك إلا الشوق المتزايد إليك والحنين والحب الذي يرتعش كلما سمع اسمك. هل تتصور مكانك بالضبط فيَّ؟

لم يقل شيئا ولكنه تأمل بحيرة وجهها الهارب نحو البحر. سحبت أصابعه الناعمة برفق وحنان وأدخلتها في عمق صدرها الدافئ باتجاه حلمة نهدها الأيسر، بالقرب من القلب تماما. لم تشعر ببرودة رؤوس الأصابع المنداة بمياه المطر. تكمشت ودخلت أكثر داخل المعطف الخشن كقطة بينما كانت أصداء الأناشيد الغريغورية القادمة من إليس آيلند تملأها وتخترق بقوة ذاكرتها. عندما التفت جاز نحو أضواء إليس آيلند الخضراء التي تتداخل مع لون البحر وكتل الضباب التي تغمرها، لم يتذكر شيئا خارج أحزان مايا وطفولتها. بان له وجهها صافيا كحرير القدس، وهي تحاول أن تخبئ عميقا كراستها النيلية التي جاءت بها من مدينتها المسروقة، وقطتها الصغيرة التي ظلت تفتح فمها الصغير لكي تموء وكلما نظرت إليها مايا بعينيها المرعوبتين من الشرطي الذي كان يقف عند رأسها، أغلقت فمها الصغير وأغمضت عينيها. رآها وهي تكرر، في خفاء لم يكن أحد يدركه إلا هي، اسمها الجديد الذي أعطاه لها خالها مصطفى، وأن تكتم بكل كبرياء وشجاعة لم تعرفهما من قبل، أنفاسها لكيلا تكح وتُكتشف إصابتها بالزكام.

- هنا بالضبط حيث لا حياة إلا أنت.

تمتمت ميترا وهي تحاول أن تغفو على صدر جاز قليلا بعد أن شعرت ببعض الدفء، في انتظار أولى علامات فجر نيويورك وأولى أشعة الشمس الناعمة التي ستخرج بصعوبة من الدكنة الثقيلة بعد ساعات.

II - رماد الليالي الأخيرة

الليلة الأولى

المخاطر الكبرى

-١-

اختار بابا شريف حياة أخرى في مدينة غير مدينة ديترويت[٤٨] التي استقبلته في أول منفى له. قضى في مصانعها للسيارات زمنا طويلا نحته وأكل جزءا من لحمه. يشعر أنها نهبته أكثر مما أخذ منها. سرقت جهده وبعض حياته. بعد سنوات اختار طوليدو[٤٩] في أوهايو[٥٠] المحاذية لميشيغان[٥١]، أو مدينة الزجاج The Glass City كما يسميها سكانها. لم يغير عمله، فقد واصل انغماسه في صناعة السيارات والزجاج. الذي تغير هو التخصص فقط: سيارات جيب Jeep العسكرية. فقد كانت القوات البرية تطلب منها أعدادا كبيرة، ولم يكن المصنع قادرا على الوفاء بها. لكن اسم طوليدو وحده كان يؤنسه ويمنحه راحة داخلية لم يحس بها وهو في ديترويت. طوليدو كانت أقرب نقطة إلى قلبه في هذه الغربة، تتحمل صمته وسكوته. السنوات القاسية أعادته إلى نفسه بكل ارتباكاتها وغموضها. لا شيء يشغله إلا يومياته وذاكرته التي كلما اقترب منها زادت بياضا وكأنها ورقة صب عليها الماء فمحيت كل حروفها ولم تبق إلا العلامات الصغيرة المدفونة من تحت الظاهر.

---

(٤٨) Detroit

(٤٩) Toledo

(٥٠) Ohio

(٥١) Michigan

عندما توغلت سيارة الأجرة القادمة من مطار طوليدو-إكسبريس[٥٢] في عمق شارع الياسمين الضيق الذي لا يمر عبره أكثر من شخصين، والذي يذكر بقصبة من قصبات الأسواق العربية، بدأت علامات مدينة طوليدو الضخمة ببحرها الذي ينكسر في الأعالي على الميناء والمباني العالية وبحيرة مومي[٥٣] ومعابرها المائية، تنسحب شيئا فشيئا، مخلفة وراءها حيا صغيرا مدفونا بين حواف مومي ريفر[٥٤] وريفر رود[٥٥] وديترويت أفنيو[٥٦] ومشيغان أفينيو[٥٧]: حي الياسمين المتخفي، الذي يتجمع حوله نظام كان أقرب إلى البنايات الموريسكية بأقواسها الكثيرة وسيادة اللونين الأصفر والأبيض، وألوان أخرى كانت ترصع دروب إشبيلية وقرطبة وطليطلة وشوارعها المتداخلة التي تقع على مقاطع مدن أخرى انتصر فيها الانغلاق على البنايات المفتوحة.

الذي أثار جاز وميترا هو أن الدرب الذي سلكته سيارة الأجرة كان يشبه الحديقة من كثرة ما وجد فيه من أشجار وحدائق صغيرة تقع خارج البيوتات أو كامتداد لها، مفتوحة على واجهة الشارع بسخاء كبير. تساءلت مترا وهي تحاول أن تفهم وضع بابا شريف وكيف قذفت به الأقدار إلى هذا المكان:

- مصائر البشر عجيبة ومعقدة؟ كيف اختار بابا شريف هذه المدينة الصغيرة مع أنه كان بإمكانه أن يبني حياته بكل بساطة في نيويورك أو حتى في ديترويت نفسها؟

- لا منطق في أقدار البشر ولكني أعتقد أن الخيبات تعمي وتسد الرؤية والمسالك. أتفهم جدي في خياراته الصعبة. اختار مدينة ديترويت

---

(٥٢) Toledo Express airport

(٥٣) Maumée Bay

(٥٤) Maumée River

(٥٥) River Road

(٥٦) Detroit Ave

(٥٧) Michigan Ave

لأنها كانت قطبا صناعيا والعمل فيها كان سهلا. أغلب أصدقائه الذين هاجروا برفقته أو قبله نحو هذه الأرض، جاؤوا جماعيا إلى هنا. خالة أمي دنيا، ليتل-مام كما كان يسميها الجميع، كانت تريد أن تساعده، فقد وجدت له عملا في مطعمها ولكنه رفض رفضا قاطعا، قال لها ولخالتي ماجدة وسارة: أضع بين أيديكم ابنتي، ضعوها في القلب، هي ما تبقى من ذكرى الذين ذهبوا. كان في رأسه أن يستقل، أن يبني حياته بيده وكان يكفيه أنهم وفروا عليه عناء تربية طفلة ما تزال في مقتبل العمر، في حاجة ماسة لأمها أكثر من حاجتها لأبيها. دهشت عندما ترك جدي ديترويت وجاء إلى أوهايو ليركن في طوليدو. فهي تكاد تكون ضاحية من ضواحي ديترويت على الرغم من أنها تقع في ولاية أخرى. لا أفهم ذلك إلا بمعنى واحد وهو التعطش إلى عالم لم ينسه، عالمه الأول، عالم الأندلس الضائعة. بابا شريف منذ أن وطئ هذه الأرض، كما تقول أمي، خسر أندلسه التي شيدها مرارا في رأسه. كان مليئا بالأحلام، فاكتشف فجأة أن عالمه تبعثر مثل الدخان مثلما تبعثرت عوالم الذين سبقوه وقطعوا المسالك نفسها. عالم تلتبس فيه نشوة الانتصار بالهزيمة الكبيرة واندثار الأحلام الواسعة.

- أنت لم تحدثني عن هذا من قبل.

- أنت تعرفين أن قصة جدي في غاية التعقيد. مسكون بأندلسه التي ورَّثتها له جدته، كما تقول مايا، أمي. إنه من أصول موريسكية. الانتساب إلى الأندلس في ثقافة أمي، هو انتماء إلى ثقافة أكثر منه انتماء إلى قومية أوإلى دين. هناك مدينة عظيمة في الأندلس الإسبانية اسمها طوليدو بالإسبانية، وطليطلة بالعربية، جمعت في عمقها كل الأديان وعرفت كيف تنسج المحبة بينها. منها خرجت الترجمات العالية القيمة، أنجزها مسيحيون ومسلمون ويهود مجتمعين. تخيلي، كان العالم أكثر تسامحا من عالمنا اليوم. جمعت، كما تقول أمي، بين مؤلفات ابن رشد التي هُرِّبت من هناك عندما بدأ هجوم قتلة الفكر وتلميذه موسى بن ميمون، الذي ظل يقتفي بتبصر كبير خطى أستاذه. وعلى الرغم من أنهما

لم يلتقيا أبدا، فقد ظلا مشدودين إلى نشيدهما المشترك الذي كان كل يوم يسرق قليلا. ليس في الأمر صدفة، لابد أن يكون في هذه المدينة شيء مما يشتهيه بابا شريف من الأندلس ويذكره بها. لا نختار الإقامة في المدن هكذا، هناك جنون مبطن يدفعنا نحو الأمكنة، لا نعرفه بدقة وقد لا نلمس مصدره بسهولة، ولكننا نحس به ينبض بقوة فينا. جدي لم يكن أبله ليرمي بنفسه على حافة كندا والبرد في ولاية أوهايو المغروسة بين جبل حارق وبحر مجنون باستمرار، بعيدا عن ابنته الوحيدة إذا لم يكن قد وجد بالفعل في هذه المدينة الصغيرة ما يذكره بأمكنته الأولى أو تلك التي تخيلها دائما. بعض بنايات المدينة، أقواس الأسواق، ضيق طرقاتها، بعض ممراتها وحاراتها وحتى مدخل متحف الفنون[٥٨] بأعمدته الستة، الذي يحتضن لوحات رونوار[٥٩] ومنحوتات ألكسندر كالدير[٦٠] ومجموعة الفنون الزجاجية، تبين أن قليلا من عطر الأندلس قد وصل إلى هنا وعبر هذه الشوارع الضيقة.

- جميل، عسى أن يكون جدك في صحة طيبة.

عندما دق الجرس، انفرج الباب الخارجي بدفع خفيف وانفتح على حديقة واسعة. دخل جاز وميترا الدار بعد أن عبرا ممرات الأشجار والنباتات الصغيرة، القزمة التي تتسلق الحيطان أو تلتصق بأشجار أخرى. لم يشعر جاز بأية غرابة، كل شيء بقي في مكانه مثلما كان قبل سنوات. لم يزر هذا المكان منذ مدة مع أمه وإن كانت أمه استمرت في زيارة والدها على الرغم من خلافهما. الصورة القديمة ما تزال مرسومة في ذهنه. نفس المدخل المقوس. نفس الحديقة الشرقية المليئة بالأشجار التي تسهر عليها بشغف، عائشة المغربية، ذات الوجه المدور الذي يذكر بنساء دولاكروا، برتقال أريحا، ليمون القدس والفستق الحلبي، الياسمين

---

(٥٨) Toledo Museum of Art

(٥٩) Renoir

(٦٠) Alexander Calder

الشامي والأرز البيروتي وتين معسكر وشجرة حب الملوك التلمساني، وفي وسط المراح، النافورة التي أهداها له أحد أصدقائه قبل أن يدخل إلى فلسطين ويموت على أطراف القدس وهو يحمي الجزء العلوي من المسجد الأقصى. عائشة لم تبذل أي مجهود، فقد عرفت جاز مباشرة:

- جاز، How are you ؟

- جيد يا عائشة، وهذه صديقتي ميترا.

- مرحبا. سعيدة بكما. لقاؤنا في جنازة مايا آخر مرة كان سريعا وقاسيا. سبحان الله! فولة وانقسمت على اثنين، في وجهك شيء من مايا الله يرحمها. هي أعرفها جيدا، فقد كانت تأتي إلى هنا باستمرار. بابا شريف في الحمام، سيلتحق بنا بعد قليل.

- لم يتغير الشيء الكثير مما رأيته قبل سنوات. كل شيء ما يزال في مكانه. فأنا أرى كل التفاصيل ولا أشعر تجاهها بأية غرابة.

- هذا هو جدك. فقد ثبت أشياءه الصغيرة في أمكنتها وكل مساحة صغيرة من هذه الأمكنة تذكره بحياة بكَاملها وبألم في عمقه لم يتخلص منه أبدا. مشكلة بابا شريف أنه في حداد مستمر وهو سعيد بهذه الحالة ولا يريد الخروج منها أبدا. حاولت وحاولتْ أمك ولكن بلا جدوى.

عندما دخل بابا شريف بحركته البطيئة وعصاه التي تسبقه، كان كنخلة في طوله واستقامته. لم تفعل السنوات إلا قليلا في بنيته التي انعكفت قليلا عند الكتفين. كانت تبدو على وجهه سعادة مضمرة وسط أسئلة كثيرة. لم تظهر على ملامحه أية مفاجأة كمن كان ينتظر شخصا عزيزا أو كأن هاجسا ما أخبره بمجيئهما. قام جاز من مكانه وحيا جده. ثم فعلت ميترا الشيء نفسه. جلس بجانبهما. صمت قليلا وعندما جاءت عائشة بإبريق الشاي، تسبقها رائحة النعناع، سأل بابا شريف ميترا مخترقا حالة الصمت الذي نزل فجأة بثقل:

- ميترا ابنتي كيف حال التفاحة الضخمة[٦١] عندكم؟ هل تعرفين

(٦١) Big Apple

لماذا سميت نيويورك كذلك؟ لأنها مغرية مثل تفاحة آدم التي تسد الحلق ولا تنزل إلى البطن. تسرق منا طفولتنا وعفتنا وتبقى هي، هي. كل يوم تزداد انتفاخا على حساب حواسنا وأشواقنا. التفاحة الكبيرة أكلت أعزاء كثيرين. الذين نصحوني بألا أبقى في عمق التفاحة الكبيرة لم يكونوا مخطئين مطلقا. الزمن الذي قادني إلى هذا الشمال البارد حفظني من فم الغول ولو أنه جمد حواسنا وحياتنا مثل قطع الثلج التي تحيط بنا.

ضحكت ميترا وهي تحاول أن تخلق كعادتها جوا من الود:

- يا جدي، سكان نيويورك يقولون إن كلمة بيق-إيبل جاءت من شيء آخر. طبعا تعريفها غير مؤكد ولكن فيه إجماع على بعضها. كانت في الثلاثينات كلمة البيق-إيبل تعني عند موسيقيي الجاز «النجاح». في نيويورك تفاح كثير ولكن المحظوظ أبدا هو الذي يقطف تفاحة النجاح والانتصار، أي التفاحة الكبيرة. ومن كان يستطيع في الثلاثينيات أن يسعد بسلطان النجاح في مجتمع صعب؟ لم يكن الأمر متاحا لكل الناس بسهولة مثل اليوم.

- هذا ما يقوله الشباب، ولكني منذ أن رأيت نيويورك لأول مرة، قلت في خاطري: هذه المدينة ليست لي ولست لها. كنت أحسب الثواني لأخرج من مينائها ثم مغادرتها في أقرب وقت. اللغة المشتركة بيننا لم تكن قائمة. كان أصدقائي وهم ينصحونني لا ينسون تذكيري: أبتعد عن هذه التفاحة الخادعة أو على الأقل أحذر منها. تفاديتها ولكني لم أستطع أن أفعل الشيء الكثير من أجل مايا. كانت التفاحة الضخمة أكبر مني، سرقتها وفعلت بها ما اشتهت وإن ظلت مايا قوية إلى حد كبير ولم تستسلم بسهولة لسلطان التفاحة كما فعل الكثيرون الذين ذابوا فيها.

كان جاز مندهشا في حدة ذاكرة بابا شريف التي لم ينزلق منها أي تفصيل مهم. أكثر من تسعين سنة وما يزال قادرا على تسيير شؤونه وحده. تحمَّلَ مشاكل الدنيا ومشقاتها والرعب والخوف والهرب والأمراض والرطوبة والأعمال الشاقة وبقي جسده مقاوما وصلبا.

- تفاحة اليوم أخذت في أثرها الآلاف من الذين أحبوها. الكثير

ممن سحبتهم نحوها، اختفوا من حبها. خفت عليكما يوم ١١ سبتمبر. الصدفة في مثل هذه الأمور هي التي تحدد الأقدار اللاحقة. لم أكن أعرف قبل هذا الوقت أن توحش البشر يمكن أن يصل إلى هذا الحد. هل هذا هو مآل العربي؟ بين قائد معتوه وقتلة محترفين؟ بين دكتاتور جمهوري يورث سلطان الموت لأبنائه وقتلة محترفين ملكوا مال البلاد وأنفاس العباد؟ هل مآله أن ينسى قضاياه الكبرى ويتحول إلى مجرد قاتل؟ أم إن الآخرين، المخفيين وراء الستائر، يقومون بتحضيره وصناعته لنتحول إلى يهود القرن القادم؟ من قاده إلى هذه الوضعية الانتكاسية؟ تفاحة الغواية كما كان يسميها الذين خبروا الدنيا. بووووف... يستحسن أن أتوقف عند هذا الحد وإلا لن أصمت أبدا. المهم. كيف مشاريع جاز؟ لو استمعت أمك إلي لكنت اليوم طبيبا كبيرا وخبيرا استثنائيا، ولعدت بالخير على البشرية. ولكن رأس أمك قاس مثل حجر الوديان. لم تكن تسمع إلا لنفسها.

- يا جدي مايا لا علاقة لها بخياراتي ولا حتى كالفينو، والدي. الأمور جاءت هكذا. من يتحكم اليوم في مصيره في عالم يسير بسرعة لا ندري إلى أين ستقودنا. أمي نفسها خيبتُ ظنها في البداية، كانت تريدني رساما مثلها أو طبيبا ولكنها أدركت في وقت مبكر بأن موضوع الرسم لم يكن يغريني وأن انشغالي كان أكثر بالموسيقى. هذا لم يمنعني من إنهاء دراساتي الطبية، ولكن الدنيا هكذا يا جدي. اليوم أنا في أوبرا بروكلين، مكان يحلم به الكثيرون، يتمنون أن يصلوا إليه. ليس الأمر سيئا إلى هذه الدرجة؟

شعر فجأة بلمعة من النور تبرق في عيني جده.

- معقول! أمك يا جاز؟ وحياتك وأنت تتكلم كأني أرى أمك الآن أمامي. على كل حال هذه هي حالة المدن الكبرى مثل نيويورك. ليس من السهل أن نتحكم في أقدارنا الشخصية ونحن في عمق دوامتها. منذ أول يوم وضعت فيه رجلي في نيويورك، شعرت بأن هذه المدينة لا تطيقني ولن تتحمل وجودي. لم أبق فيها إلا المدة التي وضعت فيها

أمك بين أيدي خالاتها ثم انسحبت نحو قدر كان أقرب للموت منه للحياة. اشتغلت فيها لأيام في مطعم إيطالي، موجود في الشارع الثالث، كان منظفه البورتوريكي قد تركه بعد أن وجد عملا أفضل. ساعدتني إنجليزيتي على التواصل السهل قبل أن أندفع نحو مدينة ديترويت الصناعية. كان يدفع لي أكثر من عشرة دولارات في الأسبوع وآكل مجانا بالمطعم. الأقدار أحيانا لا ترحم يا جاز ابني.

شعر جاز بأن جده لم يكن منغلقا إلى الحد الذي يرفض فيه أية ملاحظة. ومع ذلك لم يبدأ معه من اللحظة التي تصورها قبل أن يدخل مدينة طوليدو. ولا عن صحته، فصحته بدت له جيدة وأكثر. في قلبه أشياء كثيرة كان يريد سماعها. أن يعرف عمق بابا شريف أكثر. أن يسمع ما كان يشتعل في قلبه. أحيانا ينزعج من تصرف أمه التي لم تلح عليه كثيرا ليرتبط بجده مثلما يفعل جميع الغرباء. لم يعرف جاز إلا في وقت لاحق، أن مايا كانت محترقة بحنينها الذي قتلها، وأنها هي كذلك كانت تواجه قدرها وحدها وتداري كبرياء لم تكن قادرة على تحمله مدة طويلة.

- أتذكر هذه الشجرات وأنا صغير وأتساءل أحيانا يا جدي كيف جئت بها إلى هذا المكان؟ لقد رحَّلت حديقة بكاملها من تلك الأرض. كيف استطعت فعل ذلك؟

- كانت روحي منتهكة. لم أدخل إلى تلك المدينة إلا بهذه الشجيرات الصغيرة وحفنة تراب وضعتها في قنينة ذرذرتها على النباتات. لولاها لماتت. الإنسان مثل النبات، لا يكبر إلا في أرض تحبه. ماذا بقي اليوم من تلك الأرض إلا ما حملناه معنا؟ لم أعد أسمع الأخبار. وضعت القطن والرصاص في أذني كي أقتل النداءات التي في القلب. لم تعد لي طاقة أخرى لتحمل الهزائم المتعاقبة. لقد صنعوا لنا رجالا يحكموننا وأقدارا وضعونا فيها.

- ولكن يا جدي هل نقتل النداءات عندما نشاء؟ أنت صمت ولكنها

فيك وإلا لماذا تحوط نفسك بكل هذه الأشجار مثل الطفل الصغير كي لا تموت شوقا؟

- أنت على الأقل تريد أن تسمع ولا تشبه أمك في هذا. فيك الرغبة لمعرفة ما يحترق في داخلنا من حطب. أقول هذا ولا أعلم إذا ما كان لابد علي أن ألوم أمك.

- مايا يا جدي كانت تعرف سر الخلافات بينكما. المشكلة أنكما كنتما تتشابهان في كل شيء. كنتما تقريبا شيئا واحدا. لم تسمع لها كثيرا ولم تسمع لك. كل واحد استمع لداخله لأنكما كنتما في نفس الكف المنكسرة. والتشابه لا تنتج عنه إلا الخصومات. لكنك ظللت في قلبها حتى يومها الأخير، منارة كبيرة، كلما أظلمت الدنيا سارت على هديها. لم تلمك في أي يوم من الأيام على ما صدر منك. كانت أمامها حياة وكان عليها أن تعيشها. عشقت رجلا رفضته أنت ورفضتها معه عندما حدثتك عنه.

لم يستطع أن يلجم كبرياءه الذي اهتز فجأة.

- لو كنت فقط تعرف يا جاز، ولكنك لا تعرف إلا ما قالته لك مايا. أمك هي حرقتي الكبيرة. ابتعدت عنها لكيلا أتذكر ذلك اليوم الذي جرجرتها فيه من دفء مدرستها وركضنا باتجاه سفينة الركاب الرابضة على حافة ميناء بيروت، كانت تشبه غولا. ظلت تحمل لي حزنا ولوما دائما، لماذا لم أخبرها عن وفاة أمها وجدتها. لو كنت تدري، تخيل رجلا يغادر أرضه لإنقاذ ابنته وهي كل ما تبقى له في الدنيا، كيف سيتصرف في سفينة يحسب فيها كل الحسابات لكيلا يمرض وحتى لا يعاد على طريقه ويفصل عن ابنته؟ كانت تحلم أن تأتي إلى هنا وترعى الأشجار وتبقى معي ولكنها كلما جاءت لا تبقى أكثر من يومين. سرعان ما تشتعل الحرائق القديمة بيننا وتنسحب نحو التفاحة القاتلة، نيويورك. عرفتْ مايا في وقت مبكر أننا كنا نتشابه كورقتين وكنا نملك من الهشاشة ما يكفي لتدمير أنفسنا.

- ماذا كنت تنتظر يا جدي من إنسان عاش منذ سنيه الأولى في بيت آخر وفي مدينة أخرى وفي علاقات أخرى؟ رجلها الوحيد تقريبا هو أبوها، وأبوها انتفى وزوجها الذي عرفته وتزوجته، تسلل كالظل ولم تعرف أنها كانت متزوجة إلا عندما ابتلعه طين البحر الميت.

- عندما زرتها آخر مرة وهي مريضة، انتظرت أن تسألني عن حياتي وليس فقط عن مرضي. قلت لها: حياتي لا ينقصها شيء يستحق الذكر. مؤقتة، مثل المنبه وتسير باستقامة وربما هذا مقتلها. لم تستطع أن تكتم ابتسامتها. قالت: يا بابا شريف، الأيام لم تغيرك كثيرا، لماذا أنت في حالة توجس مستمر؟ لم يبق أمامنا الوقت الكثير لتضييعه في الخصومات العقيمة. كان وجهها رائقا على الرغم من قسوة المرض. تمنيت لحظتها ألا أبكي أمامها ولكني لم أستطع. مدت يدها إلى رأسي. شعرت بدفء أنفاسها وهي تنحني ثم تقبل يدي.

- هل تعرف يا جدي أن يدك هي اليد الوحيدة التي قبلتها في حياتها. حزن أمي كان كبيرا ولكنها سلكت طريقا يمنحها قدرا من الحياة والطمأنينة. لم ترد أن تظل معلقة بأوطان لم تعد موجودة ولم تعد لها. لم يسعفها المرض ولكنك يا جدي كنت كل شيء في حياتها. أرى ذلك في عينيها كلما تحدثْتُ عنك.

مدت ميترا يدها إلى يد بابا شريف واحتضنتها قليلا. قبلتها. كان صامتا ونظرته مثبتة على الفراغ. أشياء مبهمة انكسرت على ملامحه وفي عمق عينيه.

- الدنيا الصعبة. أعتقد حقيقة أن الدنيا بنت كلب. الإنسان عندما يهزم ويحاول أن يقاوم الخسارات العميقة، يظهر ذلك في عينيه ولا يمكنه أن يخبئ هزائمه. الإحساس بالهزيمة في الحياة هو بقدر الحلم. إذا كان هذا الأخير كبيرا جاءت الهزيمة شاقة وعنيفة وإذا كان متواضعا تصبح الهزيمة أمرا اعتياديا. أشرس شيء في الهزيمة هو الانكسار وأنا فيه منذ نصف قرن. ماذا ينتظر من إنسان في وضع مثل هذا، كل ما يحيط به هلامي وهش؟

صمت بابا شريف قليلا، ثم فجأة قام. مد يده إلى عصاه. اتكأ عليها. ثم التفت نحو عائشة:

- هذه المرأة منحتني راحتها. جاءت بها الصدفة إلى طوليدو. كانت تمر على البيوت وتدق على الأبواب وتسأل عن عمل. أول ما رأيتها شعرت أن فيها شيئا ليس غريبا عني. فحددنا الخطوط الحمراء ومنذ ذلك اليوم وهي تسهر علي. تركت دراستها لسبب مادي. الآن عادت لها وأتمنى لها النجاح. ساعديني يا عائشة بنتي، ساعديني، العمر يسرق كل يوم منا رمقا جديدا من الحياة.

أحاطته بذراعها قليلا وهي ترسم ابتسامتها الطيبة. ساعدتها ميترا. استقام بابا شريف بدون صعوبات كبيرة وكأنه كان يريد أن يثبت أن العمر لم يفعل فيه الشيء الكثير بحيث يكسر إرادته.

- أكبر مأساة للإنسان أن يعيش مهزوما ومنكسرا ووحيدا. لا أريد أن يجرني العمر نحو هذه الحالة. الله يجعل قد الصحة قد العمر كما كانت تقول الوالدة يرحمها الله. آلة الزمن تطحن كل شيء في طريقها.

ثم التفت من جديد نحو جاز وميترا.

- يا الله، تعالا معي. اتبعاني أُركما ذاكرة هذا العمر المنكسر.

كانت عائشة قد سبقت الجميع وتوغلت في الحديقة التي كانت رائحة الياسمين قد بدأت تأتي من كل زواياها مصحوبة بعطر خاص للتربة خصوصا عندما أطلقت عائشة رشاش الماء بعدما نزعت الزهرات البيضاء من شجرة الياسمين التي كانت تتسلق الحائط وتتداخل مع فروع مسك الليل الرقيقة، ووضعت حفنة منها في يد ميترا وأخرى في يد جاز الذي كان سعيدا أن يجد بابا شريف في حالة صحية مساعدة.

- رائحة الياسمين رائعة.

قال جاز وهو يعبر الممر الوردي الصغير.

- هكذا بابا شريف، لم يرتح إلا عندما سحب أندلسه وراءه.

قالتها عائشة بابتسامة أشرقت على محيَّاها.

-٢-

مشى بابا شريف في الحديقة الصغيرة وهو يتدحرج، باحثا بعصاه عن ممره الذي تعود عليه. في كل مرة كان يشير إلى شجرة محددا تاريخ غرسها وتاريخ جلبها من هناك. كل نبتة، كل فرع وكل زهرة كان لها ذكرى يحفظها عن ظهر قلب. ولكنه عندما وصل إلى زيتونة عرشت في الدار بقوة وتمددت في كل الاتجاهات، وقف عندها قليلا، ثم التفت نحو جاز وميترا، باحثا عن كلماته الدقيقة:

- هذه الزيتونة عزيزة علي. أتوا لي بها من تربة القدس. جاءني بها صديق عزيز علي طلبت منه أن يسدي لي هذه الخدمة ففعل بكل أريحية. لم يسألني عن السبب، فقد كان يعرفني ويعرف إحساسي الكبير بالفقدان. الذاكرة ليست كلمات، للذاكرة أثاثها والزيتونة تحتل مكانة مهمة من هذا الأثاث.

- كم عمرها؟

- قرابة نصف القرن. كانت أمل العودة. الزيتون يقاوم الزمن أكثر من أي شيء آخر.

شعر جاز فجأة كأن جده وجد طفولة ثانية. يتكئ قليلا على عصاه ثم يبدأ في تعداد أنواع الأشجار والنباتات وصفاتها الكثيرة وحتى فوائدها الطبية المتنوعة، بدون كلل، ولا ملل.

- كنت أتمنى أن أريك القط الذي عاش هنا وهو منحدر من قطة جاءت بها مايا من هناك وخبأتها في عبها واستعملت كل حيل الدنيا لتمريرها وأفلحت في ذلك بمساعدة خالك وأحد الربابنة. مات القط منذ سنوات وكأنه كان يرفض أن يظل يتيما بعدي، مثل الأشجار. أنت موسيقي وتعرف أن الأشجار كالآدميين، تموت بعناد واقفة ومستقيمة. أحيانا تموت بدون أن نتفطن لها ونحتاج إلى سنوات متعددة لنعرف أنها كانت ميتة وتتظاهر بالحياة. واقفة باستقامة ولكنها خاوية من الداخل. لا شيء يضاهي كبرياء الشجر.

- هذه النبتة يا جدي أعرفها، رأيتها في بيت مايا في بروكلين.

- الياسمين الدمشقي، أخذته من هنا في إحدى زياراتها لي. هي كذلك أصيبت بعدوى الأمكنة الغائبة.

عندما عبر الجميع الحديقة،وتوقفوا عند كل نبتة أو شجيرة، وتعرفوا على كل تفاصيلها، كانت عائشة قد هيأت الشاي. كان صوتها الذي أتى من المطبخ واضحا ونقيا بغنته البربرية:

- الشاي صار جاهزا.

جلس بابا شريف حيث تعود أن يشرب شايه كل مساء، مواجها لكل هذا الفيض من الأشجار والنوار.

- النعناع نفسه الذي تشربه جاءت به عائشة من الحديقة. جذور صغيرة جئت بها من صديق أتى بها من تلك الأرض مثلي، رميتها في التربة بعدما طعمتها بتربة البلاد، فنبتت وعرشت بدون حدود. جذر واحد أعطى كل هذا الخير وهذه الرائحة العبقة.

شعرت ميترا أن الظرف مناسب. حاولت أن تساعد جاز على الدخول في الموضوع.

- لكل إنسان تاريخه الخاص يا بابا شريف وتاريخك فيه، بكل تأكيد، الكثير من الأحزان والانكسارات والآلام. ذاكرتنا دائما منقوصة نحن الذين عشنا على الحواف ولم ندخل أي أرض، فظللنا كالمجرات ضائعين.

- لعل خلافي مع مايا هو هذا. كانت تريد لها ولابنها أن يظلا خارج دائرة الأراضي الضائعة وأردتهما أن يكونا في صلبها. التاريخ، أجمل كذبة ينسجها المنتصرون كما يشاءون ويسوقونها كما يشتهون. ما نقرأه اليوم هو ما يكتبه الأفراد عن الأفراد لكن هناك دائما تاريخا لا يعرفه إلا من عاشه وكثيرا ما يأخذه معه ولا أحد يدري التفاصيل أبدا. يضعه في صدره ويغمض عينيه إما حزناً عما كان يمكن أن يقوله للآخرين وإما سعادة ونكاية في حقائق لا يستحقونها ويفضلها أن تظل مدفونة فيه.

- جدي، ما دمت فتحت الموضوع. . .

قال جاز وهو يحاول أن يوقف عبثا جده في النقطة التي كان يريدها.

- أنا لم أفتح شيئا، أنا فقط أرد على انشغالات ميترا. أنت تعرف أني لا أخاف فتح الموضوعات بقدر ما أخاف من غلقها. فأنا لا أملك الوسائل التي تسهل لي القيام بكل هذا الشطط.

- طيب، إذن أنا أفتح هذا الموضوع. حديثك شجعني على فعل ذلك. قبل أيام كنت في المركز الدولي للصورة ولاحظت شيئا شعرت تجاهه بقرابة لم أفهمها جيدا. حالة من الإبهام قذفت بي بعيدا. هناك ثلاث صور، الأولى تضم أحد عشر رجلا وهم يضحكون ومعهم ضابط اسمه سليم وسمعت أمي دائما تتحدث عن جد اسمه سليم وتقول إنه كان شاعرا ومحاربا شجاعا. وجدت اسمه حتى في كتاب أعمدة الحكمة السبعة للورانس ولكنه يشتمه لأنه كان شاعرا ووطنيا ولا أعلم إذا ما كان نفس الشخص؟ فربطت بين الاسمين واستغربت أن كليهما شنق في ساحة البرج. لا أدري إذا كان ذلك من أوهامي كما تقول لي ميترا عندما أكون منغمسا في عمل فني، يختلط علي الصحيح بالغلط، أم إن الأمر فيه شيء من الحقيقة. ولكن يا جدي هناك اندفاعات داخلية من الصعب أن نتحكم فيها لأنها من الصدق حتى ولو كانت وهما بحيث لا نتمكن مطلقا من معرفتها. وأنت سيد المعلومات والدقة وأدرك جيدا أن معرفتك قوية بهذه الأسماء على الأقل. أشعر بحيرة داخلية كبيرة.

مكث شريف لحظات ساكتا وهو يتتبع باستقامة ودهشة جاز وهو يتحدث. عندما انتهى، حنى بابا شريف رأسه وصمت نهائيا، ثم التفت نحو الفراغ الذي كان يتمادى تحت نظره. رفع رأسه قليلا ليهرب بين الأشجار التي عبرها بعينيه المتعبتين واحدة، واحدة والنباتات والبيوت والوجوه قبل أن ينتهي إلى البياض التام. عندما سأله جاز مرة أخرى، كان كمن سافر عبر الزمن ونزل فجأة في ساحة لم يكن يعرفها أبدا ولا مهيئا لها. نزل فقط لأنه سمع نداء خلويا لم يستطع أن يتناساه أو يتنكر

له كما تعود أن يفعل عندما يرفض أن يدخل في حديث يشعر سلفا أنه لا فائدة ترجى من ورائه مطلقا.

- بابا شريف. . . أدرك جيدا أني أتعبك بدون رغبة مني، ولكن عذري الوحيد هو أني أريد أن أسمعك، أن أفهم ما لم تسجله ذاكرة التاريخ. بالنسبة للفنان، لا شيء يوازي الذاكرة الحية حتى في لحظات ارتباكها، فأنت تقرأ كل شيء في العيون، في حركة الأيدي، الأصابع، في الصمت الذي ينزل فجأة مغلقا في طريقه كل منافذ الحياة والنور. عذرا يا جدي، ربما أدخلتك في قسوة أخرى، تريد تفاديها بكل قوة.

- لا. لا. سعيد أن أسمع حفيدي يوقظ فيَّ المدافن القديمة. أفكر فقط فيما يمكن أن أقوله لك. وهل بقي فيَّ فعلا شيء يستحق أن يقال؟ العمر لم يترك لنا الكثير ويبدو أن الموت بدأ يكشر عند عتبة البيت ويدفعنا لحزم أمتعتنا ونحن نحتضن ذاكرة لم تعد تنفع في شيء. لقد خضنا حروبا كبيرة وخسرنا الكثير منها، لكننا دخلناها بقناعة كبيرة بالانتصار. لم تكن مطالبنا كبيرة وكثيرة، وحدة هذه الأرض التي مزقتها شفرة سايكس-بيكو وتنفس هواء الحرية كما حدث لكل الشعوب. لكننا في النهاية تحولنا إلى لحم رخيص للمدافع وصارت مطالبنا صعبة ومستحيلة وأحيانا مضحكة. ذاكرتنا ليست لهذا الزمن. أو على الأقل هذا ما كنت أظنه، وها أنت تأتي لا أدري من أية صدفة خرجت، لترمي في وجهي نفس الذاكرة التي تفاديتها كل هذا العمر. لا أدري يا ابني. . . لا أدري. . .

صمت مرة أخرى طويلا. رشق عينيه في الحيطان، في الأواني التي كانت تحيط به، في عيني عائشة كمن يطلب النجدة متفاديا الالتفات نحو جاز، قبل أن ينظر إلى وجهه ويتوقف عند عينيه الصافيتين، الواسعتين اللتين لم تمت الطفولة فيهما: سبحان الله، عينا مايا في هدوئهما وامتلائهما عندما تكون صافية الذهن، تمتم وهو يحاول أن يبحث عن كلماته.

- سؤالك يعيدني إلى زمن كم كنت أشتهي يا جاز ألا أتحدث فيه

وأن تعذرني بلطفك وحبك. ليس لأنه زمن الأحلام الكبيرة والهزائم القاتلة، إذ التحم ضدنا من كان يملك سلطان النار والحديد وأبناء جلدتنا الذين حكمونا، ووُضِعوا في الدماغ كقنابل موقوتة قبل أن يفتحوا أعيننا على خيارات لم نكن نتصورها مطلقا، تشدنا نحو الأسفل بقوة كلما حاولنا أن نخترق خيط العنكبوت الذي وضعنا فيه، ولكن لأنه زمن أظن أني صفيت حسابي معه نهائيا. أمك حاولت كثيرا ولكني كنت مثل المحارة المغلقة ولم تكن هي أحسن مني. عندما كبرت، كانت دائما تقول، وأعتقد اليوم أنها كانت على حق: «- أريد أن أعرف أسرار الجرح الذي كلما توغلنا في الزمن، زاد اتساعا وأصبح رتقه مستحيلا، ولكني لا أريد أن أورث ابني حزنا ليس في حاجة إليه، يمزقه أكثر مما يربطه بأرض أجداده، لا هو من هنا ولا هو من هناك. الذاكرة ثقل لا نجره، وعلينا أن نتعلم أولا كيف نسيره.»، كانت مايا على حق ولهذا لا أريد أن أجرحها في قبرها.

- ومع ذلك يا جدي، الأمور ليست بكل تلك البساطة.

- أقسى ما نورثه هو ذاكرة فينا ولكننا لم نعد فيها. الزمن تغير والناس تغيروا كذلك. فلماذا ننهش أنفسنا بألم نحن في غنى عنه؟ لم أعرف جيدا قيمة مايا إلا عندما تركتني لكي تذهب قبلي وتتخطى الوادي وحدها. الوادي نفسه الذي سأعبره وحيدا لا محالة. كانت عزيزة علي ولكن نارا سحبناها من ورائنا حالت دون لقائنا كما نشتهي. لم أهتم بكل هذه التفاصيل، فقد كنت قد صمت نهائيا ولم أكن قادرا على تغيير مجرى الأشياء. فنحن أحيانا نظن بأننا نملك هذه القدرة على التغيير ولكن نفاجأ بأن آلة الزمن كانت أكبر منا.

- يا بابا شريف، مايا، على الرغم من ارتباكها الداخلي فيما يتعلق بهويتها، إلا أنها كانت دائما تقول لي بلطفها المعهود: «اليوم وقد صرت ثابتا وكبرت وصرت ابن هذه الأرض مِن حقك أن تعرف جزءا من أصولك المدفونة فيك. الهوية قيمة مضافة إذا وجدت مسلكها الطبيعي، وقوة مدمرة إذا لُغِّمت من الداخل.» علمتني لغة أجدادي في أقسى

الظروف وأصعبها. ولكن عملها الكثيف وسباقها ضد الموت فيما بعد، لم يمهلاها. جيد أن يؤثث الإنسان ذاكرته بهواء وأشعة أخرى ولكن عليه أن يحذر من أن يسكن فيها. الإقامة في الذاكرة موت مؤكد على الأمد المتوسط والطويل، هكذا كانت تقول دائما.

صمت بابا شريف مرة أخرى. مرت أمام عينيه سحابة حملت في عمقها هواء دافئا كان يأتيه من بعيد لم يكن يعرف مصدره.

رشف القطرات الأخيرة من كأس الشاي، ثم قام من مكانه واعتذر للجميع.

- عذرا، عائشة تعرف أن هذا وقت راحتي. أنتم في بيتكم. الحديقة واسعة. سأطلب من عائشة أن تهيئ غرفة لكما ونلتقي في العشاء حتى أستطيع السهر معكم. أنا كذلك لدي أشياء كثيرة أريد قولها.

- طيب يا جدي، كما تشاء. على راحتك.

خشي جاز أن يكون قد أثقل على جده. ولكنه عندما عرف أن حركته هي جزء من طقسه اليومي، تفهمه. ومع ذلك شعر بشعاع محمل بالأسئلة يلمع في عينيه بآلاف الألوان. بشيء تحرك في أعماق جده على غير ما تعود سماعه من مايا كلما عادت من زياراتها محملة بالخيبات الكثيرة، حتى صارت طوليدو بالنسبة لها مقبرة لكل لحظة فرح وكان عليها أن تقنع نفسها بقوة لكي تستطيع التنقل إلى مدينة بابا شريف. كانت كلما تعمقت في حديث الذاكرة معه، انكسر كل شيء وعاد إلى تأنيبها على خياراتها وعلى حياتها.

لم يكن بابا شريف منهكا كما تخيله. كل شيء بدا هادئا في عينيه كموجة متوسطية. ولكنه لم يكن قادرا على إخفاء عجزه عن القبض على ألق النور في لحظة توهجه وعنفوانه.

تدحرج قليلا داخل البهو.

- لا تتعب حالك يا جدي. سنتركك ترتاح ونعود عندما تستيقظ من نومك. سأذهب أنا وميترا إلى النزل. المدينة لطيفة وتستحق أن تكتشف،

ميترا لا تعرفها بتاتا. لدي مشاغل كثيرة مع أوبرا طوليدو، سأصفيها ونرتاح وبعدها نعود لك. حجزنا في نزل راديسون[٦٢]، مكان مريح جدا.

- بإمكانكما أن تكتشفا المدينة متى شئتما. لكني مازلت شرقيا قليلا وأنتما هنا في بيتكما ولا أقبل أن تذهبا خارج هذا البيت. أتمنى أن تقضوا الليلة معي. سأرتاح جيدا حتى أستطيع أن أتكلم معكما براحة أكثر. أريد أن نجلس قليلا في الصالة الشرقية التي لم أفتحها منذ أن ماتت أمك لأنها هي التي كانت كلما زارتني تقضي الليل فيها. كانت تحبها لأنها تذكرها بطعم الأراضي البعيدة. كانت كلما أتت إلى طوليدو، تحب النوم في هذا المكان. تقول: إنه يذكرها ببقايا صور القدس التي انمحت أو كادت بفعل الحياة اليومية وطفولتها التي انتهكت في وقت مبكر. أمك حملت معها كل صورها وكانت قوية وخبأتها عميقا في صدرها مثلما فعلت مع قطتها أميرة لكي تستطيع أن تعيش.

- ولكن يا جدي فكر لي في قصة سليم قليلا. سنخرج أنا وميترا ونعود عندما تستيقظ من نومك؟ البقية لا تشغل بالك بها، لدينا أصدقاء كثيرون بهذه المدينة.

- تعرف يا جاز القصص مثل الأقفاص عندما تفتح يصبح من الصعب إعادة غلقها. ولهذا فأنا أحتاج إلى وقت كاف للحديث معكما. أعرف انشغالاتك. كنت مثلك عندما تعلق الأشياء بحلقي لا أتحمل مطلقا حالات الغموض التي تلفها. أنت مقدم على مشروع كبير وكل أملي أن تنجح في تحقيقه.

- بمساعدتك يا بابا شريف.

- إن شاء الله.

ثم اتكأ على عصاه ليحرك رجليه بحرية أكثر. لم يطلب مساعدة

---

(٦٢) Radisson

عائشة التي كانت ما تزال منهمكة في شرب كأس الشاي وتأمل الحديقة من وراء زجاج الصالون.

اعتذر بابا شريف للمرة الأخيرة ثم اندفن في البهو المؤدي إلى غرفة نومه الخاصة، بينما خرجت ميترا وجاز وهما يخففان من حيرة عائشة التي لم تستطع أن تكتم رغبتها في بقائهما:

- بإمكانكما أن تبقيا هنا. البيت واسع وجدك سيكون حزينا إذا استيقظ ولم يجدكما. لأول مرة أراه في هذه السعادة منذ زمن بعيد.

- لا تهتمي يا عائشة، قالت ميترا وهي تأخذ جاز من يده، أليس كذلك يا حبيبي، نريد أن نكتشف المدينة معاً. جاز يعرفها قليلا أما أنا فهذه زيارتي الأولى. سنعود مساء.

- لا تشغلي بالك، قال جاز. دعي جدي يرتاح قليلا وسنعود لنتعشى معه. لدي موعد مع مدير الأوبرا، ربما استطعنا حضور العرض الأخير الذي ستقدمه أوبرا طوليدو.

- لا يوجد شيء كبير لاكتشافه ردت عائشة بطيبتها المعهودة، ومع ذلك فالمدينة تذكر جدك بعالم اندثر ولكنه ما يزال يحمله في قلبه. طوليدو مدينة صغيرة باستثناء البنايات الشاهقة التي تخرج من البحر وبعض الكنائس والدروب الصغيرة في الأحياء القديمة للمدينة التي تذكر بقصبات المغرب أو المدن الأندلسية القديمة. لا يوجد الشيء الكثير لاكتشافه. المهم... يجب ألا تنسيا العشاء.

- أنت تتحدثين عن جنوب المدينة، ولكن طوليدو واسعة ومدينة مهمة في أوهايو، ثلاثمائة ألف نسمة ومائتان وسبعة عشر كيلومترا مربعا. سنجد ما نملأ به وقتنا.

عبرا الحديقة بسرعة ليجدا نفسيهما يتنفسان هواء طوليدو المدفونة بين جبال من حديد ومعابر وبحر ممزق الأطراف وممرات مائية كثيرة تنفلت من نظامها عند مصباتها الشمالية، تشبه إلى حد كبير نهر التاج بالمدينة الأندلسية التي تحمل الاسم العربي نفسه: طليطلة.

-٣-

«غرفة ٧٧٧. في الطابق السابع مرة أخرى؟ شيء من القدر يتبعنا»

تمتم جاز وهو يعبر عتبة غرفة نزل راديسون(٦٣) الأنيقة، بعد جولة في المدينة قادته إلى أماكن متعددة.

بدل أن يتهالك مباشرة على السرير كما فعلت ميترا، جلس على الكرسي المقابل للنافذة المطلة على فراغ الجزء الغربي من مدينة طوليدو، على البحر الذي يشكل حزاما لا أحد يضمن أمنه، وعلى سماء كانت تتلون باستمرار. بدا له السهم العالي الذي يشكل رأس البرج يكاد يخترق السماء من كثرة علوه وكأن الذي بناه فكر أولا في هذه الرأس النحاسية التي رفعت إلى أقصى ما يمكن بحيث لا يضاهيها أي ارتفاع. كان طائر اللقلق الذي بنى عشه على الكنيسة المحاذية للبرج يدور في مكانه، قبل أن يفرد جناحيه الواسعين ويتدحرج نحو عشه الذي يبدو أنه قضى سنوات طويلة لبنائه.

التفت جاز نحو ميترا، كانت قد غفت وبدأت تنحدر نحو نوم عميق.

شعر جاز بنسيم خفيف يعبر المكان محملا بعطر لم يكن بعيدا عن رائحة الياسمين. بان له فجأة وجه مايا صافيا وهي تخبئ سعادتها بصعوبة، وهي تعبر شوارع طليطلة الأندلسية للمرة الأخيرة. كانت لا تتوقف عن تكرار جملتها الدائمة: المدينة الوحيدة التي دخلها أجدادي وزرعوا فيها دفئهم. وجدوها قرية مغلقة على إيمانها وعاداتها وغادروها مدينة تضج بالحياة والحب والتسامح.

استنشق جاز عميقا عطر المساء حتى شعر بصدره فجأة يمتلئ بهواء لم يكن يشبه هواء نيويورك.

---

(٦٣) Radisson Hotel

- ما بك حبيبي. تنهيدتك حزينة...؟

تمتمت ميترا وهي تشعر بألمه العميق الذي ارتسم على ملامحه الضائعة في عمق تفاصيل المدينة.

التفت نحوها. كانت ما تزال في غفوتها، منهمكة في نزع حذائها بصعوبة.

- غريب يا ميترا، بدأت أحس لماذا اختار جدي هذا المكان ليموت فيه. لا أعرف هذه المدينة باستثناء ما رأيته في زيارة سابقة أو ما رأيته معك أو مع أمي ولكني أشعر أن بها رائحة ما قادته إلى هذه الفضاءات. ربما كنت أبالغ ولكني أشم الآن نفس ياسمين طليطلة. عندما يقترب الموت، ولا نملك قوة لصده، نلجأ إلى أقل الميتات عزلة وبرودة. هكذا أشعر بجدي. رأيت ذلك كله في عيني مايا وهي تحاول أن تحضن دفعة واحدة مدينة طليطلة الأندلسية. كانت تريد أن تأكل ترابها وتشرب مياه التاج الذي يحوط المدينة ويتحول في منحدراتها إلى رئة تتنفس منها الشوارع والحقول.

- المؤكد أننا لا نأتي إلى المدن صدفة. المدن كالنساء وربما كالرجال، هناك فجوة ما تحدثها فينا الرؤية الأولى وتستمر في الحفر فينا وتحت أرجلنا حتى نجد أنفسنا في عمق هوة اللذة وخوف الفقدان. لا تهتم، جدك كان جادا في اختياره ولم يرد أن ينتهي في مدينة ما يزال ضجيج آلاتها في رأسه. أنا لا أعرف من مدينة ديترويت إلا مصانع السيارات. جيد أن بنيته ما تزال صحيحة في هذا العمر، غيره لم يتحملوا طويلا قسوة الحياة. فعمال المصانع في تلك الظروف ينتهون بأمراض فقدان البصر أو الباركنسون والروماتيزم وآلام الظهر. بابا شريف ما يزال يقوم ويجلس مثلما يشتهي.

رمت حذاءها بعيدا ثم تدحرجت نحوه وطوقته من ظهره، مدت يديها عميقا، تحسست برؤوس أصابعها شعيرات الصدر الناعمة. ووشوشت في أذنه اليسرى القريبة من القلب كما كانت تقول دائما: أحبك. شعر بحرارة همسها:

- أتركك مع المدينة. يكفيك أنك في الطابق السابع، طابقك الذي تشتهيه. سأرتاح قليلا. أشعر بالدوار في رأسي من قلة النوم. أنت تعرف مشكلتي مع النوم. ومع ذلك فأنا من أيقظك، وأنا من قام على الساعة السادسة وأنا من هيأ القهوة. وأنا من سحبك إلى مطار كندي وجعلك تتحمل الساعات الأربع من الطيران. هذه كلها يجب أن تسجلها وتتذكرها كلما لمتني على تضييع وقتي في النوم. باي حبيبي...

ضحك جاز ولم يقل شيئا. حمل ورقة صغيرة وبدأ يخط عليها نوتات موسيقية بدأت تنزلق من يده اليمنى ومن أصابعه المرتبكة كطلاسم سحرية. واصل تأملاته من علو الطابق السابع. هو لا يدري لماذا كلما سافر اختار غرفة في الطابق السابع. لم ينم في حياته في نزل أقل من سبعة طوابق. لا يدري لماذا ولكنه يشعر بأمان وهو في هذا الطابق وبقرابة أكثر من المدينة. مايا لم تكن أقل اشتراطا منه. ربما كانت هي من ورثه هذه الحساسية الزائدة. حتى عندما يسافر في مهمة والخيارات تكون قليلة يصر في حجزه على الطابق السابع وإلا لا يتمالك انزعاجه كطفل صغير.

أخرج الكمبيوتر المحمول من غلافه الجلدي البني. فتحه. وبدأ يتفحص الوثائق والصور التي سجلها. شعر بظل ميترا وراءه مرة أخرى.

- أردت أن أقول لك قبل أن أنام، إن بابا شريف ليس مغلقا كالمحارة كما كنا نتصور.

- مثلك أعيد اكتشاف جدي. الصورة التي كونتها عنه متأتية من مايا. ما بينهما لا يشبه مطلقا ما بيني وبينه. بابا شريف رجل منكسر ويحاول جاهدا أن يحافظ على استقامته. ومع ذلك، مع مزاج جدي الصعب يمكن أن يتركنا في منتصف الطريق ولا يهتم مطلقا بما جئنا من أجله إلى هذه المدينة.

- لا أعتقد أنه سيفعل ذلك. أنام قليلا حتى أستطيع السهر معكم وإلا ستذهب أمسية جدك مع الريح. أنا سعيدة أنه مهيأ للكلام وللتعامل معك. واضح أنه يحبك جدا ولا يسقط عليك خلافاته مع مايا. وأن

تحسسك لم يكن له معنى. أنت لست مايا. ثم لا تنس أنك كل ما تبقى له في هذه الدنيا. ليس عصيا إلى هذه الدرجة. الإنسان عندما يصل إلى هذا العمر يحتاج لمن يأخذ بيده ويفهمه قليلا. جدك ما يزال في كامل قواه العقلية ولهذا فطلباته تزداد أكثر فأكثر.

- جدي ومايا كانا يتشابهان بقوة ولم يكن من الممكن الفصل بينها. أشعر أن جدي ازداد يتما بعد وفاتها. صورته ماتت معها. مرآته الأكثر صدقا اندثرت نهائيا. جدي يتعرض الآن لمصير نارسيس ابن إله الأنهر سيفيز. جدي مثل نارسيس طول عمره مشروط بعدم معرفة نفسه. لم يتخلص من سحر وجهه الذي رآه في البحيرة عندما شرب الماء حتى صار نوارة نرجس. فكرة النرجس مربوطة بالربيع والنوم والموت والبعث. مرآة جدي انكسرت بذهاب مايا. يعيش عالما موحشا بدونها وقسوة داخلية لا يحس بها إلا هو..

- أنت تفتح موضوعات لا تنتهي. أتركك حبيبي، لا تدعني أنام طويلا.

اندفنت من جديد في عمق السرير.

عاد ليغرق في تفاصيل الكمبيوتر المحمول والوثائق المخزنة فيه.

بعد نصف ساعة بالضبط عندما خرج من انغماسه في عمله والتفت نحوها، كانت تغط في نوم عميق. رأى خيطا من بقايا أشعة المساء يحوط جسد ميترا كالهالة. نامت في اللحظة التي أغمضت فيها عينيها كطفل صغير. قبلها بنعومة. لملمت شفتيها النائمتين كمن يستلذ شيئا وعادت إلى وضعها الأول. كابوس ميترا هو الاستيقاظ مبكرا. في رأسها منبه، كلما صممت على السفر تغير نظامها. تقوم قبل الجميع بنصف ساعة على الأقل. وضع إزارا نيليا على كامل جسدها الذي تماوج تحت الأشعة المسائية المتسربة من الشباك. تململت تلقائيا مرة أخرى في مكانها ثم استقرت.

عندما التفت نحو المدينة من وراء النافذة الواسعة، بدت له طوليدو هادئة وصامتة ببناياتها العالية وشوارعها الخلفية الصغيرة والضيقة

ومدارسها. أحس بالفعل كأن بها شيئا يشبه تلك المدينة التي صارت اليوم بعيدة عنه. مرة أخرى لم يستطع أن يتفادى وجه مايا الناصع على الرغم من خطوط المرض التي ارتسمت على ملامحها كظلال خادعة. كانت كمن ذهب ليحج للمرة الأخيرة عندما عرفت بوضعية السرطان المتقدمة الذي كان ينخر جسدها النحيف. كانت تدرك في أعماقها أنها لم تكن تفعل شيئا سوى أن تعيش لحظة كان يمكن أن تعيشها منذ زمن بعيد. يتذكر عندما جاءته مساء اليوم نفسه وطلبت منه أن يرافقها إذا لم ير مانعا إلى طليطلة. في البداية لم يفهمها جيدا وكان يظن أنها تتحدث عن طوليدو حيث يقيم جده.

«- يبدو أن الشتاء سيكون طويلا هذه السنة؟ بدأت ملامحه تظهر في الأفق. هل ترافقني إلى طليطلة؟

- يستحسن أن تزوري جدي وحدك وأن ترتبي خلافاتك معه في فضاء أكثر حميمية.

- جدك هكذا وما بيني وبينه سآخذه معي إلى القبر وسيفعل الشيء نفسه. لا يهم، تعودت عليه وتعود علي. أنا أتحدث عن مدينة أجدادي الأوائل، طليطلة الأندلسية. جد والدي الأقدم من تلك المدينة. حدثتك عن الموريسكي الذي قتله الحنين إلى أرضه. تمنيت أن أعبر شوارعها وأنا في صحة جيدة ولكني أدركت جيدا أن المرض لن يترك لي الوقت الكافي لفعل ذلك ولهذا أريدك أن ترافقني إذا شئت. وإلا سأذهب وحدي، مازلت قادرة على السفر، لا تشغل بالك.

- طبعا يا ماما، تسعدني مرافقتك. أرتب الأمور مع فيليب في أوبرا بروكلين وبعدها نذهب. أنا كذلك في حاجة لاكتشاف مدينة عبرها أجدادي ولا أعرف منها إلا الاسم. أعرف مدريد وبرشلونة ولكن طليطلة لم أفكر يوما في زيارتها.

- العين عندما ترى تستطيع أن تدرك سحر الدهشة وتعرف حجم الخسارات التي لا تعوض أبدا. في تلك المدينة، عندما رأى جدي الذي

كان يسمى رام ضاني الروخو[٦٤] لشقرته الطاغية، الحرائق وهي تأكل الكتب والأوراق ويجرجر الفقهاء والعلماء من المسلمين واليهود على مشارف المدينة وفي ساحات كنائسها، عرف أن الثمانية قرون احترقت وأن زمنا أعمى كان يدق على الأبواب. إسبانيا لا تعرف حجم الخسارة التي تسببت فيها والضرر الذي جرحت به المدينة. البشرية هكذا للأسف، ذاكرتها محدودة وخادعة. بسرعة تنسى أفراحها وتترك أحقادها تلعب بالسعادة المحتملة.

- البشرية هي هذه يا أمي، تصنع الحدود مثل اللعب ثم تنسفها ثم تعود إلى صنعها وفق أهواء تناسبها وهكذا حتى النهاية. بيننا وبين محاكم التفتيش المقدس زمن بعيد.

- ومع ذلك، المسألة ليست بعيدة إلى هذا الحد. انظر حولك وسترى بأن هناك عودة محمومة إلى التقاليد الميتة ومحاكم التفتيش المقدس على الأبواب.»

تذكر أنه تمنى أن يقول لها أنها كانت على حق ولكنه اكتفى بابتسامة هاربة وهو يرى عيني مايا ترفرفان مثل عيني عصفور كلما داهمتها قصة جدتها وأمها. الجد المجنون الذي اضطر إلى الاندفان في أعماق الأرض لتتمة مخطوطته قبل أن يندثر قتلا أو انتحارا.

بدت له شوارع طوليدو التي كانت تتسرسب من الأعالي بشكل ثعباني، شبيهة بشوراع المدينة الإسبانية عندما ترى من أعالي القصر القديم[٦٥] الواقع على مرتفع المدينة وهي تتدحرج تجاه نهر التاج الذي يعبرها متعرجا في تدفقه في اتجاه لشبونة قبل أن يندفن نهائيا في أعماق المحيط الأطلسي. رأى مايا وهي تعبر الدروب الضيقة والعتيقة وتتأمل الحيطان المتآكلة. من حين لآخر كانت تتوقف عند أسماء الشوارع التي تحيل كلها إلى ذكرى المدينة القديمة. فجأة قفزت أمامهما مدرسة

---

(٦٤) Ram Dany el Rojo

(٦٥) Alalcazar

الترجمة التي جمعت بين حيطانها كبار علماء الدنيا في نسخ الأعمال النفيسة وترجمتها. تمتمت:

- هل تعرف، يمكن أن يكون جدي قد مر على هذه المدرسة. أنا متأكدة من أنه كان هنا. لست نوستالجية مطلقا يا جاز. أنت مع فنانة ولست مع أم فقط. لا أخرف سوى أني أعرف أن أكبر خطأ ارتكبه الإسبان هو تفريغ مدنهم من الذين صنعوها وعمروها. لو بقوا، لو فقط عرفوا كيف يحافظون على الإرث العظيم الذي تركه لهم الأوائل لتغير وجه العالم الأحادي اليوم. تخيل هذه المدرسة التي كان يرتادها العلماء من كل النواحي وترجموا أكبر المصنفات التي أغنوا بها البشرية، ماذا كان يضيرهم لو أبقوا علماءها وفقهاءها وناسها الطيبين؟ ربما أحلم. ولكن العالم صنع طرقات ومسالك وعمارات كان هو أول من هدمها وأحرقها أو نسفها. يبدو أن قدر البشرية السير المستمر نحو الحتف والمحو.»

يتذكر جيدا أنه رآها وهي تدخل الكنيس اليهودي وتقف وقتا طويلا عند الكتابات العربية التي كانت تكسو الحيطان. كل ما فيها كان مدهشا. حتى طرازها ومنمنماتها لا يمكن أن تدفن نورها، رهافة اليد المتشبعة التي صنعتها، ونحتتها قطعة قطعة.

«- هل تصدق هذا؟ خط عربي، زخرفة إسلامية أنيقة داخل كنيسة يهودية؟ الزمن تراجع كثيرا. للأسف التاريخ لم يعد يصلح اليوم للكثير بينما هو الأداة الكبرى لترميم قسوة الحياة. صحيح أن الحياة لم تكن سهلة ولكنهم كانوا في هذا المكان يجلسون ويتبادلون الأفكار، يتناقشون وربما يتخاصمون أحيانا؟ تصور عندما غادروا البلاد للمرة الأخيرة، الكثير من هؤلاء العلماء وقفوا على الموانئ وهم لا يصدقون أعينهم. كانوا ههنا يتباكون كالأطفال أو يلقون بأنفسهم في عمق التهلكة لكيلا يروا خرابا كان مكتوبا؟.»

شيء واحد بقي في ذهن جاز وهو يصحب أمه في شوارع طليطلة الضيقة. بريق مدهش ونور لا يضاهيه إلا ضوء القمر. مايا لم تكن مخطئة. كانت سعيدة، في عينيها إشعاع لم يره منذ أن أصيبت بالمرض الخبيث. لكنه عندما رآها تقف طويلا أمام بعض اللوحات، تأكد أن كل شيء كان قد انتهى وأنها لا تخفي ألما لم تكن قادرة على إظهاره.

قبّل رأس أمه. ثم مد يده إلى يدها وغادرا المكان.

صمت نزل راديسون يشبه الموت.

فجأة غرق جاز في إيقاع حزين كان يأتيه من وراء حفيف الأشجار التي كانت تتقاطع بأعناقها وأغصانها الكثيرة. سحب ورقة مرة أخرى من على المكتب. خط عليها من جديد بعض العلامات. تحولت إلى أشكال معقوفة ونوتات موسيقية متداخلة. دوّن كل مشاهداته صوتيا. كان يدرك جيدا أن الموسيقى مثل النسمة الفجرية، عندما تأتي، تمر بسرعة ولا تنتظر، ونقول لأنفسنا عندما نفتقدها، للتخفيف من الأحزان «خلاص، في المرة القادمة لن نترك النسمة تهرب منا. سنقبض عليها وهي في ألقها العالي.» ثم نكتشف فجأة أن النسمة جميلة ولكنها ليست نسمة البارحة، فهي غير محملة بنفس نداءاتها الطبيعية ونداها وعطرها. الطيور التي أعارتها ألحانها البارحة، لم تعد اليوم موجودة في نفس الأمكنة والفراشات التي كانت تبلل أجنحتها بنداها انسحبت هي الأخرى ولم تعد. نسمة رائعة، مدهشة ولكنها ليست بأي حال من الأحوال شبيهة بها. ليست هي.

رأى الغيوم الثقيلة التي كست السماء وهي تسرع للهرب باتجاه آفاق أخرى أكثر دكنة، مخلفة وراءها سماء بلا ملامح ولا أية نتوءات. سماء صافية، بلا تجاعيد ولا لغة.

عندما تقلبت ميترا في فراشها للمرة الرابعة، كان جاز قد غرق من جديد في الوثيقة التي استرعت انتباهه وهو يحاول أن ينسى وجه مايا الذي اجتاحه بقوة: بيان الثورة العربية الذي رمته الطائرات الإنجليزية من الأعالي على الجيوش التركية المنكسرة. دون ملاحظاته الأولى قبل أن

يضغط على زر الكمبيوتر المحمول الذي أبان وجه المجموعة من الثوار الذين أعدموا في ساحة البرج. تأمل طويلا وجه الرجل الذي كان يواجه الموت بضحكة لم يستطع صاحبها أن يكتم سخريته المبطنة وأصدقاؤه وراءه وهم لا يعرفون إذا ما كان عليهم أن يضحكوا سخرية مثل صديقهم، أم ألما وقهرا على حالة العبث التي كانت تحيط بهم فجرا في سجن عاليه، كأنهم قبل هذه اللحظة لم يكونوا يصدقون أنهم سيموتون. ضغط مرة أخرى فتدحرج سيل الصور التي وضعتها جوديث وعلياء تحت تصرفه في المركز الدولي للصورة، للاستعمال الشخصي.

التفت صوب سرير ميترا، لم تكن معه، كانت نائمة داخل شعاع ذهبي، تسرب دافئا من وراء الستائر الخفيفة التي كانت تغطي جزءا من نوافذ الغرفة الواسعة.

-٤-

- ميترا، هل أعجبتك المدينة؟

تساءل بابا شريف بكلمات قليلة وهو يدخل إلى الغرفة الشرقية.

- لا بأس يا جدي. لا بأس. أجابت ميترا، قبل أن يردف جاز:

- باستثناء الداون- تاون(٦٦)، في هذه المدينة الزجاجية كما يسميها سكانها والحديث جدا، شيء ما فيها يأتي من بعيد محملا بعبق غريب شعرت به لأول مرة عندما رافقت مايا إلى طليطلة. حتى إن بعض المواقع والدروب الصغيرة كأنها صيغت على نمط تلك المدينة الأندلسية.

- هذه المدينة مدهشة. كان يمكن أن أقضي بقية العمر بديترويت. الصدفة أحيانا عجيبة. جئت مع صديق لبناني كان يكبرني سنا. كان سعيدا أنه اشترى سكنا صغيرا في المدينة لقضاء ما تبقى من أيام عمره

---

(٦٦) Down Town

بعد التقاعد. قلت له: كلما دخلت إلى طوليدو شعرت برائحة تقربني أكثر من هذه المدينة. قال لا علاقة لها بما تتصور. قلت: أنت لا تعرف كيف تلعب بنا أسماء المدن وكيف توقظ فينا الأشواق الميتة وتحييها؟ أشعر أن في هذه المدينة شيئاً من رائحة أجدادي. قلت الكلمة ونسيتها ولكني زرته مرة ومرتين قبل أن أتعوّد على المجيء إلى المدينة باستمرار وخصوصاً أن المسافة بينها وبين ديترويت لم تكن كبيرة. سألني في إحدى المرات: هل مازلت أعشق رائحة هذه المدينة، قلت نعم. أخذني لمصنع سيارات جيب وسجلني ضمن العمال الحرفيين، فقد نفعتني سنوات العمل في مصانع ديترويت. كانوا في حاجة إلى عمال كثيرين لتسديد الطلبات العسكرية التي كانت تتهاطل على المصنع. وهكذا وجدت نفسي ليس في مدينة أخرى ولكن كذلك في ولاية أخرى، من ميشيغان إلى أوهايو. تقاسمت البيت مع صديقي بعد وفاة زوجته، قبل أن يقترح علي شراءه، بشرط البقاء فيه حتى وفاته. لم أفكر كثيرا. دفعت كل ما وضعته جانبا من أقساط وأضافت أمك قسما مهما، فصار هذا البيت الجميل ملكا لي. غياب زوجته اختزل عمره. بعد سنتين فقط انسحب بهدوء ولم يزعج أحدا لا في حياته ولا في موته. لم أفعل الشيء الكثير في هذا البيت سوى أني ولفته بحسب الشهوة الكامنة في داخلي وغرست فيه جزءا من ذاكرتي.

- هل بقي صديقك اللبناني بالبيت حتى آخر أيامه؟

- كان ذلك شرطه كما قلت لك ولم يكن ليقلقني مطلقا. فقد كان وحيدا ورفض أن يذهب لبيت العجزة. جرب يوما واحدا ثم تراجع نهائيا عن فكرته. طلب مني أن أخرجه من سجنه كما كان يسميه ففعلت بدون أدنى تردد لأني شعرت بنداءات حارة في عينيه. كان ينام في غرفة النوم وكانت هناك سيدة تسهر على راحته، تأتيه كل يوم، صبحا ثم تعود بعد الظهر. أما أنا فلم أتجاوز عتبات الغرفة الشرقية حتى لا أزعجه إلا عندما يناديني. الغرفة الشرقية، هي في الأصل بيت يلتصق بالفيلا الموريسكية الصغيرة التي يندفن جزؤها الأمامي في الحديقة، ولا يفصلها عن بقية

البيت إلا الزجاج الذي يعطي الانطباع وكأننا داخل الحديقة من إحدى جهاتها. ذاك هو مكاني المفضل أبدا.

عندما فتح بابا شريف باب الغرفة الشرقية خرجت بسرعة رائحة الياسمين قوية، مختلطة برائحة الهيل والخشب القديم والعرعار. أزاح الستائر ذات اللون الأصفر الخفيف ثم الستائر الآجريّة الثقيلة بمساعدة عائشة، لتقفز أمام أنظارنا، الحديقة بكامل ألوانها وفراشاتها الكثيرة. تسربت شلالات من الضوء الذي احتل كل الأمكنة ماسحا ثقل الظلال الرطبة. بدت الغرفة دافئة وواسعة بكل تفاصيلها البسيطة جدا حتى بدون أن يشعل الضوء فيها ولم يشعر بنفسه في حاجة إلى ذلك. لا أثاث ثقيلاً في الغرفة، كالطاولات والديوانيات والكنبات ذات الخشب العتيق. لا شيء من هذا سوى بعض الأواني الصغيرة، وأفرشة أرضية مثل الزرابي ذات الألوان الداكنة والحارة التي تخترقها في الوسط، تلوينات خفيفة لا تؤثر مطلقا في اللون الأصلي. ثلاثة مطارح تحتل الزوايا وكأن المرء عندما يتحدث لقريبه يحتاج إلى فضاء من الراحة يعطي تهوية كبيرة للمكان. وصينية قسنطينية كتلك التي تعود جاز رؤيتها عند أمه. وشيشة في الزاوية كأنها لم تستعمل منذ مدة. ليس بعيدا عنها، تنور قديم، تنام عليه ركوة تركية عتيقة تتجمر باستمرار على نار هادئة.

تأمل بابا شريف الغرفة مليا كأنه يكتشفها للمرة الأولى.

- هذا مكاني. أسميه غرفة العناية المشددة. فأنا أدور باستمرار داخل البيت ولكن في النهاية يستقر بي المقام في هذه الغرفة التي أجد فيها نفسي بسهولة وأشعر بأني مازلت على قيد الحياة.

- غرفة العناية المشددة؟

تمتم جاز بدهشة.

- المؤكد أنك تقول: إن جدي صار مجنونا. أدخل هنا لكيلا أشعر بنفسي وحيدا ولكيلا أختنق من المحيط. غرفة العناية المشددة مليئة بعطر لا يملأ المكان فقط ولكنه يملأ جلودنا وذاكراتنا المتعبة. كلما اشتقت لتلك الأرض، جلست واتكأت على الوسادة وشربت قهوتي التي

أحضرها بيدي على هذا المجمر الذي لا يغادر هذا المكان. من أول رشفة أسترجع توازني وقوتي. ارتاحوا قليلا وسترون قدر الراحة التي أتحدث عنها والشهية اللامتناهية للحديث.

مشت عائشة نحو المجمر، أخذته نحو الحديقة وأشعلت النار على القطع الفحمية. عندما خفت الأدخنة، عادت نحو الغرفة الشرقية، بينما انهمك بابا شريف في تحضير الركوة بهدوء واتزان، الماء، الهيل الذي يوضع داخل الركوة وليس في الكؤوس ثم مقدار القهوة بقياس خمس ملاعق. عندما انتهى من ترتيب كل اللوازم، وضع الإبريق على المجمر. بعد لحظات بدأت القهوة تغلي مكونة زبدا كثيفا وقبل أن تفيض، أنزلها للحظة، وضع ملعقتين من السكر ثم أعادها إلى مكانها الأول وتركها تتجمر بهدوء.

- السكَّر يركح القهوة. هذه القهوة أندلسية، يأتي بها إسباني من إشبيليا. يقول إنها عربية وأعتقد ذلك، فهي تذكرني كثيرا بقهوة *أبو مرزوق*، في سوق ساروجا التي كنت أشربها كلما زرت السوق. قهوة محمصة، تشم رائحتها من الأقاصي. تشعر بطعمها منذ الرشفة الأولى وعليك أن تنتظر قليلا قبل أن تبتلعها وترشف رشفات أخرى. يجب أن تسري في كامل الفم وتسري في كامل الخلايا قبل أن تتحسسها. كلما شربت قطرة وأغمضت عيني، أصبح من السهل علي أن أجد نفسي في شوارع دمشق ودروبها القديمة، أو معابر بيروت المؤدية إلى سجن عاليه أو شارع المتنبي حيث أجمل النساء وأصدقهن. الدنيا اليوم تغيرت كثيرا. كل مدننا صارت متشابهة، بل كل مدن الدنيا صارت متشابهة مع الفرق في النظافة بيننا وبينهم.

لم يقاطعه أحد. صمت قليلا قبل أن يلتفت صوب عائشة التي كانت تتبع كل حركاته بعيني عصفور صغير.

- لولا عائشة، حفظها الله من كل مكروه، لما قاومت هذه العزلة الباردة. لالة عويشة، طالبة منذ سنوات في التاريخ. وجدت ضالتها فيَ ووجدت حاجتي الماسة فيها. لا تريد أن ترجع إلى المغرب. أبوها مات

في معتقل تازمامرت لأنه كان السائق الذي قاد الانقلابيين إلى القصر الملكي ولم يكن يعرف شيئا مما كان يحدث. وضع في الظلمة حتى ذهابه ذات ليلة ولا أحد يعرف كيف حدث ذلك. بعض الذين خرجوا يقولون إنه مات تحت التعذيب ودفن في الجهة الغربية من ساحة السجن. كانت تزورني قبل عائشة، موظفة بلدية، ثلاث مرات في الأسبوع قبل أن أستغني عنها نهائيا عندما منحني الله عائشة التي كانت مستعدة أن تزورني يوميا؛ تقرأ لي الجرائد عندما أكون متعبا أو تخرج معي إلى الحديقة، نتقاسم قهوة أو شوقا إلى الأهل والبلاد، وبراتب مشابه أو أقل. أساعدها أحيانا على تحضير طعام الغذاء والعشاء لكن العمل الشاق تتكفل به هي. كنت في حاجة إلى تصريف البركان الذي كان يأكلني من الداخل وكانت عائشة هي الوحيدة القادرة على الاستماع إلى استغاثاتي الصامتة. أمك لم يكن لديها الصبر ولم تكن لدي القوة لإقناعها بما كان يشتعل في داخلي. عويشة بنتي، أعطني الصندوق الله يجازيك بخير.

لم تبذل مجهودا، فقد كانت عائشة مثل الحاسوب المبرمج، تعرف تفاصيل كل الأشياء بدون أدنى تردد. أخذت كومة من المفاتيح المعلقة على الجدار المواجه للستائر ثم دخلت في عمق بهو صغير. فتحت خزانة قديمة وثقيلة تحتل الزاوية الخلفية وتكاد لا ترى، وجاءته بالصندوق. وضعته أمامه.

سلمته نظارتيه. وضعهما بهدوء وهو يحاول تثبيتهما بصعوبة على أذنيه:

- العمر يا جاز يا وليدي. العمر ابن كلب، خداع. لا ننتبه له إلا عندما يتخلى عنا.

ثم انتبه إلى ميترا التي ظلت منشدة إلى كل حركاته وكلماته.

- عذرا يا ميترا ابنتي، نسيتك وسط فوضى العمر. أنت كذلك عزيزة علي ما دمت تسعدين جاز وتملئين وحدته وأيامه وأشواقه. احتفظي به ولا تتركيه لغيرك، فلن يجد أحسن منك... احذري...

- لا تهتم يا جدي، جاز في القلب والعينين.

قالت ميترا باقتضاب. كانت عيناها مثبتتين على الصندوق الذي كان يعالجه بابا شريف كساحر للثعابين والجمهور ينتظر بشغف ماذا يخرج من هذا الصندوق العجيب؟

بعد جهد بسيط وجد شريف الفتحة. أدار المفتاح ثلاث دورات متتالية أحدثت ثلاثة أصوات جافة متباينة المدى الزمني، الأولى جافة وقصيرة والثانية طويلة قليلا والثالثة كانت أكثر طولا وليونة، انفتح على إثرها الصندوق عن آخره كأن هناك قوة داخلية ضاغطة دفعت به إلى الانفراج النهائي.

خرجت من الصندوق رائحة قوية تسربت إلى كل الأنوف، هي خليط من غبار الكتب القديمة والمقابر والحمامات الشرقية والعظام اليابسة. حتى إن بابا شريف عطس عطستين جافتين مصحوبتين بسعال خفيف سرعان ما انطفأ عندما جاءته عائشة بكأس من الماء.

- منذ زمن لم يفتح هذا الصندوق ولم ير النور. وكان يمكن أن يظل مغلقا أبدا، ربما لأنه لا يهم الناس كثيرا أو أنه لا يهمني إلا أنا. الزمن تبدل واليأس يدفع بالبشر أحيانا إلى النسيان ومع ذلك فقد كان حلما بالنسبة إلي على الأقل. البشر صنفان، هناك من يستطيع أن يتغلب على شقائه وخيباته بالنسيان وهناك من لا يستطيع ويظل يحلم إلى أن يستيقظ ذات صباح ليكتشف أن الزمن تبدل وأن أصدقاء البارحة ذهبوا أو بكل بساطة وضعوا الضمادات على العيون لكيلا يروا مشاهد القيامة التي تحدث أمام عيونهم. وعندما يستيقظ الرجل يكون العمر قد مضى والحلم لم يعد حلما، بل تحول إلى كابوس. وعندما يسأل نفسه بهدوء ورزانة، ماذا حدث؟ ما الذي دفع به إلى الإخفاق؟ أين الخطأ؟ ألم يكن فينا أولا قبل أن يكون في الآخر؟ في الحالة هذه يجب أن يتغير كل التحليل لكن الزمن هذه المرة لا يسعف والذي كان يسمعك ويفهمك لم يعد موجودا.

- دائما هناك أجيال تحترق يا جدي، ويصعب عليها تحمل الهزات

الجديدة. ربما لأن الزمن تغير بالفعل. أنت عندما جئت إلى هناك كان الموضوع بالنسبة لك مؤقتا أو كما تقول أمي المؤقت الذي لا ينتهي ونظل نمني العمر بعودة مستحيلة، وحتى عندما تحدث بعد سنوات، الذين هناك. . . الذين نذهب نحوهم، يكونون قد تغيروا ولم يعودوا يسمعون للصوت الأول. لهذا أمي حسمت أمرها واختارت ألا تلتفت وراءها إلا بعد مدة لتتفادى اختناقات سوء الفهم.

- في أعماقي كنت سعيدا أنها اختارت ذلك وإلا لما استطاعت أن تفعل ما فعلته. كنا نختلف لأننا كنا نتشابه كثيرا. وقع الانكسار الكبير عندما تزوجت من كالفينو. ذهبت وتعرفت عليه في جلسة خاطفة. كان شابا لطيفا وطموحا ومرتبطا كثيرا بالتربة بطريقته. كان باحثا أثريا ولكني كنت أعرف أنها إذا تزوجت بإيطالي لن تعود إلى أرضها الأولى. ونسيت وقتها أن الأرض الأولى كان لها تعريف آخر لديها غير التعريف الذي حفظته من المدارس قبل نصف قرن. ولكن على الرغم من ذلك، كانت أمك وسط كل هذه الخسارات هي الإنجاز الوحيد. كانت شعلة من الشجاعة والذكاء، تريد أن تنجح في كل شيء ونجحت كما اشتهت. المقاومة يا جاز ليست وجها آخر للخسارة ولكن مجهودا مستمرا حتى في مواجهة أبسط الأشياء التي تمر أمامنا عادية وهي ليست كذلك. من الصعب على إنسان عاش العمر كله في حلم أن يقبل بالانكسار. ربما كنت مخطئا. صحيح أن أرض الله واسعة ولكن أرضي الأولى ازدادت ضيقا مع الزمن. ربما هذا لا يعنيك كثيرا، فأنت من عالم آخر أكثر تعقيدا من عالم أمك، لكننا نؤمن أننا عندما نموت نلتقي بالأموات الذين فقدناهم طوال حياتنا وكم أشتهي أن أعود وألتقي مع الذين ذهبوا فقط لأفهم أسباب سوء الفهم التي نغصت علينا حياتنا؟

كانت عيون جاز وميترا وعائشة مفتوحة عن آخرها مثل عيون الحمام المندهش، تتبع حركات يد شريف اليمنى وهي تدخل في عمق الصندوق وتبقى قليلا قبل أن تخرج.

- ها أنت تدفعني إلى ما لا أشتهي رؤيته. لو أظهرت لك الصورة

التي رأيتها في المعرض هل تتذكرها جيدا؟ في هذا الصندوق ذاكرة جدك ولكن كذلك ذاكرة المنطقة بكاملها وأحزانها وحرائقها. إنها مثل كمشة رماد بوذية لرجل لم تبق إلا بقاياه محفوظة في زجاجة. الذاكرة عاجزة عن استرجاع الجسد ولكنها تحفظ الرّوح من التلف يا ابني.

- قصة هذه الصورة غريبة. أول ما رأيتها في المعرض أحدثت عندي شيئا غريبا وعندما قرأت ما كتب تحت الصور تذكرت ما قالته لي مايا، ثم تذكرت أني رأيت ذلك فعلا في مكان ما. يبدو لي أني رأيتها عندك عندما جئت صغيرا مع أمي. ربما، ولكني متأكد من أني هذه المرة على الأقل لن أخطئ فيها.

- طيب، سنرى معاً.

قالها بابا شريف كمن يخضع جاز لامتحان مرهق.

رشف بابا شريف قليلا من القهوة، ثم أخرج الصورة الأولى وكأنه نظم أرشيفه بحسب الترتيب الذي يشتهيه. الصورة تكاد صفرتها تمحي، العلامات السوداء بها كانت كثيرة وتبين أنها بدأت تتآكل. ثم دفع بها لميترا وجاز مع ابتسامة ارتسمت تحت الضوء الذي تسرب من وراء زجاج الحديقة المنعكس بتلونات كثيرة على الغرفة. شعر جاز بامتعاض في داخله وبتمزق عرف مصدره. الخيبة. لم تكن هي الصورة التي كان يبحث عنها. تأملها جيدا مرة أخرى علَه يجد الشبه بين ما رآه في المركز الدولي للصورة وما يراه الآن لكن التباعد كان كبيرا في كل شيء. لم يبد فيها أي شيء مما كان ينتظره. رجل بلباس عربي ينزل قليلا في جزئه العلوي، من على جبهته ولكنه لم يغط وجهه الطفولي الذي غمرته علامات وأسئلة وكأنه وجد نفسه في مغامرة لم يكن بإمكانه أن يقودها أو على الأقل لم يكن مهيأ لها. ابتسامة مضمرة وربما مرتبكة لم تتم إذ توقفت في منتصفها. في الخلفية صفرة طغت على كامل الصورة وأعطتها قداسة كبيرة. تساءل جاز في أعماقه إذا لم يكن جده قد فهمه خطأ.

أخذ بابا شريف الصورة من يد جاز:

- تفحص جيدا هذه الصورة، هل عرفت هذا الرجل؟

تفحص جاز الصورة بعيني طفل مصاب بدهشة اكتشاف الأشياء الأولى في حياته. أعاد تأملها مرة أخرى وهو يتحقق من التفاصيل التي لم تكن تبدو واضحة للوهلة الأولى ولكنه لم ير شيئا مما كان يعرفه.

- لا يا جدي ولكنها ليست الصورة التي رأيتها في المركز الدولي للصورة. هذه تبدو غريبة علي. لا يبدو فيها أي تفصيل مما رأيته. صورة المركز بها وجوه كثيرة وتفاصيل خلفية لا تحصى. فقد عددت مثلا أحد عشر وجها مشنوقا، بدون رجال الشرطة الذين كانوا يملأون المكان. يبدو أني أخطأت في قصتي. ولم أوصل لك التفاصيل بدقة. فشلت في توصيف الصورة يا جدي. تعب الأسفار... والعمل... إلى غير ذلك من مشقات الدنيا.

حاول جاز أن يخفف من الأمر وأن يرد كل حالات الضعف باتجاهه حتى لا يزعج جده.

- أنت لم تخطئ يا جاز أبدا. لا تهتم. ليس هذا هو المهم. انظر جيدا واكتشف معي. هذه صورة للأمير فيصل في شبابه، عندما كان حاملا للسلاح ويجر وراءه القبائل العربية في بلاد الشام والحجاز لتحرير الأرض. أول ملك لأول مملكة عربية في القرن العشرين، لم يقم أي ركن من أركانها. أصحاب القرار الفعلي كانوا يرون شيئا آخر. كان يحلم أن يكون هو أول الداخلين إلى دمشق ولكنه لم يصل في الوقت المناسب وعندما دخل وجد من رتب له الأمور وهيأ له كل العداوات بين أصدقائه وأنصاره ليجعل منه طاغية صغيرا يبدأ بأقرب الناس إليه. وهذا ما حدث بالفعل. كان الفرنسيون قد اتفقوا سلفا مع الإنجليز وكان هو يطحن هواء دافئا في طاحونة فارغة. البلاد كانت قد دخلت عصرا لا اسم له إلا سلطان القوة. وهذه، صورة القائد الإنجليزي أللنبي الذي قهره وكذب عليه لسنوات قبل أن ينصحه بالخروج من أرض صارت فجأة ليست له. ظلا يجريان كل واحد في اتجاه ليصلا إلى دمشق، واحد كان يملك كل المعلومات وآخر لم يكن أمامه إلا حبه للأرض ورغبة السلطان والخروج من طغيان جمال باشا. لم يكن المسكين إلا مسطرة وخطوطا حمراء

وزرقاء قسموا بها البلاد ليتحولوا إلى قتلة أسوأ من الأتراك وجمال باشا.

ثم توقف بابا شريف قليلا وهو يخرج صورة أخرى وينظر إلى جاز مليا كالساحر الذي عليه أن يغري أولا الناس الذين يتتبعون المشهد قبل أن يكشف عن أوراقه السرية. كانت الأسئلة تتسابق في ذهن جاز ولكنه كان يلجمها بصمته ومحاولة تتبع حركة يدي جده.

- أما هذه الصورة فلا بَد أنكما تعرفانها جيدا. فقد كتبت جرائد ذلك الوقت عنها كثيرا حتى بدا كأن الثورة العربية هي هذا الشخص. لورانس العرب. الذي سخر بالعرب ولعب على ذقونهم ولم ينس أبدا أن يكتب تقاريره الدائمة للذين أخذوه من مصر ووضعوه هناك ليشرف على تسيير الجيوش العربية التي كانت تبحث عمن ينظمها. خاض معهم كل المعارك. هو الذي رتب دخول الأمير فيصل إلى دمشق وهو الذي رتب موت الكثيرين ممن رفضوه لكي تجد تلك الأرض راحتها.

- طبعا لورانس العرب معروف جدا يا جدي. أنا نفسي أشعر نحوه ببعض الامتعاض. قبل شهرين قرأت كتابه **أعمدة الحكمة السبعة** لمعرفة ما حدث في المنطقة. الأسماء التي ذكرها كانت كثيرة ولكنه لم ينس أن يتحدث عن نفسه طبعا ولا أدري إذا ما كان قد قال كل شيء وفعل حقيقة كل ما ذكره؟ لا أعلم بالفعل. جزء من تاريخ العرب كتب بنظرته وبأفكاره ومعلوماته.

- ساعد العرب للتخلص من الأتراك والألمان وأعجبته المنطقة فمد رجليه طويلا ونام هناك. لم يساعدهم حيث كان بإمكانه أن يفعل، أن يبعد عنهم هول الآلة الاستعمارية. حبه للملك فيصل لم ينسه أبدا أن يكتب تقاريره اليومية للذين كانوا ينتظرونها في القاهرة أو في لندن أو لقائده الأساسي، أللنبي الذي ظل يرابط في بيروت ودمشق. يتحمل مسؤولية كبيرة فيما آل إليه العرب اليوم. على كل حال خدم ناسه وأرضه. انظر ما كتبه عنه، على ظهر الصورة، صديقه السير رونالد ستورس، حاكم القدس العسكري بين سنوات ١٩١٧-١٩٢٠: **لقد عرف البعض جانبا من شخصية لورانس، وعرف غيرهم جانبا آخر من**

شخصيته، ولكني لا أظن أن أيا منهم عرفه على حقيقته وألمَّ بسمات شخصيته... إن لورانس شأنه شأن صناع الإمبراطورية الذين لا تحد من حركتهم المخاوف ولا يأبهون للكسب الشخصي وإنما يهتمون بما يحققونه لبلادهم ولذلك سيظل لورانس مثالا فريدا. لقد صنعت الحرب شخصيات مهمة لعل أبرزها الرومانسي الخجول العبقري الذي سيخلد اسمه في التاريخ: لورانس العرب.

- لم يكن إنسانا بسيطا.

ولم يزد جاز أكثر من ذلك، فقد كان مشغولا بما كان يقوله جده. كل ما قاله له كان يعرفه جيدا لكن صوت بابا شريف كان في كل مرة يقربه من رائحة كانت تبدو له بعيدة ومستحيلة، رائحة التاريخ وعطر الأمكنة. لم يمنعه ذلك بالإحساس بالمرارة لأنه لم يلمس ما كان يريده وكأنه بنى مشروعه كليا على الفراغ.

ثم دفع بابا شريف لجاز وميترا بصورة أخرى كأنه يختبر ثقافتهما التاريخية والبصرية، لكن الصورة لم تكن تعني لهما الشيء الكثير. صورة نصفية. رجل ينظر بشكل جانبي وكأنه كان منشغلا بالكلام مع شخص آخر لم يظهر في الصورة بالشكل الكامل. تبدو على وجهه علامات الصرامة والدهشة ولكن ذلك كله لم يخبئ الخيبة التي ارتسمت في عينيه اللتين كانتا ترفرفان نحو فراغ ما.

- يذكرني بجدي الذي كان عسكريا كبيرا في الجيش الإيراني في فترة الشاه. قالت ميترا بحماس ظاهر لم يكن كافيا لتخبئة خيبتها. مات بسكتة قلبية عندما علم بسقوط الشاه وانتماء أحد أبنائه إلى رجال الثورة الذين أكلوا رأسه بعد انتصارهم النهائي والساحق. هو كذلك كانت له نفس النظرة التي لا تخبئ، على الرغم من بشاشتها الظاهرة، المرارة الكبيرة التي لا تراها إلا عين متبصرة. أعرف يا جدي أن خيبة آخر العمر قاسية ولا شيء يواسيها. نتحمل الصدمة عندما ندرك أن العمر يسعفنا لتجاوزها ولكننا عندما نيأس من ذلك بسبب تقدم العمر، ننكسر ونستعجل الموت الذي يعافنا فجأة.

- بالضبط يا ميترا. هو كذلك تماما. هذا الرجل حمل السلاح وذهب نحو الموت وهو يعرف أنه سيموت. عندما قال: يجب أن نحارب كلهم نظروا صوب الضابط الإنجليزي الحامي وصوب الساحات لتفادي خزرته اليائسة. هذه صورة أول وزير للحربية في الدولة العربية الفتية: يوسف العظمة، الله يرحمه. عندما انسحب الآخرون إلى الخلف وامتطى فيصل قطار درعا، كان هو يخوض حربا خاسرة ولكنها شريفة. في الاجتماع عندما بعث لهم الضابط الفرنسي المسؤول عن المنطقة الزرقاء من بلاد الشام...

- الجنرال غورو.

قال جاز وهو ملتصق بشفتي جده المرتبكتين:

- بالضبط. هو عينه. طلب منهم أن يلغوا قرار الاستقلال وتأسيس الدولة العربية. صرخ يوسف العظمة في وجه أصدقائه لفعل شيء ولكنه لم يسمع أي صدى لنداءاته. كان قد طلب من الجيش المرابط في طريق بيروت أن يعود إلى مواقعه. وعندما وصل تهديد غورو الثاني، خاف الجميع. اقتنع فيصل بتسليم الأمر وحل الجيش ومؤسسات الدولة الفتية ولكن غورو زاد طغيانا. فوجد العظمة وحده أمام مصير كان قد ختم بالشمع سلفا. كان يعرف أنه مهزوم ومع ذلك دخل المعركة وهو يدرك أن موته كان أكيدا. وهذا...

ثم أخرج بابا شريف صورة أخرى من الصندوق كانت أكثر وضوحا وملامحها دقيقة. رجل يتكئ على سيارة جميلة وهو يضحك عاليا، ربما كان يقهقه، بيد واحدة، الثانية تبدو مقطوعة. على محياه ملامح الثقة الزائدة. في يده عصا يشير بها إلى بعض المحيطين به أن يتحركوا للقيام بعمل ما. ثم صورة ثانية وهو يركب عربة يجرها بشر والناس يتصايحون على الجنبات بهستيريا كأنهم كانوا يرحبون به.

ارتبك جاز وهو يتفرس تفاصيل الصورة ويقرأ الخيبة التي كانت تخط وجه جده وهو يتأمل هذه الصور المتراكمة في فوضى وهمية. كانت تحمل أصواتا مكتومة داخل صندوق ضيق.

- غريب هؤلاء البشر؟ لم تهذبهم الدنيا إلا قليلا. في كل مرة يزدادون ضراوة وشراسة. أسأل نفسي أحيانا عن اللذة التي يشعر بها هذا الرجل وهو يجلس في عربة ثقيلة، بدل أن تجرها أحصنة، يجرها بشر. هو نفسه في الصورتين على ما اعتقد. بلباسه العسكري ويده المقطوعة.

- هذا هو الجنرال غورو. اسم على مسمى، الضابط الفرنسي الذي كنت أتحدث عنه. هو الذي كسر الثورة العربية ودمر الدولة وقتل كل من وقف في وجه مشروعه. لقد محا كل محاولة كانت تستهدف أن تجد طريقا واتضح أن كل الوعود لم تكن إلا بقايا أحلام منكسرة. الصورة الأولى في بيروت لأن مقره الرئيسي كان هناك والصورة الثانية وهو في العربة، عندما دخل دمشق منتصرا، في المنشية في مدخل الشام. وأبو شكري الطباع وأقاربه هم من فك الأحصنة ووضع مكانها العديد من خيرة رجاله، ليجروا بأجسادهم مركبة الجنرال تعبيرا عن ولائهم المفرط.

ثم سحب بابا شريف صورة أخرى وأخرى وأخرى... ولكن الصور التي كان ينتظرها جاز وميترا لم تظهر. بدأ القلق ينتابهما. الصور التي رآها جاز في المعرض كانت هي رهانه الوحيد وكأن كل المشروع بني عليها. متأكد أن الصور التي رآها لم تكن غريبة عنه مطلقا. ويستغرب كيف أن جده لم يخرجها حتى الآن وكأنه كان يلعب معهما لعبة تزيد من قلقهما وتقوي رغبتهما في الذهاب بعيدا نحو عالم لم يكونا مهيَأين لدخوله بالكامل. بابا شريف كان يجد لذة استثنائية للغوص في التفاصيل التى علاها الغبار ولم تعد تهم أحدا، بطريقته الخاصة.

- أعرف جيدا أنكما لا تعرفان تفصيلات هذه الصور. ولكن هؤلاء هم رجال المسرحية الكبرى، أو لنقل المأساة أو الملهاة بحسب الموقع الذي نحتله. بدون معرفتهم يصبح كل ما أحكيه لكما فيما بعد، كأنه ألغاز لا معنى لها أو مجرد كلام عام لا يستند إلى أية مادة فعلية.

ثم أخرج صورة كبيرة قليلا وأكثر وضوحا من بقية الصور الأخرى، هزت كيان جاز عندما رآها لأول مرة إذ لم يستطع أن يكتم سعادته

الكبيرة. جده لم يكن مهبولا في فعله ولكنه كان يستدرجهما بطريقته الخاصة ليتأكد من حساسيتهما تجاه ما كانا يريانه. وبدون أن ينتظر سؤالا من جده قفز أمامه مغيرا مكانه وهو لا يدري ما حصل له ويقترب منه أكثر ويبدأ في تفحص الصورة في حضرته وكأنه في حاجة ماسة لأن يسمع أنفاسه وهي تتقطع:

- هذه هي يا جدي. وحياتك هذه هي الصورة التي كنت أبحث عنها. بالضبط هذه هي. هؤلاء الرجال وهم يضحكون بسعادة غامرة. هذه الصورة بقيت مرتسمة في ذهني منذ زمن بعيد عندما زرتك مع أمي. كل شيء انسحب من ذهني لكني متأكد أنها هي، وهذا الرجل الذي في الوسط أشعر به قريبا مني. ولهذا حاولت أن أحصل على كل الصور من المركز وأدخلتها في الكمبيوتر المحمول حتى أعود لها كلما احتجت إليها.

ثم سحب جاز الكمبيوتر وفتحه ثم بدأ يبحث في الملفات حتى ظهرت الصورة نفسها، ناصعة وواضحة التفاصيل. وقدمها لجده الذي تأملها قليلا وهو ينظر إلى الصورة التي كانت ما تزال في يده.

- نفسها، بالضبط. هذا هو سليم. الله يرحمه. والدي. جدك. الصورة أخذت لهم في سجن عاليه، بمرتفعات بيروت، مكان المحكمة العرفية، ساعات قبل إعدامهم. يضحكون وكأنهم يتهيأون لحضور حفل ساخر. أعتقد أنهم كانوا يملكون شعلة لم تطفأ جذوتها حتى وهم يموتون ويتضاءلون أمام طغيان جمال باشا.

- أندهش يا جدي من هذه الحالة وربما هي التي رسخت الصورة في القلب وفي الذهن: كيف يذهب الناس نحو الموت وهم يضحكون؟ هل الموت لعبة إلى هذا الحد؟ أم أنهم لا يعرفون قوة الخسارة التي يخلفونها وراءهم. أتساءل. قبل قليل وأنا في غرفتي في النزل تذكرت وجوههم ولم أفهم هذه القوة الطاغية التي تدفع بهم نحو الموت وهم يقاتلون من أجل الحياة.

- أو تظن أنهم لا يخافون من الموت هم كذلك؟ كل الناس يخافون

من الموت يا جاز، البطل والجبان على حد سواء، الفارق هو القناعة الراسخة لدى كل واحد منهما. يعرفون أنهم سيموتون من أجل شيء هم اختاروه بأنفسهم ولم يفرض عليهم أبدا. يعيشون قدرا هم يصنعونه. هذا هو الفرق الكبير.

- أو ربما لم يكونوا يتصورون أنهم سيموتون.

- هناك قاعدة كانت معروفة في زمانهم، كل من دخل سجن جمال باشا فهو في عداد الموتى. ستسألني عن جمال باشا، لابد أنك سمعت به على الأقل. طاغية صغير حلم بأن يكون قائدا للجيش الرابع في الحرب العالمية الأولى ولكنه هزم في حرب السويس وهزم أمام الجيوش العربية والإنجليزية والفرنسية على الرغم من الدعم الألماني. كان هو سيد بلاد الشام التي أغرقها بالدم والمشانق. وهذه صورته في أحد القصور التركية.

تأملها جاز وميترا. اندهشا وهما يتساءلان كيف يمكن لرجل تبدو عليه كل ملامح الطيبة والوقار أن يخبئ في داخله طاغية أو آلة عمياء لا تتوقف عن طحن اللحم البشري؟

- وهذه كذلك رأيتموها في المعرض؟ صورة الإعدامات في ساحة البرج.

- نعم. رد جاز. عندك هي أكبر وأكثر وضوحا. الصورة التي في المعرض قديمة ومتآكلة في جوانبها واصفرت كثيرا حتى بدأت بعض الملامح فيها وكأنها آيلة إلى الزوال.

- هذه الخطوط المستقيمة هي أعواد المشانق التي هُيِّئت ليلة من قبل في ساحة البرج التي طرد منها رواد المقاهي المجاورة وسدت كل معابرها. وهذا الشبح الذي لا يبدو جيدا، هو الشيخ طبارة بطربوشه، يبدو أكثر وضوحا وأقل اندفانا في سواد الصورة. الظاهر أن المصور لم تكن لديه إضاءة كافية أو أخذت الصورة بسرعة، فقد أُعدموا فجرا. أما الذي في العمق ولا يبدو واضحا، فهو جدك سليم الله يرحمه. كانوا

أحد عشر شهيدا في ذلك الفجر الربيعي الحزين. صعب يا ابني وأنت ترى أن الربيع قد بدأ يتفتح بنعومة. صعب. . .

اقترب جاز أكثر من الصورة.

- هذا هو إذن جدي سليم؟

- بالضبط.

رد بابا شريف باقتضاب وهو يمد أصبعه عميقا نحو نقطة بعيدة داخل الصورة التي يبدو فيها الشخص معلقا على خشبة على مرتكز ثلاثي وتحته كرسي منكفئ. بلباسه العسكري. كانا اثنين فقط من بين كل المجموع، يلبسان الزي العسكري، البقية كلها كانت ترتدي القمصان البيضاء الفضفاضة. سواد الصورة محا تماما البريق الذي ظهر في العيون في الصورة الأولى ومحا تفاصيل الوجوه التي لا تظهر إلا كظلال خفيفة مرتبكة في الصورة الثانية، في ساحة البرج. كانت وراء الأجسام المعلقة كل تفاصيل المكان: البنايات الكثيرة المتراصة وأشجار كثيفة بدون أن يعني ذلك الشيء الكثير لجاز الذي لم يفهمها.

- هل أعدموا داخل حديقة. السيدة في المركز الدولي للصورة تقول: إن اسمها ساحة الشهداء.

- لم تخطئ السيدة إلا قليلا. اسم هذه الساحة تغير كثيرا. وقتها كان اسمها ساحة الاتحاد ثم البرج خصوصا، بعدها لم تعد تهمني الأسماء لأنها تنويع على ألم واحد يستمر في الدوران بجنون. في الخلفية كما ترون، البنايات الرسمية والحديقة التي تحتوي على المحلات والمقاهي التي أغلقت يومها، ونزل الخديوي الذي كان يرتاده العمال الكبار في الإدارة التركية وله قصة حزينة معي ومع أمي.

أحس جاز برعشة تأخذه من قلبه وتشد على خناقه كالحبل. شعر بالاختناق. كان لسانه قد اختفى نهائيا ومع ذلك رأى على وجه جده ضبابة تنزل بكل ثقلها وتدفنه في عمقها نهائيا. سمع الحكاية قليلا من أمه لكن عندما نطق بها الجد بدا له كأنها تحدث الآن أمام عينيه، للمرة الأولى.

صمت بابا شريف طويلا ودخل في حالة قاسية من البياض الذي لف المكان برمته. فكت ميترا حالة الصمت بتساؤلها الذي ظل عالقا في عيني جاز وحلقه:

- يا جدي هل رأيت والدك قبل أن يعدم؟

- لا. رأيته وهو يموت لحظة بلحظة... مثل قطرات الماء التي تنزل على رأس مريض وتبدو كأنها تزن الأطنان... رأيته يصعد على الكرسي... رأيته وهو يلتفت بعينين مذعورتين لا خوفا ولكن بحثا عن أمي وعني. صعب أن تواجه الموت ذات فجر ربيعي وحدك. تحتاج حتما إلى من يقاسمك هذه العزلة النهائية التي تركن فيها لنفسك قبل أن تترك الروح تنزلق نحو الفضاءات للمرة الأخيرة والنهائية. تلك قصة أخرى... نعم تلك قصة أخرى... كانت مشانق عاليه... رأيته... رآني...

أخذ جدي الكأس ثم رشف القهوة التي نزلت قبل قليل من الركوة، رشفة استمرت مدة طويلة. ثم أغمض عينيه المنداتين بدمعات استعصى خروجها عليه وترك المشاهد تتسابق وتتشابك مثلما تشاء وتختلط بمشانق عاليه... الفجر المصحوب بالموت، المحمل بالأحزان، يأتي دائما باردا وشتويا حتى ولو كان فجرا ربيعيا...

... حتى ولو كان فجر ٦ ماي... ١٩١٦...

مشانق عاليه

-١-

. . . فجر ٦ مايو . . . ١٩١٦ .

عندما دقت ساعة السجن الكبيرة دقتها الثالثة، عرف يوسف استيفان أن يوما آخر قد مات وأن يوما جديدا سيستمر مبتورا قد حلَّ. شعر بخيط من البرد يعبره من رأسه حتى قدمه في شكل خيط مستقيم.

لم تمر إلا ساعات قليلة على دخول اليوم السادس من شهر الزهر من سنة الخوف. لم يتغير شيء مهم سوى أن السواد نزل فجأة على سجن عاليه وأن الفجر انسحب بسرعة من على المدينة وأن الزمن تقلص حتى صار حادا ومؤلما كالشهقة الأخيرة وأن بيروت غابت نهائيا من أعالي الجبل.

لأول مرة كذلك يشعر يوسف استيفان أن اليوم الذي انسحب له قيمة كبيرة وأنه كان بإمكانه أن يقوم فيه بأشياء كثيرة ولكنه لم يفعل ما كان يجب فعله. «وماذا يمكنني أن أفعل وسط هذه الحفرة»، تمتم. «أفكر مثلا. ليكن. ومن بعد؟ ما الذي سيتغير؟ لا شيء.» قال بصمت متماديا في أسئلته القلقة.

أسند رأسه قليلا إلى الحائط العتيق وأخذ يفكر متفاديا لحظة البياض التي كثيرا ما كانت تنتابه في حالات اليأس القصوى. أخذ يفتش عن شيء مبهم في أعماقه التي بدأت تنغلق على نفسها. فجأة وجد المفتاح الضائع.

«في هذه المدينة بالذات، رأيتها لأول مرة وهي تنزل من السفينة القادمة من الميناء القبرصي الغريب. طفلة بعينين مرتعشتين ووجلتين كأن خوفا كان يسكن دمها. ماريكا اسبيريدون. كان البحر يومها عاصفا وكانت ترتدي لباسا صوفيا أزرق ضبابيا بلون سماء غائمة، وكوفية مشتعلة بألوان حارة وعلى رأسها وردة بيضاء تستفز العيون. كل من يراها يرفع رأسه نحوها، يتثبت قليلا، يمسحها من رأسها حتى قدمها ليتذكرها جيدا ثم يواصل سيره. لم تكن تنظر إلى أحد ولكن عينيها ظلتا عالقتين بالسماء والغيمات اليتيمة التي كانت تعبر بسرعة غريبة كأنها خائفة من شيء ما. لم أكلمها لأن رجلا غبيا على ظهره بندقية وعلى رأسه طربوش أحمر سرقها مني حتى قبل أن أقوم من مكاني وأتوجه نحوها. فكرت لحظتها في قتله لكن سحنتي كانت لا تساوي شيئا أمام جثته الضخمة. يومها عرفت لماذا يمكننا أن نقتل عندما نحب وأن الرغبة في القتل من أجل امرأة دليل قاطع على استقرارها في القلب والدم وأنها أسرت شيئا ما فينا.»

- يا الله يا شباب ما راح نبات هونِ. بسرعة... بسرعة...

لم ينتبه يوسف استيفان ولا أحد من السجناء إلى صوت السجان وهو يردد كلامه كالببغاء العجوز. حتى رضا باشا، قائد فرقة عاليه الذي نهض العسكر وبعض السجناء لتحيته عندما استعد للخروج، لم يثر انتباهه. كان منهمكا في ظلال باهتة ملأته عن آخره. امرأة جاءت من سراب البحر.

«لست أدري ماذا حصل لي، ولكن البحر هو الذي فتح شهيتي لحبها. عرفت يومها أني كنت أحبها ولكنها انزلقت من يدي كحبات المطر أو كحفنة ماء صافية. أتساءل أحيانا كيف يمكن لإنسان سوي، أو على الأقل يبدو كذلك، أن يحب امرأة إلى هذه الدرجة وهو لا يعرفها؟»

- يا الله يا شباب مشُّونا، لكان ما راح نبات هون. الله يرضى عليكم، بسرعة.

ردد السجان. مرة أخرى لم يستجب له أحد. كان كل واحد يحاول

أن ينظم هندامه وشعره قليلا ويغسل وجهه وينظرون بالتتابع إلى وجوههم في المرآة الصغيرة التي كانت تتحرك بين الجميع مثل القطعة السحرية، أو يلتفتون إلى يوسف استيفان الذي عاوده فجأة حنين ماريكا. كان استيفان يرفض الموت ويريد أن يظل ملتصقا بالحكاية. ضحك الشيخ طبارة قليلا وهو يلكزه:

- يا الله يا استيفان حبيبي، خلصنا من رومانسيتك؟ هل تريد أن ترى الله بوجه مكفهر؟

- لا أريد أن أرى وجهي ولا أريد أن أرى الله الآن على الأقل، أريد أن أرى نفسي فقط. أشعر كأن شيئا لا يعوض بدأ يتخلى عني يا شيخ طبارة. شيء غامض مثل الحياة وربما أكثر.

- أنت مؤمن، استغفر الله يا يوسف استيفان. ما زلت حلوا يا ابني، أنت تعرف الموت والحياة هما لحظة صغيرة وسط هذا السجل الفاشل الذي اسمه الديمومة. ثم من قال إننا نقاد نحو الموت؟ مجرد همهمات ولا أحد يعرف الحقيقة بالضبط. جمال باشا مجنون ولكنه لن يصل إلى تنفيذ هذه الحماقة.

- يا شيخي الفاضل، أنت أعرف الناس مني أن السفاح جمال باشا لا يلعب. مخي لم يعد يفهم شيئا. لا أريد أن أموت الآن على الأقل، في هذا الفصل بالذات الذي يربط الناس أكثر بالحياة. لا أريد أن أموت في هذا الظلام. ليمنحنا الله على الأقل قليلا من النور لكي نرى البلاد وبيروت وأعالي عاليه التي لم نر إلا سجنها النتن. أريد أن أنام قليلا يا شيخ طبارة لكي أذهب وأنا في كامل قواي العقلية. لا يمكن لله أن يتخلى عنا بهذه البساطة أمام حارس وغد لا يعرف شيئا إلا تكرار جمله التي يتلقاها مثل الببغاء: يا الله يا شباب...

- يا الله يا شباب ما راح نبات هون...

لم يستطع السجناء كبح الضحكة التي انفجرت بقوة وأثارت الحارس الذي التفت فجأة نحوهم:

- تضحكون يا أغبياء؟... يا الله زيدوا اضحكوا... ما عارفين

شو بيستناكم. . . إن شاء الله يرجع لي خبركم فقط. يا لطيف شو هاي الخلقة؟ يا الله رتبوا لي حالكم، مصور سيدنا حابب يأخذ لكم صورة تذكارية.

- حلو يا شاويش، صورة قبل الموت؟ ليش لا. حتى تتذكرنا ويتذكرنا سيدنا جمال باشا. أو أجمل من ذلك، حتى نرى أنفسنا ونحن معلقون أو في القبور. حلو. . . حلو. . .

قال الأمير عارف الشهابي مستفزا الحارس:

- ما أتذكركم ولا بطيخ. مصور سيدنا هو اللي طلب مني ذلك. لو جات عليَّ بس، تغربوا من وجهي نهائيا. لم أر في حياتي سجناء غليظين مثلكم.

ثم اندفن في ممر السجن الضيق وهو يردد:

- يا الله يا شباب ما راح نبات هون. . .

كرر الحارس وهو يحاول أن يتفادى نظرات السجناء الساخرة بعدم الالتفات وراءه.

ظلت قهقهاتهم تتوالى مثل الرعد والمصور يحاول جاهدا تحمل حرارة آلته الخرافية التي تحدث انفجارا كلما التقطت صورة. لا تسمع بعدها إلا الضحكات التي تصم أذني المصور الذي يدفن رأسه داخل حجاب أسود لا يستر اتساخه إلا لون القماش الغامق.

عندما خرج المصور مع الحركة التي ازدادت لم يستطع الحارس أن يخبئ تذمره.

- لا صورة ولا بطيخ. مساكين بيضحكوا، لو بيعرفوا شو يا اللي بيستناهم؟

- لا سيدي عارفين ونص. سيستقبلنا جمال باشا وسيترجانا أن نعذره على سجننا ظلما. فهو يعرف قيمة كل واحد فينا. رجل طيب وعظيم سيفتح قلبه لنا مثلما لم يفعل مع أحد.

قال الشيخ طبارة بثقة وبسخرية مبطنة لم يكن يعلم وقعها إلا الذين ارتسمت على محياهم ابتسامات هاربة، مليئة بالمرارة واليأس.

ضحك الحارس من سذاجة الشيخ طبارة ثم هز رأسه، كمن يعرف سرا يريد أن يحتفظ به وحده.

- طيب يا شيخ. لكان ما دام هيك الحال، يا الله ساعدونا يا شباب ما راح نبات هون...

- الله يخرب بيتك، أنت هو أنت، لا تعرف إلا هذه الجملة؟

تمتم الشيخ طبارة وهو يلتحق ببقية أصدقائه.

لا شيء في هذا الفجر الخلوي إلا الظلمة وساعة تزحف بثقل وزمنا يزداد قلقا وضراوة. الربيع انسحب بسرعة من مرتفعات عاليه ليترك وراءه فراغا يشبه الفراغات التي تخلفها البراكين بعد خروج الحمم الثقيلة. حتى الهواء الفجري هب ثقيلا مرتعشا. كان الصمت يلف المكان الضيق الواقع على منحدر وشارعين يتقاطعان عند مفرق السجن، الأول ينزل متسرسبا كالثعبان والثاني يصعد عاليا باتجاه رأس الجبل. لا صوت يطغى إلا صوت نباح الكلاب الذي جاء من بعيد مختلطا بهدير السيارة الكبيرة التي كانت تحاول أن تتوقف حتى لا تتدحرج من أعالي هذه المنطقة التي يخاف النسر أن يقطنها.

- بسرعة يا شباب، العربة اللي بتاخذكم عند سيدنا جمال الباشا وصلت.

- جاهزون، رد قائد الأركان سليم وهو يمسح من على وجهه عرقا باردا ويقبض على يد يوسف استيفان الذي اصفرت ملامحه وبدأت قدماه ترتعشان ولم يستطع الوقوف.

- هل سيفعلها السفاح؟

- يفعلها ويفعل أبوها وإلا لماذا نوقظ عند الساعة الثانية صباحا. عملها من قبل، ما الذي يمنعه من تكرار الفعل. نظام يُبني على الجريمة، مآله الموت. المجرم عندما يقتل في المرة الأولى ولا يردع يواصل. لقد أعدم الجنرال نور الدين باشا القائد العام للقوات التركية فيما بين النهرين وفي بغدلد ١٠٥٥ شابا من أحرار العراق عدا الذين قضوا شنقا وماتوا في الصحاري. ولما خلفه خليل بك، واستولى على

كوت العمارة، أمر بشنق أربعين وجيها وإهداء نسائهم إلى ضباطه وجنوده ولكن هذه النسوة العربيات آثرن الموت على العار، فقذفن بأنفسهن إلى دجلة وحملت مياه النهر جثتين إلى شوارع المدينة. وانقض القائد عاكف بك بسبعة طوابير على بلدة الحلة التي يقطنها ثلاثون ألف نسمة فأبادهم جميعا ولم ينج سوى عدد قليل فر إلى البصرة. هكذا القتلة، لا شيء يوقفهم إلا آلة موت مشابهة لهم، تخرج من صلبهم. املأ قلبك بالإيمان وانس أي شيء آخر، فهم قتلة ولن يتراجعوا أبدا. إنها ساعات الموت والإعدامات. ليكن. الحياة واحدة والموت متعدد ليفعل السفاح ما يشاء ولكن لا أحد يستطيع أن يمنع هذا القلب من الخفقان لهذه التربة.

صمت ستيفان برهة وهو يتأمل وجه الشيخ طبارة الذي ظل هادئا وصافيا كشعلة شمعة في ظلام دامس، ولكنه شعر به باردا مثل حجرة الوديان.

- ولكن يا سيدي هذه التربة تخلت عنا وكان يجب عليها أن تحمينا على الأقل.

- التربة لا تتخلى عن ذويها يا يوسف استيفان. أنت صحفي كبير وتعرف الحقيقة. جبن البشر هو الذي يغير الأشياء والموازين والقيم. هذه الأرض تستحق أن نموت من أجلها. سبقتنا قافلة الشهداء الأولى ولم تتراجع أمام الجزار جمال باشا نفسه. يجب أن نتعلم ممن سبقونا. فقد أمر سفاح الديوان العرفي بعاليه بأن يقضي بإعدام مجموعة كبيرة من أحرار هذه الأمة ولم يتراجع مطلقا عن قراره. في ٢٠ أوت ١٩١٥، السنة الماضية فقط يا ستيفان، نصبت المشانق في ساحة البرج وطوقتها كتائب الجند وجيء بالمعتقلين من سجن عاليه إلى دائرة الشرطة في بيروت وترفق الحرس بهم فلم يمروا بالساحة الرهيبة لئلا يروا مشانقهم. وحشروا في قاعة صغيرة وتلي عليهم الإعدام وسمح لهم بكتابة وصاياهم. شنقوا في ذلك الفجر. وكان أول من صعد إلى كرسي الشنق، أجال ببصره قليلا قبل أن يصرخ: إذا كان جمال باشا يتهمنا بإضرام ثورة الاستقلال فلابد من ضحايا لهذا الاستقلال ولنكن نحن

الأوائل. . . لقد عشنا في سبيل الاستقلال ونموت في سبيله. واختفت بقية الكلمات في حلقه لأن الكرسي كان قد سحب من تحت رجليه. وجاء دور الأخوين محمد ومحمود محمصاني فتعانقا وصعدا إلى منصة الإعدام ولفظا روحيهما في وقت واحد. تعرف ماذا قال محمود لجلاده وهو يشد حبل الشنق حول عنقه؟

- لا.

- «يشهد الله أن ما فعلته وما قمت به إنما كان عن اعتقاد راسخ بأنني أخدم بلادي وأنقذها. . . فما أسعد حظنا أنا وأخي محمد إذا كان موتنا حياة للأمة العربية!» الأرض تطلب منا ذلك يا ستيفان.

- أرى يا شيخي أنك تحتفي بموتهم. ألم يكن من الأفضل أن يعيشا من أجل هذه الأرض؟

- يا ريت. وماذا فعلا سوى العمل على جعل الحياة ممكنة على الأقل لغيرهم. قمة الإيثار يا استيفان.

- الموت يا سيدي حارق. ربما كان أبلد ما خلق الله. أستغفر الله.

- وحياة الذل يا استيفان أكثر قسوة وأكثر حرقة.

انزوى يوسف استيفان قليلا في الركن وهو يرتدي قميصه الأبيض الناصع والنظيف الذي سلمه له الحارس. انطفأ كل شيء في عينيه. شعر بالصحراء تتسع من حوله ولكنه لم يستطع أن يتفادى وجه ماريكا المشرق كشعاع مندس بين الأشجار الكثيفة التي تحيط بساحة البرج. لم ير شيئا إلا وجهها المتألق. امرأة من شموع الكنائس الوضاءة. صادفها على حافة الساحل البيروتي قبل خمس سنوات. على ظهرها صرة من الأشياء الصغيرة. عندما نزلت كان عليها أن تبذل مجهودا كبيرا لكي تجد مسلكها بين العساكر الأتراك وغير الأتراك. التفتت نحو كل الجهات وكأنها كانت تنتظر شيئا يخرج من الرمل ولكن عبثا. كانت ملامحها طفولية جدا ونظرتها ضائعة عندما خرجت من الباخرة القبرصية الراسية على المرفأ البيروتي. تدحرجت على الرصيف بسرعة متعبة ولكنها ظلت

لحظة طويلة لا تتأمل شيئا إلا السماء. عندما حاول أن يقوم من مكانه وأن يقترب منها قليلا لكي يحادثها وهو لا يعرف القوة الطاغية التي دفعت به نحوها، كان الحارس التركي، صاحب الطربوش الطويل قد أخذها من يدها وساقها إلى بيته بعد أن تمتم في أذنيها ببعض الكلمات. كان يوسف استيفان متأكدا أنه لم يكن يعرفها ولكنها رأته وكانت تتجه نحوه. قبل أن تأكلها ربوة الميناء القديم، التفتت نحوه. حرث يوسف استيفان الساحل لمدة ألف وأربعمائة وتسعة وستين يوما بيقين كلما غابت الشمس تأكد أنها أجلت مجيئها إلى الميناء لليوم الموالي فيعود وينزل على الحافة الشمالية حيث رآها للمرة الأولى والأخيرة. وفي اليوم السبعين بعد الألف وأربعمائة، رآها بنفس الصرة تعبر الساحل وحيدة. أراد أن يركض وراءها ولكنه عدل عن الفكرة مخافة أن يسرقها منه عسكري تركي آخر. تأملت وجهه من بعيد ثم جاءت نحوه وهي تبتسم كأنها تعرفه منذ زمن.

- يوسف استيفان؟

- ماريكا؟

- كيف عرفت؟

- وأنت كيف عرفت؟

- سألت عن اسمك وقيل لي إنك صحفي وإنك تحب أن تختلي إلى البحر وإنك تكره عسكر الأتراك، فقلت على الأقل نشترك في صفتين. ربما أنت هنا لاقتناص موضوع صحفي يجلب لك القراء؟ هل تملك الشجاعة للكتابة عن قحبة يونانية ضائعة بين الساحات والمحطات البيروتية؟

ارتبك يوسف استيفان من جرأتها وبذاءتها التي لا تشبه وجهها الطفولي.

- ماذا حدث لك؟ هل اختطفت؟

- لا. قصة تافهة لا تهم كثيرا إلا الفضوليين، تحدث يوميا آلاف المرات.

بقي يوسف استيفان لحظات طويلة منكسر العينين أمام وجهها المشع مثل البلور. لمعت عيناها الصافيتان تحت الشعاع الأخير للشمس التي بدأت تندفن وراء المرتفعات البحرية وآخر موجة علت فغطت كل شيء حتى المنارة الواقعة من الجهة الشمالية من البحر.

- لم أفهم جيدا.

أحس برأسها وشعرها وهي تتكئ على كتفه الأيمن قليلا كطفلة تبحث عن بر صغير للأمان. رمت بنظرتها بعيدا باتجاه أفق البحر اللامحدود. تلألأت عيناها العميقتان تحت آخر شعاع قبل أن يندفنا تحت الخصلات التي غطت جبهتها. ثم تركت يدها اليسرى تنام في كفه.

- شقية وبذيئة، أليس كذلك؟ ماريكا. اسم سهل للتداول. والدي قرف من أمي فتركها وشأنها، ولكنه لم يلتفت نحوي فقد كنت صورة مصغرة عن أمي. كانت كقنديل ضوء هارب لا أحد يستطيع أن يضعها تحت سيطرته إلا عشيقها المجنون سوفوكليس ولا أدري كيف فعل لكي يروضها. كنت في العاشرة من عمري عندما بعث لنا والدي أول رسالة من أمريكا لكي يخبرنا بألا نبحث عنه وإذا شاءت أمي أن تعيد حياتها فلها ما تريد. أمي لم تنتظره، في المساء نفسه باتت في حضن عشيقها الذي صار يسكن معنا في نفس الشقة. لست أكثر من شقية يونانية رمتها سفينة ثم غابت بعد أن غمرها رجل بالحب والحنان لمدة ليلتين ثم ساق سفينته وتوارى عن الأنظار نهائيا. حتى التركي النحس الذي أخذني إلى بيته، أول ما غابت زوجته حطني في فراشه يوما كاملا وعندما رأى زوجته لم يكن قادرا حتى على الدفاع عن شهوته، فصار مثل الفأر وقال بأنني اغتصبته. تخيل أنا أغتصب جثة مثل الجبل؟

- كل هذه الفترة كنت عنده.

- طبعا. كنت أساعد زوجته في كل شيء حتى في فراشها الذي كنت أدخله كلما غابت عن البيت. كان العسكري التركي يشبه سوفوكليس في خشونته ولكنه كان يملأني. المرأة تحب الرجل الذي لا

يترك فيها منفذا للفراغ. أبناء الزوجة الأربعة لم يكونوا مزعجين أبدا، كنت أهيئهم كل صباح إلا كبيرهم الذي لم يكن ينظر بسعادة كبيرة إليَّ إلا عندما أنحني لأربط خيط أحذية الصغار فأراه راشقا عينيه في صدري الممتلئ. كنت أستفزه أحيانا عمدا. أجد لذة كبيرة في البقاء على نفس الوضع وأنا أنظر إليه من وراء شعري المنسدل، وهو يصفَر ويخضَر ويحمَر قبل أن يغرق في عمق الحمام ولا يخرج إلا بعد نصف ساعة. كان مراهقا عنيدا. لا أدري لماذا أقص عليك كل هذه التفاصيل التافهة؟

- لديك أهل في بيروت غير هذا التركي الخشن الذي سرقك من البحر؟

- لا أحد إلا السماء والأرض. قال لي عمال الميناء: إنه بإمكاني أن أجد عملا في البرج. أنا لم أعرف في حياتي رجلا يساعدني إلا سوفوكليس، الرجل الذي عشقته أمي هيلينا. كان سكيرا عربيدا ومع ذلك لم تستطع أن تتخلى عنه مطلقا وظلت تحبه حتى مرضت بسببه ومن كثرة ما كانت تحكي عنه شهتني فيه. كنت أتلصص عليهما كلما اختليا إلى بعضهما بعضاً وهما في حالة سكر. أستطيع أن أكتب كتابا كبيرا عن هذه التفاصيل. لم أتقزز يوما مما رأيته. على العكس من ذلك، تنامت شهوتي في تقليد أمي مع عشيقها أو مع غيره. وحسدتها فيه حتى نمت في نفس فراش أمي واستعدت كل الحماقات التي مارستْها معه، بل إني أبدعت في جنوني. أعتقد أن في عمق كل امرأة قدرة من الجنون لا تمارسها إلا إذا شعرت بالحرية والأمان. أسعدته أكثر من أمي ولكن عندما عرفتْ حقيقة ما كان يحدث في غيابها، هددته برميه في الشارع، طردني سوفوكليس وأركبني في أول باخرة متجهة من ألبيري إلى قبرص وهو يصرخ من وجهي باكيا: أحبك يا ماريكا ولكنني لا أريد أن أعود إلى الشارع. . . لا أريد أن أموت في الشارع. . . كنت مندهشة في بكائه ولم أكن أعرف هل كان علي أن أقبض على جسده وأنام على صدره أم أهرب ولا ألتفت ورائي؟ كان يريد أن يتخلص مني بسرعة قبل أن يتراجع، وكنت أفكر كيف أتخلص من أمي. فخرجت من حياتهما حتى

لا أتحول إلى مجرمة صغيرة. أنا متأكدة من أني كنت سأقتل أمي لو مكثت معهما في نفس البيت. في قبرص لم أر شيئا إلا الغربة والبحر وقليلا من البشر الذين نادرا ما يقولون صباح الخير. شعرت بخلوة وخوف كبيرين، كل الوجوه بدت لي ملساء ومحنطة بالخوف والرعب. نزلت إلى الميناء ولا أدري الصدفة التي عرفتني بذلك القبطان الجميل الذي كان يتحدث لغتي، فمنحني بسخاء ليلتي حب وبعض النقود ودفئا كبيرا كنت في حاجة ماسة إليه. كنت في حاجة إلى نقوده أكثر من قبلاته ولكنه عندما أغلق باب قمرته، رأيت مرة أخرى سوفوكليس بيدين ناعمتين مثل الشمع وملامس مثل الندى. كان عابرا باتجاه بيروت فركبت معه وأنا لا أعرف ماذا كنت أريد أن أفعل بحياتي. أكد لي أني في بيروت سأجد ضالتي وسأحصل على عمل. وصدقته كأنه كان يقول الحقيقة المطلقة. ربما كان يقول الحقيقة، لا أدري، لكني لم أجد شيئا من كل ما قاله لي. لا أتذكر منه اليوم إلا الليلتين المسروقتين.

- لماذا بيروت؟

- ربما لأن نصيحة القبطان كانت أقوى من أي تفكير. أنا نفسي لا أعرف بالضبط لماذا. كنت ربما أريد التخلص بسرعة من مرفأ قبرص البارد والباهت. سمعت عن قبرص الكثير ولكني لم أكن أتصور أن ناسها جامدون بشكل مقرف ولا يتكلمون.

صمت يوسف استيفان قليلا وهو يلامس بظهره حائط السجن البارد، ثم أحنى رأسه قليلا يبحث وسط الفراغات عن وجه ماريكا الذي انطفأ فجأة. كان البحر قد هرب من عينيه نهائيا. سمع من جديد صوت السجان الذي أعاده إلى برودة السجن:

- يا الله يا شباب لا تبهدلونا مع سيدي... خليكم رجَّالْ...

تحسس يوسف استيفان مرة أخرى عنقه بقليل من الاهتمام الزائد. شعر بقبلة ماريكا الأولى حارة وناعمة كمطر خريفي، ممزوجة بعطر قوي التبس ببشرتها حتى صار جزءا منه. سمع صوتها متقطعا... العطر الذي لا يتزوج بشرة المرأة بحميمية لا قيمة له يا حبيبي... تحسس رقبته

أكثر، فرأى أنشوطة حبل تطوق عنقه بقوة وتشتد بقوة مؤلمة أكثر فأكثر، فبدأ يسعل بعد أن شعر بضيق تنفسه:

- يوسف استيفان اشرب هذه الكأس من الماء ستهدئك قليلا وتجعل الموت متحملا.

عندما رفع رأسه صوب الصوت، رأى وجه سليم الجزائري واضحا وصارما تحت الشمعة التي كانت ذؤابتها ترتعش من شدة تلاحق تنفس يوسف استيفان. كان سليم مزيجا من الصلابة والطيبة.

- أنت خائف يا استيفان؟

- وأنت يا معلم سليم؟

- طبعا خائف وقلبي أحيانا يخفق برعب وهو يتحسس برودة الحبل وهو يشتد بقوة حول العنق، ولكن عندي أمل صغير في أن السفاح لن يفعلها. هزائمه كثيرة وخساراته لا تحسب وليس في حاجة إلى إضافة هزيمة جديدة إلى سجله الزاخر. تركيا في حالة يرثى لها، وإذا فعلها سيعقد من أوضاع بلاده أكثر وسيعجل السفاح من نهايته وأحلام الرجل المريض التي لا تحصى ولا تعد. ومع ذلك يستحسن أن نحضر أنفسنا لأقصى الاحتمالات أفضل من أن نتشبث بوهم ونفاجأ بغيره.

فجأة لمعت في عيني يوسف استيفان علامات سعادة كانت مطمورة في داخله.

- معناه أنه لن يفعلها.

- اعتقادي الخاص ولكنه أهوج. على الأقل نحتاج إلى أن نؤمن بذلك لكي تستمر الحياة. أنا كذلك لدي زوجة وابن لم أرهما، وأحتاج أن أشبع العين بهما. وعلي أن أظل متشبثا بالحياة إلى آخر لحظة. على كل حال لن نخسر الشيء الكثير. وعندما يتأكد الموت، سنحاول أن نذهب بأقل الخسارات الروحية الممكنة.

- ولكن هذه القمصان البيضاء مخيفة يا سيدي وهي توحي بأننا صرنا في الأكفان حتى قبل موتنا؟

- سأطلب أن أموت بلباسي العسكري وهذا حق يوفره لي القانون

العسكري. سنرى كيف تتطور الأمور. والبياض في النهاية، ليس دليلا على الموت دائما يمكن أن يعني السفر نحو المطلق. في مواجهة الموت يمكننا تأويل الرموز بالشكل الذي يخفف الفقدان والخسارة. أحلم يا يوسف استيفان، لديك على الأقل ماريكا تملأ وجدانك وتهدم جبروت الموت في عينيك. احلم يا حبيبي، لا شيء أقوى وأجمل من الحلم ولكن لا تستسلم للموت.

- يا الله بسرعة. بسرعة اطلعوا...

جاء الصوت الآمر حادا، مختلطا بشخير الشاحنة العسكرية الثقيلة، المتوقفة في المنحدر الصغير في قمة عاليه. الظلمة الباردة التي لم تكن تخترقها إلا الفوانيس المحمولة أو تلك المعلقة على الحيطان. تتابع الجميع في شكل متواصل، الواحد تلو الآخر، تربطهم إلى بعضهم بعضاً حبال لا تسمح لهم إلا بالحركة الدنيا. لمع بياض قمصانهم الفضفاضة ناصعا ونقيا تحت الفوانيس المحمولة. كانوا تسعة محاطين بأكثر من عشرين حارسا. التفت سليم إلى الوراء، لم ير شيئا إلا البناية الصغيرة التي كانوا محشورين فيها وسبقهم إليها العديد من السجناء في السنوات الماضية، والشارع الصغير الذي ينفصل في شكل ممرين محصورين غير متوازيين. الأبواب الحديدية الثقيلة والبوابات الخشبية المتشابهة التي يغلق بها سكان عاليه على تجارتهم، بدأت تتآكل والكثير منها لم تفتح منذ مدة طويلة.

الصمت. لا شيء إلا خشخشة الأحذية وهي تتسلق السيارة أو وهي تتعثر على البوابة الحديدية لخلفية الشاحنة، والأنفاس التي كانت تزداد صعوبة وتقطعا. شعر يوسف استيفان فجأة وهو داخل السيارة برئتيه تمتلئان بالهواء الفجري ممزوجا برائحة الياسمين الذي كان يأتي من مكان قريب. منذ زمن بعيد لم يشم ذلك حتى ظن أن أنفه فقد وظائفه الحسية ولم يعد يشم إلا الروائح الكريهة التي كانت تملأ جوانب سجن عاليه.

عندما انطلقت العربة الخشنة كان كل شيء قد انتهى، من مرتفعات عاليه إلى جسر الباشا. حاولوا أن يتفرسوا الأمكنة بهدوء ولكنهم لم يروا

شيئا. نزل الصمت ثقيلا ككتلة حديدية شبيها بظلمة شتوية وصارت الصدور تتنفس بصعوبة ولا شيء يسمع إلا الآلات الحديدية لهذه السيارة وهي تتآكل فيما بينها وبدا كأنها كتلة لا أحد يتحكم فيها إلا المنحدرات العمودية لعاليه والطرقات الملتوية التي كانت تجبر السائق على أن يحيط بالجبل قبل أن يصل إلى ساحة البرج، في قلب بيروت. كان مسلك العربة واضحا وصعبا. وكان على الشاحنة الخشنة أو الكاميون كما يسمونه، أن تعبر أولا طريق النهر قادمة من جهة جسر بيروت وقبيل وصولها إلى الساحة، تنكسر يمينا لتمر من وراء البنك العثماني القديم وتتجه توا نحو دائرة البوليس. المسلك الوحيد لتفادي رؤية المشانق المنصوبة في استقامة تامة، في ساحة البرج.

شيء ما في يوسف استيفان كان مناهضا للموت. بدت له مرة أخرى ماريكا في كل رونقها مثلما رآها للمرة الأولى عارية على عتبة بيتها في الحي الخلفي للمدينة. كانت مثل الشمعة. عندما تلمس حلمة نهدها رآها تتلون مثل النار وتتشكل مثل الضوء الهارب. ترك يده تتزحلق ونسي أنه هنا لينام معها ويدفع لها حقها ويخرج من بيتها ولكنه لم يفعل ولم تفعل أبدا. لأول مرة يسمع كلمة أحبك من امرأة غريبة. وشوشت في أذنه بلغة منكسرة: يا غبي أنا كذلك أحبك. أنا التي جئت نحوك في ذلك الساحل المقفر، قالتها وهي تحاول أن تكتم ضحكتها المرحة. ثم تركت نفسها تتكوم على جسده وتتمتم «لابد أن أحدنا يشبه الآخر، ليست اللغة وحدها، شيء أعمق يشبه آلام الغربة وشطط الحياة التي تقف على كف عفريت. أحبك وأشتهيك يا مجنون.»

- لأني أشبه سوفوكليس؟

قال يوسف استيفان وهو يحاول أن يستفز ماريكا.

- «لا يا غبي. أحبك لأنك لا تشبه أحدا.»

رأى المشنقة التي كانت تحرمه من كل هذا الرونق وهذه النعومة النادرة.

«ثم ماذا لو كان الإعدام حقيقيا ولم تكن النهايات كما تصورها

سليم؟ هل يعقل أن الموت بكل هذه البشاعة؟ يجب ألا أقبل به وأن أرفض هذه الشهادة. ميت، ميت، ماذا لو هربت من هذه الحتمية المفروضة علينا؟ لم أشبع من ماريكا، وعندما بدأت أكتشفها، ها هو الموت يسحبني منها، من كان يزورني في سجن عاليه متنكرا في حجاب؟ من كان يأتيني بالتبغ والحشيش لكي أنسى خراب العمر؟ من كان يقف الساعات الطويلة وهو يغامر بحياته ووظيفته وينتظر أن يسمح له بالدخول علي قبل أن يأتيني الحارس الغبي؟»

- نيه لك يا عم استيفان. شو هالحظ الكبير؟ يالله معك دقيقتان لا أكثر. هيدي زوجتك وأم أولادك وصلت. تريد أن تسلمك سلة الخضر والفواكه. ولا تستغل طيبتي.

وتمر الدقيقتان. اغمز للحارس وأسرب له بعض السجائر. عشر دقائق. أدفع بالباكيت كاملا فيدخلني في الغرفة الفارغة ويتركني هناك ربع ساعة بينما هو يقوم بالحراسة خوفا على نفسه من قائده. لا أفعل شيئا. أتأمل وجهها طويلا. ألمس شفتيها. شعرها. رقبتها العاجية. أرضع حلمتي نهديها الموردتين الناعمتين. أقبض عليهما بكامل كفي لكيلا ينسحبا أبدا من مخيلتي. أسرسب يدي اليمنى وأرى تأوهات وجهها وتلونات عينيها الضاربتين نحو زرقة هاربة نحو بحر ينام في كتلة خفيفة من الضباب. تندفن نظراتها في غيمتين مثقلتين باللذة وأترك نفسي أنهمر في حالة توحشي الذي يزيدها التصاقا بي. لا أستيقظ إلا والحارس الغبي يتمتم وراء الباب: خلاص وقتك. تتشبث ماريكا: لا أريد أن أذهب. أعقّلها. تبكي، ثم تنسحب من جسدي متفادية النظر نحوي وهي تغيب في عمق البهو المظلم، أتفادى الركض وراءها. أكتفي بالاستماع إلى نقرات صوت حذائها وهي تعبر الممر حتى تغيب نهائيا.

«- لا. هذا ليس عدلا... ليس عدلا... ماذا سأخسر؟ يا الله...»

يحاول مرة أخرى أن يفك وثاقه.

تداخلت أصابعه التي كانت تتآكل في فك الرباط بيأس كبير. شعر

بالألم وبلزوجة الدم الذي ملأ معصميه وشفته السفلى من كثرة الضغط عليها، ولكنه لم يبال. تحمل حتى لا يحدث أي شيء يمكن أن يثير حساسية الحراس المفرطة. بدت له الظلمة الفجرية مصدر أمان كبير. يعرف المنطقة جيدا ويعرف كل منعطفاتها. الحارس القريب منه كان يشخر من كثرة التعب والمصور لم يكن معنيا مطلقا بما كان يحدث أمامه بعدما صور وأتم ما جاء من أجله. اتكأ يوسف استيفان على الحارس ليختبر درجة نومه فشعر به مثل الكتلة الميتة بينما كان الحراس الآخرون ملتصقين ببقية السجناء. فجأة شعر بأن يديه قد صارتا حرتين. تمتم «ماريكا حبيبتي، أنا جاي... جاي...». كان على يقين تام أنها كانت تسمعه. قالت له ذات مرة: كلما خفق قلبك خوفا، أو فرحا، شعرت به. كانت جثة الحارس النائم تتكئ عليه بكل ثقلها. بدا له كأنه يسمع تمتمة. شعر كأن كل عيون السجناء المختبئة تحت ستار الظلمة كانت تدفع به إلى الهرب بما في ذلك نظرات المصور الباردة. دفع بهدوء متمرس، بجسد العسكري الثقيل حتى مال من الجهة الأخرى وهو يتمتم آليا: إن أنت تحركت، سأقتلك مثل الجرذ. ثم عاد إلى شخيره المتواتر. فجأة، بالضبط في المنعطف المنحدر نحو الجسر، عندما مالت العربة حتى كادت أن تسقط على جهتها اليمنى، رمى يوسف استيفان بنفسه في الفراغ. لم يُسمع إلا ارتطام جسده على الأرضية الصلبة. تدرج ثم تكور على الأطراف قبل أن يتدحرج عميقا في الهوة التي غطتها الظلمة. سمع وابلا من الرصاص، ضخمته أصداء الفراغ.

- الله أكبر. الله يسترك يا يوسف استيفان من غدر الهمج وظلمة الموت.

تمتم الشيخ طبارة في الظلمة وتحت قوة الصدمة. تساءل سليم في أعماقه إذا لم يكن يوسف استيفان قد مات من أثر الصدمة أو قتل برشقات الرصاص العمياء التي تشابكت في كل الاتجاهات. كثر الضجيج ولكن البنادق ظلت مصوبة على صدور السجناء لكي تمنعهم من أية حركة.

- كل من يتحرك سيقتل قبل أن يصل إلى المخفر.

صرخ ضابط المفرزة، بينما كان الحارس المعني باستيفان يركض في الظلمة القاسية بلا جدوى. سمع زخات رصاص اخترقت جسد الليل مرة أخرى ولكنه بدا وكأنه بلا جدوى. عندما عاد حارس يوسف استيفان يائسا ليركب السيارة، دفع به ضابط المفرزة إلى الوراء بينما كانت السيارة قد بدأت انحدارها. قال الضابط بوجه بارد ظللته الظلمة أكثر:

- مسؤوليتك كبيرة، آت به حيا أو ميتا. أو... من الأحسن ألا تعود إذا لم تجده أنت تعرف صرامة سيدي جمال باشا. ستضم إلى قائمة المحكومين بالإعدام وتشنق معهم.

ثم واصلت الشاحنة الثقيلة تدحرجها الصعب من الأعالي باتجاه ساحة البرج وبحراسة مشددة على السجناء. على صدغ كل واحد منهم بندقيتان باردتان بينما بقي العسكري، حارس يوسف استيفان، متسمرا في مكانه في وسط الطريق قبل أن تبتلعه ظلمة مرتفعات عاليه وخواؤها الموحش.

-٢-

هدوء مريب يشوب بيروت.

رشق بنظره الساحة بأطرافها المستطيلة، بدت له واسعة على غير عادتها تحت الأضواء ولمبات الكبريت. الرياح الفجائية التي هبت البارحة كنست ساحة البرج في بيروت ونظفت أخشاب المشانق من الغبار العالق بها والجراد الذي التصق بأخشابها ومات عليها عندما لم يجد ما يأكله. منذ أكثر من يومين وهم يهيئون هذه المشانق وقد لاحظ سكان بيروت أن الأمر ليس غريبا على جمال باشا. كلما تعلق الأمر بالإعدامات سادت مثل هذه الفوضى وهذه الحركة غير الاعتيادية. منع الناس من ارتياد المقاهي والمحلات العامة في ساحة البرج والمتسوقون من التجول والباعة والمشترون من ممارسة مهنهم التقليدية. حتى نزل

الخديوي المفتوح الأبواب باستمرار على الداخل والخارج من عمال الإدارة العثمانية، أغلق ولم يعد يستقبل أحدا من الزوار.

ارتبك الدكتور فؤاد غصن وهو يفتح باب غرفته في فندق الخديوي. كانت يما صفية متعبة، علت وجهها صفرة غير اعتيادية على الرغم من هالة الكحل التي أعطت لعينيها اتساعا كبيرا ولألبستها الفاتحة الفضفاضة حركة أكبر حتى لا تثير دهشة العابرين والصاعدين والنازلين في النزل من عمال الإدارة الآتين من بيروت أو من المدن المجاورة.

- أم شريف. الحمد لله على السلامة. هل رآك أحد؟

قال فؤاد غصن وهو يفتح لها باب الغرفة. كان رجلا طيبا. إلى اليوم ما زلت أتذكر ملامحه بالتفصيل. عينان صغيرتان، ممتلئتان بالحياة والذكاء. لم يكن طويلا ولا قصيرا ولكنه يشعرك بالاكتمال والطيبة وعزة النفس. كان نظيفا مثل الغرباء.

أجابته صفية، يما صفية، وهي تحاول أن تبحث عن كلماتها الهاربة:

- لا أعتقد، ما عدا عامل النزل. قلت له إني أختك وجئت لرؤيتك قبل السفر، كما أوصيتني أن أقول. رحب بي طويلا وأراد أن يبعث معي شخصا، قلت له إني أعرف الطريق ولا داعي لأن يكلف نفسه.

- جيد، جيد.

- ولكن أين هم؟ قلت إنهم سيعدمون في ساحة البرج ولا أرى شيئا إلا هذه المشانق التي نصبوها منذ يومين وزرعوها مثل هياكل ميتة لتتحول إلى وليمة للجراد الجائع.

- انتظري قليلا. العادة أن يتم الإعدام فجرا حتى لا يرى الناس ما يفعلونه من بشاعات. من هذه النافذة بإمكانك رؤية كل شيء. وإذا استطعت أن أخبر سليم لكي ينظر نحوك سأفعل. أنا سأنام قليلا على هذا الكرسي وأترك لك السرير ريثما تصل الشاحنات المقلة لهم.

- لا. ليس لدي رغبة في النوم، يمكنك أن تتسطح قليلا. لابد أنك متعب من كثرة العمل والمشقات اليومية.

سحب الستائر الفاصلة بعد أن عبر بهو الغرفة ثم تمدد على سريره معتذرا ليمّا صفية التي كانت قد مددتني على الأريكة القديمة لعلي أستطيع النوم.

جلست يما صفية على الكرسي صوب النافذة المطلة على الساحة. لا شيء في هذا الفجر الليلي إلا الصمت. رأت الساحة وقد زرعت بالعديد من المشانق، مصطفة بانتظام كبير كفيلق يؤدي التحية العسكرية. تساءلت في أعماقها، أي واحدة ستسرق من سليم روحه وتغيِّب وجهه إلى الأبد؟ بدت لها ساحة البرج واسعة على غير عادتها تحت الأضواء المزروعة في عدة أماكن وعند رأس كل مشنقة حتى تسهل عملية ربط الحبل حول الرقبة. الرياح الفجائية التي هبت البارحة كنست الساحة ونظفت أخشاب المشانق من الغبار العالق بها ومن بقايا الجراد الذي التهم كل شيء في سهل البقاع قبل أن ينحدر باتجاه بيروت ويقضي على ما تبقى من حياة فيها. لقد صمم جمال باشا السفاح، أن يجوِّع السكان كلهم. هو من جهة والجراد من جهة ثانية. منذ هزيمة قناة السويس وجمال باشا يبحث عن الوسائل التي تغطي خيبته. الجيش الرابع المكون من ٢٠٠٠٠ عسكري، لم ينفع عدده في شيء، فقد انكسر تحت صد القوات الإنجليزية. وبدأ كالأعمى يضرب في كل الجهات. سبق أن أعدم القافلة الأولى من الزعماء العرب في السنة الماضية، ثم أمر بحل المجلس الإداري وألصق به تهمة العمالة لفرنسا وبريطانيا، فنفي رئيسه حبيب باشا السعد إلى أناطوليا وتبعه المطران الماروني لبيروت، بيار شبلي. منذ أن عين على رأس الجيش الرابع صمم جمال باشا على الإقامة في بيروت بعد أن صادر فيلا أبو راجي سرسق واستقر هناك مع عائلته: زوجته وأمه، أخته وابناه وبنته الوحيدة قامران. طلب من عملائه أن يأتوه بقائمة الذين حضروا المؤتمر العربي في باريس، فجيء بها كاملة غير منقوصة. نصب محكمته العسكرية في عاليه وعين المدعي العام في ديوان عاليه من حاشيته التي تشبهه، نور الدين بك الذي كان من أشد رجال المحكمة الحربية ظلما وغطرسة. وبدأ يهيئ لجريمته الكبرى.

حتى كاتبه الخاص، شهبندر وصديقه المقرب إليه جدا، عبد الكريم الخليل لاحظا شيئا غير طبيعي في تحركاته. كان كلما ذكر اسم أحد الثوار العرب، أصيب بحالة هستيريا كبيرة تستمر معه طويلا:

«- سأقتلهم. سأمحوهم ولن أرحمهم. يريدون الانفصال، سأمزق أجسادهم قطعة قطعة...»

منذ أكثر من يومين وهم يهيئون هذه المشانق بحماس كبير. لم يكن أحد يجهل ما كان يحضره العسكر التركي بسده لكل منافذ ساحة البرج. بعض أسماء السجناء لم تكن غريبة على الناس: قائد الأركان سليم الجزائري، الصحفي سعيد فاضل عقل، عبد الغني العريسي أحد الموقعين على نداء المؤتمر العربي، الشيخ أحمد حسن طبارة العضو المؤسس للجنة البيروتية للإصلاحات والمقدر من طرف المؤتمر العربي وآخرون. كلها وجوه يحبها البيروتيون وسكان الجبل.

وضعت صفية رأسها بين يديها وحاولت أن تنسى كل ما كان يحيط بها. لا تتذكر الشيء الكثير مما حدث أمام عينيها آخر مرة. حينما دخلوا على سليم، كان يصلي، لم يتركوه ينهي صلاته. أخذوه مثل النسور الجائعة. لم يستطع حتى إن يلتفت وراءه ولكنها سمعت صوته وهو يحشر في العربة: عينك على الصبي يا أم شريف. ثم لم تسمع صوته بعدها. عندما سألت يما صفية والي بيروت إذا كان بالإمكان أن يتدخل وهو الذي كان يعرف العائلة جيدا ويزورها باستمرار، قال: «عذرا، الأمر يتجاوز صلاحياتي ولا أستطيع. زوجك لا يسمع إلا لنفسه وكم من مرة نبهته ولكنه لم يستفد. طلبنا منه أن يعتذر لجمال باشا ويطلب الصفح من الباب العالي ويعلن رسميا بأنه غير معني مطلقا بالكمشة من الزعران الانقلابيين، ولكنه رفض وبصق على أوجهنا متهما إيانا بالخونة. لا أستطيع شيئا من أجله. ربما يستحق ما يحدث له. يعاقبه الله على تنكره للبيت الذي آواه من جوع وآمنه من خوف.» لأول مرة أرى يما صفية تنفجر كالبركان في وجه مسؤول كانت تكنَ له كل الاحترام: «يا رجل اتق الله واعتق ذاكرتك ووجوه الذين عرفتهم وقدموا لك كل خير

وأنت في أصعب الظروف وأحلكها. عن أي إله تتحدث؟ عن الله الذي قلمتم أظافره ووضعتموه في جيوبكم كالعملة الرخيصة أم الله الذي لا شأن له بكم؟ أتنكرون الخير؟ أنتم كذلك ستجرفكم الوديان الساخنة التي تغلي من تحت أرجلكم وانتم لا تدرون.»

كان الوقت يمر ثقيلا كالرصاص. فجأة بدأت ملامح فجر ٦ ماي ١٩١٦ تظهر شيئا فشيئا مع إغفاءة في غرفة فؤاد غصن في نزل الخديوي، كانت كافية لكي ترى فيها كابوسا، فقامت مذعورة تحت هدير الشاحنات الخشنة المتتابع والرتيب وصرخات الجند المرتبكين، لتجد الدكتور فؤاد غصن عند رأسها:

- ها هي السيارات قد بدأت تصل. سأنزل لفحصهم مع الطبيب الرسمي. سأحاول أن أجد طريقة لكي يراك ويرى ابنه. أرجو أن تكتمي حزنك وألا تصرخي وإلا سنروح كلنا في ستين داهية مجانا.

- اطمئن، أعرف أن كل شيء قد انتهى. منذ أن انتهت المحاكمة دخلت في حالة حداد مزمن. لا أريده أن يذهب وحيدا. أعرف أنه قد لا يحتاج إلي الآن، لحظة الموت لا نحتاج إلا إلى ذواتنا لكي تظل واقفة ولكني متأكدة كذلك أننا في لحظة الموت نتشبث بأي شيء، حتى بشعاع صغير يتسرب من نافذة أغلقت بإحكام. لن أستطيع من أجله شيئا ولكنه يعرف جيدا بأني فعلت المستحيل لكي أكون هنا، بجانبه وأني نفذت وصيته بجلب أبني شريف معي لكي يرى كيف مات والده على الرغم من أني لست مقتنعة بما أفعله إذ لا أريد أن يحمل بابا شريف في ذاكرته حزنا سيعلمه الأحقاد والضغائن.

ارتبك فؤاد غصن. حنى رأسه قليلا وترك نظراته تنغرس في زليج الغرفة. لا شيء إلا الصمت والظلمة التي بدأت تنسحب شيئا فشيئا تحت ضغط نور حاد كان يأتي من الجهة الشرقية للمدينة.

أحاط العسكر بالشاحنات فور وصولها. نزل العسس أولا ولكن السجناء ظلوا بالعمق ولم يسمح لهم بالهبوط للعبور نحو القاعة الكبيرة

التي تشبه قاعة انتظار لمسافرين عاديين إلا بعد القيام بكل الترتيبات الأمنية.

سمع فؤاد غصن دقا متسارعا على الباب. قام من مكانه وفتحه على فجوة صغيرة. عرف الحارس المكلف بإخباره عند وصول المحكوم عليهم.

- منيح سيدي فؤاد بك أنك صحيان. بضاعة عاليه وصلت. سينزلونهم بعد قليل عندما يتم التحقق من هوياتهم النهائية. الإمام والخوري والطبيب الكبير وصلوا أيضا وهم ينتظرونكم في قاعة العبور. سيدي رضا باشا وأعضاء الديوان العرفي سيصلون بعد قليل.

- في قاعة العبور، قال فؤاد غصن متمتما. شكرا جزيلا... أنا جاي بسرعة.

انسحب الحارس، فأغلق فؤاد غصن الباب وراءه. التفت نحو يما صفية. كان وجهه منكسرا وباردا وذهب فجأة كل الإشراق الذي يكسو محياه عادة.

- تخيلي؟ يسمون قاعة الموت هنا، قاعة العبور.

- قاعة العبور... قاعة الانتظار. في كل الأحوال نفس الشيء. إنهم في مكانهم الأخير الذي يمهد لهم ظروف العبور السريع نحو العالم الآخر. الكلمة قاسية ولكنها ليست أكثر قسوة من الفعل ذاته.

كان هدير الشاحنات قد توقف نهائيا وعادت ساحة البرج إلى صمتها. نزل الدكتور فؤاد غصن بسرعة بينما بقيت هي معلقة على النافذة بعد أن أطفأت كل أنوار الغرفة.

بدأ السجناء ينزلون واحدا واحدا بقمصانهم الفضفاضة البيضاء. كانت ملامح وجوههم التي التمعت تحت ضوء القناديل، واضحة. كانوا يعبرون خط القيامة وهو الممر الفاصل بين قاعة الانتظار ومكان توقف السيارات، باستقامة كبيرة. بدت وجوههم تحت ظلمة الفجر مثل ظلال هاربة من لوحة من لوحات فان غوغ السوداء: الشيخ أحمد طباره، سعيد فضل عقل، عبد الغني العريسي، جيورجي موسى حداد، سليم

الجزائري، عمر حماد، بيترو باولي، عارف الشهابي وتوفيق البساط. لم يكن يبدو عليهم أي خوف ومع ذلك لم يفك الصمت إلا سؤال بيترو وهو يجلس في صالة العبور:

- قل لي يا دكتور فؤاد، هل تعرف مدة الاحتضار قبل الموت؟

لم يرد فؤاد غصن ولكن سليم هو الذي رد عليه:

- حبيبي باولي أنت تذكرني باستيفان الذي لا نعلم عن مصيره شيئا، أعرف أن الموت قاس. جدي رام داني وهو يرمي بنفسه في عمق النار في طليطلة عندما كان الناس يحرقون فقط على شهادة لا إله إلا الله، محمد رسول الله، قال كلاما توارثته الأجيال لتجعل منه مسلكا حياتيا: الموت هو حالة انتفاء تنتقل فيها الروح بعيدا. لا يحدث ألم إلا في اللحظة التي تنفصل فيها الروح عن الجسد. تظل الروح تتشبث بالجسد طويلا قبل أن يتخلى هو عنها ويندثر. فقط لا غير. لو كنا قد متنا على أسرتنا لاكتفينا بأهل يبكوننا ولكن بهذا الموت سيُبكينا الآلاف من الرجال والنساء ولن ينسونا أبدا. ماذا نقول عن أحبابنا في الشام، عبد الحميد الزهراوي، شفيق العزم، الأمير عمر الجزائري وغيرهم؟ ربما يكونون قد أعدموا أو هم في طريقهم الآن إلى ساحة المرجة.

- وجودنا هنا لا يتعلق بدعوة عشاء مع جمال باشا.

ضحك الجميع بألم.

- قلبك طيب يا باولي.

أبلغ رضا باشا قائد فرقة عاليه وأعضاء الديوان العرفي الذي كان يجلس وراءه في خط مستقيم بشكل يذكر بمحاكم التفتيش المقدس، جميع السجناء، بتثبيت حكم الإعدام نهائيا. لم تبد عليهم أية خيبة سوى أن غمامة هربت بسرعة من عيني الشيخ طبارة الذي علته صفرة مفاجئة عندما بدأوا يرتدون أقمصة جديدة، أكثر بياضا من الأولى، تشبه الأكفان. طلب أن يحتفظ بطربوشه. ضحك رضا باشا وأعضاء الديوان العرفي ومدير البوليس وحراسه، ولكنه كتم قهقهته المنفجرة المعروفة عنه منذ زمن بعيد.

- إذا كان هذا يريحك، فإمكانك الاحتفاظ بطربوشك يا شيخ.

قالها رضا باشا على مضض. جر حارسان طاولة كبيرة وضعت عليها أقلام وأوراق خشنة في وسط القاعة وطلب من كل واحد أن يكتب وصيته إن شاء ذلك.

أكد رضا باشا الذي لم يكن منشغلا كثيرا بالسجناء أكثر من انشغاله بمغادرة المكان هو وأعضاء الديوان العرفي، بأسرع ما يمكن.

- اكتبوا وصاياكم إن شئتم. ولكن، نصيحة لله، حذار من أن يكتب أحدكم ما يخدش الآذان وما يمس بشرف الدولة فإن وصيته لن تصل إلى أهله وستمزق في هذا المكان قبل غيره.

كل شيء مر بسرعة. كانوا يكتبون مثل أطفال منهمكين في حل تمارين مدرسية صعبة.

قال الشيخ طبارة وهو يحاول أن يبدو مستقيما ومستكينا لقدر الله:

- يستحسن أن تعجلوا لنا بشيخ وكاهن لكي نقابل ربنا بصفاء. أما أنتم فستأتي الريح التي تكنسكم كأوراق الخريف الميتة. مسألة وقت يا رضا باشا، وقت فقط. الذي وضعك في هذا المكان هو أول من يأكل رأسك قبل أن يأتي من يأكل رأسه هو بدوره.

- تستطيع أن تقول ما تريده لكن ذلك لن يقلل من جرائمكم وعمالتكم وتواطئكم. الله لن يغفر لكم كوارثكم التي حاولتم بها زعزعة الوطن واللعب في ساحات العدو الغادر.

أضاف رضا باشا وهو يبرم شاربيه الطويلين.

قال فؤاد غصن وهو يحاول أن يبدو متنصلا عما كان يحدث أمام عينيه المتعبتين حتى لا يثير العيون المرتشقة على أوجه كل الحاضرين.

- كل شيء جاهز. بعد قليل سننادي الإمام أو الكاهن. لا تشغل بالك شيخ أحمد طبارة. كل شيء سيتم بحسب الأصول التي شاءها الله.

كان رضا باشا منهمكا في الثرثرة مع أعضاء الديوان العرفي ولم يكن يعنيه ما كان يحدث أمام عينيه إلا قليلا. التفت صوب مدير البوليس وسأله بعصبية:

- مطولة الشغلة؟

- مثل ما بتأمر حضرتك. ننتهي من هذه الشكليات ونبعث بهم بعدها إلى الجحيم.

- عجل لي شويه الله يرضى عليك، وقتي ضيق.

عاد الصمت من جديد ولم تعد تسمع إلا خشخشة الطبيب ومساعده وهما يتفحصان السجناء. أو الهمهمات التي كأنها كانت تأتي من بعيد. من حين لآخر يهمس واحد من السجناء في أذن صاحبه الذي تلمع عيناه لفترة ثم سرعان ما ينطفئ النور فيهما وكأن ريحا ساخنة عتَّمتهما فجأة. عندما وصل فؤاد غصن إلى سليم، نظر في عينيه طويلا، فمال هذا الأخير قليلا نحوه. كان العسس ورضا باشا ما يزالون منهمكين في الثرثرة الاعتيادية. وشوش في أذنه اليمنى بكلمات فهمها سليم بسرعة. زادت ملامحه تعمقا واسودادا، فوضع رأسه بين يديه. طلب من رضا باشا شيئا رآه من حقه:

- سيدي رضا باشا، القانون العسكري يسمح لي بالموت بلباسي العسكري فهل يأذن لي سيدي بذلك؟

تردد رضا باشا قليلا في أول وهلة. حك على رأسه، متململا في مكانه بصعوبة بسبب بدانة جسده الثقيل. التفت نحو أعضاء الديوان ورئيس الشرطة، فأشاروا برؤوسهم بأن نعم.

- ليكن. ولكن بدون نياشين كثيرة.

- لا توجد نياشين كثيرة سوى استماتتي في الدفاع عن حق هذه الأمة في الحياة. النياشين يا سيدي أتركها لغيري ممن ستمسحهم الرياح القادمة من الجهة الغربية. الرياح الغربية في البحر، قاتلة يا سيدي. سأكتفي بنظاراتي لكي أرى وجه قاتلي بعيون مفتوحة عن آخرها.

- طيب. ليكن. خذوه إلى القاعة المجاورة لكي يغير ألبسته إذا شاء ويكتب وصيته إذا رغب في ذلك، وبلاش كلام زائد. أنت أولا وأخيرا ضابط عثماني. لا نحترم فيك اليوم إلا ماضيك، حاضرك لا يساوي فلسا.

عندما عاد، كان الطبيب ما يزال غارقا في فحوصاته المتأنية قبل أن يكتب تقريره النهائي الذي يسبق الإعدام. جلس سليم في الزاوية الأقل نورا. بدت له الليلة الأخيرة التي سبقت القبض عليه واضحة الملامح والتفاصيل. كيف تعشى، كيف لعب معي لعبة الشطرنج التي كان يلح على تعليمها لي، ثم كيف قرأ قليلا وكيف أخذ القطة التي ولدت سبع قطات صغيرة مبرقعة واحتضنها ثم بدأ يمسد عليها قبل أن يقوم مذعورا ويأمر بحرق كل الوثائق التي كانت بحوزته. حاولت يما صفية أن توقفه ولكنه رفض. عندما انتهى، صلى صلاة العشاء ولكنه لم ينته من أدائها، فقد انقضوا عليه كالضباع بعد أن قلبوا كل أركان البيت ولم يجدوا شيئا. عندما اقتيد إلى سجن عاليه كان متأكدا من أنه سيجد كل أصدقائه هناك، فلم يخب ظنه أبدا. قال وهو يضحك بحزن:

- كنت أقول في نفسي: الموت وسط الجماعة مريح.

- ومن قال لك: إننا سنموت. الباشا صار مجنونا ويهدد فقط. عادته منذ زمن بعيد.

- ممكن. لكن الطغاة لا منطق لهم. يمكن أن يكون جادا في تصفيتنا.

- يا رجل ليش بتقلبها سواد؟

- ليش لا. من العبث تضييع الوقت في الحديث عن طاغية معتوه لا يستحق أن نفكر فيه دقيقة واحدة.

أغمض سليم عينيه قليلا، شعر بتعب كبير وبخيبة ضامرة وقوية، وعندما فتحهما، كان الشعاع الأول قد اخترق الغيمة الداكنة متسربا عبر شقوق النوافذ المغلقة، مضيئا في الآن نفسه كل الوجوه التي كانت في القاعة. لا يعرف إذا كان قمرا أو شعاعا شمسيا هاربا من الأفول.

أغمض عينيه من جديد وترك نفسه ينساب داخل فراغ لم يكن يشبه شيئا.

-٣-

- انتهينا سيدي من الفحص الطبي وكل الأمور تمام.

قال الدكتور الذي انتفى في ظله وجه وجسد فؤاد غصن الذي كان منهمكا كعادته في مثل هذه الظروف بتسجيل كل الملاحظات الطبية إذ لا يجوز إعدام إنسان مريض.

قام رضا باشا قائد فرقة عاليه، فقام في أثره أعضاء الديوان العرفي الذين كانوا يصحبونه، ورئيس الشرطة والعساكر المحيطون بصالة العبور والطبيب ومساعده فؤاد غصن وأخذ يتلو الحكم الصادر من محكمة ديوان عاليه والتهم التي طالت قائمتها، على مسمع المتهمين الذين لم يكونوا ينظرون في اتجاه واحد وأغلبهم لم ينتبه لكلام رضا باشا. ثم ختم مداخلته برسالة جمال باشا التي تميط اللثام عن المؤامرة:

«باسم الله الرحمن الرحيم... و قد سيق إلى ديوان حرب عاليه الأشخاص الذين ظهر أن لهم علاقة في هذه المسألة بدرجات متفاوتة، مع من تبين أن لهم دخلا في المساعي الخائنة التي تدل على اشتراكهم مع العدو، ضد الخلافة الإسلامية واستقلال الوطن، بتنفيذهم ترتيبات الجمعية وتشبثاتها وأعمالها... فحكم بالإعدام على شفيق بن أحمد مؤيد العظم، والأمير عمر بن عبد القادر الجزائري، وعمر بن مصطفى حمد، ورفيق بن موسى رزق سلوم، ومحمد بن حسين الشنطي، وشكري بن بدري علي العسلي، وعبد الغني بن محمد العريسي، وعارف بن محمد سعيد الشهابي، وتوفيق بن حمد البساط، وسيف الدين بن أبي النصر الخطيب، والشيخ أحمد بن حسن طبارة، وعبد الوهاب بن أحمد الإنكليزي، وسعيد بن فاضل عقل، وبيترو باولي، وجرجي بن موسى الحداد، وسليم بن محمد سعيد الجزائري، وعلي بن الحاج عمر النشاشيبي، ورشدي بن أحمد الشمعة، وأمين لطفي بن محمد حافظ، وجلال بن سليم البخاري، لثبوت اشتراكهم في هذه التشبثات بالدرجة الأولى وبصورة فعلية... وبناء على التدابير التي

تخولني إياها المادة الثانية من القانون المؤرخ في ١٤ أيار سنة ١٣٣١هـ، المتضمن التدابير التي ينبغي للجهة العسكرية التوسل بها في وقت النفير العام ضد الخارجين على الحكومة وإجراءاتها. . . التوقيع: قائد الفيلق الرابع وناظر البحرية: *جمال باشا*.»

لم يكن سعيد عقل وبيترو باولي وجرجي الحداد، معنيين بخطاب رضا باشا، فقد صار موتهم مؤكدا ولكنهم جددوا طلبهم الأول:

- خيو؟ مش كان أولى بكم أن تحاكمونا بعدل بدل أن تفحصونا بهيك طريقة حيوانية وتسمعونا كل خزعبلاتكم؟ يا الله بسرعة، أعدمونا وخلصونا، قال بيترو باولي.

ارتبك الطبيب الذي كان بالقرب منه.

- سيدي أنا عبد مأمور.

- طيب وينو الكاهن يا اللي طلبناه؟ من حقنا على الأقل أن نعترف قبل الموت ونطلب الصفح؟

بدأ جو الموت يفرض ثقله على الكل وانتشرت فجأة رائحته الكريهة في كل مكان. وبدل أن يدخلوهم إلى القاعة المجاورة، جيء بالكاهن الماروني. اعتذر الحارس الذي كان برفقته.

- لم أجد كاهنا من الروم يا سيدي كما طلبتم.

- ومالو، قال بيترو باولي وهو يمسح العرق الذي نزل على وجهه، وين الضرر إذا اعترفنا أمام كاهن ماروني أو كاهن أرثودوكسي أو على يد شيخ مسلم، مثل بعضه، الموت واحد. ما بتفرق حبيبي، يا الله. الله أعلم بما في قلوب الناس وهذا وحده يكفيني.

ظل سعيد عقل صامتا طوال هذه المدة. عندما تقدم من الكاهن، نظر إلى عينيه الفارغتين طويلا قبل أن يتمتم:

- غفر الله لمن ظلمني. وأسأل ربي أن يمنح دمي الذي يراق اليوم، بلادي وأولادي حياة وشرفا جديدين.

ثم أخرج الثلاثة نحو الساحة، باتجاه المشنقة.

ثم جيء بعبد الغني العريسي وعمر حمد وعارف الشهابي. وكان ثلاثتهم من طلاب الكلية العثمانية وقد طلبوا أن يموتوا معاً. قال عمر حمد بالفرنسية:

- Réda Pacha[٦٧], informe ton gouvernement si injuste et si médiocre, que ses crimes impardonnables seront la cause de sa perdition inévitable.

وأشار رضا باشا إلى الجلاد أن يسرع في عمله. فأخرج الثلاثة دفعة واحدة. دفع الجلاد بعمر حمد الفتى هو الأول نحو المشنقة. في لحظة خاطفة ضرب الكرسي من تحت رجليه حتى قبل أن يحكم الحبل في عنقه، فهوى إلى الأرض وسال الدم من وجهه. بسرعة، أطبق عليه الجند بأمر من رضا باشا فطعنوه بشكل مميت وأعادوه إلى الحبل وحوطوا رقبته من جديد وهو فاقد لوعيه.

لم يتحمل عبد الغني العريسي الذي كان ينتظر دوره، المشهد، فصرخ بأعلى صوته حتى تسمعه بيروت المستكينة على كذب جمال باشا:

- لعنة الله عليكم. لن يغفر لكم أحد جرائمكم. ستتبعكم اللعنة إلى قبوركم أيها القتلة.

قفز الجلاد لكي يشد الحبل على عنقه ولكنه نهره بقوة:

- يا رجل، شوي شوي؟ شاطرين بس في القتل. احترم على الأقل إرادة رجل يموت.

- يا الله، خلصنا. وشو الفائدة؟ من يسمع كلامك في هذا القفر؟

ضحك عبد الغني وهو ينتزع ابتسامة جافة ومنكسرة وينظر للمرة الأخيرة إلى عيني الجلاد الباردتين:

- أنت صرت أطرش كمان؟ بلغ سيدك جمال باشا أن يوم اللقاء قريب، وأن أبناءنا الذين يعيشون موتنا سينتقمون لنا...

---

(٦٧) يا رضا باشا، بلغ حكومتك الظالمة والرديئة، أن ظلمها سيكون سببا أكيدا في تقويض بنيانها.

فجأة تدحرج الكرسي من تحت رجليه ليبقى متدليا في الفراغ.

ثم جاء دور توفيق البساط. فتقدم في صمت نحو الكرسي. وضع الجلاد الحبل بيده على عنقه ثم ضرب الكرسي برجله من تحته بسرعة. لم يلتفت لأحد ولم يقل شيئا ولم ينط وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وكان سليم الجزائري وأمين لطفي الحافظ من كبار الضباط، فسيقا إلى ساحة الإعدام بلباسهما العسكري وهما ينشدان. قال سليم وهو ينظر صوب نزل الخديوي مخاطبا رضا باشا:

- قل للخنزير جمال باشا ألا يفرح بموتي، فلن يهنأ له بال وروحي ستظل حية. وأني سأحرمه من النوم حتى وأنا في قبري المظلم.

ثم التفت إلى الناس الذين كانوا وراء السياج ولا يظهرون إلا كظلال هاربة. ثم إلى النافذة التي كان النور ينبعث منها بعد أن أشعلته يما صفية. رآنا. لابد أن يكون قد رآنا، قالت يما صفية. كنت أنا وأمي. عرفنا من حركة يدي التي لم أكن أعرف معناها بدقة ومن انكسار عيني يما صفية. انحنى فجأة لكي يكتم دمعه ويخبئ حزنا وقهرا كبيرين. ثم التفت من جديد نحو الجموع التي اكتظت فجأة مع بداية الملامح الأولى للفجر. وبدأت الشرطة في دفعها بعيدا عن المنصة بالهراوات والتهديدات الكلامية. ثم فجأة حنى رأسه بانكسار بحيث لا يرى شيئا إلا البياضات التي تملأ عينيه وتخترق الأمكنة المغلقة ليجد نفسه بعيدا، في عالم آخر، هو نفسه لم يكن يعرفه. اندفن وسط أشجار اللوز والكروم والتين. سليم عندما يصمت، يعود إلى نشيد العصافير ورفرفات الفراشات وخوار البقر الجبلي. اندفن وسط ضياع الجبل المتزاحمة بالأشجار خصوصا في هذا الفصل حيث كل شيء يعود إلى الحياة بعد موت مؤقت، ولوز البقاع وبرتقاله الذي تشم رائحته من بعيد، حتى الجراد على الرغم من جشعه، لم يتمكن من إفساده، وعنب الحدائق الشامية القديمة، الذي يزداد صلابة وطراوة وحلاوة في مثل هذا الفصل. يغمض عينيه ويحاول أن ينسى أن الموت يقف عند رقبته التي لن تسهو عن الحبل الذي سيلتف حولها كالثعبان المسموم. تمتم بكلمات، ربما

كانت نشيده الأخير الذي كتبه وهو في السجن. لم يسمعه أحد إلا الريح الساخنة التي بدأت تهب في هذا الوقت المبكر.

اقترب منه الجلاد ومد يديه إلى نظارتيه:

- أرجوك أتركها في مكانها، على الأقل أودع بها هذه الأراضي العطرة والجميلة.

- مثل ما بدك، مادام سيدي سمح لك بذلك.

- تشكر.

لحظة صمت بدت له أطول من دهر وقبل أن ينحني الجلاد لسحب المتكأ الذي كان سليم يقف عليه. ضرب سليم على الكرسي الذي تدحرج قليلا قبل أن يسقط على الأرض ويبقى هو معلقا في الهواء. استغرب الجلاد الذي لم يجد وقتا لفعل ذلك بنفسه، ورضا باشا الذي تساءل في أعماقه بغباء، كيف يفعل جندي مسلم وضابط عثماني قديم هذا العمل الشنيع في حق نفسه وينتحر؟

ثم دفع بأمين لطفي الحافظ إلى المنصة. ظل يضحك كمجنون، مما أربك الجلاد المكلف بشد الحبل على عنقه. فنظر في وجهه كما يفعل عادة مع الحلاق عندما يزين ذقنه، بلهجته المصرية المعتادة:

- مش كده يا ابني؟ مش تحط الحبل على الأقل بفن ونزاكة؟

لكن الجلاد لم يكن يسمع له، كان أطرش وأخرس كأحجار الوديان. كان يريد أن يتخلص بسرعة من المشهد الذي بدأ يثقل ويطول عليه كثيرا. تمنى في أعماقه أن يختم مراسم الإعدام بأقصى سرعة ممكنة.

وعندما جاء دور الشيخ أحمد طبارة، طلب أن يلقي قصيدة كان قد نظمها في الطريق الرابط بين عاليه وبيروت وألا يوقف حتى ينتهي من قراءتها، فكان له ذلك. ألقاها على مسمع الناس الذين طردوا بعيدا من جديد. لم تصلهم إلا همهماته واستقامته التي وضعت قدرها في يد الله. ثم أسلم عنقه بوداعة طفل وكأنه يدخل كنزة شتوية في رأسه. ولم يبد أية مقاومة. ولكنه لم ينس أن يعدل طربوشه جيدا. حتى عندما سحب

الحارس الكرسي من تحت رجليه، لم يتأثر ولم يبد أية حركة. وكأنه كان قد مات منذ أن مس الحبل عنقه.

وتبع الجميع محمد الشنطي وسيف الدين الخطيب وجلال البخاري وعلي النشاشيبي.

وقبل أن تشير عقارب ساعة الساحة إلى الثامنة، كانت ساحة البرج قد عادت إلى وقعها الأول: حركة الناس التي لا تنتهي والباعة الجوالون بصرخاتهم الرتيبة والمشترون المتنقلون من تاجر لآخر. فتحت المقاهي ولكن الحديث الذي ظل يعبر الدروب والساحات هو: لماذا أقدم جمال باشا على فعل ذلك؟

كتمت يما صفية دمعها وحاولت ألا تزيد من فزعي. التفتت نحو فؤاد غصن الذي كان قد انتهى من مهمته الصحية برفقة الطبيب، وهي تلملم لباسها وحوائجها القليلة:

- علي أن أعود الآن إلى دمشق. لا أريد لابني أن يبقى في المدينة التي قتل فيها والده دقيقة واحدة. فقد بقيت بما فيه الكفاية. لن تكون بيروت إلا امرأة قاتلة، كلما غضبت، أكلت أبناءها وكلما أصيبت بلحظة سعادة، عادت إلى سواد حزنها.

- دمشق هذه الأيام ليست أحسن. الأخبار تقول إنهم أعدموا في هذا اليوم بالذات العديد من القادة في ساحة المرجة: شكري العسلي، عبد الحميد الزهراوي، عبد الوهاب الإنجليزي، رفيق رزق سلوم، رشدي الشمعة، شفيق المؤيد و...

تردد قليلا قبل أن تضيف هي بنفسها:

- الأمير عمر بن الأمير عبد القادر الجزائري... جريمة. سينقلب عليهم حقد كل المغاربة، فقد قتل سليم والأمير عمر، ولا أدري كيف سيقنع الناس الذين لم يكونوا يحملون عداء خاصا لتركيا سوى مطالبتهم بحقهم في وطن وفي حياة كريمة؟

- جمال باشا السفاح يسير الآن في حلقة مغلقة ولا تنتهي إلا

بانهياره وسقوطه وربما موته أو اغتياله. صار يتجاوز في قراراته حتى الباب العالي. وماذا تفعلين الآن؟

- هناك بيتنا وأهلنا. ما يزال بين المغاربة بعض الود والعطف. لا أعتقد أنهم سيتركون لحمهم ينشف هكذا. أيام الشدة تكاتفوا وأنقذوا آلاف المسيحيين، ولن يزعجهم وجودنا فنحن منهم وهم منا. سأعود إلى بيتنا في حي العمارة الذي تركته منذ أن سجن سليم الله يرحمه.

- إن شاء الله خير.

- وكيف أستلم جثة سليم؟ أريد أن أشفى من حرقته بدفنه في مكان معلوم.

- لا تضيعي وقتك يا أم شريف. احملي سليم في قلبك وقلب هذا الصغير الذي لن ينسى أبدا هذه المشاهد. سيدفنون في حفرة جماعية مثل الذين سبقوهم إلى الشهادة. سينقلون إلى رمل الصنائع. هذه هي أوامر جمال باشا وهذه هي عاداته. لا تضيعي وقتك فلن يسمع إلى دمعك أحد.

شعرت فجأة بثقل الجو وبرائحة ما تعبر الغرفة الضيقة. ركضت نحو النافذة وكأني تذكرت شيئا مهما ولكني لم أر إلا الفراغ وساحة كانت قد امتلأت بسكانها الأوائل بعد أن أزيلت كل المشانق. لم أر والدي لا حيا ولا ميتا. كل شيء سحب من مكانه ولم يبق إلا الباعة والمشترون ورواد المقاهي. لم أدر إذا ما كان علي أن أبكي أم أزم فمي مثل أمي وأخبئ حزني أمام هذا الرجل الغريب والطيب. لم أبك إلا في اليوم الموالي في حي المغاربة، عندما بدأ أعمامي وأخوالي يشجعونني بأن أكون رجلا مثل أبي وألا أنكسر أمام الموت، فالموت حق. تأكدت وقتها أن سليم ذهب بدون رجعة مع رفاقه ولم أعد أستمع لأية نصيحة. شعرت برغبة لامتناهية للعواء كذئب البراري.

كان كل شيء قد انتهى.

- ليس لدينا الحق حتى في جثث موتانا...

قالت يما صفية وهي تحاول أن تمسح دمعها الذي سبقها إلى النزول بكمٍّ لباسها الفضفاض.

- هذه هي عادة جمال باشا. سأرافقك إلى الشام وبعدها ربنا كريم.

- ما بعرف شو بدي أقول لك؟ يكثر خيرك يا سيد فؤاد غصن...

- يجب أن نغادر هذا المكان قبل أن يشي بنا أحدهم، كلابهم كثيرة وتتشمم الصغيرة والكبيرة. الحذر ضروري. نزل الخديوي في حالة غليان وعيونهم منتشرة في كل مكان.

- يا الله...

-٤-

لم أنم إلا قليلا طوال الطريق.

بدا آذان الفجر شجيا على غير عادته. لأول مرة لم أسمع نبرة الشيخ عبد القادر الجافة والآمرة، بصوته الرملي المليء بالحشرجات، ولكني سمعت صوتا دافئا وشجيا، مليئا بالغياب والحنين. لابد أن يكون المؤذن شابا، تساءلت وأنا أحاول أن أصنع شكلا لمؤذن لم يتجاوز العشرين من عمره. في صوته بحة شهية. على العكس من الإمام عبد القادر الذي كلما أذن أو نادى إلى الصلاة، صرخ وكأنه يتهدد شخصا.

لم تكن بمدينة دمشق إلا بعض الأضواء المزروعة على أمكنة متباعدة، لا تكفي لإضاءة الشوارع الرئيسية. معظمها كان لا يشتغل بسبب أعمال التخريب التي تزايدت في الآونة الأخيرة وتكاثرت حتى صارت مثيرة للانتباه. يقول مسؤولو المدينة إن المخربين كانوا يأتون من خارج المدينة ومن أطرافها الفقيرة أو من عصابات قطاع الطرق الذين يناسبهم الظلام.

بمجرد وصولنا إلى حي المغاربة، انسحب عنا فؤاد غصن ووعدنا بالعودة للاطمئنان علينا ولكنه أوصى خادمه زيتون المرافق لنا بألا يعود حتى يطمئن علينا وعلى البهائم التي كنا نركبها.

- نحن بحي العمارة. أمانة في عنقك يا زيتون.

- كلام سيدي أوامر.

عندما دخلنا إلى عمق حي العمارة كانت يما صفية الحسيني منهكة. كانت كل أعلام الحي منكسة. فجأة أوقفنا العسس العثماني. كانوا أكثر من عشرة أفراد. تمنيت أن أسرق البنادق التي كانت على ظهورهم وأشنقهم واحدا واحدا ولكنني شعرت بعجزي الكلي وتعبي من رحلة بيروت. أرادوا أن يسألونا لكن زيتون الذي وشوش في أذن أحدهم، فتح الطريق في وسطهم وتركنا نعبر.

العيون المنكسرة التي تنتظرنا كانت كثيرة. مرة أخرى فتح لنا زيتون مسلكا لنعبر نحو العمق. فجأة عندما توغلنا داخل الخان، علا صراخ قوي وحاد يشبه عويل الجمال عندما تنكفئ على قوائمها الأمامية استعدادا للذبح، مختلطا بزغاريد لم تكن كالزغاريد.

كان وجه يما صفية منكسرا ومكدودا وكانت الوجوه التي بدأت تحيط بنا، مثقلة بالخيبات. لم أشعر بأية راحة إلا عندما رأيت عمي عز الدين وهو يسير نحونا ويحاول جاهدا أن يستقيم. ركضت نحوه، فضمني إلى صدره بقوة وهو يجهش بالبكاء ويحتضن أمي التي لم تستطع أن تواصل صبرها وجلدها فأطلقت العنان لدمعها. أجهشت طويلا حتى خفت عليها من الاختناق والسقوط. ولكنها ظلت واقفة، رأسها على صدر عمي عز الدين الذي لم يتمتم إلا ببعض الكلمات الهاربة:

- عملها المجرم. سيدفع ثمن جرائمه إن آجلا أو عاجلا. ربنا معك يا أم شريف.

تراجعت يما صفية خطوتين إلى الوراء.

- من يعزي من يا عز الدين؟ في سليم أم في الأمير عمر الله يرحمهما؟

فجأة توسعت الدائرة التي كانت تحيط بنا. كانت عيون النساء منتفخة ومريضة. وملامح الرجال باردة وحادة كقطع الزنك الصدئ. أحجار لا شيء فيها إلا الرغبة في الموت والقتل.

- الله يرحم سليم وسيدي عمر. الله يرحم الشهداء. الله يرحمهم ويوسع عليهم.

تمتمت لالة خيرة، إحدى زوجات أخوالي بخشوع وكأنها كانت تقرأ قرآنا.

قال عمي عز الدين وهو يحاول أن يجمع كل كلماته المبعثرة ويوقف الدمعات التي ارتسمت في المحجرين من جديد، تحت ضوء القنديل الخافت عند مدخل البيت.

- الله يرحم الشهداء يا لالة خيرة. لم تنج لا الشام ولا بيروت من جرائمه. أتمنى فقط من إخواننا الذين ما يزالون يقرأون الخير في المجرم جمال باشا، أن يتعلموا ويتَّعظوا. العتبات والمعابر القليلة المتبقية، دمرها ولن يلحقنا من ورائه إلا الخراب.

كل سكان حي العمارة كانوا يعرفون جيدا من كان يقصد. الأمير سعيد، أحد وجهاء دمشق وابن الحارة إضافة إلى كونه الحفيد المباشر للأمير عبد القادر الجد، والوحيد الذي يقتفي خطواته في إصلاح ذات البين والكتابة وتعاطي السياسة. كان دائما يدافع عن الأتراك وجمال باشا ويعتبرهم آخر القلاع في وجه الطغيان الغربي. وكثيرا ما حدثت مشادات كبيرة بينه وبين ممثلي حي العمارة من الشباب. لكن قوة الأمير سعيد كانت دائما تنتصر على الخلافات وينتهي الشقاق باعتذار البعض للآخر ولا شيء يتغير أبدا. هذه المرة سيصبح من الصعب على الأمير سعيد أن يجد طريقا آخر سوى معاداة جمال باشا.

اقتربت لالة خيرة من عمي عز الدين. أنبته بعينيها الحادتين قبل أن تتكلم:

- ذا مش وقته يا السي عز الدين. عمك سعيد وأخوه عبد القادر الصغير ووالدهما الأمير علي، هم الآن في المنفى. لا أحد سلم من جرائم جمال باشا. لا تكن قاسيا على ألم الآخرين. هل جمال باشا في حاجة إلى إثبات جرائمه؟ قبل سنة فتك بأحسن الناس وأكثرهم رقة على هذه الأرض، عبد الكريم الخليل، والأخوين المحمصاني، نور الدين

القاضي، عبد القادر الخرسا، صالح حيدر، علي الأرماندي، سليم عبد الهادي، محمود العجم، نايف تللو، مسلم عابدين. جمال باشا أصبح يرى في كل مواطن لامركزيا يدعو إلى الانفصال، تجب تصفيته. لا تهتم يا ابني، سيأتي وقته.

لم يرد عليها ولكنه التفت من جديد نحو يما صفية وهو يحاول أن يمسح عينيه من الدموع التي كانت تنهمر بقوة وحدها ولم يستطع لجمها.

- يما صفية، لابد أنك مرهقة من تعب السفر. ارتاحي أنت وشريف قليلا ورحمة ربي واسعة. ما يكون سوى الخير إن شاء الله.

ثم وضعني في حجره. أعتقد أنه كان أول رجل يحتضنني ويضعني في حجره ويدخل رأسي في صدره. حتى والدي لم يستطع أن يفعل ذلك. مشاغله كانت تأكله وكلما وجد وقتا، انهمك في تعليمي القراءة والكتابة ولعب الشطرنج. كان دائما يقول لي: من يتقن لعب الشطرنج، يدرك مسالك الحياة الصعبة ويعرف كيف يتفادى المزالق الخطيرة والحالات الميؤوس منها. قبل أن يغرق في أوراقه وينسى أني طفل وان أمي امرأة وشابة وممتلئة بالحياة.

تحلقت النساء حول أمي في محاولة لتخفيف الحزن عنها، لكن يما صفية كانت كنيزك تائه في الفراغ. لم تكن تتكلم ولكنها ظلت مشدوهة في النساء وهن يتحدثن عن إعدام زعماء الشام بساحة المرجة. صوت لالة خيرة ظل طاغيا على الكل وتحولت بقية النساء إلى مستمعات:

- ابن الكلبة قتل خيرة أبناء الأمة. لابد أن يكون لقيطا وجد في مزبلة. سيدي عمر عندما أمر بنزع ثيابه ولبس لباس السجناء، قال خسئتم. لن أغير من هندامي. أنتم تقتلون سلالة النبي. مد سيدي عمر يده البيضاء على رؤوس أصدقائه الخائفين فإذا بعيونهم تشع وتمتلئ بالنور والإيمان والمحبة. وإذا الخبل يصيب جمال باشا فيلم جماعة أخرى ويدفع بها إلى ساحة البرج ويعدمها. ربما كان هذا سببا يسرع من نهايته. قالها له سيدي عمر في وجهه: «أنت لا تعرف يا جمال باشا أنك تدفع بنفسك وببلدك إلى الهلاك؟» قهقه جمال باشا: من يستطيع أن يصل

إلى جنرال الجيش الرابع يا سيد عمر؟ رد عليه سيدي عمر: انتظر قليلا وفتح في وجهه الكوة الصغيرة التي يرى منها السجناء بعضا من أطراف دمشق: من يمنعنا من رؤية النور؟ قال الباشا: أنا. سأغلق الكوة. قال سيدي عمر: سنراها بقلوبنا. قال: سأحرق وأفتت هذه القلوب. قال سيدي عمر: لكن الشمس لا تطالها يدك، والهواء سيظل يملأ الصدور وسيظل النور سيد الدنيا. وهو عند الباب، التفت الباشا نحو سيدي عمر وقال له: سأسد الأنفاس وأطفئ عين الشمس. ضحك سيدي عمر: عرفت الآن أنك مجنون. أحذر ممن يضحك لك اليوم، قد يأكل رأسك غدا. لم يلتفت الباشا وخرج وهو يلوح متوعدا بعصاه الصغيرة التي لا تغادر يده اليمنى.

كنت مندهشا في قصص لالة خيرة التي يسميها عمي عز الدين النساجة. تعرف الصغيرة والكبيرة ولا شيء يخفى عن سمعها. هو الوحيد الذي لا تنزعج من نكته الكثيرة ومن اعتراضاته عندما تكون منغمسة في الحكي. عندما يريد أن يسكتها أو يخرجها من نسيج قصصها، يمازحها بلباقة ممزوجة بالدسائس: ما فيهش أقوى من لالة خيرة. لسانها من ريح، يسبح في كل مكان. أطول من قامتها.

اعتذرت يما صفية وهي تحاول أن تتفادى البقاء:

- منهكة، أريد أن أنام قليلا. اعذروني.

انسحبت أمي بعد أن سبقتها لالة خيرة إلى غرفة نومها. جهزت لها الفراش ثم عادت من جديد إلى موقعها الأول لإتمام قصصها التي تركتها معلقة.

خرجت مع عمي عز الدين إلى ساحة الدار. كان الجو ربيعيا ولم يكن هناك ما يحرك سكون المدينة. سألني إذا كنت أرغب في النوم. قلت له: إني نمت طوال الرحلة وان أمي لم تغمض عينيها.

- تريد أن نجلس قليلا في الجنينة. الجو رائق ورائحة الياسمين تقلل من حالة الغبن.

- مثل ما بدك، عمو.

- يا الله يا حبيبي، تعال. هلا صرت رجلْ ولابد نحكي مع بعض حكي زلم مو حكي أطفال.

- أنا أسمعك، عمو، بس قلبي بيوجعني شوي ما بدري بالضبط وين؟

- الألم للرجَّال حبيبي.

كنت أعرف ماذا سيقول لي. «والدك مات ولكنه خلف وراءه رجلا من ظهر رجل. الرجال العظماء وجدوا ليموتوا من أجل الآخرين مثل ما سمعت في بيروت عند الأهل وهنا.» ولكنه لم يقل أي شيء من هذا. كان رقيقا كعادته وشعرت أن فيه شيئا من أمي.

- بتعرف يا شريف بيّك كان يحب ثلاثة أشياء، الياسمين الشامي وخيول حميان والشطرنج الفارسي.

أضفت له بدون وعي مني، ربما لأني كنت ما أزال ملتصقا بوجه أمي:

- ويما صفية.

- طبعا هي زوجته. أم أولاده هو فيه أحلى من أم الأولاد؟

لكن عيني عمي عز الدين الخضراوين كانتا تكذبان. يقول الذين عرفوا الجد الأول، الأمير عبد القادر: إن عز الدين كان الوحيد الذي شابهه في كل شيء، حتى في العينين اللوزيتين ولونهما. لم أر يوما يما صفية بين ذراعي والدي. عندما كان يدخل من عمله، في الأوقات التي لا يكون فيها في مهمة بتركيا أو غيرها. يتوضأ. يصلي، يقرأ أو يكتب قليلا. ثم يمر إلى بيت الضيوف ليستقبل زواره وأصدقاءه وبعض الضباط العثمانيين حتى يصاب بحالة من الإنهاك. فيناديني ليعلمني الشطرنج. في مرة من المرات قلت له وانا لا أعرف بأني سأربكه باقتراحي:

- بابا، العب أنت وماما وأنا أتفرج.

- ولك عيب؟ المرا مو خرج شطرنج. اللعبة هذه مثل الحرب، للرجال والرجال فقط.

في مكان ليس ببعيد سمعت رشقات متلاحقة من الرصاص. كانت

في البداية متقطعة ثم متواصلة ثم متقطعة من جديد لتتوقف نهائيا. نظرت إلى وجه عمي عز الدين، لم يكن يبدو عليه أي اندهاش:

– منذ سجن القادة وإعدامهم، تغيرت أشياء كثيرة في حياة الناس. إنهم يقتحمون البيوت ويجمعون كل من يشتمون فيه رائحة التنظيمات السرية. حتى ألسن الناس تحررت أكثر، صاروا يتكلمون عن كل شيء. لقد حفظ الناس حتى ما قاله الثوار وهم يصعدون إلى منصات الإعدام.

شعرت أني كنت مصطولا وأنا في بيروت. ولكي أتفادى أسئلة عمي الممكنة، سبقته إلى السؤال:

– عمو عز الدين، ليش قتلوا سيدي الأمير عمر. كان رجلا مسالما ولم يكن عسكريا.

كدت أقول، طيبا كان مثل أبي، ولكنني لم أقلها. رد بلباقته المعهودة، فأشعرني فجأة بأني صرت كبيرا. أكبر من سني الذي كنت أتصوره.

– سؤالك كبير يا شريف. أولا اخترقوا حرمة بيوت العمارة بشكل غير مسبوق. ولولا خوفي على النساء والأطفال، كنت طخيتهم ومت مع الجميع. كان الأمير عمر في الزاوية الداخلية لبيته، يقرأ ***الفتوحات المكية*** كما اعتاد أن يفعل في ظهيرة كل يوم جمعة، بعد الصلاة مثل والده، كتابه الذي أدهشه، وكان يتساءل دائما كيف استطاع سيدي الأمير عبد القادر سبر أغواره السحيقة. جاءته فرقة من الجيش التركي وطلبت منه بكل وقاحة أن يتبعها.

– طبعا سيدي رفض ولم يقم معهم.

قلتها بعفوية طفل لا يدرك عواقب الكلمات. تأملني عمي عز الدين جيدا وهو لا يصدق رد فعلي الذي لم يكن في سني. لم يستطيع أن يكتم سعادة شاردة ارتسمت على محياه. مع أني قلتها بعفوية لأني كنت أتمنى ذلك في أعماقي.

– والله وكبرت يا شريف؟ رفض لأنه اشتم أن شيئا كان يبيت له. كان رفاقه قد حذروه قبل يومين ولكنه كان واثقا من ألا أحد يستطيع أن

يمس عائلة عبد القادر. وهم تربى عليه كل سكان حي العمارة. طلب رئيس فرقة الشرطة من الأمير عمر أن يهيئ نفسه للسفر من دمشق إلى القدس لمقابلة جمال باشا، لأنه يحتاجه في موضوع مهم. اشترط الأمير عمر من رئيس الفرقة أن يعرج على ابن أخيه، الأمير سعيد، لتوديعه وإخباره بسفره إلى القدس ليتصل ببقية عائلة الحسني الموجودة هناك لمساعدته إذا احتاج إلى شيء. رئيس الشرطة وافق بشرط أن يسرع لأنه هو وفرقته مكلفون بمصاحبته إلى محطة القطار الذاهب إلى القدس.

صمت عمي عز الدين هنيهة من الزمن. استنشق حفنة الياسمين التي ملأت كفه:

- من قال إن الياسمين يزيل الغم لم يخطئ أبدا.

لم أكن مهتما بالياسمين.

- لكن هل ذهب إلى سيدي الأمير سعيد؟

- طبعا. عندما وصل قال له: يا سعيد يا ابني، لقد طلبني جمال باشا للسفر إليه إلى القدس ولست مطمئنا لهذه المقابلة لأنها جاءت مفاجئة وفي ظرف لا يبشر بخير. هل بإمكانك معرفة السبب؟

- طبعا يا عمي. ابق في داري الآن وسأذهب توا لأستوضح الأمر. رد الأمير سعيد بقلق كان باديا على وجهه، أنت هنا في مأمن. لن يمسك الأتراك ما دمت في داري، فهم يعرفون مركزي جيدا في هذه المدينة. كان مخطئا طبعا. عمي سعيد يخطئ دائما في حساباته. الوالي الذي قابله الأمير سعيد كان مأمورا. عندما عاد إلى بيته وجد عمه الأمير عمر قد سيق إلى السجن. في اليوم الموالي ركب الأمير سعيد قطار القدس المنطلق من محطة الحجاز لملاقاة جمال باشا. عندما وصل لم يبذل مجهودات كبيرة فقد كان الجميع يعرفونه، فأدخلوه مباشرة إلى جمال باشا. قال:

«- سيدي الباشا، طلبتم مقابلة عمي هل لي أن أعرف السبب؟

- عمك أصبح الآن موقوفا.

- وهل لي أن أعرف سبب توقيفه؟

- ثبت لدينا بما لا يدع مجالا للشك أنه يسعى لهدم كيان الدولة العثمانية لحساب قوى أجنبية تكن لنا ولحلفائنا في المنطقة العداء والضغينة. سيحال هو ورفاقه إلى الديوان العرفي في عاليه.

- لم أفهم تهمته جيدا يا سيدي. ديوان عاليه قاس جدا. يعني الموت والإعدام شنقا.

- لمن يستحق ذلك.

قالها جمال باشا ببرودة أرعبت الأمير سعيد وشعر أن المسألة خطيرة جدا.

- بالاختصار، كان عمك واسطة تعارف بين شكري العسلي وعبد الوهاب الإنجليزي مع قنصل فرنسا. وهذان الشخصان يحاولان الاتفاق مع العدو ضدنا.

- وهل يستحق كل هذه التهمة بالخيانة والمحاكمة؟ أليس من الأفضل البحث في الأمر أكثر؟

- هناك خفايا لا أستطيع الإفصاح عنها الآن.

- الدولة يا سيدي ما تزال في حرب مع أعدائها ولم تخسر شيئا ومن مصلحتها استمالة قلوب السكان والعفو عن سيئاتهم لربحهم في المعارك القادمة.

- عمك ورفاقه ليسوا من هذا الصنف. ثم من أنت حتى تسألني وتحاسبني عن خونة؟ مجرمين؟

- أتنكر خدمتي يا سيدي لهذه الدولة التي أعطيتها قلبي ودمي؟ ولم أطلب يوما مقابلا لوفائي، وكل ما فعلته كان ابتغاء وجه الله. نصيحتي اليوم ليست من باب القرابة التي تجمعني بعمي وإنما من باب مصلحة الدولة. فالمحاكمة في الديوان العرفي، أمر لن يكون سليم النتائج. الدولة في حاجة اليوم للم شملها وتقريب كل المخلصين منها.

- عمك لم يكن مخلصا مثلك، للباب العالي.

صمت جمال باشا قليلا قبل أن يواصل:

- لا أشكك في إخلاصك لدولتنا ولكني أمام قضية كبيرة تهم أمن

البلاد من أناس يريدون تدمير كل ما بنيناه من الأساس. ولكن مادمت قد جئتني حتى هذا المكان، يمكنني أن أخفف عنه عقوبة الإعدام. وسأبدل قرار المحكمة في عاليه بالمؤبد. هذا كل ما يمكنني فعله. ما عداه، يتجاوز إرادتي. رافقتك السلامة.»

خرج الأمير سعيد وقلبه مضغوط مثل الورقة اليابسة.

كان القمر يخط صدر السماء، صافيا وجميلا. دندن عمي عز الدين قليلا:

- يا قمر يا بعيد... يا ساكن العلالي... من يطالك، مين... تريد أن تنام؟

لم أجبه عن سؤاله ولكني سألته عن شيء لم يكن يتوقعه هذه المرة كذلك:

- أنت زعلان من سيدي سعيد؟

التمعت عيناه مرة أخرى تحت القمر الدمشقي المعلق في سماء انتفت كل غيومها. شم حفنة الياسمين ونبهني أنني لم أفعل شيئا بالحفنة التي كانت تملأ كفي ونسيتها تماما:

- الأمير سعيد رجل طيب ويظن أن كل الناس مثله وأن الأمور تسير بالنوايا الحسنة فقط. جمال باشا طاغية والطاغية لا يؤتمن أبدا. عاد إليه مرة أخرى على الرغم من أن الأمير عمر قال له أهمل الموضوع فأنا واحد من أبناء هذه المدينة، نخرج جميعا أو نموت جميعا. كان جمال باشا يعرف جيدا نقطة ضعف الأمير سعيد، قال له عندما استقبله من جديد:

«- أبشر يا أمير. الدولة كلفتك بمهمة في بلاد المغرب.

- أمري ليس بيدي ولكن بيد والدي الأمير علي.

- والدك واحد منا. أنا الآن بمق ام والدك. أسرع بتحضير حاجياتك ولا تنس أن تمر على الياور (المتصرف) الخاص وتستلم منه كمية من المال تنفق منها في سفرك. الله بحبك يا أمير، فمنحك فرصة للذهاب إلى أرض أجدادك. لا تقنطوا من رحمته تعالى.

- وهل سأذهب إلى الجزائر؟

- لا علم لي بنوايا الباب العالي ولكني أعتقد ذلك. ثم إن عائلة عبد القادر لا مشكل لها مع فرنسا. جدك أقسم ألا يؤذيها وهي تعتبركم من رعاياها. لا أعتقد أنهم سيعترضون على دخولك إلى أرض أجدادك. حقك الطبيعي الذي لا ينكره عليك أحد. فرنسا قوة والقوي يأمر.

لم يرد الأمير سعيد، فقد عرف جيدا مرامي كلام جمال باشا. كان وقعه قاسيا وعدوانيا.

- لا تؤاخذنا يا أمير سعيد إذا صدر منا كلام مؤذ.

- لا يا سيدي. لا. شكرا لكم على حسن الاستقبال والضيافة.

قالها الأمير سعيد وهو يحاول ألا يرى وجه جمال باشا الذي لم يكن قادرا على تخبئة تكشير صادر من أعماقه. فقد شعر بالارتباك الذي اعترى الأمير من ارتعاش عينيه ويديه النحيفتين.

عندما عاد إلى الدار أخبر والده الأمير علي عن تخوفه من هذه السفرة وعن استفزازات جمال باشا. بعد تفكير طويل وصمت دام للحظات، التفت الوالد نحو ابنه وقد وجد كل كلماته الضائعة:

«يا سعيد حبيبي، أنا على علم بكل شيء. وصلني الخبر من جهات تركية عليا، أكبر من جمال باشا. لا تهتم لكلامه. يمكنك أن ترفض هذه السفرة إذا شئت. يمكنك أن تضرب عرض الحائط بأوامر جمال باشا كذلك. ولو احتاج الأمر إلى المقاومة أنا وأولادي وعشيرتي نحميك ونقاتل حتى آخر رجل. ما دام الأمر يتعلق بمهمة وطنية، رفضك سيكون وصمة عار في تاريخ عائلتنا المجيد. فاتكل على الله وسافر إلى الآستانة. والله يحفظك ويرعاك.»

في اليوم الثاني قبض جمال باشا على عبد القادر، أخي الأمير سعيد، الذي أعلن العصيان على أطراف الغوطة، ووالدهما الأمير علي ودفع بالجميع إلى أقاصي منافي الآستانة. يومان بعد هذا الحادث بالضبط، أعدم جمال باشا الثوار ومعهم الأمير عمر بلا أدنى تردد.

الطاغية هكذا، كلما أعطيته ظهرك، نزع منه جزءا حتى ينهيك ولا يترك فيك إلا العظم.

نظر عز الدين إلى السماء طويلا. ثم قال:

- الأشعة بدأت تخرج من وراء الجبال. الأحسن ألا ترانا في هذه الحالة المتعبة. ادخل يا شريف لتنام مع أمك، لالة خيرة فرشت لك بجانبها، وأنا أذهب لأنام قليلا لكي أستطيع الوقوف على قدمي. فالغد سيكون أطول يوم في حياتنا. سيدي عمر كان محبوبا من الجميع. ونحتاج إلى قدر من الراحة والقوة لكي نستطيع استقبال الزوار كما يجب. تصبح على خير.

أتذكر أنه قبل أن يخرج، شم حفنة الياسمين التي عركها في عمق كفه للمرة الأخيرة ثم بعثرها على الشجرة التي نزعها منها وغادر الجنينة. لم يلتفت. تمتمت وأنا أشعر بعيني تنكسران شيئا فشيئا وتطبقان على نعومة أشعر بها للمرة الأولى رغم انكساري الداخلي:

- وأنت من أهله يا عمي. تصبح على خير.

اختلطت كلماتي بالتعب الذي احتل كل مفاصلي وأشعرني بثقل جسدي.

- ٥ -

ثم فجأة صدح صوت الإمام الشيخ عبد القادر مرة أخرى واضحا بغنته وتمديده لكلمتي: الله أكبر، وكأنه كان يريد إسماع كل الناس والقطط والكلاب والدواب حتى يستيقظوا من النوم وغاب فجأة صوت الشاب الشجي الذي كان كلما نادى إلى الصلاة، تحرك حس ما في عمق الناس وبدأوا يبحثون داخل أنفسهم عن شيء ضائع أو شيء مهدم يراد بناؤه. العمق الساكن يشتعل أحيانا بكلمة.

لم يكن المنزل في حي المغاربة ولكنه كان كافيا لاستقبال المعزين الذين توافدوا من كل دمشق وضواحيها. في كل مساء تصطنع يما صفية

سببا للذهاب إلى الفراش مبكرا بسبب تعب النهار ولكنها بمجرد أن تدخل الفراش، يمتزج شخيرها بنوبة حادة من البكاء التي كانت تكتمها بصعوبة.

في تلك الليلة لم تكن أمي نائمة ولكنها كانت منكسرة. تمتمت بالقرب منها:

- تبكين يا يما صفية؟

سألتها بعفوية. كانت المرة الأولى التي أعرف فيها أن انسحاب أمي الليلي لم يكن للنوم ولكن للبكاء والتألم داخل حالة من الصعب إشراك آخرين فيها.

- شريف حبيبي. ماذا يمكنني أن أقول للناس، إن سليم كان يملأ علي الدنيا؟ كلهم مصابون، لمن تشتكي. في حاجة ماسة إلى من يسمع إلى اختناقاتي. لا أحد أقل ألما في عالم صار فيه الجرح عاما وكبيرا، ترتقه من جهة، ينفتح من جهة ثانية. صعب يا شريف أن أنسى كل شيء دفعة واحدة، أحتاج إلى وقت كبير لكي أقنع نفسي بأن سليم لن يعود أبدا وعلي أن أعيد ترتيب شؤوننا.

عندما حكت أمي على رأسي شعرت بنعومة يدها وأصابعها التي اندفنت عميقا بين خصلاتي. التعب والحزن لم يمنعاني من الاندفان عميقا في حضن يما صفية. لأول مرة أسمع دقات قلبها وهي تبحث عن إيقاع موحد. شعرت أني صرت قريبا منها واني كبرت بسرعة غير اعتيادية. صرت بعدها أقف في مواجهة المرآة من حين لآخر لأتلمس الزغب الصغير الذي بدأ يرتسم فوق شفتي العليا وعلى ذقني.

حتى عندما أطفأت الضوء ظلت عيناها مفتوحتين عن آخرهما تنظر إلى سماء صارت واطئة وسقف يخنق الأنفاس. كان ضجيج العربة يملأ دماغها وهي عائدة من بيروت. لم يكن أحد يسمعها إلا فؤاد غصن الذي كان يحاول جاهدا نسيان صور الذين قتلوا على مرأى منه ولم يكن قادرا على فعل أي شيء لتوقيف ماكينة الجريمة. مرة أخرى تتذكر يما صفية وهي تحادث فؤاد غصن، كيف دخل عليه العسكر العثماني وهو ما يزال

في غفوته بعد صلاة العشاء. شقوا عليه الخلوة بدون استئذان. أخذوه مثلما يأخذ النسر فريسته. في ذلك المساء صلى وتضرع كثيرا إلى الله وكأنه كان يعلم بالتفاصيل. التفت نحوها على غير عادته، تقول يما صفية لفؤاد غصن:

- تعرفين يا صفية، يبدو أنَّ العمر دنا أجله.

وكأنه كان يخبئ عليها شيئا مهما.

- يكفي من تخريفك. كلما قنطت، قفز الموت في حجرك مثل الطائر النحس. شوف شي ثاني تتكلم فيه، الله يرضى عليك وانس حكاية الموت وجمال باشا السفاح.

- أهو أنت قلتها بعظمة لسانك. جمال باشا السفاح؟ إيش اللي يمنع السفاح بأن يجرب قوته وبطشه فينا؟

- يا رجل؟ إيش هذا السواد الذي نزل عليك فجأة؟ اتق الله. القنوط هو أقسى ما يمكن أن يصيب الإنسان. علمتنا يا سليم كيف ننشد الحياة حتى في أحلك الظروف وكتبت شعرا عن النور والإصرار، وها أنت تستسلم للموت وللظنون. هذا الرجل لا أعرفه، لست أنت. سليم الذي أعرفه كان ينحت الكلمات، ويختبر الدنيا كثيرا ويخرج من آلامها وأحزانها بجواهر حية وكلمات مرصعة بالرغبة في العيش؟

رد خالي يحيى الذي قاسمنا العشاء.

- لا يا خويا يحيى. لا. أنت سيد العارفين، فهل نكذب على بعضنا؟ المشكلة ليست فيَّ أو فيك ولكن في هؤلاء البشر الذين يقلبون الدنيا مقابل المحافظة على مناصبهم. السفاح أكلها في حرب السويس، أهانه المصريون. فجأة تحول قائد الجيش الرابع إلى نمر من ورق. هو الآن يبحث عن الوسائل التي يبين فيها للباب العالي قوته وأن المبادرة ما تزال في يده. وسيذهب إلى أقاصي الأشياء بلا أدنى تردد.

- لم يحدث ما يجعلك في هذا الوضع الذي لم نعهده فيك. السفاح يعرف جيدا أن تهوره هذا سيقوده إلى النهاية. تركيا في وضع لا تحسد عليه.

- لا. . . لا. . . الدنيا بدأت تضيق وبلادنا تسرق. كل الشعوب تحركت ولا يمكن أن نبقى هكذا. أجدادي عبروا البحر بأخشاب تشبه السفن ونحن ماذا فعلنا؟ أعرف أن عيون السفاح كثيرة وأعرف أنه لن يتركنا وشأننا. كل ما أريده منك. . .

ثم التفت نحو يما صفية:

- عينك على شريف. لا شيء غير العلم هو الذي يفتح العيون والآفاق. لا خيار له في المستقبل سوى التسلح بالمعرفة. الدين وحده لا يصنع عالما. يحتاج شريف إلى أن تفتح عيناه أكثر على فضول العلم ونبل الحياة ورعشة الشعر. الشعر والفن يهذبان الروح وينقيانها من الشوائب.

ثم قام من مكانه على غير عادته في مثل هذا الوقت الذي يخصصه عادة للاستكانة والقراءة والتأمل.

- صفية، ساعديني على حرق هذه الأوراق التنظيمية والرسائل. تحت الدكة. العثور عليها خطير ويمس أناسا آخرين ولا أريد أن أتسبب في دمار الآن بصدد الحدوث.

شعرت يما صفية بأن المسألة جادة وأن الأمر لا يتعلق برومانسيات شعرية كثيرا ما كانت تنتاب سليم في عزلته وحنينه:

- أنت تخيفني يا سليم. هذه أوراقك وقد تحتاج إليها. خبئها على الأقل عند أخي يحيى، فهو غير مراقب ويتحرك كثيرا بين بيروت والقدس.

- ما عنده يكفي لقتله، فلا تزيديه. الأحسن أن نحرقها، ما وصلني من أخبار لا يطمئن. لقد ألقوا القبض على الشيخ طبارة الذي كنت معه هذا الصباح، ولم يعفوا حتى عن الأمير الشهابي. سجنوا كل جماعة الشام. الماكينة زاحفة لا محالة. هل رأيت الشاب الذي دخل البيت قبل الغروب يحمل رسالة، وخرج بسرعة.

- قصدك ساعي البريد؟ الشاب الذي يزورنا مرة كل يومين، يسلمك الرسائل ثم ينسحب. رأيته. كنت أجمع الغسيل من الحديقة.

لمحت ظله كيف دخل، كيف سلمك الظرف ثم كيف خرج بسرعة كبيرة. نسيت أن أسألك عنه وعن الرسالة التي سلمها لك، لابد أنها خطيرة. حتى وجهه لا أتذكره. يدخل منحني الرأس ثم كالظل يذوب بسرعة في الأزقة والضواحي.

ذابت نظرة يما صفية في الفراغ.

- نعم، ساعي البريد. هو في صفنا. أبلغني بضرورة الحذر بعد إلقاء القبض على مجموعة من اللامركزيين والعربية الفتاة. حرق هذه الوثائق صار ضرورة. هو محو للذاكرة ولكن لا خيار لنا يا صفية. بين قتل الذاكرة وموت أناس بسببي أفضل دفن هذه الذاكرة وستجد يوما من يخرجها من الأنفاق.

لم تصدق أن سليم سيشعل النار في أوراقه وهو المحافظ عليها مثل الكنز. كل ورقة في مكانها حتى تلك التي تبدو تافهة ولا قيمة لها. لا يترك أي شيء للصدفة. ولم تتأكد بأنه سيقدم على ذلك إلا عندما شبت ألسنة النار في أولى الأوراق التي كانت تتلوى ألما لتتحول إلى رماد سرعان ما انتهى إلى ذرات صغيرة خالية من أي معنى. كان يشعل النار هو بنفسه، حتى مساعدة يحيى له بدت غير مفيدة من كثرة الملاحظات التي كان يبديها والترددات المتتالية. يما صفية بعد أن وضعت كومة الأوراق بين يديه، انزوت في مكان وظلت تتأمل المشهد بحسرة كبيرة وهي تكتم غضبها وخوفها بصعوبة كبيرة. كان وجهه كلما علت ألسنة اللهب، لمع بصفاء تحت النار المشتعلة. كان كالبوذي في أقصى صلوات الموت أمام جثة تحترق أمام نظره، وسط الشعلة الصغيرة التي كانت تندلع هنا وهناك. كلما التهمت النار مجموعة أوراق، أضاف إليها عددا آخر لكي تظل متقدة. زادت حمرة وجهه تحت ألسنة اللهب وخيبة اللحظة.

في الأخير، كنست يما صفية كل الرماد ثم اختبأت لتحضير العشاء بينما ارتدى سليم لباسه للصلاة. عندما سمعت يما صفية الصوت القادم من ناحية الإسطبل، لم تعرفه جيدا في البداية ولكنها سرعان ما عرفت

مصدر الصوت. التفتت نحو سليم، لاحظت أنه كان منغمسا في صلاته ولباسه العسكري بجانبه. لم يساورها أدنى شك لحظتها أن المسألة خطيرة. حلم سليم الذي لا يتوانى عن ترديده هو أن يموت بلباسه العسكري وألا يقتل كأي سارق.

الفيلق العسكري التركي لم يطلب الإذن، كان قد توغل في عمق البيت. لم يسألوا أحدا ولا حتى يحيى الذي وقف كالخشبة عند العتبة. اتجهوا مباشرة صوب سليم الذي قال ساخرا:

- تأخرتم كثيرا عن الموعد؟

- سيدي الباشا يطلبك حالا.

- سيدك الباشا يطلبني لأي شيء؟ وبهذه الطريقة؟ أنت تتكلم مع قائد من قواد الباب العالي؟

ارتبك قائد المفرزة قبل أن يتوازن:

- سيدي يقول إنك لم تعد قائدا. هو يطلبك حالا. لا تجبرنا على نقلك بالقوة.

- هل استشار سيدك الباب العالي لكي ينزع رتبتي العسكرية. الرتب لا أحد ينزعها إلا بأمر من الباب العالي لخطأ حربي كبير أو خيانة.

- هذه الأمور لا أعرفها يا سيدي، ولكني أرجوك لا تجبرنا على تنفيذ الأوامر بالقوة.

- سأعفيك من هذا الحرج.

- شكرا لك يا سيدي. نعرفك ونقدرك يا سيدي ولكنها الأوامر.

- لا تهتم. قال سليم بكبريائه المعهود. أعطني مهلة صغير لأرتدي لباسي العسكري.

تململ العسكري في مكانه بدون أن يتمكن من قول أي شيء.

قبل أن يخرج أخذني بين ذراعيه وشدني نحو صدره بقوة. شعرت بأن سليم كان قويا وانه سيعود. ثم كرر في أذني كلماته التي صار يقولها كثيرا على مسمعي حتى صارت جزءا مني: «**مثل المشمش البري. أنت**

يا وليدي شريف، عودك قوي ومية قليلة تسقيك. » ثم انصاع لأوامرهم ولم يبد أية مقاومة.

طوقوه بعشرين بارودة وخرجوا. لا أدري ما حدث لي ولكني كنت سعيدا لأن شريف كان أطولهم وأنهم كانوا يصلون إلى كتفيه.

ارتسمت نظرته الحادة والباردة على ظلال الأضواء الخافتة لقنديل البيت المعلق عند المدخل. رأت يما صفية وهي ترفع يدها لوداعه، شعاعا اختلط بلون النار. تمتم بشكل مسموع:

- عينك يا صفية على الولد. أمانة في عنقك. كلها أيام و. . . سأعود. . . .

غامت آخر الكلمات تحت وقع البواريد والخراطيش والعربة التي ملأ غبارها المكان.

من يومها لم يعد سليم إلى البيت.

كل أيام يما صفية صارت بين البيت وسجن عاليه. كلما عادت إلى البيت استحضرت شجاعته مع أصدقائه. كانت سعيدة أن الكثير من السجناء أطلق سراحهم وأن عفو الباشا سيشملهم جميعا لا محالة. مرة واحدة عادت منكسرة وهي المرة الأخيرة قبل إعدام سليم بأيام قليلة. قالت له وهي تواجهه في سجن عاليه وكان صامتا ولم يتكلم إلا قليلا وفي عينيه علامات حزن دفين. قالت:

- سمعت أنهم أطلقوا سراح الكثير من السجناء.

لم يعلق. واصلت:

- سألت وطمأنوني أنها مجرد درس تأديبي وبس للذين كانوا وراء فكرة انفصال البلاد العربية عن تركيا.

كانت مندهشة من صفاء عينيه وصمته. أخرج من جيبه ساعته القديمة ومسبحة، وبعض النقود ثم وضعها في كفها. ارتعشت ابتساماتها وتعرقت أصابعها فجأة وعنقها وصدرها وشعرت بحرارة قاهرة تجتاح جسدها وبحالة إنهاك تنتابها وهي التي ظلت واقفة باستقامة طوال فترات سجنه.

- أنت تخيفني يا سليم.

- شوفي يا صفية، يجب أن تسمعيني جيدا. الأمور صارت جدية الآن. كل الذين ترينهم سيعدمون وأنا معهم. أصدرت المحكمة العرفية أحكامها النهائية وجمال باشا وقع على الحكم الذي لا ينتظر إلا التنفيذ. سلمي كل شيء لشريف عندما يكبر قليلا. وأريده أن يرى والده لحظة موته ليحفظ جيدا أن والده لم يلن أمام حق أمته. أريدك أن تأتي به يوم الإعدام.

كتمت صرختها. صار وجهها أزرق:

- لا... لا... أنت مجنون يا سليم. أنت مجنون. وحياة الله، لم يبق لك عقل. خلاص قبلت بأقدارهم ونسيتنا جميعا؟ لا، أنا لن أقبل بهذا القدر وسأذهب لرؤية جمال باشا وأطلب منه أن يفعل شيئا.

ضغط على كفيها اللتين كانتا ترتعشان كعصفورين مبللين:

- لا تتعبي نفسك يا صفية، لقد انتهى كل شيء. أمام المظالم الكثير من الكبار يصغرون ويكبر الأطفال بسرعة. ليكبر شريف بسرعة. ليعرف أن والده ومن معه ماتوا رجالا. التاريخ يا صفية صعب وسيأتي من يجعل منه رديفا لشهوته. وسيقول عنا السفاح بأننا كنا خونة ومتعاطفين مع فرنسا وأننا تناورنا لقلب النظام. وسيكتب عنا ما يشاء فهو سيد زمنه، ولكن سيأتي كذلك من سيكتب عنه وسيقول عنه أشياء فظيعة. وربما من يقتله شر قتلة. الحقيقة ستجد في النهاية مسالكها في وقتها المناسب. أريد أن تشتعل عينا شريف لا بالحق وحده، ولكن باليقين بأنْ لا قوة في الدنيا تمنع الناس من التعطش للحرية وإزاحة المظالم. لو دامت الدنيا للظالمين، لما وصلت إلى السفاح،

- لا يمكنني أن أصدق يا سليم أنك أنت من يقول هذا الكلام، أناشيدك يا سليم، أناشيدك التي تملأ القلب والعين، أين تضعها الآن؟ شعرك، أتسلم فيه بهذه السهولة؟ ألم تقل عندما ينكسر الخاطر لا يبقى إلا الشعر؟ وحياتك، ما يحدث الآن هو مجرد تخويف وترهيب. أنا متأكدة من أنهم يريدون إرعابكم فقط. لقد أطلقوا سراح الكثيرين ولا

يمكن لجمال باشا أن يذهب إلى أبعد مما له علاقة بالتهديد.

شد سليم على معصميها بقوة وقربها من وجهه. ربما كانت المرة الأولى والأخيرة التي يفعل فيها ذلك.

- يجب أن تعرفي أن جمال باشا وقَّع على حكم الإعدام ومن الصعب عليه أن يتراجع الآن. ما الذي يمنعه من فعل ما يشاء فهو الآمر الناهي؟ كل من دخل عاليه من الصعب عليه أن يخرج سالما منها. لقد رتبت كل شيء. أريد أن يرى شريف والده وهو يموت شامخا لا منكس الرأس كالراية المهزومة.

- يا مجنون؟ شريف يريدك حيا وليس بطلا تحت التراب. يريدك بجانبه، تراه وهو يكبر كل يوم قليلا كنوار الجبل. يريدك أن تعلمه كيف يقطف الشمس كل صباح ويكون باقة من الأشعة يمنحها لمن يحب، يريدك كلما ذهب إلى الفراش نام على دندنات شعرك وأقوالك المأثورة. أليس أنت قائل هذا الكلام؟ فلماذا تريده أن يزهر بموتك؟

- أقدارنا يا صفية. هل ترين في سليم الذي مجد الحياة والحب مناصرا للموت؟ أقدارنا التي لا مناص لنا منها. نعرف أن المسالك صعبة ومع ذلك نشقها بكبرياء. ستجدين من يقودك إلى ساحة البرج. يبدو أن الإعدامات ستنفذ هناك. دليلك رجل طيب، يشتغل مع الأتراك ولكنه هو واسطتنا بين الخارج والداخل. الأتراك لا يشكون فيه أبدا.

- مين؟ قالت صفية بعفوية:

وضع سليم أصابعه على شفتيها المرتجفتين بهدوء. شعر بحرارتهما. بقي لحظة هكذا ثم سحبها نحو صدره وهو يتمتم:

- أششششت... أششششت... أششششت... أرجوك لا تقولي شيئا.

انسحبت من ذراعيه وأحنت رأسها لكيلا ترى آخر الارتباكات.

انكفأت على نفسها تحاول كسر الدموع التي ارتسمت على وجهها حتى لا تزيد من حزنه. بينما بقي سليم يحضن كفي يما صفية بوجه صلب وبارد، خوفا من أن ينهار. الأبطال لا يبكون أمام الموت. كانت

صفية تقاوم رهافتها وأعطابها الداخلية التي لم يلمسها سليم في أي يوم من حياته. لم يعرف أبدا أنها كانت كالزجاج الشفاف، سريعة العطب. كشعاع شمس فجرية هارب من غيوم تتصيده.

- لا يا صفية. زوجة قائد كبير يجب ألا تبكي. لا يمكن أن نظل مقهورين تحت سيطرة رجل معتوه. دول صغيرة استقلت فبنت نفسها بسرعة وخرجت من القهر والتخلف، اليونان، الجبل الأسود وغيرهما، لَمَ نظل نحن تحت سيطرة هذا الكابوس اللامتناهي؟ لا تبك، الله لا يضيع حقنا.

اشتهت وقتها أن تصرخ في وجهه بأعلى صوتها:

- يا الله، لماذا تسبِّقون الموت دائما على الحياة؟ أليس من الممكن المطالبة بالحق والإلحاح على الحياة التي تعطى مرة واحدة وتنسحب بلا رجعة؟ لماذا تريدون أن تتحولوا إلى حطب وتماثيل سينساها الأصدقاء قبل الغرباء وسيقف عندها الأبناء والعابرون وهم يتساءلون ويتضاحكون: مين الشخص هذا يا اللي بيلوح ببارودة ويركب على حصان جائع؟ يقهقهون ثم ينسحبون ولا يكلفون أنفسهم عناء المعرفة.

لكنها فضلت الصمت والبكاء الداخلي.

تلتفت يما صفية تجاه فؤاد غصن المنهمك في سماء شامية كانت تتغير بسرعة كبيرة، كان قلبها منهكا ومنتهكا في كل تفاصيله الصغيرة وبدت لها الدنيا لدنة، ممزقة إلى آلاف الذرات الصغيرة وكان من الصعب عليها إلقاء القبض عليها مجتمعة، تقول وهي تمسح غبار بيروت وممرات شتورا الترابية التي ودعتها للمرة الأخيرة وطمي مداخل دمشق، إنها عندما غادرت سجن عاليه في ذلك اليوم وتركت سليم مع أصدقائه في مواجهة مصيرهم الصعب، لم تلتفت وراءها، لم تنظر إلى وجهه وهو يحاول أن يدخل في عمق عينيها ويشد على يديها لكي تتشجع أكثر، مخافة أن تسقط وتنهار. فقد صبرت كحجرة الوديان وتشبثت بكل شيء صادفته قبل أن تستسلم لقوة التيار القاسي، وبدت على غير طبيعتها ولم تبك خوفا من بعث كل مدافن القلب ولكنها عندما خرجت من

السجن وواجهت مرتفعات الجبل الباردة، لعنت الدنيا بأعلى صوتها ولعنت القتلة الذين يعطون لأنفسهم حق اختصار حياة الناس، قبل أن تستغفر ربها الذي اتهمته بالصمت والتواطؤ والتخاذل أمام الظالمين. كان وجهها أزرق مثل ملامح إنسان خنق بعنف، تقول يما صفية لفؤاد غصن، بدون حتى إن تبتلع ريقها بأنها يومها انفجرت كبركان خامد، وصرخت بكل ما أوتيت من قوة ثم ظلت تعوي بأعلى صوتها كذئبة هرمة سرق منها صغارها وتأكل نفسها ندما وبعنف حتى لم تبق بالمكان إلا عظامها شاهدة على وجودها العابر. حيوان يأكل لحمه، كانت تضحك كلما سمعت الحكاية من جدتها، لكنها يومها صدقت أن المرء يمكن أن يأكل نفسه عندما يخفق في درء المظالم الكثيرة، وهو واقف.

«- لا أدري لماذا كلما شعرت بالقهر استحضرت مثال الذئبة الهرمة التي أكلت نفسها ولم تترك إلا عظامها شاهدة على وجودها في القفر الخالي. لم يكن أمامي غير ذلك. فقد شعرت فجأة بأني بدأت أخسر كل شيء. كل ما شيدت حياتي عليه، انهار فجأة. لم تنفعه رتبته التي كنت أظن أنها ستكون حاسمة ولا تاريخه في الجيش التركي الذي رفعه إلى الأعالي ولا سجله الحربي الحافل والغني. هكذا تدور الأرض في هذه الزاوية من الدنيا بالشكل المقلوب تماما، تكون كبيراً وعندما تسقط على ركبتيك تتسابق نحوك السكاكين، مثل الجمل لما يطيح، يكثر ذبّاحوه. أصعب شيء هو أن تشعر بنفسك مجردا حتى من أدنى أشكال المقاومة المرتبطة بغريزة حب البقاء في رتبتها الصغيرة جدا.»

خريف الشهوة المرة

-١-

خريف هذه السنة لم يأت بشيء جديد.

لم يتغير شي في أحياء دمشق ولا في حي المغاربة، إلا هذه الحركة الكبيرة للبدو القادمين من أماكن مختلفة، يعرفون من بعيد بألبستهم الرثة وما يضعونه على رؤوسهم وكلامهم ولغتهم. كانوا يدخلون المدينة جماعات جماعات ويملؤون أسواقها، على ظهورهم بواريدهم، بتسامح مسبق من الأتراك مخافة تأزم الوضع الذي كان على أشده في الحجاز حيث بدأت أخبار زحف الثوار على دمشق تملأ البيوت والمقاهي. الخسائر الفادحة التي سجلت في صفوف الأتراك كانت على كل لسان وكذلك تفجير قطار درعا. حتى إن بعضهم يقول إن حاميات المدن الصغيرة سلمت نفسها بدون مقاومة.

انتظر الأمير سعيد طويلا بعد عودته من بروسه بعد أن استفاد من العفو الشامل عن المبعدين العرب، قبل أن يقوم من انكساره. أحاط نفسه بهالة من الصمت ورفض كل الزيارات. فقد توفي والده حتى قبل أن يعود من منفاه في بروسه ولم يفهم جيدا تصرف جمال باشا معه ومع عائلته. وعلى الرغم من تدخلات أفراد من جمعية الاتحاد والترقي، إلا أنه رفض الصلح مع جمال باشا.

فمنذ أن عاد من منفاه القسري، صارت الدار تعج بالغادي والرائح. بعضهم يعزي، آخرون يسترضونه للتوسط. وفئة من المغاربة كانت

منزعجة منه لتعامله مع جمال السفاح بعد قتله الناس وتدميره مقام الأمير عبد القادر وتخريب الضريح والأسقف.

رأيته مرة واحدة في بيته الواسع، الواسع جدا والمؤثث بالخشب المنحوت، والأواني النحاسية المنقوشة والزرابي الإيرانية التي تغلب عليها الألوان الحادة والحارة. عندما طلب أن يعزي أمي في والدي، انتقلنا إلى بيته وعزيناه كذلك في الأمير عمر ووالده الأمير علي. لم أشعر تجاهه بشيء خاص. كان يبدو لي رخوا ليس مثل عمو عز الدين أو عبد القادر الصغير الذي رافق والدي إلى ساحة تدريب الخيول، في ضواحي دمشق، وأركبني على ظهر حصانه على الرغم من اعتراض سليم على ذلك.

كانت أمي منكسة الرأس أمام الأمير سعيد كراية مهزومة، وتبكي في خفاء بينما هو لم يجد إلا الكلمات التي كان يجيدها والدي لجعل الحياة ممكنة: «لا سلطان لنا على أقدار الله. ماتوا أبطالا وسيضع لهم التاريخ شواهد على بوابات المدارس وفي الساحات العامة وفي أعالي البنايات الحكومية عندما تصير ملكا لذويها.» لا أدري إذا كان مقتنعا بما كان يقوله أم إن الأشياء كانت تأتي هكذا، لكني أتذكر أني تساءلت ثم صمت تحت خزرة أمي الحادة من تحت غطاء رأسها المتدلي قليلا على وجهها حتى قبل أن تخرج كلماتي. كنت أريد فقط أن أقول لماذا لا تفعلون نفس الشيء وسنضع نحن الأكاليل على قبوركم وننظم لكم جنازات بآلاف البشر ونوكل أهم فناني البلد كي يضعوا في كل مكان تماثيل تذكر أهل بلاد الشام بكم. لا أدري إذا كنت محقا في التفكير يومها بهذه الطريقة؟ تعلمت ذلك من يما صفية. كانت ترفض الوجاهة الفجة وتريد الناس أحياء وبسيطين على وجه الأرض على أن يكونوا أبطالا وهم تحت التراب.

لكن الأمير سعيد كان قد فهم تمتمتي وقرأ ثورتي الداخلية.

– هذه سنة الحياة يا ابني. تموت الأقلية الواعية، لتعيش الأكثرية في ظروف أحسن.

كدت أريد أن أقول له أنت كذلك من الأقلية، فلماذا تتعامل مع قتلة أهلك وتبحث لهم عن المبررات؟ لكن نظرة أمي كانت قد زادت حدة هذه المرة ولهذا صمت وبلعت ما كان يتناحر في داخلي.

وبعدها قمت أنا وأمي قبل أن ينسانا هو بنفسه لتكاثر زواره، فقد انشغل بضيوفه من مختلف الأحزاب الذين كانوا ينتظرون مجيئه لاقتراحه لمناصب كثيرة لم يكن مهيأً لها، أو هكذا كان يقول. كان منزعجا. وعلى الرغم من صوته الخافت كان يحتج أمام زواره على كسر أحجار ضريح الأمير عبد القادر.

- يجب أن تتوقف هذه التصرفات الهمجية. أنتم تدفعون بالمسلمين إلى الاقتتال. وإلا ما معنى أن تكسر سواري المقام وتعرى القبور من ترابها وتحطم الشواهد ويسرق الرخام. جدي الأمير عبد القادر ومعلمه الأكبر سيدي الشيخ محيي الدين صارا مزعجين إلى هذا الحد؟ على تركيا أن تساعد على الترميم إذا أرادت أن تبين عن حسن نيتها وان تعاقب المتسببين في الجريمة.

- لهذا جئناك، لنبلغك أن سيدي جمال باشا مستعد لكل ما تطلبونه ووعد بمعاقبة الذين كانوا وراء هذا الفعل الشنيع وسينزل عليهم أقصى العقوبات.

- على كل حال أصحاب هذا الفعل لم يكونوا بعيدين عن أبي العباس السفاح عندما هدم قبور الأمويين.

- يمكنك أن تسأل بنفسك إذا لم تصدقنا، فقد أرسلت فرق الترميم إلى عين المكان لبدء العمل. وبعد أيام قلائل سيعود المقام إلى سابق عهده وأفضل. نريدك فقط أن تعود إلى نشاطك الأول. وسيدنا الباشا يريد رؤيتك لتكليفك بمهام تليق بك.

تبرق عينا الأمير سعيد وتعود لهما الحياة بعد طول انطفاء.

- والحال هذه، لا يمكنني إلا أن أعيد النظر في موقفي. سأرى ما يمكن فعله لتهدئة خواطر المغاربة. ما يكون إلا الخير إن شاء الله، خصوصا إذا رمم قبر جدي الأعظم.

تخيلت مقدار السعادة التي ارتسمت على وجه الحضور الذين لم يكونوا ينتظرون ذلك. وشعرت بحزن كبير مع أن الأمر لم يكن يهمني بالقدر الذي يحزنني. عودة الأمير سعيد إلى نشاطه ودخوله من جديد في حضن جمال السفاح. شعرت منذ اللحظة الأولى أنْ لا دم والدي ولا دم العم عمر وبقية المغتالين كان مهما. من حين لأخر أشعر بظلمي للآخرين. كان هذا تقريبا رأي عز الدين الذي كان يرى ضعف عمه في هذه النقطة بالذات: الرتبة والمقام. ولهذا فالذين حدثوه لم يخرجوا عن هذا الموضوع.

بعد يوم واحد من اللقاء الأخير، عاد الأمير سعيد إلى نشاطه السياسي والاجتماعي، فزار المقام وسعد عندما وجد فرق الترميم تعمل على قدم وساق في ترتيب الضريح واستعادة الرخام المسروق من بيت رجل سرعان ما اقتيد في اليوم الموالي إلى ساحة المرجة وشنق بتهمة التعدي على القبور والمس بحرمة الأموات ولا أحد يعرف إذا ما كان هو الجاني الحقيقي لأن الرجل ظل يضحك وهو يرى الأيادي التي كانت تدير الحبل حول عنقه وتركبه الكرسي. الذين يعرفون الأمكنة جيدا يقولون: إن المقتول رجل مجنون عاش على حواف المرجة منذ أكثر من عشرين سنة ولا يمكنه أن يكون هو الجاني الحقيقي. وأغلق ملف القصة نهائيا.

عز الدين عندما سمع بالخبر، ضرب رأسه على الحائط وصرخ بصوت مكتوم أمام أمي:

– لم يكن عمي سعيد في حاجة إلى طلب المساعدة من جمال باشا السفاح. المغاربة وناس دمشق جمعوا ما يكفي لإعادة الترميم وحتى بناء مقام جديد. لم يكن مجبرا على أن يحني رأسه أمام طاغية صغير قتل أهله وشرد ذويه وخيرة أبناء أمته.

– مو هيك يا عز الدين؟ لا يا روحي، لا. قالت يما صفية. أنت تظلم عمك يا حبيبي. ربما كان يريد اختبار ردة فعل جمال باشا؟ وهل تغير؟

- أية ردة فعل من طاغية يا أم شريف؟

- عمك رجل سياسي وليس مثلك، تقول ما تفكر فيه، جهرا. عمك مجبر على أن يحسب كل شيء قبل الإعلان عنه. رأيه يحسب عليه، فهو من وجهاء المدينة الكبار ولا يمكن أن يقارن بالإنسان العادي. أنا كذلك زعلانة، فقد خسرت شريكا حقيقيا في حياتي وأتمنى أن يأتي زمن وينتقم الله من جرائم القتلة، لكن السياسة شيء آخر يا عز الدين. أنا رأيت كيف كان سليم الله يرحمه يتحمل بؤس أناس لم يكن يحبهم ولكنهم كانوا معه في نفس الحركة، ماذا تريد من عالم صنع بشكل غلط؟

- يا أم شريف، عمي سعيد ليس في حاجة لأي واحد منهم. وليس في الوضع الذي كان فيه سليم، فهو يعرف جيدا جرائمهم فلماذا يصر على التقرب منهم؟ لا أفهم جدوى ذلك.

بدأ عز الدين يبرد شيئا فشيئا من فورته. ليست المرة الأولى التي يحدث معه فيها هذا الإحساس. لأمي صفية هيبة كبيرة عليه، فهو يقدرها إلى أبعد الحدود ولا يرفع عينيه أمامها.

- هو هكذا تدفعه نيته الطيبة ونبله تجاه الآخرين وخجله.

- وحبه للسلطان.

رد متمتما على ملاحظة يما صفية.

- لا أدري. الله وحده يعلم بما تكنه الصدور.

تنسحب أمي ويظل عمي عز الدين منكفئا على صدره قبل أن نخرج أنا وهو إلى ساحات دمشق أو نعرج نحو مقهى السوق، مقهى أبو مرزوق بساروجة. كان يشتهي لعب الشطرنج مثل والدي. بل كثيرا ما أحرج والدي الذي لم يكن أحد يستطيع أن يغلبه. كان مقهى السوق الذي يرتاده عمي عز الدين ملتقى للأصدقاء وآخر الأخبار وحساسية الناس حول وضع الحرب.

- تعرف يا شريف أن المقهى مثل قلب المدينة النابض. من دقاته نعرف حالة الأوضاع وحالة البشر.

كانت آخر الأخبار في جبهات القتال تصل عن طريق المقاهي. وكانت اشتعالات الأراضي الحجازية وبلاد الشام تصل تباعا: حرق قطار، قتل عسكري ألماني أو ضابط تركي، استسلام حامية، تحويل سيارات مؤونة. لكن الذي كان يهم عز الدين هي الأخبار التي كانت تصله عن الأمير عبد القادر الصغير، في الجبهة. على العكس من أخيه الأمير سعيد، فقد كان عبد القادر في صلب المعركة. سمعت الكثير عن شجاعته وجرأته وقوته. لم أره إلا مرة واحدة لم تكن كافية لارتسام ملامحه. كان على خلاف مميت مع جمال باشا. يقول الذين عرفوه عن قرب إنه أقسم ألا يدخل الشام إلا إذا علق على نفس الخشبة جمال باشا. كان يكره الاتحاديين ويرى فيهم خونة للوعود التي قطعوها على أنفسهم. فهم أصحاب مناصب أولا وأخيرا. كنت أريد أن أسأل الأمير سعيد يوم لقاء التعزية عن قصة هرب عبد القادر الصغير كما تسميه العائلة ومغامرته حتى الحجاز ثم التحاقه بصفوف المجاهدين ولكني لم أفعل وقتها خوفا من نظرات أمي الحادة التي كانت تتبع كل حركاتي يوم زيارتنا للأمير سعيد خوفا من قول كلام لا يليق بهذا الرجل الطيب.

عندما سألت عز الدين ونحن في مقهى السوق وكان يدخن النرجيلة التي يحبها مثلما يحب لعب الشطرنج. كان صافيا وهادئا متأملا. صرت أعرف الأوقات التي تكون فيها الأسئلة ممكنة. قال مازحا:

- يبدو أنه بينك وبين عبد القادر الصغير صحبة كبيرة.

- لم أفهم غيابه. العائلة كلها كانت تنتظره ولم يأت.

- هو هكذا. مغامر كبير. لا يأتي في الوقت الذي ينتظره فيه الجميع. لم يتحمل سجن بروسه، على العكس من والده وأخيه، فهرب. تخيل رجلا يقطع كل تلك المسافات الفاصلة بين تركيا والحجاز. شيء مدهش وخرافي. فقد عبر جبال الأناضول كلها وحده على ظهر حصان اشتراه من بعض الرعاة، متنكرا تارة في زي لباس فلاح تركي أو كردي وتارة درزي وتارة شامي وتارة أخرى حجازي حتى وصل إلى بلاد الحجاز. حتى إن البعض كان يطلق عليه ***أبو الأوجه السبعة***.

أطلقت الكلاب والشرطة في أثره ولكنه كان بعيدا عن المدينة. كان موسم الحج قريبا فانضمَ في خفية من الكل إلى قوافل الحجاج التي كانت حركتها أسهل. وحج. وبذل مجهودات كبيرة لكي يصل إلى الشريف حسين وعرف بنفسه أمامه. فأكرمه وقربه منه. تعرف ماذا قال الشريف حسين فيه أمام الحجاج السوريين، عندما عرف قصته، هم من أخبرونا بذلك.

- لا ما بعرف عمو.

أجبت بعفويتي المعتادة. صمت عز الدين للحظة بعد أن سحب سحبة قوية من النرجيلة:

- اسمع إذن ماذا قال الشريف حسين عندما تعرف على جرأته وقوة شخصيته: «**هذا أمير من أمرائكم وزعيم من زعمائكم، تعرض لأشد الأخطار رغبة بأداء الفريضة وحبا بخدمة بلاده وأمته وهو يتوارى عن الناس لكي يكون عمله خالصا لله وحده فعليكم أن تقتدوا به وتسيروا في أثره.**» ثم فتح علما كبيرا قال عنه إنه علم الدولة العربية وطلب من كل الحجاج أن يصلُّوا عليه، ثم سلمه العلم وطلب منه أن يرفعه على أعالي دمشق الشام عندما تنتصر الثورة. ثم ساعده على الالتحاق بفيصل ولورانس في الأراضي الحجازية لتحريرها من الأتراك. حلمه الوحيد كان هو أن يرى جمال باشا يتدلى على أعواد المشانق في ساحة المرجة وعلى مرأى من جميع أهالي المدينة.

الاسم الذي ذكره عز الدين بشكل عابر أثار فضولي:

- ومين هذا لورانس؟

- لا نعرف عنه الشيء الكثير. يقولون عنه: إنه كان يشتغل في المكتب العربي بمصر وغادره بأمر من رؤسائه لتحريك الثورة العربية وتأطيرها. الكثير منهم من يقول عنه كذلك: إنه كان مخبرا لقائد القوات الثلاثية العربية الإنجليزية الفرنسية أللنبي ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر عليه كرهه للأتراك.

- وحبه للعرب؟
- هذا لا أحد يملك حقيقته إلا هو والمقربون منه.
- يمكن أنا بخرف يا عمو وأقول كلاما بلا طعم؟
- لا يا حبيبي، أنت لا تخرف، أنت بس، كبرت قبل الأوان.
سنرى ماذا يخبئ لنا هذا الرجل المبهم والمغامر. إلى الآن يحكي عنه الذين عرفوه بكل خير ولكن يحكون أيضا عنه أنه لا يتردد في قتل كل من يقف في طريقه من القبائل التي ما تزال ترى في الأتراك حائطها للدفاع عن الإسلام وترفض أن يقود حروبها التحريرية أناس أتوا من بلاد أخرى، لا علاقة لهم لا بالدين ولا بعادات أهل البلد.

لا أدري إذا كنت وقتها قد فهمت عمي عز الدين وشكوكه ولكن الأيام التي تلت بينت صحة تساؤلاته.

-٢-

الجمعة، يوم ميت كالعادة.

لم تكن سماء دمشق مريحة أبدا.

انتهى كل شيء وعادت دمشق إلى رتابتها وصحفها الصفراء التي تقول كل شيء ولا شيء.

الفوضى التي عمت حي العمارة منذ الصباح، كانت كبيرة. لم يهدأ للناس بال إلا عندما تدخل كبراء الحي شيء ما ظل يغلي في عيونهم ولم يتحملوه أبدا. كانت بعض الوجوه مغلفة بغلاف فولاذي بارد. مرارة ما كانت ترتسم على الوجوه كعلامة خيبة واضحة. لا حديث في الأفواه إلا مهمة الأمير سعيد الجديدة. هناك من ذهب إلى أكثر من الاحتجاج:

«- الأمير سعيد يعمل لصالح جمال باشا؟ يا عيب الشوم؟ هذه تسمى في عرف المغاربة خيانة. وينك يا سيدنا عبد القادر؟ لم يكن يقبل أي شيء بدون استشارة المغاربة كلهم. وعندما يتخذ قرارا يقنع الجميع ويحاور الكبراء ولا يحمل حقيبته كما يشتهي.»

كان الأمير سعيد يستعد للسفر في مهمة صعبة إلى **وهيد** للتشاور مع الأمير فيصل، بتكليف من جمال باشا. وقد أبدى فيصل استعداده لاستقبال الأمير سعيد بعد أن رفض كل ما كان يأتيه من جمال باشا. يكفي في الحي سماع هذا الاسم لكي يقف شعر الناس وتستفز كل حواسهم، فيبصقون على الأرض وهم يتمتمون مخافة أن تسمعهم عيون الأتراك:

«- مجرم... وسخ... طاغية وقواد الألمان.»

الذين جاءوا لتوديعه كانوا كثرا ومعظمهم من الوجهاء العرب والأتراك. بعضهم كان خائفا عليه ويتساءلون إذا كانت المغامرة تستحق كل هذا المجهود. الدخول في عمق الأراضي الحربية يضعه في قلب الخطر. الكثير من المقربين نصحوه لكن المقربين من جمال باشا أقنعوه بضرورة الاستجابة لأن الموضوع كان يهم الثورة العربية وتوجيهها ضد الأعداء الحقيقيين. ثم إن جمال باشا ابن هذا الدين والمبادرة جاءت منه. ومنهم من كان يحتج وسط المجموعات المتراصة، لكنهم بمجرد أن رأوا الأمير سعيد عند باب البيت واقتربوا للتبرك بأهدابه وهم يتمتمون كلاما لم يكن مسموعا ولا واضحا، نسوا كل انتقاداتهم. في الزاوية الأخرى من الشارع رجال وأطفال لم يتدخلوا لا من قريب ولا من بعيد. أما أنا فقد وجدت نفسي في منتصف الطريق لا أعرف كيف أتقدم ولا كيف أتراجع. أمي كانت قد دخلت مع النساء في عمق البهو مع الخالة خيرة التي لا يحد لسانها أي حد. عندما مرت عليه السيارة وأخذته مطوقا بالحرس التركي، بقيت أسئلة كثيرة تدور في الرأس. لا أحد كان قادرا على شفاء الغليل إلا عز الدين الذي فضل التفرغ لتدريب حصانه الجديد في ضواحي المدينة. عندما دخلت على أمي لأستأذنها للذهاب نحو مقهى السوق، أجلستني العمة خيرة في حجرها. كانت تسميني طويل اللسان.

- هيه؟ طويل اللسان ما عنده سؤال؟

- بلى. حابب أعرف ليش عمو سعيد راح في مهمة وهو عارف أن

جمال باشا مجرم وقتل أهالينا؟ وهذه ليست المرة الأولى. إنه يسيء إلى مركزه في حي العمارة.

- ما بعرف إذا ما كان حي العمارة يهمه كثيرا؟ قصة طويلة يا روحي، علاقته مع جمال باشا كبيرة ومعقدة. يوجدان في نفس الحزب. يطلب منه طلبات في الأغلب الأعم متعبة ومع ذلك فهو لا يرفض له أي شيء. طلب منه أن يذهب في بعثة إلى شمال إفريقيا وكان المسكين متعطشا لزيارة بلاده الثانية وأرض جده، فسافر وهو لا يعلم أنه كان في لعبة أكبر منه.

- ما رفض؟ بيقولوا سافر مع الألمان يا اللي حرقوا الأرض والبلد والناس. أنت ما جاوبتني عن سؤالي، ليش بيتصرف مثل الأتراك؟

- عارفة يا روحي. يبدو أن عمو عز الدين أفسدك نهائيا. رأسه زي حجر الصوان. كان الأمير سعيد، مثل اليوم، مضطرا للسفر مع موكب الجنرال الألماني فافيوس الذي أعطاه العثمانيون اسم عبد الكريم باشا. وكان واليا على بعض المستعمرات الإفريقية. الدمشقيون تساءلوا كثيرا عن هذا الجنرال الذي نزل على دمشق فجأة، فاستدعى جمال باشا الأمير سعيد وقال له: سترافق بعثة عبد الكريم باشا الألمانية وهي ذاهبة إلى شمال إفريقيا. وستمر في طريقك على طرابلس الغرب وسترى الملك السنوسي فيها. «فاكتب له قبل أن تصل واخبره بقدومك وبأنك تحمل رسالة شخصية مني إليه. وأخبره شفهيا بأني سأهاجم ترعة السويس. فيجب على السنوسي عندما يسمع بوصول حملتي إلى الترعة لمهاجمة مصر، أن يهاجم من ناحيته مصر أيضا فنضعها بين نارين.» ومشى الأمير سعيد في الركب الذي انطلق من محطة الحجاز بصحبة الجنرال. وفي الطريق أخبره أحد كبار مرافقي البعثة الأتراك بأن القطار يسير نحو مستعمرات ألمانيا في إفريقيا الوسطى وستمر البعثة أولا على المدينة المنورة ومنها إلى مكة وطريقها هذا كله سري. ولكن البعثة غيرت طريقها باتجاه البحر الأحمر ونزلت بجدة. وانفصل الأمير سعيد وخادمه مسعود الجزائري وبقي في القنفذة ورفض المواصلة. ثم سار نحو

المدينة وانتهى به المقام بمكة والحج. وهناك التقى بالشريف حسين. وحاول أن يقنع الشريف، بوده وطيبته المعروف بهما، بأن يحمل السلاح ضد أعداء الأمة من الإنجليز والأمريكان والفرنسيين وحلفائهم وتأييد الدولة العلية صاحبة الخلافة الإسلامية. وعندما قال للشريف بنوع من النقد والتأنيب:

«- أنت ابن رسول الله، فيجب أن تكون على وفاق مع الخلافة الإسلامية.

أجابه الشريف:

- تريد الحقيقة عارية، ها هي ذي: الاتحاديون كفرة ولا يتبعون تعاليم الدين. لقد قاوموني. وحاول وهيب باشا قتلي واستولى على قصري ووضع يده على أوراقي وحوائجي الخاصة. أكثر من ذلك، أراد قتل ابني فيصل وإعدامه ولولا خير بعض الناس الأوفياء الذين أخبروه قبل فوات الأوان لأعدم. كان ذلك في ٢٦ مارس من عام ١٩١٥عندما دخل إلى الشام وأقام عند عائلة البكري وبقي ستة أسابيع، واتصل بأعضاء جمعية الفتاة وجمعية العهد واطلع على مساعي الزعماء العرب للاستقلال عن الدولة العثمانية قبل أن يهرب عندما عرف بسره وطلب رأسه ولكنه كان قد خرج. هذا جمال باشا لا أصدقاء له إلا عند الحاجة.»

- طيب ليش عمو سعيد يصر على هذه الصداقة يا عمة خيرة؟

- أنت أسئلتك كثيرة يا حبة عيني وأجوبتي ليست كافية. لو كنتَ امرأة من نساء حي العمارة، لكذبت عليك مثلما أشتهي حتى الصباح بلا كلل ولا ملل، لكنك صبي شقي ويفهم زيادة عن اللزوم، ولا أريد أن أدمر حياتك بالقصص التي يبلعها الآخرون بسهولة.

- آه لو تفتح خيرة الحنفية راح تغرق يا حبيبي. أحسن روح العب مع زملائك. هذا أفضل لك ولنا جميعا. مشاغل الخالة خيرة كبيرة ووقتها ضيق.

عرفت أن أمي كانت تريد أن تتخلص مني لأنها هي بدورها كانت

تشتهي أن تستفرد بالخالة خيرة لسماع آخر الأخبار التي لا أحد غيرها يستطيع أن يعرفها ويجيد روايتها.

- أصحابك ينتظرونك بره.

قالت يما صفية وهي تسحبني من حجر عمتي خيرة، التي على الرغم من قسوتها وبذاءتها، كانت امرأة صلبة. يقال إنها تزوجت ستة رجال، فأكلت رؤوسهم جميعا، الوحيد الذي ظل يتحملها وتتحمله إلى اليوم هو زوجها السابع. تقول إن الزمن جعلها تخفف من حدتها ولكن لسانها هو هو، عندما يستفز لا يسكن أبدا.

عندما خرجت من البيت، نسيت كل شيء. اندمجت مع أصدقائي في لعبة الغميْضة والحرب ضد العثمانيين. نسيت حتى إن أذهب لمقهى السوق للبحث عن عمو عز الدين. كنت سعيدا لأني عندما سألت الخادم عنه وقال لي بلكنته المثقلة والمفخمة:

- الأمير عز الدين لم يدخل بعد من تدريب حصانه الجديد. ما يزال في الضاحية.

فعدت إلى ركضي ولعبي براحة أكثر ونسيت حتى خطأ عمو محمد سعيد ضد سكان حي العمارة.

-٣-

حتى ساعة متأخرة من الليلة السابعة على غياب الأمير سعيد، والحي المغربي يغلي. لا شيء على الألسن إلا سفرته إلى وهيد ولقاءه بالأمير فيصل. بعضهم يقول: إنه دخل في مشاورات سرية مع فيصل لإشعال الشام من الداخل، البعض الآخر يبرر ذلك برغبته الاطمئنان على أخيه عبد القادر الصغير الذي لم يزر الشام منذ هروبه من الآستانة مرورا بجبال الأناضول. لكن الكثيرين لم يقتنعوا بذلك واعتبروها مجرد مناورة جديدة من جمال باشا للزج بالمغاربة في حرب ضد الإنجليز والفرنسيين لم يكونوا مستعدين لها. منهم من رفض هذه المساعي التي تزج

بالمغاربة في مغامرة هم في غنى عنها. لا يمكنهم أن ينسوا جرائم الأتراك الظالمة. هم من قتل أحد أحفاد الرسول، الأمير عمر وأحرارا كثيرين ولا يمكنهم أن يضعوا أيديهم في أيدي العسكر العثماني. هكذا تعاهدوا وكان الأمير محمد سعيد غائبا.

وقبل الأمير محمد سعيد أن يكون مبعوثا للأتراك من جمال باشا المرسيني قائد الجيش التركي في فلسطين المعروف باسم جمال باشا الصغير تمييزا له عن جمال باشا السفاح. ليقوم مرة أخرى بدور الوسيط بين الحكومة التركية المنكسرة والعرب. فزاره في مقر قيادته في السلط، شرقي الأردن في أواخر جويلية ١٩١٨. عندما دخل عليه، سأله جمال باشا الصغير:

«- هل أنت مستعد للقيام بمهمة الوساطة؟

قال الأمير سعيد بلا تردد:

- لما فيه خير الأمة، نعم.

- يجب حقن دماء المسلمين والصلح خير الحلول بيننا. لقد جرت بين الأتراك والأمير فيصل العديد من المراسلات ولكنها لم تأت بنتيجة. ولا أجد خيرا منك للقيام بهذه المهمة النبيلة. شرف عائلتك وانتسابك للرسول وحنكتك يسمحون لكلمتك بأن تكون مسموعة. ولمقامك لدى الجميع وإخلاصك إلى الدولة العثمانية وحبك لحقن دماء المسلمين دور حاسم. فهلا فعلت.

لم يفكر طويلا. فقد عزف له جمال المرسيني على الوتر الحساس الذي يفقده كل أسلحته. سأله بعد أن قبل بالمهمة، وهو يحاول أن يفهم أكثر:

- وكيف نتخطى يا باشا، الحواجز الخطيرة بين الجيشين العربي والتركي؟

- سهل. أضع تحت وصايتك أهم رسلي لتحضير الزيارة. حمله بما تشاء وسيذهب مغمض العينين.

قضى الليالي التي تلت في السلط، شرقي الأردن. حتى اكتملت الفكرة وبعث بالرسالة مع الرجل الذي وضع لخدمته. استطاع الرسول أن يتخطى كل حواجز النار ويصل سالما ويعود برسالة من الأمير فيصل. كانت قاسية ولكنها كانت كذلك صريحة وواضحة.

تحسسها طويلا، تشممها كأنه كان يريد قراءتها ومعرفة أسرارها حتى قبل فتحها. يعرف جيدا أن الرسائل لا تتشابه ولهذه خصوصية وتمايز كبيران. فهي ليست رسالة عادية ولكن عليها تتوقف كل الوساطة. الأمير فيصل مزاجي وردود فعله لا تسلم من نزقه الذي ينتابه من حين لآخر. الذين عرفوه عن قرب يتفادون الحديث إليه في لحظات تشنجه لأن ردوده تكون دائما مشفوعة برفض صريح أو مبطن. ولا يطلبون منه كتابة الرسائل إلا في لحظات الصفاء الروحي.

فتحها كمن يفتح كتابا مقدسا وبدأ يعبر كلماتها التي كتبت بخط أنيق:

قيادة

الجيوش العربية الشمالية.

ديوان الأمير.

باسم الله الرحمن الرحيم.

رقم..............

تاريخ: ٣-٢ القعدة ٣٣٦.

والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

حضرة الأخ الكريم.

تلقيت كتابك وسررت على صحتك، وعسى الباري يحفظك، ولعلمي بصفاء نيتك وخلوصك وما بيننا من الروابط الودية، أحرر لك هذا. أولا لإعلامك عن صحتي ولله الحمد ثانيا لئلا تتهمني بقلة الوفاء وإلا ما كنت أرى لزوما للرد على كتابك ولأنني قد جربت أصحابك

وجرت بيننا أحاديث فما رأيت لذلك أدنى ثمرة، وتأكدت من ذلك بأنهم يريدون المماطلة لاكتساب الفرص ليس إلا.

إن كنت تريد المواجهة شخصيا فأهلا وسهلا وإنني على العهد وان جئت لإبداء بعض ما يظهرونه لك ويضمرون خلافه فلا أرى لزوما لتعبك ولذلك فهنا أمران: إن كانوا أعظوك ما تتوثق به عن صفاء نيتهم وبيدك ما يثبت ذلك، مطأطئين للحق وقابلين ما يطلبه العرب ومستقتلين من أجله فمرحبا بك، وتأتي الليلة القابلة الموافق ٣-٤ القعدة ٣٣٦. وهي ليلة الأحد الموافق مساء ١٠ أغسطس إفرنجي وفي الساعة واحدة عربي في وادي عقيقة الواقع جنوب سمنة القبلية وسيكون في ذلك المحل فانوس أحمر مع من يلزم لخدمتكم، فاعتمدوا عليهم وامشوا بمشورتهم. وإن كانوا أجبروك على المجيء ولا بيدك ما يطمئن به قلبك فأنت بمحلك والعرب وشأنهم والسلام عليكم ورحمة الله.

أخوك فيصل.

وعلى الرغم من المرارة التي لم يستطع ابتلاعها بعد انتهائه من قراءة الرسالة، سافر الأمير محمد سعيد ليلا بدون تردد. فقد رأى في الرسالة دعوة واضحة للزيارة وان كانت مبطنة. نفس الرأي أبداه جمال باشا الصغير عند اطلاعه على نص الرسالة:

- أعتقد أن الرجل يدعوك للحديث وأنا متأكد من أنه سيلين أمامك. لنا نفس العدو المشترك: أعداء الإسلام. استقلال العرب، قضية ستجد حلها في وقتها المناسب ولا تشكل الفكرة عائقا كبيرا أمام عملنا الموحد، تستطيع أن تنقل ذلك عني. الباب العالي مستعد أن يجازي العرب على وقوفهم بجانبه وبجانب دينهم في هذه المحنة الصعبة. وراءك جمال باشا والباب العالي في مسعاك الخير.

لم يعلق الأمير سعيد ولكنه خرج في الليلة نفسها باتجاه مواقع الأمير فيصل.

لقد داروا به كثيرا في أمكنة متعددة قبل أن يدخل إلى خيمة ثم يساق

في جنح الظلمة باتجاه مكان لم يعرف أي ملمح من ملامحه. في الليلة نفسها تم اللقاء بحضور نوري باشا السعيد وفائز بك الغصين أمين سر الأمير الخاص. واستمعوا إلى رسالة الأمير محمد سعيد المفصلة شفهيا. وكانت كلها عبارة عن كلمات طيبة تهدف إلى إحلال السلام بين الإخوة وحقن دماء المسلمين. وكان الشرط الأول للأمير فيصل هو الانسحاب من الأراضي المحتلة:

- الحل ليس مستحيلا، فليخرجوا أولا من الأراضي العربية وليعترفوا بالملك حسين ملكا على البلاد العربية وبعدها تتفكك كل المعضلات والعوائق.

- أليس من الأولى يا أمير المؤمنين أن يخرج المغتصبون الأجانب الذين احتلوا أراضينا وسرقوا خيراتنا واستباحوا حرماتنا.

- لا أعرف من سرقنا ولا من استباح حرماتنا غير الأتراك، أما إذا كان قصدك بالمغتصبين هؤلاء...

ثم أشار إلى لورانس الذي كان منهمكا في تحضير القهوة.

- فهؤلاء أصدقاء كبار وقد ذاقوا معنا نار الوحدة والبرد والخوف. لا يمكننا أن نتراجع اليوم بعد أن أصبحنا على مشارف دمشق الشام. على الأتراك أن يكونوا عقلاء ويخرجوا قبل فوات الأوان.

- دم المسلم حرام على أخيه المسلم.

- حرام عندما يعتدى عليه، ولكن المسلم عندما يكون معتديا وغاصبا يسري عليه ما يسري على الأعداء.

شعر الأمير سعيد أن المسافة التي كانت تفصله عن الأمير فيصل ازدادت هوة واتساعا.

الكلمة الوحيدة التي صدرت منه قبل أن يغادر المكان، وكانت الخيبة بادية على صوته:

- بالتوفيق إن شاء الله وكل الخير للعرب.

- إن شاء الله. أملي أن تكون خطواتك في مكانها وتجد من

يقدرها. الزمن صعب وإمكانات الزلل كثيرة وقد يظهر العدو غدا غير ما يظهره اليوم.

- لكل وقت حديثه. والله يجازيك على مسعاك الطيب.

انتبه الأمير فيصل إلى انكسار صوت الأمير سعيد، فحاول أن يلطف الجو بدون أن يغلق كل الأبواب في وجه الحوار الممكن. فقد كان وجه الأمير سعيد يلتمع تحت النار والشعلة الليلية المتصاعدة، أصبح كوجه تمثال نحاسي لا يظهر إلا نصفه العلوي:

- ما دمت قد وصلتنا حتى هذا المكان، وتحملت الأخطار والمتاعب، أحملك رسالة مني تعبيرا عن حسن نيتنا لا لجمال باشا المرسيني ولكن لجمال باشا مادام هو الرأس الأكبر في العملية. المرسيني ما هو إلا صدى عسكري لسيده لا يحل ولا يربط إلا برضا الكبار.

التفت نحو أمين سره فائز بك الغصين أملى عليه الرسالة باللغة التركية:

- اكتب يا فايز ما يلي:

قيادة

الجيوش العربية الشمالية.

ديوان الأمير.

رقم..............

تاريخ: ٤-٥ القعدة ٣٣٦.

إلى حضرة جمال باشا قائد الجيش الرابع

يا حضرة القائد العام.

تسلمت كتابكم المؤرخ في ٥-٧-٣٤ والذي تفضلتم بإرساله مع الأمير سعيد وليس لي ما أقوله بالنسبة إلى شخصكم لما أعرفه فيكم

قديما من الشعور الطيب والعواطف النبيلة التي خبرتها بالذات ولكن هذا لا يمنعني من القول بأن هذه الكتب والرسائل التي لا أزال أتلقاها من وقت إلى آخر وأجيب عنها منذ نحو تسعة أشهر سواء من حضرتكم وسواء من غيركم من كبار القوم ليست سوى إضاعة للوقت فيما لا يفيد إذ لم أر فيها ما يدل على روح إسلامية صحيحة وبذلك لم يبق لي أمل في الوفاق والاتفاق.

ومع أن رسالة الأمير سعيد بعثت شيئا من الأمل في نفسي إلا أن هذا لا يمنعني من تنبيهكم إلى أن حالتكم العامة ووضعكم العسكري صار في أقصى درجة من الخطر وستؤيد الأحداث قولي هذا الذي أقوله بلسان المسلم المخلص الصادق لا بطريق التهديد والله يعلم أن ما أكتبه إليكم بهذا الشأن مصدره الوجدان الذي يهيب بي إلى نصحكم وتحذيركم.

إن العرب لا يطلبون شيئا من الترك وإن كل ما يطلبونه هو أن يعيشوا أحرارا على وفاق تام واتحاد معهم. إن للعرب مطلبا صريحا وواضحا يلحون في تحقيقه وإجابته ولا يتنازلون عنه وإني أصارحكم به وهو: إن العرب يريدون منكم أن يكون حالهم معكم كحال بافاريا مع ألمانيا.

إن قبول هذا الاقتراح يربط بين قلبي الأمتين برباط متين لا تنفصم عراه كما إني أعد بالقبول بأقل منه جناية تجنى على هاتين الأمتين الإسلاميتين فلا يتجدد بعد ذلك الزمن الذي يعودون فيه إلى دواوين الحرب العرفية والى أحكام الإعدام والشنق وإلى الفتاوي المزيفة وإلى ترديد عبارات الأصابع الأجنبية أو الخروج على السلطان فتجدد القلاقل والمصائب.

والخلاصة إنني أختم كتابي قائلا بأنني على أتم استعداد للدخول في المفاوضات متى قبلت الحكومة التركية اقتراحي مقدما هذا، مقدما احترامي إليكم.

في ٥ ذي القعدة سنة ١٣٣٦.

فيصل.

عبر الأمير سعيد من جديد، في الليلة نفسها، كل الحواجز الفاصلة تحت حراسة جيش الأمير فيصل قبل أن يستلمه الأتراك من الجهة الأخرى. كان متعبا وكثر سعاله. دخل فجرا مقر القيادة في السلط، شرقي الأردن. لم يثرثر مع مرافقه في الطريق، الذي ظل بدوره صامتا كميت. كان مدركا تماما أن كل شيء كان قد انتهى ولم يعد هناك ما يمكن إصلاحه، لا الأتراك قادرون على ابتلاع الإهانة بطريقة مكشوفة وقد دخلوا في حلف كبير وحيوي مع الألمان ولا الثوار العرب قادرون على التسليم في الأمر وقد صاروا على أبواب دمشق بعد أن استسلمت كل الحاميات الصغيرة في صحراء الحجاز.

تذكر كلمات فيصل الأخيرة وهو يودعه عند مدخل الخيمة:

- الحرب عندما تصل إلى هذه الدرجة، يصبح من الصعب التراجع على كلا الطرفين. مع ذلك، نتمنى أن يفهم الأتراك مقاصدنا وحقوقنا المشروعة.

عندما سأله جمال باشا المرسيني، وكان سعاله قد هدأ قليلا:

- وماذا تفكر أنت يا أمير سعيد؟ رأيك الشخصي يهمني كثيرا.

- يبدو لي يا سيدي أن الأمر معقد جدا. هم متضررون من إصرار الأتراك على بقائهم في بلاد الشام ويطالبون بخروجكم، هذا ما فهمته منهم. ربما قالت الرسالة ذلك بشكل أكثر من كلامي.

ثم سلم له الرسالة.

لاحظ أنها موجهة لجمال باشا. تلفن ثم استأذن جمال باشا بفتحها ربحا للوقت. ففعل. وعندما انتهى من قراءتها، بدا شيء من التصلب ومن الخيبة على وجهه وانتفخت عروق جبهته المفلطحة والعريضة.

- طيب يا أمير سعيد، سيدي جمال يشكرك كثيرا على عملك الجبار وتوسطك لحقن دماء المسلمين. إذا كان هذا ما يريدونه، يا الله علي وعلى أعدائي والبادي أظلم. مساكين، مجموعة من الرعاع والبدو، وهل هم في وضع الآمر؟ ثم من نصبهم على بلاد الشام وهم من أرض

الحجاز؟ وهل يقبل سادتهم بتنصيبهم على أراضي بلاد الشام؟ أنا لم أثر هذه القضية ولكننا سنضطر لإثارتها مع حلفائنا وبعنف شديد.

- ولكن هذا يا سيدي سيعقد من الأوضاع، هم مسلمون أولا وأخيرا. هم يقولون إن الاتحاديين هم السبب، وهم مخطئون في ذلك طبعا، المشكلة تتجاوز إرادة الاتحاديين.

- لا اتحاديين ولا بطيخ. إنهم يعقدون من أوضاعهم ويضيعون فرص الخروج بأقل الخسارات. يعيشون مثل الذئاب، سندفع بالأشياء بقوة حتى يصيروا ضباعا. كلها أيام وسنحصدهم.

لم يتكلم الأمير سعيد. شعر بنفسه أمام رجل لا يعرف شيئا غير التهديد. كان ينتظر متى يؤذن له بالمغادرة فقد شعر أن كل الحيطان التي تحوطه تضيق من نفسه وتخنقه وان سعاله قد عاد من جديد. شعر بأن مكانه دمشق وليس هذه الحيطان الصدئة التي لا تسمع إلا أنفاسها المرتبكة.

فجأة دخل عليهما أحد البوابين مرفقا برجل خشن الوجه، محمر الأوداج كضفدع.

- أهلا بك يا حكمت، أنت لا تأتي إلا إذا كانت لديك أخبار صحيحة لا تنتظر.

- أمر سيدي.

- تفضل يا حكمت قل لي ما وراءك؟

حيا حكمت جمال المرسيني بانحناءة أمامية ثم وشوش في أذنه مدة طويلة، قبل أن يخرج رسالة من صدره ويسلمها وينسحب بسرعة. عندما رأى الأمير سعيد وجه الباشا يمتقع شعر فجأة بأن الأمر كان يعنيه من قريب أو من بعيد. انحفرت ملامحه حتى غابت تفاصيلها الاعتيادية وتعمقت زرقتها كزرقة الرجل الميت. كفاه كانتا ترتعشان وتتعرقان بسرعة. تساءل الأمير سعيد.

- خير إن شاء الله يا سيدي الباشا؟

لم يجبه جمال المرسيني إذ كان ما يزال منهمكا في إعادة قراءة

الرسالة. ثم فجأة التفت نحو ضيفه وقد انسحبت كل ملامحه الأولى وعوضتها ملامح باردة كملامح حيوان يستعد للقتال:

- أنا لا أصدق كل ما يقال لي ويجب أن أكون صريحا معك. هل حقيقة اتفقت مع الأمير فيصل اتفاقا سريا ضد الأتراك على أن تتصل بالزعماء العرب في دمشق وتعلن الثورة الداخلية ضد الأتراك وتعلن الاستقلال. أكاد لا أصدق ما أقرأه وما سمعته أذناي؟

- وهل يعقل يا سيدي أن أتعامل مع الأمانة بهذه الطريقة. ومن وشى لك بكلام مثل هذا لا معنى له؟ الله يجازي اللي كان السبب يا سيدي في كل هذه المصائب.

أجاب الأمير محمد سعيد وهو يبحث عن كلماته التي هربت من لسانه بسرعة ويشرب كوب الماء الذي وضع بجانبه لكي يخفف من سعاله الجاف الذي كان يجرح صدره.

ولكن جمال باشا المرسيني واصل بشكل تهديدي وجاف:

- هذه رسالة من أحد أعواني تعلمني بذلك. وإني بواسطته أعلم جميع حركات فيصل. وإذا ثبتت صحة ما سمعنا ستكون الوضعية صعبة يا أمير سعيد، وعليك أن تسأل نفسك ماذا فعلت، الباب العالي يثق فيك ثقة عالية ولا يعقل أن تأتيه الطعنة من أقرب ناسه؟

- لم أفعل شيئا إلا ما يقرب دار الإسلام الممزقة يا سيدي وقد أديت مهمتي على أحسن وجه. لا تصدق يا سيدي ما يقال لك، رجال الفتنة كثيرون أو ربما هو مجرد سوء تفاهم.

- سوء التفاهم يا حبيبي لا يمكنه أن يصل إلى حد نقل كلامك مع فيصل بأدق تفاصيله. لا. لابد أن تكون هناك حلقة مفقودة في العملية.

- هل لي أن أعرف ما قيل فيّ؟

- ليس من الضروري إذ أقل منه يمكن أن يؤدي بك إلى حبل المشنقة. مش حلوة اثنين من عائلة الأمير العريقة التي حاربت الاستعمار الفرنسي، يموتان بنفس الطريقة، واخذ بالك، مش كويس، عمك عمر

وبعدها أنت؟ هذا يضر بسمعتكم كثيرا ويجعلكم مضغة على كل الألسن.

- الأعمار بيد الله يا سيدي ولم أفعل ما يشين بيني وبينكم. وهل يعقل أن يغامر رجل بحياته ليلا مثلما فعلت إذا لم يكن له دافع قومي وديني كبير؟ إذا كان يأذن لي سيدي سأسافر إلى الشام. لقد اشتقت لأهلي يا سيدي ولم يعد ما يبرر وجودي هنا. إني أشعر بوهن كبير يا سيدي وهذا السعال الجاف يؤذيني.

- تفضل، بس خليك بالشام ولا تروح بعيد، قد نحتاج إليك. المفروض، في الحالات الطبيعية أن تسجن حتى يتضح الأمر ولكن والحال هذه سنغض الطرف مؤقتا. وهذه منة من سيدي جمال الله ينصره على كل أعداء الله والخونة والمنافقين.

- لم أفعل ما يربك ما بيننا، وسيتضح لكم ما أقوله. مكيدة دبرت بليل يا سيدي.

- أتمنى أن يكون الأمر كذلك وألا أضطر إلى فعل ما أرفضه.

خرج الأمير سعيد وهو لا يصدق أنه نجا من محنة موت مؤكد. تساءل طويلا وبلا جدوى، عمن كان وراء هذه الدعاية المغرضة مع أن الذين حضروا الجلسة لم يكونوا إلا قلة قليلة وهم من المقربين من فيصل؟ ولكنه كان كذلك متأكدا من أن جمال باشا الذي أعدم أهله وأحبابه وتسبب في موت والده في منافي بروسه، ينتحل الأسباب الواهية لإلحاقه بالشهداء فهو يخاف سطوته في المدينة وتأثيره.

في الفجر الأول فوجئ أن الحرس الذين كانوا ملتصقين بأبواب النزل ذهبوا كلهم ولم تبق في الباحة إلا السيارة التي ستأخذه إلى محطة القطار للعودة إلى الشام. كل شيء بدا هادئا على غير العادة. وبدا كأن الصمت الذي نزل فجأة أبدي. لم يتذكر شيئا سوى تكشير جمال باشا المرسيني الذي كان يفتح فكه كسمك القرش وكيف انقلب وجهه من السماحة الطفولية إلى اللون الرمادي الكابي عندما وشوش البواب في أذنه قبل أن يدخل عليه حكمت ويخرج رسالة من صدره ويسلمها له.

في القطار لم ير شيئا، حتى وجه جمال المرسيني انسحب وذاب مع أول شخير لمحركات القطار الثقيلة. وحل محله وجه الأمير فيصل بملامحه المبهمة وهو يتلون بآلاف الألوان النارية تحت احتراق جذوع النخيل والسنة اللهب التي أعطت للحيته الخفيفة لونا نحاسيا، لكن عينيه ظلتا صافيتين مثل الأحجار الكريمة ومليئتين بالتساؤلات التي لم يكن قادرا على الإجابة عنها. فوجئ أن الأمير فيصل لم يكن قادرا على اتخاذ أي قرار إلا إذا استشار لورانس الذي كان يدور باستمرار حول الخيمة ويتدخل كلما وجب أمر التدخل. كانت عيناه تتراقصان كلما سمع صوتا قادما من مكان ما. يشغل وظيفة الحارس والمساعد.

تهالك على الكرسي وحاول أن ينام قليلا. كان القطار يخترق الجبال والضياع التي لم تفقدها الحرب لا رونقها ولا خضرتها.

عندما أغمض عينيه، ذهب كل شيء ولم يبق إلا البياض. ولم يتنبه للمسافة التي قطعها القطار ولا للمحطات التي توقف عندها لينزل ركابه ويفرغ حمولته العسكرية ويأخذ أخرى نحو مكان آخر، إلا عندما همد ضجيجه نهائيا وتوقفت أدخنته في محطة الحجاز المكتظة بالمسافرين الذين كانوا ينتظرون بدورهم وصول هذه الآلة البخارية التي بدت عجيبة للأمير سعيد وضرورية في هذا الزمن الصعب والثقيل على الناس.

-٤-

كان مقهى السوق، مقهى *أبو مرزوق* مكتظا بالناس من كل الأشكال. لا تسمع فيه إلا همهمات البشر وضحكاتهم المتقاطعة وأوراق الصحف وهي تنقلب بسرعة ونرفزة ظاهرة محدثة خرخشة مسموعة، وأحجار الزهر وهي تتكور داخل الصندوق الخشبي قبل أن تستقر في الزوايا وضربات لعب الورق على الطاولة وصياح المنتصرين في كل لعبة وسط أدخنة كثيرة، من يدخن النرجيلة، من حين لآخر يصيح على النادل لتقليب الجمرات أو تبديلها ومن يدخن السجائر النباتية ذات التبغ الخام

التي يفتلها بنفسه بهدوء واستمتاع خاصين قبل أن يضعها بين شفتيه في اعوجاج لذيذ لا يمنعه من الصياح والكلام. فوق كل هذا صياح النادل المصري المسؤول الذي لا يتوقف وهو يوزع أوامره الساخرة للعمال الصغار: يا الله يا محمد هز لي حالك؟ شو بك نايم مثل ست القصور؟ قهوة مضبوط للأفندي، سمير؟ وينك يا ماما؟ شاي على كيفك للأفندية المصريين وللخواجة اللي مقابلهم. ثم يتوغل من الجهة الشمالية بدون أن ينسى صياحه: يا اله يا أحمد لسَّاتك ضايع بين النجوم؟ لا تنس لي فطور يشفي العليل لعمنا القاعد في القرنة، الزاوية على اليمين. يا أحمد خلص لي حالك بسرعة الله يرضى عليك. ولاك وينك، نايم؟ يحرق دينك، الناس بتصرخ وأنت فاتح لي فمك للذباب؟ الزلمي بيطلب فطور وأنت جايب له شاي وإلا قهوة ساده؟ يا الله حبيبي ورجيني عرض أكتافك، أسرع ولا تزعَّل لي الأفندي...

- صباح الخير. يا أسطى فؤاد، غلط، مو هيك حبيبي! النرجيلة إلها أصول يا روحي وأنت تقتلها وتحولها إلى رماد. أنت لا تسحب شيئا إلا الغبرة والهواء وقرقرة المياه على الفاضي. مو هيك حبيبي. هذه القعدة التي تشبه علامة استفهام ليست جيدة. لازم لك دورات تدريبية خاصة على النرجيلة الشامية؟

قال عز الدين الذي كان قد تواعد مع فؤاد غصن ومحيي الدين، أحد مرافقي سليم في الدورات التدريبية الأولى في تركيا. كان وضع فؤاد يثير الضحك. كان متكئا على نرجيلته بشكل معقوف. كان فعلا يشبه علامة استفهام، يحاول عبثا أن يبعث الحياة في جمرة انطفأت وصارت مجرد فحمة ميتة. عندما سمع التحية، رفع رأسه وهو يبتسم وكأنه عرف الصوت.

- ما ليش في نرجيلة الشام يا أخي. معقدات بشكل. ما إجا معكم محيي الدين؟

- لا. ابق بس أسبوع بالشام وأنا أوريك كيف تستمتع بالنرجيلة.

الشغلة إلها أصول حبيبي مو حي الله؟ طبعا بتعرف هذا الشطور الجميل اللي معاي؟

- ولو؟ مين اللي ما بيعرف هذا الشاب الوسيم والشجاع الذي قطع معي قفر بيروت حتى الشام قبل مدة. شريف ابن الشهيد سليم الله يرحمه. ما نحنا جينا مع بعض من بيروت لهون. مش هيك عمو شريف؟

قال فؤاد غصن وهو ما يزال ينفخ عبثا في نرجيلته.

- أيوه يا عمو، يكثر خيرك. لولاك لما عرفنا ما نفعله في تلك الظروف القاسية والصعبة.

صفق عز الدين على النادل المسؤول، فأتاه بسرعة وهو يتمتم مبتسما:

- كيفك حبيبي عز الدين. يبدو أن رجالنا على مشارف المدينة؟

وشوش في أذنه ببعض الكلمات المبهمة ثم انسحب وهو يصرخ كعادته باتجاه مساعديه الذين يتحركون بسرعة داخل المقهى: ياالله يا شباب بسرعة، قهوة مدوزنة لعز الدين أفندي وجمرة ملتهبة كامرأة عاشقة لحبيبنا فؤاد غصن أفندي... ياالله شوف طلبات اليمين...

أسوأ ما في عز الدين لغة الأبوة. الصغار بالنسبة له لا يكبرون أبدا والكبار لا تصغر عقولهم من حين لآخر باستثناء عمه الأمير محمد سعيد الذي لم يعد يطيق تحركاته الأخيرة. علاقة والدي كانت مع عبد القادر الصغير أكثر من علاقته بالأمير سعيد. المرة الوحيدة التي أتذكر أني رأيته فيها وجها لوجه هي عند زيارتنا له أنا وأمي للتعزية. لا أدري لماذا أتذكر ذلك باستمرار؟ فوجئت ببيته الواسع وبذخه أكثر من أي شيء آخر. كان بيته كبيرا وفارغا وربما باردا أو ينقصه شيء لم أكن أعرفه. يما صفية لم تكن معنية كثيرا بذلك. كانت تقول لي دائما في خلوتنا وأنا أسألها عن هذا البذخ: وحياتك ولا شيء. والدك لو أراد هذه الحياة لما سبقه إليها أحد. ولكنه كان يكره جمال باشا ويكره العسكر التركي الذي انتمى إليه بإخلاص كبير. ولم يكن قادرا على تحمل بؤسهم. ولكي تخفف من

ردة فعلها المباشرة: بس أهو... فعمك سعيد يبقى إنسانا طيبا ومسالما. أنت بتعرف، حيثما كان شقاق عائلي جئ به للصلح. الأتراك دفعوا به لملاقاة الشريف حسين في الحج ليطلب منه أن يوجه سهامه إلى المستعمر الإنجليزي والفرنسي وليس إلى التركي المسلم. ولكنه عاد بخفي حنين ولم يسمع له أحد. هكذا الرجال، بعضهم لا يدرك قسوة الدنيا إلا عندما ينفجر اللغم بالقرب من قدميه. أبوك نصحه العديد من المرات بأن يبتعد عن السلطة قدر المستطاع ولكنه تربى فيها، نشأ بين أحزابها. وظل إلى اليوم مؤمنا بجدوى مناصرة تركيا وكل أصدقائه من الاتحاديين.

لم أعد شطورا؟ تمتمت في أعماقي وأنا أستعيد كلام عز الدين. سليم لم يكن مخطئا، فقد كبرت بسرعة، «**مثل المشمش البري. أنت يا وليدي شريف، عودك قوي وميه قليلة تسقيك.**»

بعد قليل انضم محيي الدين إلى المجموعة، بفوضاه المعتادة ونقده الذي لا يتوقف:

- أقولك يا السي عز الدين؟ جدكم الأكبر لم ينجب إلا شخصية واحدة تشبهه في شجاعته، حفيده عبد القادر الصغير، شعلة حية من النار وسبع ابن لبؤة حقيقية، البقية، صفر على الشمال. شو صار له الأمير سعيد، شواللي مبقيه مع أزلام الاتحاديين؟ كان من الأفضل له ولتاريخ جده وللمغاربة أن يتركهم ويعود إلى ذويه والى ناسه. لن يحصل على أي شيء من جمال باشا.

- مأساة عمي سعيد وأبوه الأمير علي الله يرحمه، مات في غربة الآستانة الباردة، يظنان الخير في الأتراك وأن جمال باشا مسلم أولا قبل أن يكون طاغية.

- لا إسلام ولا بطيخ ولا هم يحزنون. ولا يعرفان أن آلة الزمن تغيرت وان كل الحسابات مع الأتراك لم تعد نافعة مطلقا. الحسابات الدينية ما تنفع مع هيك بشر. حكاية الأتراك صارت اليوم من الماضي إلا إذا كنا مصابين بالعمى. كنا مع الأتراك مثل بقية العرب عندما كانوا

يدافعون عن الحد الأدنى من الدين. لكن الزمن تغير ولم نعد مجبرين للسير في طريقهم. فهم يتهالكون ونحن نمنحهم عصا النجدة. لا أريد أن تعيرنا العرب بأننا أنقذنا الأتراك من الغرق. ليغرقوا في ستين داهية. فقد أساءوا بما فيه الكفاية للعرب وللعائلات الشامية. من داهم أحياءهم؟ من قتل أمراءهم وضباطهم وناسهم الميامين؟ لا يمكن. الشقة تكبر والثوار يدقون أبواب الشام.

- مشكلة الأمير سعيد هي هذه. كلما قيل له: إننا نكلفك بمهمة لبلدان المغرب العربي أو للصلح، شمر عن ذراعيه واندفع إلى الأمام. لا يحل المشكلة. يعرفون جيدا أن السلطان والجزائر والإسلام هي نقاط ضعفه فيلعبون على ذلك. وعلى كل حال ما يقوم به حاليا هو مضيعة للوقت. الأمير فيصل لن يقبل بوساطته. وحتى ولو قبل لن يتركه الإنجليز والفرنسيون يقبل لأنهم مصممون على كسر شوكة ألمانيا شاء الأمير أم أبى. الزمن تغير وهم أنفسهم لهم نظرة خاصة للموضوع. هذه المنطقة لن يحرروها ليمنحوها للعرب، أصحابها الأصليين. لهم حساباتهم الخاصة.

قال عز الدين وهو يحك على رأسه كما تعود أن يفعل كلما حاول استحضار فكرة ضائعة:

- ليكن. ستكون هناك حرب أخرى إذا اقتضى الأمر ولكن هذه المرة يجب أولا التخلص من سلطان الأتراك الذي حرر كل الأقوام التي استعمرها قبل قرون إلا العرب، فهو مصمم على إخضاعهم وتركيعهم وإبقائهم في زريبته وسيطرته. لا يعقل. يجب ألا نعطي للقاء الأمير سعيد بفيصل أكثر مما يستحقه. فقد فشل.

- كانت الوساطة فاشلة في أصلها.

قال فؤاد غصن وقد التمعت في عينيه جمرة النرجيلة التي عادت إلى أدخنتها الأولى ورائحة التبغ الطيبة.

- يا عيني عليه وعلى شطارته؟ لن ينجو من مخالبهم. يستعملونه، وينتظرون اليوم الذي لا يحتاجون فيه إليه لكي يعدموه. ماذا فعلوا بالأمير

عمر؟ الأمير الشهابي؟ عائلة العريسي؟ وغيرهم؟ هل خافوا من أصالة العائلة؟ هذا كلام يجب أن نضعه وراءنا. هذا الرأي كان صالحا عندما كان الأمير عبد القادر حيا، أما اليوم فلم يعد يهم جمال باشا إلا القتل والجريمة لحماية سادته. لنلتفت أكثر نحو الثورة التي بدأت تدق على الأبواب والمدن والقرى. نفكر في شيء آخر، أكثر جدوى وأكثر أصالة. حتى فيصل ليس أهم من الأتراك، لا أدري إذا لم يكن هو نفسه صنيعة أللنبي الذي ينتظر متى ينقض على هذه الأرض، ودمية للمخبر لورانس الذي وضع في صدره تماما بحيث يسمع كل دقات قلبه.

- أنت تضخم الأشياء وتجعلها عدمية تماما. لورانس وفيصل وأللنبي وغيرهم، حملوا على الأقل السلاح لإسقاط قرون من التخلف. لقد أشعلوا فتيل النار وهم على مشارف دمشق وحرروا مناطق كثيرة ويقال: أنهم عطلوا السكك الحديدية وجسر اليرموك الذي يمر عبره القطار القادم من فلسطين متسلقا جبال حوران قبل أن ينتهي إلى دمشق، وهو الذي يستعمله الأتراك لتمرير جندهم وأسلحتهم. أعتقد أن بلاد الشام خرجت من أيديهم.

- لتسقط ثمرة حية بين أيدي آخرين لا يختلفون كثيرا عن الأتراك. ما تخافش سيحكمك الشريف أللنبي بيد الجنرال الشريف حسين أو الأمير فيصل أو الشريف ناصر أو زيد أو حتى علي. كل السلسلة الشريفية ستمر عبر الشام وستخلق لها أوطانا كمكافأة لها على صنيعها. هل تعتقد أن اتفاقية سايكس بيكو خرافة؟ كل شيء مرتب والأعمى هو الذي يرفض أن يرى هذه الحقيقة.

لم أنتبه إلا عندما نبهني عز الدين إلى كأس الشاي التي بدأت تبرد.

- وينك حبيبي؟ خليك معانا يا شريف. كاسة الشاي بردت. حديث الكبار ما بيخلص.

- سأشربه يا عمي، سأشربه.

كان المقهى يعج بالناس. وكل من مر كان يحيينا. وكلما قُدِّمتُ على أني ابن سليم الجزائري، انحنى الناس قليلا، تقديرا واعترافا ثم

واصلوا طريقهم بحثا عن مكان في هذا المقهى المكتظ. طلبنا لوحة الشطرنج. صرخ النادل كعادته: الشطرنج يا ولد، عايزين نروح بعيد في بحر العقل يا حبيبي... يا الله بسرعة يا ريس البابور، أنت حبيبي وروحي لا تخيبني... حابب أرحل معك... الشطرنج يا ولد...

رتبت اللوحة وأحجارها بشكل جيد.

قال فؤاد غصن موجها كلامه إلى عز الدين ومغيرا إيقاع كلامه:

- السعادة الكبيرة تخيفني. ما يصل من جبهات القتال مفرح ولكني أخشى من أن يكون الإنجليز هم من يدير الكفة. ما هي أسلحة القبائل الحجازية التي لم تحمل في حياتها سلاحا إلا لتقتل بعضها بعضا أو لتديرها نحو حيوانات الصحراء؟ كل شيء في طريق خطير والناس لا يعرفون الحقيقة. المعلومات التي تسربت تحيل إلى شيء مخيف. ثقتي في الإنجليز قليلة جدا.

اقترب منه محيي الدين قليلا وكأنه لم يكن يريد أن يسمع حديثه:

- الفرنسيون ليسوا أحسن منهم، يلعبون نفس اللعب الكريهة ويعتبرون سكان هذه المنطقة أغبياء ويحتاجون إلى من يحركهم ويقودهم من أنوفهم. كلْ. العب يا خويا، هذه لك. الفيل يا ملك الزمان... العب وخذ بالك من ملكك يخدعك، حصانك يا معلم ضيع طريقه.

- كله تمام. لا. ما أريد أن أقوله هو يسير في نفس تصورك يا محيي الدين. يبدو أن حكاية سايكس بيكو ليست فقط حقيقة ولكنه شرع في تطبيقها سريا. ليست مجرد كلام يشيعه الأعداء الأتراك والألمان. الفرنسيون والإنجليز مصممون على تطبيقها وتمزيق البلاد العربية إلى دويلات صغيرة تدين بالولاء للقوى العظمى، ولم يخبروا بذلك حتى حليفهم الكبير في المعركة، الملك الشريف حسين.

- وهل معلوماتك دقيقة يا فؤاد؟ أنت تخيفنا يا أخي. وهل الملك غبي إلى هذه الدرجة؟

- كش ملك يا روحي... المسألة لا تتعلق بالغباء. بشيء أكثر من ذلك. ربما تكون المعلومات مخطئة في التفاصيل ولكنها في مجموعها

صحيحة. لن تكون هناك دولة عربية كما يتصور الملك وأبناؤه. نييت Niet، أبدا، كما يقول صديقنا الروسي ديميتري. كما تعرفون، فقد عينت الحكومة البريطانية السير مارك سايكس المعروف بدرايته بالمسائل الشرقية وعينت الحكومة الفرنسية جورج بيكو، قنصل فرنسا ببيروت، قبل الحرب، مندوبين عنهما كي يقوما بمباحثات غايتها الاتفاق على نصيب كل منهما ضمن نطاق الاتفاقية الثلاثية الكبرى وتوصل المندوبان إلى اتفاق صادقت عليه حكومتاهما في شهر مايو ١٩١٦ وسيدنا الشريف حسين نايم على أذنيه مثل العجل البحري. قسموا بلاد الشام بالمسطرة يا حبيبي. وبموجب هذه الاتفاقية احتفظت فرنسا بمساحة كبيرة من أراضي الأناضول الجنوبية والجزء الشمالي من سوريا الطبيعية وحلب واحتفظت بريطانيا لنفسها بولايتي البصرة وبغداد ولواء كركوك بالإضافة إلى الجزء الجنوبي من سوريا الطبيعية ابتداء من غزة والعقبة في الجنوب الغربي إلى أن تلتقي بحدود العراق في وسط البادية واتفقت الدولتان على جعل فلسطين باستثناء صحراء النقب، منطقة تخضع لحكم دولي خاص. وهناك خريطة جهزت لذلك. تضمنت الاتفاقية نصوصا تقضي بإنشاء حكم مباشر لفرنسا في الساحل السوري (المنطقة الزرقاء) ولبريطانيا في ولايتي البصرة وبغداد (المنطقة الحمراء) أما القسم الشمالي من سوريا الداخلية وولاية الموصل المنطقة (ا) فيصار إلى الاعتراف بها كدولة عربية مستقلة يكون لفرنسا حق تقديم المساعدات لها، وتنشأ دولة عربية أخرى في منطقة النفوذ الإنجليزي يكون لبريطانيا حق تقديم المساعدة لها.

فجأة عمت حالة الصمت وتراجعت كل النكات التي ملأت المكان وبدأ التركيز أكثر على قطع الشطرنج التي ارتسمت عليها كل العيون حتى كادت تخترقها. كان الملك في نزعه الأخير.

- حصانك طار يا حبيبي. وملكك يحتضر. يا حبيبي، معلوماتك بتخوف. كل ما سمعناه ليس إلا الحقيقة، الله يحفظ هذه الأرض من شر التمزق.

- يحفظ ما يحفظش، هذه هي الحقائق. أنت تعرف ديميتري، لا يكذب أبدا. لقد حاول السفاح إعدامه ولم يجده. يكفي أنه كان شيوعيا لكي يصبح عرضة للموت على يد السفاح. فقد دفع بزبانية وراءه يقتفون خطاه ولكنهم لم يعثروا عليه. الكثيرون يقولون: إنه لم يذهب إلى موسكو كما أشيع ولكنه هنا في بلاد الشام. ديمتري منتسب للمقاومة العربية بقوة ويعيش حياة سرية كبيرة. من يعرفون مكانه يعدون على رؤوس الأصابع. فقد وصلته المعلومات عن طريق قنوات روسية مؤكدة. غير مجبر على الكذب وإبلاغنا. معلوماته موثقة لأنها نابعة من الخارجية الروسية وقد نشرت في أكبر جرائدهم. وجدت بعيد الثورة الشيوعية، ضمن الوثائق السرية ونقلتها بعض الصحف البريطانية. وحتى السفاح سرب نفس المعلومات إلى فيصل لغرض صلح منفرد والتخلي عن الحلفاء لأنهم يضمرون حقدا دفينا للعرب.

- وماذا كان رد الشريف الحسين؟

- لا شيء. عندما طلب من المندوب البريطاني بعض الاستفسارات، أحالوه إلى وزارة الخارجية من خلال برقية ٨ فبراير ١٩١٨ باللغة العربية تؤكد وفاء بريطانيا لتعهداتها ووقوفها بجانب العرب في كفاحهم من أجل التحرر. فقط لا غير. وصمت الشريف وصدق ما قيل له.

- غريب.

- لا غرابة. الأزفت من هذا وعد بلفور. وتصريح ٢ نوفمبر ١٩١٧ . الذي أصبح حقيقة غير مشكوك فيها. هناك لعب حقيقي، هناك فرق بين الاقتراح الصهيوني الأول والتصريح الذي نشر نهائيا. الأول ينص على جعل فلسطين كلها وطنا قوميا لليهود والثاني ينص على إنشاء وطن لهم في فلسطين مع تحفظات في الحقوق المدنية والدينية لغير اليهود. الجزء الرئيسي فيه يركز على اليهود الأقلية ولا يعير اهتماما للأغلبية العربية إلا باسم طوائف أو الجماعات غير اليهودية. لم يعد سرا. فقد نشرت المقطم في عدد ٩ نوفمبر ١٩١٧ برقية من مراسلها في

لندن نص التصريح ونقلته المنار كذلك. اللهم إلاَ إذا أراد الناس أن يكونوا عميانا؟

- وماذا فعل الشريف حسين.

- كعادته في هيك وضع. رفع مذكرة إلى الخارجية الإنجليزية التي ردت عليه عن طريق مكتبها بالقاهرة إلى جدة في أوائل جانفي ١٩١٨ وأكد القائد هوغارت أن وجود اليهود في فلسطين لن يتعارض مع حرية أهلها من الوجهتين الاقتصادية والسياسية وأن زعماء الحركة اليهودية مصممون على إنجاح الصهيونية بالصداقة والتعاون مع العرب. وقبل الحسين بإيجاد ملجأ لليهود في فلسطين ولكنه طالب بالسيادة العربية.

- يا عيني على السيادة العربية. وفيصل في كل هذه اللخبطة؟

- بعثوا له وايزمان والتقى به في معسكر الغويرة، بين العقبة ومعان في ٤ جوان ١٩١٨. وأطلعه على رغبة الصهيونية في بذل جهدها لإزالة مخاوف العرب. ووعد فيصل بنقل كل ذلك إلى والده. دورة مغلقة فيها لعب لا يتوقف.

- يا الله أمام العرب على الأقل تصريح هوغارت الذي قال للعرب الذين زاروه: إنه يمنحهم حق الهيمنة على أراضيهم إذا كانوا هم السباقين إلى تحريرها من أيدي الأتراك. عليهم أن يصلوا قبل الجميع، قبل الإنجليز خصوصا، وعلى فيصل أن يجد الوسائل التي تمكنه من الإفلات والوصول قبل الجميع.

- لا يساوي شيئا أمام ما يعتزمون تطبيقه. مشكلة العرب أنهم يصدقون ما تقوله الوثائق ولا يعرفون أن القوي الذي وضع الوثيقة هو من يملك حق تغييرها أو تأويلها كما يشاء. على مستوى الأوراق، إيه. هل تعتقد أن الإنجليز بآلتهم الحربية والفرنسيين بإمكاناتهم الكبيرة يتركون للعرب حق السيطرة على أراضيهم؟ هذا لم يحدث في التاريخ مطلقا، أن يسلم القوي للضعيف كل شيء. صحيح أن تصريح هوغارت في ١٦ جوان ١٩١٨ للسبعة من السوريين العرب في القاهرة الذين طالبوا بتوضيح السياسة البريطانية كان واضحا على الأقل في الظاهر: **فقد**

أعلنت بريطانيا في التصريح الذي عرف باسم التصريح إلى السبعة أهم بيان رسمي نقرأ فيه اعترافا واضحا باستقلال المناطق العربية التي كانت حرة مستقلة قبل الحرب وكذلك المناطق التي حررها العرب أما المناطق التي كانت وما زالت تحت الهيمنة التركية أو تلك التي حررتها جيوش الحلفاء، فلها الحق في اختيار الحكم الذي تشاء. وهي في سياق خطاب ويلسون، رئيس الولايات المتحدة، الذي أعلن فيه المبادئ التي تتقيد بها الولايات المتحدة. من جملتها: أنها لا تعترف بأية اتفاقية سرية بين الدول المتحالفة وبالتالي فاتفاقيات سايكس بيكو ساقطة بهذا المعنى. والنقطة الثانية التي تلح على حق الشعوب في تقرير مصيرها.

- على كل حال، فهذه فرصة العرب للثورة على الظلم التركي وإلا على الدنيا السلام.

قال محيي الدين وهو يرى بريق الجمرة وقد ارتسم في عيني فؤاد غصن ووجه عز الدين.

- تحالف تركيا مع ألمانيا سيدمرها ويفككها. وعلينا أن نستفيد من هذه الخلافات. وجه دمشق نفسه بدأ يتغير. أنظر الأعراب الذين يملؤون شوارعها ببواريدهم ومقاهيها وأسواقها. هناك حركة غير مرئية تملأ المكان. علمت أن جموعا عربية تجمعت في شرق الشام وجنوبها لمساندة الثورة العربية. وجه الشام داخليا تغير كثيرا. فقد كثر رجال القبائل المسلحون الوافدون إلى دمشق. رأيتهم يتجولون ويطلقون النار سعادة في الأسواق والأحياء الشعبية. وكثرت الفوضى في البلاد وكثر الرجال الغامضون والملثمون في الأسواق والحارات الشعبية الذين يدعون العرب إلى الثورة ضد الظلم التركي. الذي وصلني البارحة من عبد القادر الصغير هو ضرورة تنظيم أنفسنا للاستيلاء على المدينة عندما تصلنا الأوامر بذلك، قبل دخول الإنجليز. على الأقل سيكون هذا ورقة في أيدينا للمقايضة قبل أن يأكلنا الآخرون. الفرنسيون والإنجليز مصممون على تقسيم البلاد. العب يا فؤاد أفندي، بتهرب منه فين، كمشك عز الدين. شيش، ملكك يحتضر.

- لا شيش ولا بطيخ، بس البداية، حتشوف الباقي. الحرب ليست معركة واحدة. مطولة يا روحي. مطولة وضعيف النفس سيموت ويداس.

كان اللعب على أشده.

كل الأحجار كنت أعرف مواقعها واحدة واحدة ولم أكن أستطيع التدخل، فقد علمني سليم أن أتتبع المعركة وتحركات الأحجار، الملك، الملكة، الحصان، القلعة، الخدم والجنود المساكين الذين يكونون أول من تأكله المعركة... واشترك بعيني وعقلي. في الكثير من الأحيان كنت أرى فؤاد غصن وهو يغرق بيديه من حيث لا يدري. كان بإمكانه أن يخرج من المآزق ولكنه لم يفعل ذلك لأن نظرته كانت جزئية وفي الشطرنج يجب أن تكون النظرة كلية. ارتكب عز الدين أكثر من عشرين خطأ فادحا، لو كان من يقابله شاطرا لكسره منذ اللحظات الأولى وأربكه. عندما انتهت المرحلة الأولى لصالح عز الدين، طلب مني أن أحدد لحظات الإخفاق لديه ولدى خصمه. أعدت ترتيب الأحجار كما كانت في البداية وأعدت النقلات التي أودت بفؤاد إلى الهزيمة وأريته كيف كان يمكن تفادي الأخطاء. كان الأمر يبدو لي عاديا وشكليا وهو ما لم يكن كذلك بالنسبة للآخرين. صرخ عز الدين ملء صوته:

- هذا خليفة سليم في استراتيجيا الحروب والشطرنج. الله يحفظه من كل عين.

كانت على رؤوسهم دهشة كبيرة. إلى ذلك اليوم لم أكن قد لعبت مع أحد. كنت أشتهي لكن والدي قال لي لا تلعب إلا يوم تحس أنك ليس فقط قادرا على الربح ولكن على الربح بكل بساطة.

الدورة الأخيرة التي أشركوني فيها، لم تكن ذات جدوى، فقد ربحتهم كلهم بدون أدنى مجهود. ارتكبوا أخطاء لم يكن من الممكن ارتكابها. فهمت فيما بعد أن أخطاءهم كانت حروبا حقيقية يتوقعونها وان كل لعبهم لم يكن شيئا آخر إلا محاورة وإشارات لما يمكن أن يقوموا به لتفادي عيون جمال باشا الذي كان يراقب كل شيء حتى تنفس الناس،

وكان مقهى *أبو مرزوق* أفضل مكان للقاء. لأني كنت حينما ألعب معهم لعبا جديا، كانت الصعوبات الكثيرة تظهر وذكاؤهم المخفي يبرز بشكل واضح.

كان ضجيج معارك الجبهات يصل إلى دمشق، وكان لعبنا يزداد حدة وضراوة. أكتشف شيئا فشيئا أن ربحهم لم يكن بالأمر الهين عندما يلعبون لعبة الشطرنج ولا يفكرون في شيء مواز غيره.

-٥-

ليست لدي ساعة لكني أعرف وقت عمو عز الدين بالضبط.

- شريف، لا تروح لقهوة السوق وتنسى لي حالك مع الكبار. خالتك زهية جاية لعندنا. ألم تقل لي إنك تحب خالتك المعزوزية؟ لا أريدها تجد البيت خاليا من ناسه.

- أنا هوني يا يما صفية، لوين بدي أروح. وخالتي في عيني الاثنتين. أعرف الطريق جيدا وسوق ساروجا مو بنهاية الدنيا.

اليوم يوم جمعة. وأمي لا تتوقف عن الحديث عن مجيء الخالة وابنيها مانيا وحمودة، جواد الصغير أو جاد كما تسميه خالاتي، تتركه عند العائلة في القدس لأنها تخاف عليه من طول المسافة حتى الشام، مع أنه ما يزال يفصلنا أسبوع بالكامل عن زيارتها. أخوات يما صفية كثيرات، ولكن الخالة زهية أوالمازوزية أوالمعزوزية كما يسميها جدي، لا أحد يضاهيها في المحبة. لو فكر الله في تلبيس الملائكة هيئات بشرية لكانت هي النموذج. وكلما تخطيت عتبة الدار، نبهتني:

- شريف حبيبي، مو متفقين أنك لا تبتعد، خالتك جايه الأسبوع القادم.

- دخيلك يا ماما. الأسطوانة تعبت.

- ما بحب مانيا وحمودة يبقيان وحدهما.

- ماشي يا ماما. مثل ما بدك، في عيني خالتي ومانيا وحمودة.

- تسلم لي يا روحي.

أقولها فقط لاسترضائها لأني أعرف أن الزمن الفاصل بيننا وبين خالتي وأولادها ما يزال بعيدا.

الجمعة. يوم يشبه الجنازات في صمته وفراغه.

لا عمل في الأفق خصوصا في الفترة الصباحية. دمشق تكون شبه فارغة. من يذهب للصلاة يذهب ومن يبقى في بيته لا يتوانى ولا يبقى في الشوارع إلا الحمالون الغارقون في أتعابهم المتكررة وبعض الصنايعية الذين يسيرون نحو محلاتهم في انتظار زبائنهم. والقليل من الناس يبيعون ويشترون قبل الأذان وصلاة الجمعة وبعدها. المكان الوحيد الذي يجذب له الناس من كل الأعمار هو ساحة سباق الخيل والتدرب، على حواف المدينة، مثلما كان يفعل سليم وكل أفراد العائلة الكبيرة من سكان دمشق، عندما يكون لديهم بعض الوقت. يوم الجمعة تفقد هذه الساحة وظيفتها الأساسية لتتحول إلى مكان لتبادل الأحصنة وبيعها وحتى الحمير لها مكان صغير في زاوية صغيرة معزولة، قليلا ما يرتادها الفرسان.

ساحة سباق الخيل هي المكان المفضل لعز الدين في كل يوم جمعة لكي يتفادى البقاء في المدينة أو المقهى. يرتادها وحيدا أو مرافقا بأحد أفراد العائلة أو الأصدقاء. ينسى أدخنة القهوة وضجيجها وأحاديثها الملغزة.

كان فجر دمشق باردا جدا. استطعت أن أفلت من أسر أمي باللعب عند عتبات البيت. عندما خرجت إلى الشارع، التقيت وجها لوجه مع عز الدين. كان على ظهر الحصان الأبيض الذي اشتراه مؤخرا. سمعت يما صفية وهي تكرر، وأنا أغلق الباب من ورائي:

- شريف لا تنس، خالتك وأولادها جايين.

- أمرك يا ماما، رايح ألعب مع أصحابي.

- لا تبتعد كثيرا.

ثم أغلقت الباب نهائيا.

مد عز الدين يده إلي بابتسامته المشرقة التي تخبئ سخرية كبيرة. ثم سحبني باتجاهه.

- يا الله وريني شطارتك. هوب لا... هوب لا...

بقفزة واحدة كنت أمامه على ظهر الحصان.

كانت الشوارع خالية.

لم يكن وجهه مكدودا مثلما كان ليلة البارحة. الخيبة كانت بادية عليه خصوصا في الفترة المسائية. كان يشعر بشيء غريب هو بصدد الحدوث. يتحسسه ولا يلمسه. كان يخاف من انكسار في عمق الحي المغربي الذي كان ممزقا بين أطراف متعددة. وكل يوم تزداد شروخه بدون القدرة على توقيفها، بين الذين يوالون فرنسا وانجلترا وأمريكا ويعترفون بما قدَموه لهم ولبلدهم من معونات ومساعدات خصوصا وبالمجهود التحريري الذي تشرف عليه ولو كانت لهم آراؤهم الخاصة فيما يتعلق ببريطانيا التي كانوا يرونها ظالمة ولا شيء يغطي عليها إلا تضامنها مع فرنسا. ومن كان يرى في الكل استعمارا مقنعا، سرعان ما يكشر عن أنيابه في الوقت المناسب، ومن كان يوالي الأتراك ويعتبرهم، على الرغم من طغيانهم، جزءا من الأمة الإسلامية وقد حافظوا على وحدة قومهم الذين لو أطلق لهم العنان لتحولوا إلى قبائل متقاتلة متصارعة. وجودهم ضمن دولتها يحميهم من التمزق والتشتت. ولم تكن هناك أية موالاة تجاه الإنجليز من الطرفين. منذ إعدامات جمال باشا أشياء كثيرة تغيرت في الحي، فقد قاطع الكثير من المغاربة الأمير سعيد ولم يعودوا يسمعون لنصائحه ولا لدروسه، كما كان يفعل قبل مدة ولا يحضرون أية حلقة من حلقاته التي كانت تهدف دائما إلى تقريب الشقة. لم يقبلوا منه صلحه مع جمال باشا السفاح بعد مقتل الأمير عمر وسليم الجزائري والآخرين وتدمير مقام الأمير عبد القادر وابن عربي. فقد قتل الكثير من المغاربة وسجن بعضهم لأنهم خرجوا يطالبون بالثأر للقادة الذين قتلوا ظلما من طرف جمال باشا. رأوا أنه ليس من حق الأمير سعيد الصلح قبل استشارة كل الناس الذين كان يهمهم الأمر ودفع جمال

باشا إلى الاعتذار. مطالب مستحيلة. كل يوم، كان حي العمارة يزداد بعدا عن محيطه وتكثر المناوشات هنا وهناك.

شارفنا على ساحة سباق الخيل. كان الصمت يلف المكان. غريب، لم أكن أفكر. كنت هائما في اللاشيء. البياض الذي كلما اقتربت منه، ازددت توغلا في اللامتناهي ويقينا بالمبهم.

قال عز الدين وهو يمسح من على وجهه الأنداء التي علقت بعينيه وكانت تشبه غبش النوم:

- مازلت صغيرا ولكني أعتقد أنه حان الوقت لتتعلم حقيقة الركوب على الخيل مثل أسلافك. متعة وسلاح. الرجل الذي لا يعرف كيف يركب حصانا، رجل ناقص يا روحي.

- ركبت مع والدي العديد من المرات ولكن برفقته. كنت صغيرا جدا. وتجول بي سيدي عبد القادر الصغير في هذا المكان، كان يمشي راجلا ولكنه كان يقبض علي من جذعي وأنا خائف من السقوط.

- ستتعلم أكثر. وسأدعو أحد المدربين الجيدين لكي يعلمك بالفعل كيف تركب حصانك وتدافع عن وطنك. تتعلم كيف تستعمل السلاح وأنت على ظهر الحصان. هذا هو الفارس يا شريف.

- إن شاء الله يا عمو.

كانت الكلمة الوحيدة التي استحضرتها. ولا أدري لماذا تذكرت لحظتها الأمير سعيد وداره الواسعة ولا جدوى ما كان يقوم به.

لا أدري إذا كان عز الدين يعرف مرامي كلامه ولكنه كان قد أدخلني يومها في أسئلة خطيرة ستقودني إلى مغامرات لم أكن مستعدا لها مطلقا ولكني خضتها ربما حتى أثبت لعمي أني صرت رجلا يستحق كل تقدير واحترام. الأشياء أحيانا تتجاوز أشواقنا وما نريده.

كانت الساحة تعج بالبشر القادمين من كل ضواحي دمشق المحيطة. بعضهم أتى حتى من الجبل والبقاع. بدو الضواحي، دروز أو حوارنة. وكل واحد يذكر مزايا حصانه أو بغله أو حماره الذي يريد بيعه أو تبديله.

«- يا الله وجه الببو يا حصان. خذوه قبل أن ينعم به غيركم.

حصان، إنما حصان. . . آخر السلالات العربية التي لا أحد يعرف قيمتها إلا من عاشرها، يخونك الصديق ولا يخون الحصان. . . حصان متعدد الخدمات، الجر والحرث والحرب. تجده عند كل الحاجات. . . يا الله يا شباب قبل فوات الأوان. . . »

درنا طويلا حول الأحصنة ولكن يبدو أن عمي لم يجد ما يناسبه هو المولع بالأحصنة القوية والخفيفة. يقول دائما: إن الحصان الشامي هش وصغير القوائم، لا يتحمل الطرقات وصعوبات العيش مثل الحصان الحمياني. كرر هذه التسمية كثيرا فسألته:

- ما معنى الحصان الحمياني. كلمة سمعتها كثيرا من سليم ولم أفهم معناها.

- هو نوع من الأحصنة التي كان يركبها جدنا الأكبر، الأمير عبد القادر الذي جاء إلى هذه الأرض قبل قرن وكان يحارب على متنها الأعداء والمستعمرين. بل ركبها يوم الفتنة الكبرى في الشام عندما اعتدي على المسيحيين في ١٨٦٠. وضع بارودته على ظهره وركب الحمياني، وقال من يمس شعرة مسيحي واحد فكأنما مس المسلمين جميعا وأنقذ يومها أكثر من عشرة آلاف مسيحي بهذا الحصان.

- الحمياني؟

- الحمياني نسبة إلى حميان وهي قبيلة من قبائل معسكر في الجزائر، مدينة هذا الجد الأكبر التي سخرت كل وسائلها للحرب معه. يقال إن الأصل الأول لهذه الأحصنة هم بنو هلال.

لم أفهم الشيء الكثير ولكني هززت رأسي بالموافقة حتى لا أحرم عز الدين من متعة الاكتشاف ربما وجد ضالته في هذه السوق. فجأة وبدون سابق إنذار، وقف عند حصان رائع، وجهه مرقط ببقع بيضاء وسوداء جميلة ولم يكن عاليا كالأحصنة التي يربيها المغاربة وهي قوية وضخمة. طلب مني أن أركبه. بدا لي الحصان صغيرا وبإمكاني السيطرة عليه ولكني وما كدت أجلس على سرجه الخفيف، حتى ضربه عمي على ظهره وهو ينبهني:

- شريف شد حيلك كويس. تشبث بالسرج جيدا وشوف قدامك.

انطلق الحصان وحده كالريح. في البداية أخذتني رجفة من السقوط فتشبثت بكل قواي على ظهره وعلى شعر رقبته المنسدل. بدا لي كأنه يطير عاليا وكنت كلما حاولت أن أوقف الحصان وصرخت بأعلى صوتي، زادت سرعته. ثم أقنعت نفسي بأني لو خفت لبدوت أمام عز الدين طفلا سخيفا وجبانا وسيتخلى عني نهائيا، فبدأت أسترجع ثقتي بنفسي وأهدئ من روعي. زاد الحصان في سرعته كالبرق. شعرت بالريح التي كانت باردة وتلفح وجهي بقوة تصير دافئة وناعمة. ثم شيئا فشيئا بدأت أنسى الخوف واستلذ السرعة اللامتناهية وأتذكر الدروس التي كان قد علمها لي عز الدين نظريا من قبل، فبدأت أتحكم في قوة سرعة الحصان وجبروته. كان يخفف أو يسرع أو حتى يطير بحسب رغبتي. شعرت بسعادة غامرة. فهمزته هذه المرة بإرادتي. أسرع حتى إني في لحظة من اللحظات شعرت بنفسي أطير. فكنت أغمض عيني طويلا وأتركه يجري كما يشاء في استقامة قل ما يحيد عنها ولا أسمع إلا هسهسة سرعته وحركة قوائمه المنتظمة وأنفاسه القوية وحفيف الأشجار الذي كان يأتي من بعيد. لم أجد أية رغبة للعودة لعمي أو لناس الجبل، فقد كنت بعيدا عنهم وسعيدا.

عندما عدت ووقفت بالقرب من عز الدين، انتابتني فكرة جهنمية لم أفكر فيها من قبل: أن أغمض عيني وأهرب ولا أتوقف أبدا حتى ينهك الحصان من كثرة الجري.

اقترب مني عز الدين وصاحب الحصان وعلى محياهما بشاشة واضحة.

- برافو... برافو... كيف كان الحصان؟

وما كاد عمي ينهي جملته حتى كنت قد لكزت الحصان من جديد وتركته يركض بأقصى سرعة ممكنة ولكن عمي لما رآني سعيدا جرى ورائي بسرعة برقية ولا أدري ما هي القوة التي سمحت له بالجري بنفس سرعة الحصان. بقفزة عالية لم أر مثلها في حياتي وجدته ورائي، على

ظهر الحصان، يلكزه بدوره بقوة ويدفع به إلى الإسراع أكثر ويصرخ مثل الطفل، في أقصى درجات السعادة. لم أر عز الدين في هذه الهيئة، فقد ترك كل ألبسته الفضفاضة وراءه ودفع بالحصان للركض أكثر. كان كلما صرخ، زادت سرعة الحصان وتحول إلى ريشة في مهب الريح.

- هيـا. . . هـوووووووووبـ. . . .

شعرت بالفعل بأن الحصان كان يطير وكنت من حين لآخر أغمض عيني ولا أسمع إلا حفيف الأشجار والرياح التي كانت تمر بسرعة بالقرب من أذني. رأيتني في السماء. بسرعة جاءتني صورة والدي عندما أركبني على حصانه عندما أخرجه من الإسطبل وأخذني بصحبته للصيد. كان ورائي وكنا في الغوطة. لم يتوقف الحصان طوال اليوم. حتى خلت أن الحصان سيلفظ أنفاسه الأخيرة بمجرد العودة إلى البيت. ولكن الحصان كان مرتاحا بعينيه الواسعتين. أتذكر كلمة أبي عندما شعر بحيرتي.

- ما تخافش عليه. هذا حصان عربي أصيل مغربي. ولكنه ما يزال صغيرا. يسمى حصان حميان كما قلت لك. كان أجدادك يركبونها ويقاتلون على ظهورها وكانت تتحمل أقصى الضربات وكثيرا ما تخرج معافاة على الرغم من جراحاتها الكثيرة. أجسادها صلبة ومقاومة.

نزل عز الدين وسحب الحصان وراءه من الرسن بينما ظللت على ظهره مغمض العينين. كم كنت أشتهي أن تظل عيناي مغمضتين والحصان يركض ولا يتوقف. لا أعتقد أني شعرت في حياتي بسعادة ركوب الأحصنة مثل ذلك اليوم في حياتي. لحظة الاكتشاف الأولى لا رديف لها. عندما فتحت عيني كان عز الدين يمد يده اليمنى نحوي لكي أنزل. سألني:

- هل أعجبك الحصان؟

- كثيرا. مذهل.

قلتها وأنا أمسح المخاط الذي كان يجري من أنفي كالماء واسترجع أنفاسي وكأني أنا من كان يركض ولم أستطع أن أخبئ سعادتي الكبيرة.

نسيت حتى النوم الذي انتابني وأنا أركب الحصان مع عمي عندما دخلنا إلى الساحة أول مرة. حتى كلامه كان يعطيني الرغبة في النوم. في صوته حنان كبير قلما شعرت به مع غيره من الرجال.

- والله بطل، من ظهر بطل. كنت أظن أنك ستخاف ولكني فوجئت بشجاعتك.

- هذه أول مرة أركب الحصان وحدي بهذا الشكل. المرة الأولى بابا سليم ركض على حصانه وأنا معه، بس فعل مثلما فعلت معي الآن. ركب ورائي وكنت أتمنى أن يتركني أنط لحالي بس ما رضي. بكيت وما رضي. قاللي لساتك زغير، بس تكبر، الله معك. وعمي عبد القادر الصغير، لم يجرؤ أن يغضب والدي.

ويبدو أني لم أكبر في عيني سليم أبدا. فقد كان دائما يخاف علي حتى بالنسبة لأبسط الأشياء التي أستطيع القيام بها، كان هو من يتولاها أو معاونوه ولكنه لا يتركني أبدا أتصرف مثلما أشتهي.

- كنت صغيرا واليوم ما شاء الله. كبرت بسرعة.

نظر إلي عز الدين مرة أخرى محاولا أن يتأكد من رأيي.

- متأكد أن المرقط عجبك؟

- طبعا يا عمي حلو. وبعدين مش خشن ولا كبير. زغير ويسمع الأوامر.

- هذه علامة من علامات الحصان الجيد يا شريف. هناك أحصنة جميلة ولكن تربيتها سيئة، فهي غير صالحة. تحتاج إلى وقت كبير لكي تعلمها ولكنها ثقيلة ولا تتعلم الشيء الكثير أبدا. يا الله مبروك.

لم أفهم معنى الكلمة الأخيرة إلا عندما التفت نحو الأعرابي ودفع له حقه من النقود ثم أركبني الحصان من جديد وركب هو على ظهر حصانه الأبيض وغادرنا السوق عائدين إلى الحي. لم أفهم جيدا. ولكني كنت أعرف علاقة عز الدين بالأحصنة. كلما وجد حصانا جميلا اشتراه بلا تردد. ولكن الحصان بدا لي أصغر من أحصنته التي يملكها. لم يتحدث

كثيرا في الطريق أما أنا فكنت سعيدا في صمتي، بهزات الحصان المرقط وبكونه أصبح ملكا لعمي عز الدين واستطيع أن أركبه كلما ذهبنا إلى سوق الخيل.

عندما وصلنا إلى الدار، فاجأني أنه لم يترك المرقط في بيته ولكنه ذهب به إلى بيت أخوالي وطلب من خادمه ميمون لقواطي أن يربطه. ثم التفت نحوي:

- هذا حصانك بدءا من اليوم وبإمكانك أن تأخذه معك أَنّي شئت أو نتسابق أنا وأنت كلما ما كان ذلك ممكنا. أو تركض به في ساحة سباق الأحصنة عندما تريد ذلك.

لم أقل شيئا لأني لم أكن قادرا على تصديق ما حدث، ولكني التصقت بكل قواي على صدر عمي عز الدين ولم أطلقه. كل أحلامي التي رأيتها في الأيام التي تلت كان بها حصان يشبه حصاني، مرقط وسريع، لا يكل ولا يتعب. دائما الأول في كل السباقات. مرة واحدة رأيته في الحلم مريضا، فمرضت معه.

-٦-

لا أتذكر أني اهتممت يوما بزيارة خالتي زهية وولديها لنا مثل هذه المرة. أسلم عليها عادة. تداعب شعري بكلمتين تعودت عليهما منذ أن وعيت: «سبحان الله سليم جاب سليم.» وقبل أن تنهي كلامها أكون قد انسحبت إلى الخارج، ألعب مع أصدقائي. وإذا توقفت عند ملامحها، ويحدث معي أن أفعل ذلك، فقط لأرى شقرتها الناصعة وعينيها الكبيرتين الواسعتين وشبهها الجميل بأمي. صحيح أني لم أرها منذ أكثر من سنتين. آخر مرة جاءت وحدها على غير عادتها، عزت أمي وعزت أعمامي في سيدي الأمير عمر ثم انسحبت ولم أتفطن لها أنها ذهبت. عندما سألت أمي عنها، قالت:

- ما بتقدر تبقى أكثر من يومين. أبناؤها وحدهم. يكثر خيرها أنها

بذلت مجهودا كبيرا وزارتنا في ظروف عصيبة مثل هذه. خالتك زهية امرأة لو الله خلق الملائكة بشرا لكانت أولاهم.

هذه المرة كانت زيارتها عائلية مثل تلك التي اعتدناها. هي وأولادها. جواد أو جاد كما تسميه العائلة تتركه دائما في القدس مع جده خوفا عليه من مشقة المسافات، مانيا وحمودة يتبعانها كظلها. كنت في عمق البيت عندما عبرت مانيا العتبة كشمس. حييت خالتي وحمودة بينما تخلفت مانيا قليلا، بالضبط في الزاوية التي انكسرت فيها الشمس المسائية التي غطت وجهها وشعرها الأشقر بهالة نحاسية رقيقة. عندما عبرت العتبة، فغرت فمي في جمالها. كان حمودة بنفس سني لا يأبه إلا بالفضاء الواسع الذي يمنحه له الحي المغربي وبيوتات العمارة «يا بيي شو عندكم وسع؟»، بينما كانت مانيا أقل مني بسنتين لكن جسدها بدا لي مكتملا كجسد امرأة. لأول مرة أنتبه إلى صدرها الذي امتلأ قليلا وأصبح نافرا. كانت كتلة من النور والوضاءة. نظرت إلي طويلا، لست أدري كيف بدوت لها وقتها ولكني لا أعتقد أن شكلي نفرها لأنها هي التي مدت يدها نحوي حتى قبل أن أتقدم بارتباك ولا أدري لماذا. كانت عيناها تشبهان عيني قط. الكل كان يناديها الألمانية لتختصر الكلمة مع الزمن عند عماتي وخالاتي إلى مانيا «**وينك يا مانيا؟ حبيبتي، مانيا وينها أمك؟ مانيا ناوليني الكأس؟ شو بك مانيا مكشرة هيك؟**..». حتى أمها وإخوتها صاروا ينادونها كذلك. عيناها كاتنا خضراوين مثل لوزتين من لوز حيفا، طريتين قبل أن تتصلبا، في استدارة جد محكمة ومتناسقة مع انسحاب قليل في الأطراف. شعر أشقر مثل شعر خالتي. لو وضعتها في شارع ما مع ألمانية لما عرفت الفرق بينهما. عينان ناعستان قليلا كأنهما تنامان على سر جميل. وجه عليه نعومة من خرج لتوه من حمام شعبي من حمامات سوق ساروجة. وبشرة ناعمة جدا مع شامة على الخد الأيسر، بالضبط في الوسط، حيث يجب أن تكون. عندما لمست يدها، شعرت بدفء كفها وبخفته وبأني بالفعل بدأت أكبر. لم يثرني حمودة كثيرا كما هي العادة. بعد أن يئس في إخراجي للعب معه، خرج وحده

ليركض مع أطفال الحي الذين يعرف بعضهم جيدا. يكره داخل البيوت. يظل يركض ويلعب لعبة الغميْضة والخباية، والطابة، والشرطة حتى يكل ولا يدخل إلا ليأكل وينام.

بعد يومين من وصولهم بدأت مانيا ترسم شوارعنا وترسم تفاصيل البيت. كنت أساعدها في كل تنقلاتها وأفاجأ برسمها للتفاصيل بدقة متناهية. في إحدى المرات اقترحت عليها أن ترسم بعض سروج والدي وأسلحته وحصانه. فرفضت. لم أكلمها يومين كاملين. في اليوم الثالث هي التي أيقظتني من النوم مبكرا. قالت وهي ترسم ابتسامة جميلة رأيتها من وراء عيني نصف المغمضتين:

- قل لي بربك، هذه الصورة ما بتشبهك؟

نظرت إلى الصورة وأنا أبذل مجهودا لكي أقوم من فراشي وافتح عيني بصعوبة. كنت سعيدا أنها كلفت نفسها برسمي وأنها تحاول أن تخفف من خيبتي منها. فجأة صرخت:

- ملعونة. الله يخرب بيتك، هيك شكلي؟ هذا الفار ما بيشبهني. يشبهك أنت يا حمقاء؟

سحبت الوسادة من تحت رأسي ورميتها بكل قواي باتجاهها، فاصطدمت بالحائط. كانت مانيا قد خرجت، رأيت فقط شعرها يتزبع في الفضاء ملتمعا تحت الأشعة الصباحية التي تسربت من وراء الباب. اختفت وهي تقهقه بصوت عال وتناشد أمي التي كانت تعبر باحة البيت كعادتها في الصباح:

- قولي يا خالتي، أنا ظلمته؟ موش هالمبوز يشبه شريف؟

- يشبهه تماما. سبحان الله. فولة وانقسمت على اثنين.

أمي كانت متواطئة مع مانيا. سمعت القهقهات في باحة الدار وضحكات مانيا التي حينما تضحك تتفرقع كالملحة. لست أدري مصدر السعادة التي كنت أحس بها ولكني كنت سعيدا.

منذ تلك الحادثة الجميلة عادت صداقتنا من جديد. عرفت بحاستي

أولا ثم سمعت ذلك منها، أن رقة مانيا دفعتها لأن تجد وسيلتها الخاصة لكي تصالحني وتسحبني نحوها. في ظهيرة اليوم نفسه، الجمعة، ذهبنا عند بيت جدي في الغوطة. هكذا تفعل أمي وأبي، جمعة واحدة في الشهر على الأقل. حتى عندما مات أبي حافظت هي على العادة مع بعض أعمامي لأن العزلة والنسيان والإهمال تقتل البيوت كما كانت تقول. كنت جالسا أتأمل النافورة المقابلة للبيت وأتذكر كيف أن والدي كان أيام الحر يغطسني فيها وهو يضحك ويفرك شعري بكل قوة قبل أن ينشفني ونجلس معاً نعطي الخبز للحمام العابر أو حتى للغربان التي لا تنتظر إذننا والطيور الصغيرة. كنت يومها أشعر بشيء يشبه الوحدة التي لا أفهمها جيدا. ربما غياب والدي هو السبب. لا أريد أن أفسد على نفسي متعة رؤية هذا المكان الجميل. جلستْ بجانبي عند النافورة. كانت الساحة المواجهة خالية، شعرت بشعرها الذي كان من حين لآخر يلمس وجهي. نظرت إلي طويلا. اكتشفت وجهها مرة أخرى. مانيا لم تكن جديدة علي ولكن منذ وفاة والدي شعرت كأني كبرت وأن أشياء كثيرة غيرت مواقعها وأشكالها فيَ. قالت بصوت يكاد يكون تمتمة:

– أنا شقية يا شريف. أعرف أني أغضبتك، حقك عليَّ. كنت فقط أريد أن أتسلى معك.

– ما فيه شي يا مانيا. وحياتك ما فيه شي أبدا. أنا مو زعلان منك، بس أشوف النافورة اللي صارت خالية ومهجورة من كل حمام وطيور ما بعرف ليش؟ حتى الغربان ما عادت تجي.

– بلى، أغضبتك يوم كسرت حماسك ورفضت رسم عفش عمو سليم وحصانه. وحياتك أنا هيك، ما بعرف ليش؟ ما بحب لا أحصنة ولا حرب ولا حتى القطارات اللي بتحمل عساكر الترك والألمان. ما لي شغل بها. هاديك المرة ونحنا جايين لعندكم شفت في قطار الحجاز عسكر عثماني وألماني، تقيأت ما بدري ليش وبلشت أرتجف. خفت. وحياتك خفت على ماما وعلى نفسي من عيونهم.

– مش حيوانات وما بياكلوا بشر. ليش تخافي؟

- ما بدري. بس يمكن السبب معلمتي. هي كمان بتكرههم. ربتنا على الطبيعة وبما يحيط بنا. تقول لنا دوما انتبهوا إلى الأشياء الصغيرة التي تحيط بكم حتى لا تضيعوها في التفاصيل الكبيرة. انتبهت أن في الدنيا مو بس حرائق وبارود وموت، فيه زهور وأبواب ملونة في القدس وفيه فراشات وطيور وأراضي واسعة من النوار وعباد الشمس وبيادر البرتقال والقمح في فلسطين. فيه حتى فراشات صغيرة نعجز عن إيجاد ألوانها الكثيرة. تصور، بقيت أسبوعا أبكي لأني ما وجدت اللون اللي كان في رأسي حتى أرسم فراشة. حفظت اللون، بس ما وجدت شبيها له في الأقلام. قالت لي المعلمة: اللون هوني يا بنتي، ومدت أصبعها إلى رأسي «عندما يخذلك اللون، تخيليه جيدا وستجدين أنه بالفعل يشبه ما كنت تبحثين عنه.» ومن يومها صرت أسمع لكلامها وارتحت قليلا. علمتنا أن الرسم هو إحساس أولا. ولهذا أكره كل ما يحيل إلى الحرب. أبدو لك سخيفة وبنت غير عاقلة وتحتاج إلى قليل من التفكير. أنت كذلك عندما أسمعك تتحدث تبدو لي أنك أكبر من سنك. كم أشتهي أن أرسم الشمس، بس باردة شوية. كلما حاولت رسمها ونظرت إليها، غلبني نورها وغيرت رأيي. أو تكون شتوية، مخبأة وراء الغيم وثقيلة الدم. بحبها مشعة وباردة. أشتهي أن أرسمك، بس عيونك ملعونة، كأن شريف اللي شفته زمان فل وما عاد موجودْ.

ثم ضحكت مفرجة عن أسنان ناصعة كعاج إفريقي. التفتت نحو النافورة. مر شعرها مرة أخرى أمام وجهي وانفي كخيط من النور والعطر. رأيت الشمس تتسلل إلى داخلي وشممت رائحة البرتقال مع أنه عادة شعر النساء عندنا، خصوصا عماتي، لا تشم فيه إلا رائحة الحناء. أمي لا تحب الحناء ولكنها تستعملها من حين لآخر كرمى لعماتي.

- المعلمة هي اللي منعتكم من الحناء.

- شو دخل الحناء فيما أقول؟ أنت ما عم تسمعني.

- لا تغضبي. أنا أمزح معك.

في الحقيقة لم أكن أمزح لأني بالفعل لم أكن أسمع لها جيدا. كنت

منهمكا في وجهها الذي قربني كثيرا من وجه أمي، وفي رائحة شعرها البرتقالية. هي كذلك تكره الحناء ورائحتها. لا أدري كيف خرجت تلك الكلمة من فمي بتلك السرعة وبلا رقابة.

بعد زمن طويل، طويل جدا، وبعد سنوات من الخيبات والانكسارات وبعد أن تغيرت أشياء كثيرة في البلاد والعباد، بعد وفاتها بسنوات، اكتشفت أن مانيا، بنت خالتي، كانت على حق وأن كل ما قالته لم يكن كلام طفلة صغيرة ولكني أنا كنت في غير سني. وتأكدت كذلك بحاستي الحيوانية والدفينة عميقا من أن نساءنا أكثر استيعابا للتفاصيل الدقيقة في الحياة التي تحيط بنا من الرجال الذين يمكن أن يمروا بمحاذاة الحياة بدون أن يدركوا ذلك لأنهم يظنون أنفسهم على حق باستمرار حتى ولو كانت أرجلهم تغوص في عمق الغلط والإخفاق والخيبة المتوالدة.

حتى عمي عز الدين لاحظ التصاقنا الدائم بعضنا ببعض فلم يعد يناديني حتى عادت خالتي وابنتها وحمودة إلى القدس عبر قطار الحجاز.

عندما عادت، استغربت كيف أني لم أنتبه لمانيا بالشكل الكافي في السنوات الماضية.

حدث لي مع مانيا ما حدث لي مع أمي التي اكتشفت صوتها ووجهها متأخرا.

لأول مرة أسأل أمي:

- ماما؟ متى نروح نشوف خالتي؟

- بحسب الأوضاع. بس إن شاء الله شي شهر زمان. بلكي نروح في شهر رمضان القادم.

ثم انسحبت لأفكر في مانيا في خلوة تامة وفي غفلة من أمي. على الأقل هكذا بدا لي لأن تواطؤ أمي وخالتي زهية الجميل كان كبيرا واستثنائيا.

-٧-

كانت الظهيرة حارة وكنت نائما عندما سمعت صوتا عرفت أنه لعمي عز الدين. كان يسأل عني. قمت كالعادة بسرعة من فراشي مكذبا أمي التي قالت عني: إني كنت نائما. عندما رأتني في الباحة، دُهشت:

- مش كنت نايم؟ شو اللي صحاك بهيك سرعة؟

- النوم طار من عيني لما سمعت صوت عمو عز الدين.

- نِيَّه له يا خيِّي، نحنا ما وصلنا شي من حبك؟

- ولو يا ماما، أنت حبيبتي، بس عمو عز الدين...

ثم ركضت نحوه وحييته مغمض العينين. بادرني وعلى محياه علامات رضا قلما رأيتها على وجهه المنكسر دوما وكأنه كان يحمل ثقل الدنيا كلها على ظهره.

- يا الله هيئ لي حالك بسرعة. اليوم عندنا شغل كبير. سآخذك معي حيث تشتهي وتحب. لا تسألني عن المكان لأني لن أقول لك. آخذك حيث يشتهي القلب وبس.

- عند مانيا.

اندهش قليلا ثم كتم ضحكته. لم يقل شيئا.

ندمت على الكلمة التي خرجت من فمي لكن صمته ساعدني على تصحيح حماقتي. قلت في خاطري، هو لا يعرف حبي لها. ومن يعرف ذلك غيري؟ مانيا نفسها لم تكن تدري أنها عندما غادرت البيت تمنيت أن تبقى أكثر معنا، ولكني لم أجرؤ على أن أقول أية كلمة لها مخافة افتقادها. هي التي كلمتني وهي تسحب قليلا يدها الخفيفة نحو صدرها:

- تعالوا لعندنا. ليش بس نحنا اللي نجي؟

وعدتها أمي أننا سنزورهم في أقرب وقت.

- رمضان القادم إن شاء الله.

لا. عمي عز الدين لا يعرف شيئا من تفاصيلي الصغيرة المخبأة. سالته متناسيا تحذيره:

- إلى أين؟

- ذاكرتك عطلانة يا شريف؟ ما اتفقنا سابقا أنك لا تسألني إلى أين؟ لازم نكون عند وعدنا. المهم حيث تشتهي أن تكون. اصبر قليلا فقط وستعرف.

بعدما حذفت مانيا من خيالي وتأكدت أنه لا يقصدها، ظننت أن الأمر يتعلق إذن بساحة الخيل مرة أخرى والتدريب والسباق ولكن شيئا من ذلك لم يكن. فقد سلكنا طريقا آخر. لم أعرف ولم أتجرأ أن أسأله ثانية ونحن على حصانه الأبيض. كنت متأكدا أن عمي عز الدين كان يخبئ لي مفاجأة جميلة. وهذا وحده كان كافيا لأن يعوض الفراغات التي بدأت أشعر بها منذ موت والدي. انتبهت فجأة وأنا أعبر الحي المغربي وأصدقائي ينادونني:

- شريف... شريف... ما عدنا نشوفك.

- مشغول مع عمي. بكرة إن شاء الله نلعب مع بعض.

- إمتى بيجي حمودة ما عمنشوفو؟

أكذب لتفادي أسئلتهم الكثيرة.

- بعد شي شهر يمكن؟ إن شاء الله.

-إن شاء الله.

ثم ينطفئون في الشوارع الخلفية كالجرذان المتكاثرة.

لا أدري كيف حدث ذلك ولكن علاقاتي انقطعت فجأة مع أصدقائي في الحي. كلما انتهيت من دروسي الفرنسية والعربية، عدت إلى الدار وانكفأت على القراءات أو الاستماع إلى أمي التي لم أكن أعرف صوتها من كثرة هيمنة صوت والدي على الدار. بدأت أكتشف أن أمي كانت تملك صوتا جميلا وكانت تغني أغاني بديعة مصابني، سيد درويش والشيخ أحمد الطريفي، وغيرهم بشكل مذهل، كلما دخلت إلى المطبخ. في مرة من المرات، كنت أختبئ في زاوية من زوايا البيت واستمع إليها وأتلذذ بصوتها الناعم والممتد لأني كلما فاجأتها تصمت ولا تضيف كلمة واحدة. تختفي وهي تعاتبني بلطفها المعتاد:

- ما أغلظك يا شريف، بدُّكْ تخرب بيتي؟

- ليش أخرب بيتك يا ماما. صوتك حلو وجميل. لمين كنتِ عمبتغني؟

- لبديعة مصابني. صوتها يجنن. كبرنا على أغانيها الجميلة. كل ما تسمعه صباحا هو لها، وكل ما تسمعه مني وأنا أعد العشاء، هو للشيخ أحمد الطريفي. صوته من أرقى الأصوات وأعظمها. مشبع وصلب. عندما ينشد كأنه يتلو قرآنا أو إنجيلا أو أناشيد توراتية. كل غنائه عبارة عن قصائد عربية جعلها صوته المدهش لينة ورقيقة ومحببة للأذن. لا عجب، فقد كان الشيخ أحمد الطريفي مقرئا جيدا. رأيته مرة في سوق القطن في القدس، كنت مع خالتك زهية. هي التي قالت لي: حبيبك بجانبك، هنا في السوق. لم أفهمها. ظننتها تمزح باستفزازاتها التي تعودت عليها. قالت: وحياتك هو هنا، بالقرب من عينيك. الشيخ أحمد الطريفي. لحظتها تمنيت أن أرتمي بين ذراعيه وأبكي لشيء كنت أجهله تماما، أن أبوس رجليه ورأسه، أن أخدمه طوال عمري مقابل أن أسمع نشيجه في كل لحظة، ولكني لم أفعل. كان جميلا وأنيسا ومبتسما بشكل دائم، وذا قامة منتصبة. عندما رأيته يومها، كان في لباسه العربي القنباز الغباني الروزا، وعباءته السوداء المصرية «سلطان الأصواف» تزيده جمالا وروعة. يقولون إنه عندما يبدأ غناءه، فإن قوة صوته تجعل كل الناس في الأحياء المحيطة يقضون الليل في شرفات بيوتهم يستمعون لصوته الذي يأتيهم من بعيد. يا الله قلت لك عن كل شيء. خلِّصني. لو يعرف أعمامك، راح يندبوا حظهم واليوم اللي تولدت فيه. المرأة عندهم لا تغني ولا ترقص حتى لزوجها، ولكنهم لا يمنعون أنفسهم من الاستماع إليهن في المقاهي والمحلات العامة والـ. . .

لم تنه كلامها. فهمت بسرعة. لقد كبرت. شعرت بالمرارة التي كانت في قلبها. هي دائما هكذا، كلما شعرت بالغبن أخرجت مدافنها بدون تردد. ثم تعود إلى شأنها وكأنها لا تملك ذلك الصوت الساحر. الغريب أني اكتشفت صوت أمي أول مرة عندما عدنا من بيروت مباشرة

بعد مقتل والدي وبدأت تبكي وتذكر خصاله لأنها لم تجد الفرصة للبكاء. «طول عمرنا مكبوس علينا. النواح في العائلة ممنوع لأنه يوقظ الموتى في راحتهم وترابهم وكأن الأموات لا شغل لهم إلا الاستماع لتمزقاتنا. لا تكن مثلهم. إوع تكون مثلن يا شريف. ابك حبيبي كلما شعرت بالرغبة في ذلك. الرجال أيضا يبكون على الأقل أمام من يحبون. ابك وخلِّ اللي ما بدو يبكي يطق. الرجل بدمعه كمان مو بس بشجاعته.» كنت منكفئا يومها على فمي، في حجرها واستمع إلى أنينها. أتساءل أحيانا، هل كان لابد أن يموت أبي لكي أدرك أن لأمي صوتا حزينا. صوت والدي كان يغطي على كل شيء. ثم اكتشفت كذلك وبشكل متواتر وفجائي أن أمي كانت امرأة جميلة وقسماتها ناعمة. عيناها كانتا مشعتين وتتسعان وتزدادان إشعاعا ونورا كلما حزنت. ولكني أشعر كذلك كلما تأملت وجهها عن قرب، أن الزمن بدأ يحفر بقسوة أخاديده على ملامحها. كلما هزتني اكتشافاتي شعرت بأني بدأت أكبر وأن علي أن أغض الطرف من حين لآخر.؟

قطعنا الحي المغربي كله أنا وعمي عز الدين، على حصانه الجميل الذي لا يتحرك بدونه حتى وصلنا إلى حيث بيت جدو الأمير علي الله يرحمه والأمير سعيد. شعرت بضيق ما كتمته. فوجئت لأنه لم يكن هناك ما يدعو إلى هذه الزيارة. ولم أكن أرى جدوى المجيء في هذا الحر والانزواء في دار لم يكن عمي عز الدين يحبها كثيرا؟ أعرف جيدا حساسيته وقلقه الكبير من ذلك.

أنزلني من على الحصان بلطفه المعهود. ثم سار بي نحو صحن الدار قبل أن يدخل إلى بيت الضيوف الواسع كساحة الخيل التي كان يتدرب فيها الناس على حواف دمشق. لا شيء تغير في هذا البيت الذي سبق أن زرته أنا وأمي. اتساعه وكثرة الفراغ وعزلة ساكنيه.

فجأة وجدت نفسي أمام حشد كبير من أفراد العائلة الذين كنت أعرف عددا قليلا منهم. وفي الركن، في الزاوية اليسرى كما هي عادة

الضيوف، كان هناك رجل لم أبذل جهدا كبيرا لمعرفته. عرفته من بريق عينيه الذي لم يتغير أبدا على الرغم من ملامح وجهه التي انكسرت عندما رآني. ركضت نحوه وأنا أصرخ:

- سيدي عبد القادر.

قام من مكانه ورفعني عاليا وشعرت بقوته الفعلية التي تشبه قوة سليم وهو يردد:

- هذا الشبل من ذاك الأسد. ليحفظك الله من كل عين.

ثم استلقيت على صدره. قبلني طويلا قبل أن أجد نفسي ملتصقا ببرنسه الخشن. سألني عن أمي وعن أخوالي وعن دراستي. ثم وضع في جيبي ورقة وهو يتمتم: أعطها لأمك. ظننتها رسالة ولكني فيما بعد، عندما عدت إلى البيت، عرفت أنها كانت نقودا. عادته. كلما رآني فعل ذلك خصوصا عندما يكون أبي غائبا لمدة طويلة. شعرت بسعادة في عيني عز الدين وهو ينظر إلي:

- هه؟ كيف كانت المفاجأة.

- رائعة.

تمتمت وأنا لا أعرف كيف أصرف السعادة التي غمرتني. لا أدري، ولكنه ذكرني بسليم وباليوم الذي أركبني فيه الحصان لأول مرة تحت تحذيراته التي لم يسمع لها. رأيت السعادة ترتسم كذلك في عيني عبد القادر الصغير وهو يحك على رأسي ويدفن أصابعه في شعري.

- لسّاتك جدع في ركوب الخيل؟

- طبعا. وعمي عز الدين علمني الشيء الكثير.

قلتها بثقة زائدة.

- الله يحفظك.

قال الأمير عبد القادر الصغير، ثم التفت نحو أحد الحاضرين الذي كان قد طرح عليه سؤالا قبل وصولنا وانتظر طويلا الإجابة عنه قبل أن يعيد صياغته من جديد.

- طيب ومن وين نزل لورانس هذا يا اللي كنت بتحكي عنه؟ أنا بالفعل ما أفهم محله من الإعراب.

- المشكلة هو من وين نزلت أنا؟ لأني وجدت نفسي بينهم بأسلحتي وأتباعي لا انشغال لي إلا مقاومة جمال باشا الذي أقسمت أن أنتقم منه، وأخلع رقبته. قطعت جبال الأناضول وأهواله ولم يحمني إلا الله والصدفة وإلا لأكلتني الطرقات الصعبة والعسكر العصملي، لأصل إلى مكة، وألتقي بالشريف حسين واحصل على وده وثقته. وهو الذي طلب مني الالتحاق بالعقبة وبالأمير فيصل ومنحني العلم العربي الذي صلى عليه آلاف الحجاج. من هنا شعرت بأن حضوري وحده كان يقلق لورانس واني ربما خلطت أوراقه لأني كنت أحس أنه كان مسيطرا على كل حواس الأمير فيصل. ما زلت أظن أن هذا الرجل موضوع كجاسوس في عمق الحركة العربية لكسرها من داخلها. أكبر تخريب هو ذاك الذي يأتي من العمق، لأنك لا تعرفه وبالتالي لا تعرف كيف تواجهه. هو رجل شجاع كلما تعلق الأمر بتدمير الأتراك وحرق القبائل العربية التي تعودت على الإرهاب التركي وتحتاج إلى وقت كبير لفهم الوضع الجديد، لكن كلما تعلق الأمر بالإنجليز تغير وجهه وصار لينا أكثر وبحث عن كل المبررات. لا يحب حتى الفرنسيين ويعتبرهم جبناء وانتهازيين ويشك في أنهم يريدون الخير لإنجلترا التي لا شغل لها إلا تحرير العرب من نير الاستعمار التركي، هكذا يقول. فاتحت مرة واحدة الأمير فيصل حوله ولكني وجدته مغلقا فيما يتعلق به وبالإنجليز. قلت له يجب أن يحذر فيما يتعلق بأسراره الكبيرة والحساسة من لورانس. قال «إذا أنا حذرت من لورانس، هذا يعني على ثورتنا السلام. أثق فيه ولا أثق في إخوتي. أكد لي. إلى اليوم هو من ساعدني بالفعل وباستماتة وأنقذني، في الكثير من الأحيان، من ميتات مؤكدة.»

- يقال إنه كان يشك فيك على أساس أنك مبعوث من الأتراك الذين سجنوك وسجنوا والدك حتى الموت وقتلوا عمك. ألم يكن مجنونا؟ هل كان لورانس يفكر حقيقة أم أنه كان مغلقا وأعمى؟

- هو على كل حال كان أعمى تجاهنا ويعتبر المغاربة أناسا متغطرسين مثل الحوارنة. الصلابة وخشونة الرأس. ولكنه لم يكن يتحرك وحده. هناك سبب جوهري. البرقية التي وصلت إلى الجبهة من الكولونيل بريموند[٦٨] بأني كنت مخبرا يشتغل لصالح الأتراك. أعطته ثقة أكثر في شكوكه. تخيل؟ أشتغل لصالح قتلة عمي الله يرحمه وقتلة خيرة رجال البلاد؟ وشعرت برقابتهم ولكنهم فهموا تخريفهم بسرعة وأنه لا يمكنني أن أدافع عن نظام كرهته منذ جدي الأمير عبد القادر الذي لم تكن له أية عاطفة تجاههم ولو أن الكثير من أبنائه لم يشبهوه. طلب مني الأمير فيصل أن أسير مع لورانس والشريف علي. وسرت معهم على الرغم من أني لم أكن مرتاحا مطلقا للتبعية المميتة للورانس.

- ليش؟ شو حصل بينك وبينهم.

تساءل عز الدين وكأنه كان يدفع به نحو التفاصيل.

- لا يا عز الدين، هيك بشر صعبين كثيرْ. فقد كان يحرك كل شيء بإرادته. وقد اصطدمت معهما كثيرا وأفسدت تحركهما الذي لم يكن دائما صائبا بكثرة ملاحظاتي وإقناعي للناس الذين كانوا معي. كان علي رضا باشا الركابي على علم بكل تحركاتنا، لأنه كان الحاكم العسكري لدمشق وفي خدمة الشريف حسين سريا وطلبت بالتزام بعض الحذر من البشر الذين يتحركون بوجهين. وكان علينا أن ننطلق من الأزرق باتجاه أم قيس لتدمير جسر اليرموك الضخم، كتلة حديدية نحتاج إلى متفجرات قوية لتدميرها ولكن تحطيم الجسر كان سيمنع القطار من المرور وفصل المناطق السكانية عن بعضها بعضاً. ولم يكن بالجسر إلا حوالي اثني عشر حارسا لا أكثر، مجمعين على أقواس الجسر. وكان بصحبتنا فيلق الرشاشات الهندي بقيادة الكابتن براي[٦٩] التابع للخيالة الفرنسي. تدمير ركائز الجسر كان يقتضي قوة ضبط خارقة. فطلب لورانس من وود[٧٠]

---

(٦٨) Colonel Brémond

(٦٩) Capitaine Bray

(٧٠) Wood

المهندس، الموجود في قاعدة العقبة، تحديد أماكن الارتكاز لتلغيمها وجاء على الرغم من مرضه وهزال صحته بعد تلقيه رصاصة في دماغه وسرت بصحبة الشريف علي لاستجلاء الأمر مع كتيبة صغيرة، وتحسس السكة الحديدية ودراسة ما إذا كان من الضروري تدمير جسر اليرموك أم لا. كنت برفقة خيالتي الأوفياء من المغاربة.

- طيب شو صار بعدين؟ ألم تفكر للحظة أن تحطيم جسر مثل جسر اليرموك هو خسارة كذلك للجيوش العربية التي تريد أن تصل بسرعة. وخسارة حتى للدولة العربية الفتية إذ ستقطع شطرا منها وتصبح فلسطين مثلا معزولة تماما. وكيف تستطيع هذه الدولة أن تسير شأنها بنصفها المقطوع عن كل شيء؟

تدخل عز الدين مرة أخرى كمن يريد أن يسمع تفاصيل أكثر.

- هذا هو بيت القصيد. أشك كثيرا في أنهم كانوا يريدون فصل المنطقة، فهي إلى اليوم خاضعة لنظام خاص، إذا صحت بنود اتفاقية سايكس بيكو. كل ما استطعت فعله هو أني أقنعت الشريف علي الذي لم يكن يشك في نيتي مطلقا ولاحظ بسالة المغاربة في المواقع الصعبة، بالتخلي عن مشروع التفجير والعمل للاستيلاء عليه. عندما ذهبنا إلى الأزرق رفضت اقتراح لورانس في وجهه وأفهمت فيصل السبب. وعندما أصر، قلت له وكنا قريبين من تل شهاب: «مهمتي هنا هي محاربة الأتراك وحلفائهم وقتل جمال باشا السفاح الذي شنق أحرار العرب وأبرياءها وهزئ بعائلتنا وكرامتها وأهانها بشنق الأمير عمر، أما نسف جسر حديدي مثل هذا، يسبب قطع خط الرجعة على لآلاف من الجيوش المسلمة التابعة للدولة العثمانية فليس من الإيمان في شيء. فهم مسلمون قبل أن يكونوا أتراكا وفيهم الكثير من العرب الذين حاربوا إلى جانب تركيا لأنها كانت هي صاحبة البلاد واليوم عندما يطلب إليهم الانضمام إلى جيوش الثورة العربية فلا يرفضون ولا يجوز أن أدمر جسرا مضاره أكثر من منافعه. الكثير من الذين يعبرون الجبال على متن القطارات المحملة هم من الضباط العرب والكثيرون منهم ملتزمون

بالثورة، إذا أعطيت لهم فرصة الانضمام.» وأقنعت الشريف علي. هذا كله لم يكن ليروق للورانس، بل كان يرهقه ويزعجه كثيرا واعتبر لورانس أني كنت أؤثر كثيرا عليه، فبدأ يتصيد مزالقي. وفي هذا السباق المحموم للاستيلاء على المناطق التركية أو المعتبرة كذلك، فقد اتفقت مع الأمير فيصل والشريف علي على أن نسبقهم لدمشق لإعلان الدولة العربية قبل وصولهم إذا سارت كل الأمور على ما يرام واختبار وضعية الناس واستعداداتهم للمساهمة والتخلي عن العرش العثماني الذي لم يقدهم إلا للتخلف والبؤس. وجئت معي بالعلم العربي الذي سنرفعه عاليا إن شاء الله في الوقت المناسب بعد أن باركه آلاف الحجاج بصلواتهم.

- وقاحة كبيرة من لورانس.

- على كل حال لا ألومه، فهو يؤدي وظيفته ويحاول أن يفعل ذلك على أحسن وجه لصالح وطنه. الإنجليز هم من وضعه هناك. عندما غادرتهم، مررت على الدروز الذين رحبوا بي ورفعوا العلم عاليا على جبالهم وهم يتعطشون لليوم الذي يعيشون فيه حريتهم. ومنذ تلك اللحظة لم أنزل العلم حتى دخلت مزرعة «قرحتة» ورفعته على الدار قبل أن أطويه وآتي به إلى حي العمارة في دمشق في دار الأسرة القادرية. وها أنا ذا بينكم. والحمد لله، ، فقد تزامن كل شيء مع بعضه. فقد رفعت المتابعة ضدي بعد تدخل والي دمشق تحسين بك. هذا يمنحني فرصة أكبر للتحرك في الشام.

كنت مندهشا في تقلبات عمي عبد القادر الصغير السريعة. فهو بسرعة ينقلب من الحب إلى الغضب إلى الرفض إلى الثورة. كان وهو يتحدث ممتلئا بالحماس إذ لم يكن من الممكن إيقافه ولكنه لم يخبئ في أية لحظة من اللحظات حقده ونقمته على لورانس الذي كان يرى فيه مخبرا مدسوسا بين الحجازيين. من حين لآخر كان ينتبه لوجودي. فيمسد على شعري وكنت وديعا تماما. لم يعد عمي عبد القادر الصغير كما كان عندما كان أبي حيا، فقد تعمقت سمرته وأخاديد وجهه وإن ظل في عينيه القويتين الحادتين كعيني نسر نور يلمع من حين لآخر كلما تذكر

صديقا قتل أو خيبة محزنة أو عمه عمر الذي أعدم ووالده الذي مات في المنفى في الآستانة. يتمتم. أسمع الكلام يخرج من قلبه. كنت على جهته اليسرى:

«- جمال السفاح سيدفع الثمن غاليا.»

في تلك الليلة شعرت بشيء تحرك فيَّ قويا عندما بسط عمي عبد القادر الصغير في الباحة، العلم الكبير للثورة العربية الذي صلى عليه أربعون ألف حاج في مكة المكرمة بألوانه الزاهية الأربعة: الأحمر، الأخضر، الأبيض والأسود. وقال إن رجال الحركة العربية هم من اقترح هذه الألوان على الشريف حسين وهي تعني: الأحمر: الثورة العربية، الأخضر: الفاطميون، الأبيض: الأمويون، وأما الأسود فقد خصص للحقبة العباسية. كان الناس مندهشين من ضخامة العلم.

قال وهو غير قادر على كتمان سعادته:

- هذا سأرفعه بيدي هاتين على نزل فكتوريا بمجرد خروج الأتراك. فقد وعدت الشريف حسين. وسيخرجون. أنا أعرف الآن ومتأكد أن المسألة ليست في النهاية إلا قضية وقت لم يعد في صالح الأتراك والألمان الذين بدأوا يشدون أحزمتهم في الكثير من المواقع وينسحبون.

- سنكون عونا لك، صرخ الناس بشكل جماعي وكأنهم اتفقوا سلفا.

- في الوقت الحالي لا يوجد أي مشكل.

ثم طلب أن ينفرد بعز الدين وفؤاد غصن ومحيي الدين وآخرون من الذين حضروا الجلسة.

لم أستطع أن أكتم صوتي. خفت من الكلام أمام الكبار. لأني كلما تأملت نفسي أتساءل ما الذي جاء بي إلى هذا المكان الذي سرق طفولتي بسرعة ولكنه حرر مشاهدي الصغيرة؟ نظرة عمي عز الدين شجعتني بقوة لقول ما اختلج فيَّ لحظتها قبل أن يخرج الناس. أنا كذلك شعرت بالرغبة الكبيرة لقول كلمتي والصراخ مع الآخرين لأني على الرغم من صغر سني، صرت واحدا منهم. هناك شيء ظل فيَّ، قلته بشكل ما:

- عمو، هل ستأخني معك يوم ترفع العلم على دار الحكومة لأرى...؟

- رجل صح وابن الرجال. طبعا، إذا أردتَ أنت وكان الوضع الأمني جيدا.

- ولكن...

- ما لكنش، سآخذك معي وهذا وعد مني لك.

لم أدر إذا ما كان علي أن أفرح، أو أحزن. فقد بدت لي الكلمة التي قالها بشأني كبيرة إذ لم أكن أقصد شيئا. كنت فقط أريد أن أعرف كيف ينتشر علم بهذه الضخامة بدون أن يسقط وكيف سيتمكن الناس من نشره في السماء وهو بهذه الضخامة. يقول إنه كان يشبه أعلام المسلمين في حروبهم، تساءلت أي حصان في الحرب سيتحمل علما بهذا الكبر؟ هل سينشغلون بحمل العلم أم بالأسلحة والحرب؟ فقد بدا لي أكبر من أن تتحمله أية بناية رسمية أو أي حصان أو أية يد بشرية مهما أوتيت من القوة. ربما لأني تعودت على الأعلام الصغيرة ولم أر حربا في حياتي.

- طبعا عمو. تأمرني. غالي والطلب رخيص. ستكون أنت من يرفع العلم معي.

ونسيت أني لم أكن أعرف من هذه الثورة إلا مقتل والدي وأحزان أمي وجدو عمر وارتباكات محمد سعيد وبعض الأسماء التي سمعت عنها ولم أكن أعرفها أبدا، وقليلا مما كان يقوله عز الدين مع أصدقائه في المقاهي أو اللقاءات البيتية الدورية في حي المغاربة. ولكني كنت أعرف مسبقا أن هذه التفاصيل يمكنها أن تستيقظ ذات يوم. الفكرة ارتسمت في ذهني كالصورة.

تلك الليلة نمت بصعوبة. فقد انتابتني كوابيس كثيرة. كنت كلما مددت يدي نحو العلم الملون، تفتتَ كجناحي فراشة. ثم أعاود وأمد يدي نحو السارية التي علق عليها العلم وأنا أرتعد بكل فرائصي مخافة أن تجرني ضخامة الراية في أثرها وتسقطني من أعالي بناية نزل فكتوريا. الكبار ينسون وعودهم الصغيرة لكن الأطفال لا ينسون مطلقا ما يهمهم

مباشرة حتى ولو كان تافها. أكثر من ذلك، عدم الوفاء بالوعود يربي لديهم رفضا تجاه الشخص الذي وعدهم بشيء ولم ينفذه في وقته. عندما سألتني أمي عن سبب انزعاجي، تمتمت بعينين نصف مغمضتين ولكن في كامل وعيي ونباهتي:

- خير إن شاء الله.
- رأيت غولا وكان يريد أن يأكلني.
- سمِ بالله والعن الشطان الرجيم.

مسكين هذا الشيطان الذي نلصق به كل حماقاتنا. لا أدري إذا ما كنت قد لعنته ولكني حاولت عبثا أن أنام. لعنت نفسي عن الكذبة التي تعودت أن أقولها لأمي كلما رأيت حلما مزعجا. الغول كان وسيلتي الوحيدة لتفادي كثرة الأسئلة. أمي لم تكن تعرف أن حكايا الأغوال كانت ورائي ولم تعد تخيفني أكثر من وجوه بعض الناس الذين أراهم يوميا يملؤون الشوارع أو يسحبون الحناطير والكروسات أو بكل بساطة وهم ينظرون للغادي والرائح ويتفرسون وجوه البشر أو العسكر التركي ببواريده الطويلة التي أتساءل أحيانا كيف يستطيع حاملها أن يدافع بها عن نفسه وهي ثقيلة وطويلة وغير عملية بتاتا، ولا يستطيع أن ينزلها بسرعة من على ظهره قبل أن يكون المعتدى عليه قد وضعه أرضا هو وتهديداته وسلاحه.

الرياح الصفراء

-١-

مع المساء لم يهدأ شيء، بل تضاعفت قوة الرياح المحملة بالغبار والأوراق والنباتات الصحراوية الميتة أكثر. وبدأت شمس الأحد ٢٩ سبتمبر ١٩١٨، تتهاوى كقرص ميت تحت كتل الرماد التي غطت السماء التي التهبت جنباتها بحمرة بدت كجرح عميق يشق خصرها بكامله.

فجأة صار كل شيء أصفر ثم رماديا غامقاً وانتفت الرؤية أو كادت واندفنت دمشق التي تبدت من بعيد بصوامعها وبناياتها الواطئة، كاللعبة السحرية. وبدا كأن الظلام صار وشيكا.

مرة أخرى نظر فيصل باتجاه دمشق بواسطة الناظور لكن الرياح الصفراء التي تصاعدت كانت تغطي كل شيء. التفت نحو رستم حيدر الذي كان غارقا في تسجيل ملاحظاته.

- قل يا رستم، هل انتهى الشريف ناصر من تنظيم قواته العربية للدخول إلى دمشق. الوقت يسحقنا ويجب أن ننتهي من كل شيء قبل فوات الأوان وإلا فلا فائدة ترجى من دخوله دمشق.

- ننتظر عودته. نوري الشعلان وسلطان الأطرش وعودة أبو تايه سيسحبون وراءهم أكثر من ألف خيال. أعتقد أن كل الأمور تسير على ما يرام. الدروز والحوارنة لن يبخلوا بالمساعدة خيلا وبشرا وأسلحة. وسيدي الشريف ناصر يعرف بذكائه كيف يجمع بين كل المتناقضات.

- يجب أن ننتهي من هذا السباق المحموم. الأمور الآن صارت

جادة ودمشق على مرمى البصر. دمشق لم تعد تغلي كما كانت في الأيام الأخيرة. فقد خفت النقاشات السياسية التي كانت تملأها وبدأ الناس ينظرون صوب الجسور والمعابر ومحطات القطارات التي كانت تتجه نحوها القوات التي كانت مرابطة داخل الثكنات والإدارات والمواقع التي تحيط بجبل قاسيون ودمَر والهامة وحامية الزبداني.

- تصور يا سيدي أن البعض وصل به الأمر إلى أن يؤكد في المقاهي الشعبية البعيدة عن وسط المدينة، أن أللنبي دخل الإسلام مبكرا وهو يحارب فلول الأتراك المتحالفين مع الألمان وان أبواب السماء الواسعة والرحيمة انفتحت له تزكية لما يقوم به في صالح الإسلام والمسلمين.

- كلام فارغ، قال الشريف ناصر الذي كان قد التحق بجيش أخيه بمجموعاته التي تبعته. مجرد محاولة لربح الوقت وعواطف الناس. أتساءل إذا لم يكن الإنجليز هم مصدر الدعاية.

- هذا ما نقوله نحن لكن سكان الأحياء الخلفية مؤمنون كل الإيمان بما يقولون. يقسم إمام الحي الشعبي الذي كان وراء الخبر في خطبة يوم الجمعة الماضي أن كل ما قاله عن الرجل صحيح وأن أللنبي منذ أن وطئ أرض الإسلام أصيب بلمعة نور أعمته في البداية قبل أن تشرح صدره وتدفع به إلى الإيمان القوي. والذين صاحبوه في رحلته يؤكدون على ذلك. وعندما قيل له إن هناك من يقول إنها مجرد خزعبلات يبثها الإنجليز للاستيلاء على دواخل الناس، أجاب بحماس غير محدود: كل ما يحدث على هذه الأرض لا يمكن أن يكون إلا نصرا من الله. وإلا ما وطئ أللنبي أرض الحجاز بكل تلك السهولة. لقد حج حتى قبل أن يمتطي عربته ويعبر بها الصحاري القاحلة. وقد اعتبر بداية انهيار الجيش التركي غير عادية، بدون قوة الغيب ودخول أللنبي في الإسلام بلسانه وقلبه وروحه، أو بروحه فقط، من حيث تدري الملائكة ولا يدري هو.

- أنا أقول لك ما يحدث الآن في دمشق. لقد بدأ الأتراك يتركون مواقعهم وهذا وحده كاف للقول بأن الهزيمة صارت مؤكدة. الألمان

تجمعوا في ثكناتهم ينتظرون الأوامر. لقد رآهم رجالي وهم يذهبون نحو القطارات، في حماية المسلحين من الأتراك والألمان. لم يكن أحد يعرف حقيقة ما كان يحدث سوى أن الطائرات الإنجليزية حامت على غير العادة في ضواحي المدينة وكثيرا ما توغلت في أعماق الشوارع على علو منخفض. بعضهم قال إنها كانت تصور والبعض الآخر قال إنها تهيئ لهجوم غير محدود. كانت المقاهي هي الوسيلة الكبيرة لاستقبال الأخبار وإشاعتها. الخوف كان باديا على كل الوجوه وجمال باشا يشيع بأنه لم يغادر بعد حصنه في السراي، وان كل ما كان يحدث هو مجرد إعادة انتشار. المجموعات العربية الأولى التي أعلنت عداءها للألمان والأتراك في الشوارع اقتيدت فجرا إلى المرجة وأعدمت. هذا بالضبط ما يحدث في دمشق وليس ما يقوله الفقيه المعتوه.

الرياح الصفراء زادت قوتها. عند الجسر الأخير من درعا، لملم رستم حيدر أوراقه التي كانت ترتعد في كفيه كأفراخ الطيور بسبب قوة الرياح الخريفية.

- أرأيت يا سيدي؟ عندما ينهارون يسقطون كليا. إنهم ينتفون بسرعة وكأنهم لم يكونوا أبدا. المعلومات الإنجليزية تقول إنهم بدأوا بالانسحاب من دمشق، مخلين مواقعهم. لقد وصلنا ولم يبق الشيء الكثير. أنظر يا سيدي ماذا يقول الماريشال ليمان فون سندرس، القائد العام للجيوش التركية في البلاد العربية عن الوضع: «في يوم ٢٤ سبتمبر ١٩١٨ علمت أن جموعا عربية تجمعت في شرق الشام وجنوبها وحالة الشام داخليا كانت قد تغيرت جذريا. فقد كثر توارد رجال القبائل المسلحين إلى دمشق. كانوا يتجولون ويطلقون النار سعادة في الأسواق والأحياء الشعبية. ويتهافت الدمشقيون على قراءة المنشورات التي كانت تطلقها الطائرات الإنجليزية. وكثرت الفوضى في البلاد وجواسيس فيصل الذين كانوا يدعون العرب إلى الثورة. وقد عرفت أن العرب هيأوا علما لرفعه يوم النصر. وقد أطلق النار على بداية القوات التركية ومؤخرتها وتم نهبها.» أعتقد أننا وصلنا إلى النصر.

- لم نصل بعد، أجاب الأمير فيصل ببرود واضح. الوصول معناه الدخول في عمق المدينة. الإنجليز يتسابقون نحو احتلال الأمكنة ونحن نحاول أن نسبقهم. بارو يحضر هجومه النهائي، هكذا تقول الأخبار التي وصلتني. أخبرت لورانس بأنه لا داعي لأن يشغل باله من ناحية درعا، فقد طاردنا فلول الأتراك ونظمنا حكومة عسكرية تدير شؤون البلاد هناك. لا أدري لماذا ولكنني أشعر بالحاجة لأن يرانا العرب الذين ينتظرون دخولنا دمشق، قبل أن يروا الإنجليز حتى ولو كانوا حلفاءنا. ولهذا فمهمة ناصر ضرورية وحيوية.

- الظاهر أننا لن نسبقهم وعلينا أن نراوغ الكل ونفتح دمشق. السكان سيرتاحون لرؤية العرب. يجب أن يدخل ناصر بسرعة لدمشق، بدءا من اليوم إن استطاع. الأتراك مرتبكون، والمغاربة بقيادة الأمير سعيد ينشطون للاستيلاء على السلطة. هذا ما وصلنا من شكري الأيوبي الذي ينظر إليهم بعين الريبة ويقول إنهم كانوا عملاء للأتراك حتى آخر لحظة.

- حتى شكري الأيوبي لم يكن معاديا لهم وكان تحت إمرتهم. لا أعتقد أن ذلك مقياس. أنصار الحرية كثر حتى من داخل آلة الطغيان القاسية ولا أشكك في وطنية المغاربة.

كان الشريف ناصر قد انفصل بمقدمته عن المجموع بفيالقه وتوغل عميقا باتجاه مداخل المدينة. كانت المعابر القريبة سالكة. المعارك التي دارت على بوابات المدينة لم تكن مكلفة. فقد عبر جيش الشريف ناصر بسهولة الوديان ساحبا في طريقه الحاميات الصغيرة التي أبيدت أو استسلمت وسجن معظم ناسها أو هربوا قبل وصول قوات الدروز والحوارنة الذين يشبهون الذئاب. وبدا واضحا أن الطريق إلى الشام لن يلقى صعوبات كبيرة.

عاد من جديد إلى الوراء باتجاه الأمير فيصل، قبل أن يندفع وحده إلى الأمام.

- أعتقد أن أموركم صارت الآن أهون. أنت على رأس قوات خفيفة الحركة وبإمكانك أن تعبر بسهولة. قواتنا ثقيلة مما يجعل حركتها

غير مرنة ويمكن أن يسبقنا الإنجليز. أنت تعرف ما يجب فعله. يجب تسيير الأمور بالشكل الذي يضمن الأمان والاستقرار. طريق درعا وضواحيها ما يزال ملغما كما لاحظت. وان المسافة نحو دمشق على محدوديتها ستأخذ وقتا كبيرا.

التفت الأمير فيصل مرة أخرى نحو رستم حيدر الذي كان منهمكا كعادته في الكتابة والتخطيطات:

- شوف يا رستم حيدر، أعتقد أن فكرتك صحيحة تماما وصائبة.

- مثل ما يرى سيدي. ولكني أعتقد أن الشريف ناصر سيصل بدون معوقات كبيرة تذكر. ثم إن الوضع في دمشق ليس على ما يرام. ملامح حرب أهلية ترتسم في الأفق.

- وهو ما يستوجب السرعة. أما نحن فسنتفرغ لتنظيف الجيوب المتبقية والسير بمحاذاة القوات الإنجليزية التي تبدو عليها بعض النرفزة والانزعاج لا أدري لماذا. سأسأل لورانس الذي لن يتأخر.

كانت قوات الشريف ناصر قد انقسمت إلى مجموعات صغيرة بحسب القبائل المنتمية لها، بعد أن انضم إليها رجالات سلطان الأطرش وكثيرون من المتطوعين السوريين. كان السباق محموما. سارت القوات نحو مدينة دمشق بعد أن ودع الشريف ناصر أخاه ورستم حيدر وبقية القادة المرافقين لهما. كان يدرك جيدا أن المهمة لن تكون بالسهلة خصوصا بعد التقرير عن الصراعات التي نشبت حتى قبل مغادرة الأتراك كليا، وأن علامات حرب أهلية كانت ترتسم في الأفق. كان الشريف ناصر يعرف جيدا أن الدخول صار ضرورة لتطويق الإنجليز ووضعهم أمام الأمر الواقع وحتى لا يعينوا من يشاؤون وكسر شوكة الفوضى التي بدأت تدب في البلد بسبب الأطماع والمناورات.

كان الأمير ناصر يدرك جيدا صعوبة المهمة ولكنه كان على يقين كبير من أن طلائعه ستستقبل في دمشق بحفاوة كبيرة. فهجانة عقيل ونوري الشعلان وعودة أبو تايه وجموع الدروز وفي مقدمتهم سلطان وحسين الأطرش الذين كانوا بصحبته، يكفون وحدهم لتحريك المدينة

بكاملها. إضافة إلى الضباط العراقيين والسوريين الذين انضموا إلى الثورة، فقد نشأوا في مدارس الجيش العثماني ومنهم من تخرج من مدرسة الأركان ومنهم من أكمل تحصيله العالي في ألمانيا ويمتازون بالشجاعة والمهارة العسكرية العالية ولم يكن في فرقته أي حجازي لأن الحجازيين كانوا معفيين من الخدمة العسكرية وغير معنيين بها.

عندما وصل الجيش إلى الوادي الذي كانت مياهه قليلة، انعطف قليلا باتجاه اليمين متفاديا في الآن نفسه الالتقاء وجها لوجه مع جيوش أللنبي وبداية الصعود باتجاه الهضاب التي تشرف على أراضي الشام. كان الشريف ناصر صامتا عندما كلمه سلطان الأطرش بصوت فيه من الصرامة والتساؤل:

- لم نتفق على المهمة التي يجب أن نقوم بها؟ هل نبدأ في تسيير المدينة.

- لا شيء من هذا في الوقت الحالي، مهمتنا أن ندخل الشام بأقل الخسارات الممكنة ونجعل المدينة تتفادى خرابا جديدا. قد لا نستطيع تعويض الأتراك ولكننا سنفعل الحد الأقصى لكيلا نترك دمشق تنزلق من أيادينا. الكلام الذي يصلنا كثير. وهذا تكليف من الأمير فيصل.

- يقال إن المغاربة يعملون على الاستيلاء على السلطة بتشجيع خفي من الفرنسيين؟

- يمكن لهذا الجيش الذي وراءك أن يحرق الأتراك والمغاربة مجتمعين، تدخل أبو تايه ملوحا في الهواء بيد صلبة وبعضلات تنتظر من يستعملها.

- يا أبو تايه لا أشكك في قوتك وفي عضلاتك. رأيت ذلك في المواقع الحية. ولكننا يجب ألا نقع ضحايا حرب أهلية مؤكدة لا تترك شيئا حيا. الكثير من المغاربة كانوا معنا وتعذبوا كثيرا. الأمير عبد القادر الصغير لم يخرج من المنطقة إلا بإذننا. كان شجاعا وقويا. أرسلته ليتدبر أمر رفع العلم وترتيب الدخول. وتفاديا للنزاع بينه وبين لورانس الذي لم

يكن دائما طيبا معه. لا يمكننا أن نحارب من وقف في صفوفنا. ثم لا تنس كذلك أن آلة جمال باشا حصدت منهم الكثير.

- يقال إن علاقتهم مع الأتراك كبيرة وما يزالون يراهنون عليهم.

- الآن أستبعد ذلك. ثم مَن مِن الذين نعرفهم لم يكن مع الأتراك؟ إذا حاسبنا الناس على هذا الأساس لن يبقى واحد في صفوفنا بما في ذلك الشريف حسين وعائلته. أنت تعرف أن الوالد نفسه بقي مدة طويلة في تركيا. وان كل الضباط الذين يقفون في صفوفنا، كانوا في الأصل ضباطا في الجيش التركي. الوضع تغير والناس كذلك.

- على كل حال هذا ما يروج بين صفوف المقاتلين.

- أعتقد أني أعرف قليلا مصدر هذا الكلام. الصراع الذي نشب بين عبد القادر الصغير ولورانس كاد أن يودي بنا إلى ما لا تحمد عقباه. لم يكن عبد القادر الصغير مخطئا في المحافظة على ممر السكك الحديدية في اليرموك والا لانقطع كل شيء ليس فقط على الأتراك ولكن علينا كذلك.

لم يكن صعود الهضبة متعبا، فالأحصنة الدرزية مدربة على الجبال وتسلقها، لكن الرياح الرملية الصفراء التي كانت تهب بشكل مواجه أثقلت الحركة قليلا. زادت قوتها المواجهة والمعطلة. كانت تضرب الجياد بحبيباتها الغبارية التي تلتصق على وجوهها على الرغم من الواقيات التي وضعت على جنبات عيونها لهذا الغرض.

رفع الشريف ناصر رأسه قليلا نحو الأفق فبدا له كأن أبواب دمشق قد أغلقت بحاجز أصفر سميك وان كل شيء صار متشابها كما في بدء الخليقة، لا نتوءات ولا بشر ولا حيوان ولا أشجار.

قال وهو يلملم شاشه حول وجهه وانفه وفمه:

- يبدوان ما تبقى من المسالك هذه المرة كذلك لن يكون سهلا.

أعاد نوري الشعلان الجملة نفسها وكأنه يؤكد ويزكي ما قاله الشريف ناصر:

- لن تكون المسالك سهلة ولكننا سنصل بإذن الله قبلهم.

ساعدت الرياح التي خفت، الأحصنة لكي تتقدم بسهولة أكثر.

عندما وصل دمشق كانت المدينة مغلقة. ولم يكن إلا قلة قليلة منها: عبد القادر الصغير والأمير سعيد وبعض الحراس من الذين كانوا يعرفون بدخول الشريف ناصر المدينة. مشى الجميع نحو بيت الأمير سعيد.

لم ينم أحد في حي المغاربة. الكثير منهم شعر بأن أمرا كبيرا كان يحدث في حي العمارة. هناك من يقول إن الأمير سعيد وُزِّرَ، آخرون رأسوه والقلة القليلة التي كانت ترى كل ذلك بعين الشؤم وأن جمال باشا قبل خروجه عهد له بالحكم وتسيير البلاد لتوريطه في حرب أهلية ستأتي على ما تبقى من المغاربة.

كنت أستعد للنوم عندما دق عمي عز الدين على الباب وأخذني من الفراش وهو يتمتم بصوت بالكاد يسمع في أذن أمي التي كانت تثق فيه بشكل أعمى:

- أم شريف، سأعيده كاملا غير منقوص.

- بس مش لازم أعرف ماذا حدث؟

عندما دخلت، لم أسأل أحدا إذ ركضت نحو سيدي عبد القادر الصغير وارتميت في حجره. ثم سألني عز الدين وهو ما يزال واقفا عند الباب. أحسست أن الأمر كان كبيرا، أكبر من مجرد زيارة عائلية.

- عرفت هذا الرجل.

كان الرجل ممددا بصحبة أناس أثارني طول شواربهم أكثر من قوتهم.

قلت بلا تردد:

- لابد أن يكون صديقا للأمير عبد القادر الصغير؟

- أكثر من ذلك.

- أكثر من ذلك لا أعرف.

وكنت صادقا في كلامي. كنت في غمرة تتجاوز كل تخيلاتي. أخرجني الأمير محمد سعيد من غيبوبتي وتفكيري الفارغ:

- هذا أخو سلطان هذه البلاد، هو الذي حررها. وهل تدري أن اسمك شريف اختاره لك والدك تبركا بالشريف حسين، والد أميرنا المفدى.

ارتبكت ولم أتصرف حيال ارتباكي إلا كطفل:

- وكيف نحيي ملكا يا عمو؟

- كما تشاء، قال الأمير ناصر الذي ظل ينظر إلى وجهي ويبحث عن العلامات المشتركة بيني وبين والدي. فقبلني على خدي مرتين وضمني إلى صدره الواسع.

ثم حك على رأسي وهو يردد بثقة عالية:

- أرأيت؟ دم سليم لم يذهب هباء. تضحياتهم هي التي صنعت لنا الحرية وهي التي أوصلتنا إلى هذا المكان. لولاهم لكنا اليوم عبيدا ولا شيء أكثر من ذلك.

ثم أخذني عز الدين وأعادني إلى فراشي وهو يتمتم:

- حبيبي شريف، نترك الأمير ناصر يرتاح وغدا سنحكي.

- طيب يا عمي. شكرا جزيلا.

لم أعرف بالضبط إذا ما كنت أحلم أم أن ما حدث كان حقيقة. شيء واحد لا أنساه في تلك الصورة. عينا الشريف ناصر، عندما ذكر اسم سليم، ارتعشتا بقوة قبل أن تدفنا في الأعماق دمعات طلت بخجل ثم عادت لتنساب في الداخل. شعرت أن به شيئا يشبه عز الدين. لا أدري ما هو. ربما كان الوجه السمح ودرجة الحساسية تجاه الأشياء المحيطة به.

عرفت كذلك لماذا كان بيت الأمير محمد سعيد واسعا كساحة سباق الخيل. كل البشر كانوا جالسين ولم يكن فيهم رجل واحد واقفا. الأمير سعيد لم يكن مخطئا دائما في خياراته.

-٢-

فجأة تحولت بلدية دمشق في المرجة إلى قبلة لسياسيي المدينة ووجهائها. الكل يتحدث عن الاجتماع الحاسم بعد إخفاق الاجتماعات السابقة. كان كل شيء يسير بوتيرة مخيفة لا تترك مهلة كافية للتفكير والتأمل. الانتصار... الحرب الأهلية... وضعية الجنود الأتراك... الانشقاقات الداخلية وتمزق الإخوة... ثم السؤال الذي ظل يتردد على الألسن، في السر والعلن: من يسبق إلى دمشق، العرب أم الإنجليز؟ فيصل أم أللنبي؟

المؤكد أنهما لن يدخلا المدينة بجيش مشترك كما كان يتصور الكثيرون. المقربون من الرجلين يعرفون الأسباب جيدا. ليست الخلافات عسكرية، فالعرب كانوا تحت أوامر أللنبي، ولكن لأسباب قد تكون أخلاقية، ماذا سيقول بدو الرَّوْلة وحوران والجبل والدروز والمغاربة وحتى حضر دمشق وتجارها؟ لقد جاؤوا على حراب الإنجليز وبنادقهم؟

- ومالو يا خيي وين الضرر؟

- مافيش ضرر، بس هذا يسمى استعمارا.

- فشر! كيف تسمي الحضارة استعمارا؟ العرب لا يعترفون بالخير. مش الإنجليز هم اللي طردوا الوباء التركي وسحقوا الطاغية جمال باشا ولم يكن أحد غيرهم قادرا على تفكيكه وتدميره؟ ليش ننكر الحسنة؟

- المشكلة مش هوني. لا. لا. أنا بس خايف يعجبهم البلد وينصبون خيامهم في البلدية والبرلمان والسراي ونحنا نخرج من المولد بلا حمص ويمكن نتحول إلى أجانب في بلدانا.

- الحمد لله، الإنجليز ما عندهم خيام وهذه مزية كبيرة وإلا كانوا قعدوا على رؤسنا وخوزقونا.

تضاحك الرجلان ثم غرقا وسط العابرين الذين كانوا يتزاحمون لقطع ممرات بردى الصغيرة وتوغلوا عميقا في ساحة المرجة، تفاديا

للرياح الصفراء التي هبت قوية مكنسة في طريقها كل شيء. تصاعدت الأوراق الجافة في الساحة عاليا قبل أن تستقر على البنايات وعلى السرايا ودار البلدية وممرات نهر بردى القديمة الذي زادت مياهه قوة بعدما خمدت مدة من الزمن. الرياح التي هبت في الليالي الماضية كنست كل شيء وخربت الكابلات التي ترى من بعيد مترامية على معابر الشوارع والأزقة الضيقة. الكثير من الخطوط قطعت وواجهات المحلات صارت مشوهة بعدما سقطت أضواؤها الخارجية وتكسر زجاج الواجهات في الكثير من الأماكن. كان الناس يتحسسون من شيء مبهم وخفي. حتى الأمطار التي تساقطت ليلة البارحة لم تثنهم عن تساؤلاتهم الخفية.

«- من يسبق إلى دمشق يا ترى؟ العرب أم الإنجليز. الأمير فيصل أم الجنرال أللنبي؟»

الأتراك بدأوا يخرجون ويجمعون عفشهم ويتوجهون نحو محطة الحجاز تحت حراسة مشددة. أحداث البارحة لم تكن مطمئنة. فقد قتل أكثر من خمسين تركيا بعضهم وجد مشنوقا على أشجار الضواحي. البعض الآخر بقرت بطونهم وحشيت بالحجارة. وعشر جثث شوهت بعد أن عذبت وأجلست على خوازيق مزدوجة. في باب توما، سحل على امتداد الشارع الرئيسي، صاحب المطعم التركي الذي كان يموِّن الحامية المنتصبة على حواف الحي. قبالة محطة البرامكة، وجدت ثلاث جثث منتفخة، بدأت تتحلل، للجابيين ورئيس المحطة. وصلبت امرأة تركية بتهمة أخلاقية على إحدى بوابات دمشق، ليس بعيدا عن وسط المدينة، في عمق الحي الذي هربت نحوه. النقاشات بين الأحزاب الدمشقية وأنصار فيصل الذي يتزعمه رضا الركابي وشكري الأيوبي، انتهت إلى شيء في غاية الأهمية.

كان قادة «العربية الفتاة»، في جيش الأمير فيصل، قد اتفقوا مع رضا باشا الركابي وشكري باشا الأيوبي على تشكيل حكومة عربية سرية في البداية ثم علنية عندما تنسحب فيالق الجيش التركي، من دمشق دون انتظار دخول الجيش العربي إليها بعد أن عجزت القوات التركية عن

الصد وبدا أنها آيلة إلى الانكسار والهزيمة. إلا أن رضا باشا الركابي لم يكن بدمشق في ذلك اليوم الذي اتخذ فيه القرار الحاسم، فقد عينه القادة الأتراك قائدا عاما للاستحكامات التي فكر الأتراك في إقامتها في دمشق وحولها للدفاع عن المدينة ضد هجمات الإنجليز والفرنسيين. بعضهم يقول إن رضا باشا الركابي، اختفى درءا للإحراج مع الأتراك الذين كان ما يزال تحت قيادتهم الفعلية، فاضطلع شكري الأيوبي بذلك ومعه الأمير سعيد وأخوه عبد القادر الصغير للقيام بالمهمة قبل دخول طلائع الجيش الإنجليزي التابع لأوامر أللنبي.

كل الاجتماعات التي عقدت لم تفض إلى شيء مهم. وبدا أن الحساسيات كانت مختلفة وكبيرة، بين أنصار انتظار وصول فيصل أو إعلان الحكومة العربية حتى قبل دخوله إلى دمشق. النقاش لم يفض إلى أية نتيجة وسط فراغ إداري كبير بعد انسحاب جزء كبير من الإدارة التركية. ثم اتضح الصراع أكثر بين أنصار الأمير محمد سعيد، ورضا باشا الركابي الذي ظل متغيبا عن كل الحلقات.

تسارعت وتيرة الاجتماعات بتسارع وتيرة الحرب في مختلف الجبهات واندحار الأتراك من الجيوب التي كانوا يحتلونها. الأخبار التي كانت تصل تباعا تقول إن الإنجليز وحلفاءهم من الأوروبيين يسيرون بسرعة نحو دمشق وإذا أحكموا عليها الخناق، صارت لهم بموجب قوانين ويلسون الجديدة.

تساءل أحد الأعيان من الذين تضرروا من الحكومة التركية وهو في حالة غليان كلي:

- وماذا نفعل بالأتراك المتمركزين في بعض أماكن دمشق. مصيرهم معلق بقرار منكم. إما أن نسرحهم ونتركهم يلتحقون بالذين هربوا أو نترك الشعب يتصرف، فهو يعرف ما يجب فعله؟

- نبيدهم مثلما أبادوا أهالينا.

رد آخر كأنه كان ينتظر هذه اللحظة المناسبة. الأمير سعيد الذي ظل

صامتا، تدخل بصوته الذي لا يكاد يسمع، بنبرات قلقة ولكنها لم تفقد دفأها.

- هل تريدنا أن نكون مثلهم؟ أن نقتل سجناءنا؟ يكفي ما حدث في الليالي السابقة من انتقامات مخجلة لا تشرف لا الحكومة ولا ناس هذه البلاد المتسامحين.

- لو حرقوا قلبك مثلما حرقونا ما كنت قلت هذا الكلام.

- تحدثني عن حرق القلب. الأحسن ألا أتكلم، الحاضرون يعرفون أن حرقتي هي حرقة أهل الشام الذين فقدوا عزيزا أو قريبا. اقتلهم إذا شئت، مزق لحمهم كما الآخرين الذين عميت بصائرهم، وماذا بعد؟ ماذا سنربح؟ ملك يبنى على الجماجم مصيره الزوال. احذر يا سيدي مما تقوله.

- حقي آخذه من لحمهم. قال آخر في الزاوية المظلمة من القاعة. سيدي شكري الأيوبي وعدنا بذلك.

- الذين أبادوا أهالينا ليسوا الجنود البسطاء، رد الأمير سعيد وهو يحاول أن يبحث عن أقل الكلمات قسوة حتى لا يتشتت عقد القبائل الذي كان ينام في كف عفريت، المفترض أن نلقي القبض على جمال باشا ونشنقه في المرجة لكن الظاهر أنه هرب. هؤلاء جنود بسطاء لا حول لهم ولا قوة وإلا لكانوا قد هربوا مثل غيرهم. الأفضل أن نساعدهم ونشجعهم على الخروج بدوابهم وآلياتهم خارج دمشق ونحميهم ريثما يركبون قطارات الحجاز هم وحماتهم الألمان. ويجب إعادة تنظيم المليشيات المغربية والدرزية والحورانية والجبلية ومختلف القبائل ومنعها من الانتقامات المجانية. يجب أن تنضم إلى الجيش العربي الفتي لحماية المدينة من النهب والقتل والتعدي على أملاك الغير. إذا لم نبدأ بذلك، ستنهار البلاد بكاملها ولا أحد يستطيع أن يسيطر على الفوضى التي ستأكل الأخضر واليابس.

- جمال باشا قتل أبطالنا ونساءنا وأولادنا ولم يفرق بين صغير وكبير ولا بين امرأة ورجل ولهذا وجب أن يحرق هو والمكان الذي

يختبئ فيه. يجب أن نسجنه ونعلقه مثلما فعل مع القادة العرب في دمشق وبيروت. الرحمة معه غير واجبة.

- أين هو يا صاحبي؟ رد الأمير سعيد: كل التحريات تقول إنه هرب إلى فلسطين. إذا أردتم بركة من الدم افعلوا ما تنوون القيام به في حق الجنود الصغار وأحرقوا البنايات التي صارت اليوم ملكا لكم، ولكن هذا لن يأتيكم لا بجمال باشا ولا بزبانيته الصغار والكبار. المهم هو استقلال البلاد وتفادي الدخول في حرب أهلية هي على الأبواب. الأحقاد يا إخوان عمياء وغير عاقلة.

الاجتماع الحاسم كان ضرورة ولم يكن بذخا زائدا كما تصوره الكثير من الدمشقيين الذين ظلت أنظارهم معلقة على مداخل دمشق في انتظار الأمير فيصل. بلغت الفوضى والتسيب حدا كبيرا أصبح يهدد الناس في حياتهم وفي ممتلكاتهم. التسيب ذبح أكثر من مائة سجين كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. عرف الجميع أن خلفيات الصراع معقدة وأنهم يمكن أن يفقدوا مدينتهم بسبب الأنانيات الصغيرة، ولهذا فقد حضر أغلب وجهاء المدينة وتغيب شكري الأيوبي هذه المرة مع أنه كان من الأوائل الذين طالبوا بالاجتماع وضرورة عقده وتعيين من ينوب عن فيصل لحل معضلة الحكم وتفادي التجاوزات الكبيرة.

لم يكن النقاش بسيطا ولكنه انتهى إلى تشكيل مجلس شورى أوكلت له مهمة اختيار رئيس الحكومة المؤقت. وطلب من الأمير سعيد أن يعيد على مسمع الحاضرين ما قاله في إطار ضيق في الاجتماعات السابقة. قام بهدوئه المعتاد وقد علت ملامحه علامات مبهمة من السعادة الممزوجة بالحيرة والتساؤلات التي كانت إجاباتها معلقة على اتفاق صغير من الجميع.

- ما حدث من نهب لممتلكات الناس ومن قتل وذبح للسجناء الأتراك لا يشرف الدولة الفتية بل يقودها نحو حتفها إذا استمرت الحال على ما هي عليه. لا شيء جديداً لدي سوى ما قلته سابقا وهو أني كنت على اتفاق مع فيصل عند لقائي به في **وهيد** غربي معان في أوت ١٩١٨.

وكادت رحلة الوساطة هذه أن تودي بحياتي. وكان قراره الواضح الذي لا لبس فيه، ألا ينتظر قدومه في إعلان الاستقلال خشية أن تسبقه الجيوش الإنجليزية والفرنسية. والشريف ناصر يعرف ذلك جيدا وقد تحادثنا حول هذا الموضوع يوم دخوله سرّاً إلى دمشق وسيكون بيننا بين لحظة وأخرى وسيشهد على صحة ما أقوله. الأمر بين أيديكم. اختاروا من ترونه قادرا على هذه المهمة الانتقالية.

حتى الأصوات التي احتجت في البداية سرعان ما خمدت عندما التحق الشريف ناصر بالبلدية مصحوبا بحراسه. كان متعبا وعلى وجهه علامات الإرهاق. ولم يغادر المكان إلا عندما زكى الأمير سعيد بأن كتب تفويضا له باسم أخيه، لإدارة شؤون الحكومة ريثما يصل الأمير فيصل وتحل الأمور تلقائيا. ولم يبق أمام مجلس شورى إلا التزكية لما للأمير سعيد من علاقات وشيجة مع العائلة الشريفية ولما له من رضا جميع الأطراف التي عينته رئيسا لما عرفت عنه من حكمة وتسامح كبيرين.

- يا جماعة، قال أحد الأعيان الحاضرين في الاجتماع، العالم كله ينظر نحونا، إما أن نكون رجالا ونتمم بالخير وإما أن تسحقنا الأنانيات الصغيرة ونضيع كل شيء لصالح أعداء هذه الأمة. التحدي كبير جدا. أنتم أمام واحد من سلالة الرسول، كان من المفترض أن تتم الأمور تلقائيا بدون الغوص في التفاصيل، وخصوصا أن المسألة وقتية وليست نهائية.

- كنا نتمنى حضور شكري الأيوبي. قال أحد الأعيان الذي بدت الخيبة واضحة في عينيه.

- يا ريت؟ رد المتدخل، أينه؟ أخشى أن يكون بعض من نثق فيهم يأخذون العصا من الوسط وينتظرون الانتصار النهائي للعرب أو عودة الأتراك لاتخاذ موقف. أمامنا رجل قاسى ويلات المنفى والتقتيل في عائلته ويحمل تكليفا من عائلة الشريف حسين، هل هناك دليل أكثر من هذا؟ أم تريدون حربا أهلية قاهرة؟ الخيار لكم وستسألون عنه يوم القيامة.

فجأة ضجت القاعة بالتصفيق وتعالت الأناشيد الوطنية بقوة وحماس كبيرين. عندما انتهي من النشيد قام الأمير سعيد وبجانبه أخوه عبد القادر الصغير ورفع يده التي بدت ناعمة تحت الانعكاسات الضوئية المتسربة من السقف والجوانب:

- لم يبق لنا إلا رفع العلم عاليا على رأس السراي. علم الدولة العربية الذي أحضره الأمير عبد القادر الصغير من مكة. وسيذكر التاريخ أننا في غرة ٣٠ سبتمبر رفعنا العلم العربي عاليا. علم جاء من بعيد ولم يكن إلا حلما جميلا لقوافل الشهداء. له خصوصية كبيرة لأنه ينبض بابتهالات الرجال الطيبين الذين عاهدوا الله وما بدلوا تبديلا. كان موسم الحج مزدحما بالحجاج القادمين من كل ربوع الأرض. أخرج الشريف حسين هذا العلم وصلى عليه أكثر من أربعين ألف حاج مسلم من الحجاج، وطاف بالعلم سبع مرات ثم سلمه لأخي الأمير عبد القادر الصغير ليرفعه على سراي دمشق. وقد أقسمنا ألا يخرج من غمده إلا ليرفع عاليا كتعبير عن الانتصار. وها هو اليوم قد جاء.

عندما صعد الحاضرون إلى قمة السراي، تعالت بينهم الأهازيج والزغاريد والأناشيد الوطنية التي ملأت فجأة سماء دمشق الغائمة.

على السطح، فتح الأمير عبد القادر الصغير العلم عن آخره وسلمني خيطا صغيرا وقال بصوت عال: اسحب معي بقوة!!! فلم أتردد لحظة واحده. وفجأة انفتح العلم عن آخره، كبيرا وواسعا بألوانه المختلفة التي غطت جزءا كبيرا من سطح السراي الذي امتلأ بالبشر. سمعت الهمهمات من ورائي، كلمات مسَّتني يومها في الصميم وشعرت بسليم حاضرا معنا.

- مين لزغير يا اللي بيسحب على خيط العَلم؟
- ابن الشهيد سليم الله يرحمه.
- اللي مات وترك صبي مثله، ما مات. الله ينصر الحق.

آخر لم يكن بعيدا عني، همس في أذن صاحبه بشكل مسموع.

- شو هاي المسخرة، كنا ننتظر شكري الأيوبي، جاءونا بمغربي

أزعر، ما إلو علاقة بالبلد، وانتظرنا زلمي صح وصحيح، يرفع العلم، اخترعوا لنا طفلا لا ندري من أين أتوا به؟

لم ألتفت إلى أي واحد منهم، ولكني شددت على الخيط بقوة حتى انفتح العلم نهائيا، ولم أنتبه لأي شيء آخر فقد كان التصفيق حادا بحيث غطى على كل شيء، الكلام الجميل والاستفزازي. لا أدري ما السبب ولكن كل الناس بكوا. رأيت في كل العيون سعادة كبيرة غمرتها دموع بعضها انكسر على الخدود وبعضها الآخر تراقص طويلا في العيون قبل أن ينشف تحت الرياح الخريفية الصفراء التي كانت ما تزال تهب بقوة.

بالنسبة إلى الجموع التي وقفت في ساحة المرجة مغرقة المكان بالتصفيق والزغاريد التي كانت تأتي من أعماق سوق ساروجا وقلعة دمشق، كل شيء كان قد انتهى. تركيا اندحرت ولم يبق إلا الدخول النهائي للقوات العربية. كانت السعادة كبيرة والخوف من حرب أهلية قد تراجع نهائيا بعد اتفاق كل الأطراف وأخمدت الاختلافات وشرع في إعادة تنظيم المدينة وحماية العسكر التركي الذي ظل ينتظر قرار نقله وإخراجه من وضعية كانت كل يوم تزداد تعقدا.

-٣-

عندما دخل الأمير سعيد سراي قائد الجيش التركي جمال باشا في مقر قيادته بفندق فكتوريا لم يكن مرفقا إلا ببعض الحراس الشخصيين على الرغم من تحذيرات أخيه من تمرد شكري الأيوبي الذي كان يتربص به.

- أقول لك إنه على اتصال مع الإنجليز ويمهد لهم الطريق للدخول براحة إلى دمشق.

- وأنا أقول لك هذه مبالغات زائدة يا عبد القادر. شكري الأيوبي غاضب ولكنه ليس عميلا.

- أملي أن يمنحنا الله عمرا طويلا لترى بعينيك.

لم يكن الأمير سعيد يعرف أن الأمور وصلت إلى هذه الدرجة من التسيب وأن عليه أن يتدبر أمر الأمن قبل انهيار كل شيء وخصوصا أن أيادي كثيرة كانت تشتغل بهذا الاتجاه. فقد كانت الفوضى كل يوم تحصد العشرات بدون علم للمصدر الحقيقي. مقتلة منظمة لا شيء من ورائها إلا الدفع بالبلد نحو حرب أهلية كان من الصعب تفاديها إذا لم يوجد حل لوقف شلالات الدم.

قبل أن يدخل إلى مكتب جمال باشا، كان الحاجب قد قام مكانه باستقامة وهو يرتجف. سأله الأمير سعيد.

- ماذا حدث يا ابني؟ لماذا لم تخرج من هذا المكان؟

- كلهم غادروا يا سيدي. إنهم خائفون من الموت ونحن لا ندري ماذا نفعل... قلت أبقى هنا حتى لا يحرق المكان وقد منعت الكثيرين من فعل ذلك وأنا خائف يا سيدي على نفسي وعلى أولادي من هذه الفوضى التي يمكن أن يذهب فيها الإنسان عن طريق الغلط.

- لا تخش شيئا. سأطلب من حراسي أن يسيروا المكان إلى وقت وصول الأمير فيصل.

صمت الشاب قليلا ثم طلب من الأمير الذي كان محاطا بعسسه:

- هل يسمح لي سيدي بالذهاب الآن إلى بيتي؟ يقولون إن العرب سيحرقون كل شيء وسيدمرون السراي وكل ما يرمز إلى السلطة.

- كما تريد. بإمكانك الخروج ولكن أليس من الأحسن الانتظار حتى يلتحق من ينوب عنك على الأقل حتى لا يظل السراي خاليا من كل حياة ولا يخرب كما كنت تقول!

- ما يراه سيدي ولكني أفضل الذهاب.

- طيب، انتظر حتى أبعث بصحبتك من يوصلك إلى بيتك بأمان.

- لم يعد لي بيت يا سيدي، فقد أحرق كل شيء. أولادي في المحطة منذ يومين. أخرج من هنا لأستقل قطار محطة القدم التي يعبر منها الجنود الأتراك والألمان. أتجول بسيدي الأمير عبر الأجنحة وأوكل من ينوب عني وبعدها أذهب.

- طيب وهو كذلك. ثم إن محطة القدم ليست بعيدة.

- لا أعرف يا سيدي إذا ما كان الموت متعلقا بالمسافات؟ إن مسافة مائة متر باتجاه محطة القطار غير مضمونة؟ الموت يمكن أن يختبئ في الثانية وفي الربع متر يا سيدي.

عبر الحاجب كل الأماكن، زاوية زاوية ثم دخل إلى مجلس جمال باشا. كل شيء كان في مكانه حتى رائحة الباشا شمها الأمير وأحس بها تتسرسب كثعبان بين الكراسي والطاولات. وعندما هم الحاجب بالخروج دخل الأمير عبد القادر الصغير العتبة الأولى للسراي، كان وجهه مظلما. طلب من الحاجب الذي كان يهم بالخروج مع الحارسين، أن يرى رئيس الحكومة بسرعة. دخل حتى قبل أن يصله الجواب. فجأة رأى أخاه وهو يقف متأملا مكتب جمال باشا، ثم التفت:

- عبد القادر، عرفتك من ضجيجك. أرأيت الطغاة. يبنون ويعلون ويتركونها لغيرهم. لو كان كل طاغية يفكر لحظة واحدة في مصيره النهائي الذي ينتظره لتعامل مع الدنيا بشكل مخالف وأكثر تواضعا.

- الطغاة عند العتبة يا سيدي الرئيس. ماذا نفعل بشكري الأيوبي؟ إنه يدفع الناس نحو الثورة ويقف وراء كل الجرائم التي مورست ضد الجنود الأتراك العزل. يريد أن يشعل فتيل حرب أهلية.

- إنه يهذي والأحسن ألا نعطيه قيمة.

- يجب أن يصمت. أنا أعرف مكان وجوده مع مجموعته التي أطلق عليها لجنة فيصل وأصبحنا نحن انقلابيين في نظره وانه الوحيد الذي يسير وفق الشرعية.

- أية شرعية؟ أعلمناهم وهم في اجتماعهم أن يغيروا من طريقتهم وان يلتحقوا بنا في انتظار دخول فيصل ولكنهم رفضوا. لا يوجد حل سوى تركهم ريثما يدخل فيصل ويحدد ما يراه نافعا للأمة.

- شكري الأيوبي يذهب بعيدا في تهمه. ويقول بأن المغاربة عاضدوا الأتراك وفرضوا أنفسهم على الشاميين بقوة السلاح. وهذا يا أمير سعيد غير مقبول. نحن أمام شعب يصدق كل الخزعبلات.

- إذا كان من رجل يعدم كان يجب أن نبدأ به. فقد كان ضابطا تركيا وبلغ مناصب عسكرية وإدارية عالية. وكان يتولى قيادة القوات التركية التي تدافع عن دمشق. صحيح أنه كان عضوا في الحركة العربية ولكنه لم يقطع علاقته بالأتراك مطلقا من الناحية التنظيمية حتى آخر لحظة. الأحسن له أن يخرس.

- أو نخرسه.

- أمنعك من فعل أي شيء. سيتولى أمره فيصل.

- نسجنه هو ولجنته.

- تسجن من؟ لجنة فيصل؟ ماذا سيقول الناس عنا؟ لا. . . لا. . . قل لي ما حال الرسالة التي بعثنا بها لعمر الداعوق رئيس بلدية بيروت وطلبنا منه إعلان تأسيس الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف، بعد انسحاب الحكومة التركية وانكسارها؟

- كل شيء يسير على ما يرام. فقد اجتمع الداعوق بوجهاء بيروت الذين رحبوا بالفكرة واعتبروها انتصارا حتى قبل استتباب أمور الدولة العربية. وكان بين الحاضرين كل وجهاء المدينة وعائلاتها الكبيرة الذين يكنون لك وللداعوق كل الاحترام والتقدير: بيهم، طراد، سرسق، سلام والطيارة. تناقشوا طويلا حول الوثائق وتأكدوا من صحتها وليست شركا من شراك جمال باشا للقضاء على المتعاطفين مع فكرة الحكومة العربية. واتفقوا في النهاية على تأليف امتداد للحكومة للعربية في بيروت برئاسة الداعوق وأسندت إدارة الأمن العام إلى أحمد مختار بيهم، يعاونه كل من سليم طيارة وجان فريج وعين محمد فاخوري ويوسف عودة لإدارة الشؤون الخيرية.

- هذا هو الصح، البقية ستتفكك من تلقاء نفسها.

فجأة سمعت رشقات رصاص قريبة سرعان ما غابت مع هدير الناس والصرخات المنبعثة من أمكنة مختلفة. لم تكن الصرخات بعيدة. أطل الأمير سعيد برأسه من نافذة السراي، في الطابق العلوي ثم تمتم:

- أبناء الكلب طخُّو الحاجب ومرافقيه.

نزل الأمير عبد القادر الصغير بسرعة متبوعا بأخيه. عندما لامس الأمير محمد سعيد يد الحاجب وشد عليها طويلا، شعر بحرارتها الكبيرة. كان وجه الحاجب ما يزال في كامل تورده وصفائه. ضغط على يد الأمير سعيد بقوة وقال بصوت كان يخرج بصعوبة كبيرة:

- ليس الأوادم وحدهم يصيبون، الحاجب يمكن كذلك أن يكون صادقا في رؤاه. ألم أقل لك يا سيدي إن مسافة مائة متر باتجاه محطة القطار غير مضمونة؟ الموت يمكن أن يختبئ في الثانية وفي الربع متر. هذه المرة كان أقوى، فقد اختبأ في الخطوة أو حتى في نصفها. لم أحسب ذلك... عائلتي أمانة في عنقك يا سيدي، ابعثها خارج هذه المدينة العمياء.

- لا تتعب نفسك، عائلتك على الرأس والعين. قال الأمير سعيد: سنأخذك إلى المستشفى.

- الضربة قوية يا سيدي ولا أعتقد أن الحياة ستمنحني مهلة أخرى. الحمد لله.

- الله كبير يا ابني ولا تقنطوا من رحمته.

- لا، أبدا لا نقنط من رحمة الله، الله هو اللي قنط منا وتركنا. أستغفر الله.

- ستأتي السيارة وتأخذك إلى المستشفى.

- إن شاء الله.

بلع الأمير سعيد ريقه بصعوبة. شعر بامتعاض يشتعل في داخله. ثم التفت نحو أخيه الذي كانت ملامحه قد اندثرت وحلت محلها زرقة داكنة. لأول مرة يرى في بؤبؤ عينيه أشياء هلامية تتذابح بقوة وتتقاتل بلا هوادة. شعر به في درجة عليا من الغليان:

- أنت تخيفني بعنادك. أرجوك يا عبد القادر، لا تفعل أي شيء.

- أنا متأكد من أنهم زبانية شكري الأيوبي.

- آمرك بألا تفعل شيئا. أنت لا تملك أي دليل. أية حركة متهورة منك وغير محسوبة، يمكن أن تدفع بالبلد إلى حرب أهلية مؤكدة.

ساعدني في هذه المهمة التي أدرك أنها صعبة إن لم تكن مستحيلة.

- وهل تنتظر أن يأتيك شكري الأيوبي ويعلن أمامك أنه هو المذنب؟ يجب أن تحذر أنت كذلك، ليس بعيدا أن يحاولوا إيذاءك. لم أعد أثق كثيرا في لجنة فيصل، إنهم يريدون الحكم ومن أجل ذلك سيبيدون كل من يعترض طريقهم بما في ذلك فيصل نفسه.

- حسبي الله ونعم الوكيل. قلت لك ليس هذا وقته. ساعدني على ترحيل عائلة الحاجب في محطة القدم.

ثم التفت من جديد إلى الحاجب الذي بدأت كل فرائصه ترتعد بقوة قبل أن يغمض عينيه ويتوقف فجأة عن كل حركة. فتح عينيه ورشقهما كالسهم في سماء فارغة. بردت فجأة يده التي ظلت في كف الأمير سعيد، ثم تصلبت كحطبة يابسة وازرقَ وجهه على دهشة مبهمة. ثم أغمض عينيه للمرة الأخيرة على طيور كانت تتذابح في السماء.

عض الأمير عبد القادر الصغير على شفته السفلى كعادته عندما يغضب ولا يجد تصريفا آخر لغضبه ولقلقه ثم دخل في إثر أخيه نحو السراي بينما أخذت سيارة المستشفى جثة الحاجب نحو المدفن الجماعي، ليس بعيدا عن المستشفى التركي.

- إنا لله وإنا إليه لراجعون. أرجوك، اذهب حالا إلى محطة القدم وابحث عن عائلة الحاجب وأقنعهم بالذهاب وانه سيلحق بهم ريثما تستتب الأمور. أعطهم ما يساعدهم من مال لتجاوز المحنة.

- وماذا أقول لهم إذا ما طالبوا بالحاجب؟

- قل أي شيء. قل إنه لا يستطيع أن يترك السراي وحده وإن الأمير سعيد مسير الدولة العربية، طلب منه البقاء حفاظا على السراي من النهب والسرقة وانه في حماية الأمن ولن يمسه أحد بأذى وانه هو الذي يأمركم بالذهاب وعدم البقاء على حواف المحطة. ولا تعد إلا بعد إركابهم في أول قطار. لا أريد أن أحمل ذنبا آخر على عاتقي.

- ليكن. إن شاء الله خير وأتمنى ألا يعترضنا رجال ذلك المعتوه، شكري الأيوبي.

- احتط لكل شيء ولا تدخل في لعبهم.

دخل الأمير سعيد في عمق السراي منكسر العينين، باهت النظرة محاطا بحرسه، بينما ركب عبد القادر الصغير حصانه وغرق بين دروب المدينة التي كانت كل يوم تضيق أكثر، على الرغم من أفراحها الكبيرة، متبوعا بمجموعة من الخيالة المغاربة.

-٤-

عندما كانت الفرق الإنجليزية تبحث عن تدعيم مواقعها حول المدينة، كانت أدخنة مخازن القمح والأسلحة التي أحرقها الألمان أو فجروها في منطقة القدم، ما تزال تتصاعد في السماء، سوداء كثيفة ومتعرجة. تسحبها الرياح باتجاه الفيلق الاسترالي الذي كان يدعم مواقعه في الشمال الغربي للمدينة، على طول خط السكة الحديدية ليتمكن من مراقبة كل المعابر.

لم يفعل لورانس ما فعله ناصر، لم يدخل إلى دمشق في نفس اليوم ولكنه انتظر يوما كاملا، عندما همدت الرياح الصفراء قليلا وصفت المدينة من آخر الأتراك والألمان. عندما وصل على المشارف رأى بقايا أدخنة ولكنه لم ير مدينة تحترق كما توقع. فوجئ بمدينة قائمة بذاتها. وبدا له من وراء الضباب الأخضر أو الأزرق والأدخنة المتعالية، أنه رأى أناسا يتحركون، يجيئون ويذهبون بلا توقف في دأب دائم كالنمل. تناهى إلى مسامعه صوت الموسيقى والزغاريد التي كانت تبتلعها الدروب الضيقة ورشقات الرصاص التي كانت ترددها زوايا المدينة الأربع. لم ير شيئا غريبا ما عدا ما رآه الأستراليون والإنجليز، الخط الأسود من الدخان الذي كان ما يزال يتصاعد من منطقة القدم حيث الموقف الأخير لخط الحجاز.

عندما وقف على حافة عين كان يتدفق ماؤها بقوة، سأل الضابط الإنجليزي المرافق له:

- هل ترى شيئا يا ستيرلنغ غير الذي أراه.

- لم أعد أرى بشكل جيد بسبب هذا الغبار البائس يا سيدي لورانس. لنغسل أوجهنا وبعدها ندقق.

- معك حق. لو يرانا الدمشقيون على هذه الحال لن يصدقونا بأننا من أنصارهم. سيضحكون من خبلنا.

اغتسلا من الأتربة الرملية العالقة. حلق لورانس وجهه وغير لباسه وعراقيته، ولولا عيناه الزرقاوان ومشيته المنضبطة قليلا لكان عربيا خالصا بلباسه الفضفاض وعقاله.

- لم يبق لنا إلا أن ندخل المدينة. الأخبار التي تصلنا لا تبشر بخير مطلقا.

- أعرف جيدا ما ينتظرنا. هذه الأرض تحتاج إلى من يملأ مكان الأتراك. أتصورها في فوضى عارمة، سرقة وتقتيل ونهب، مثلما يحدث في كل المدن التي لا يوجد بها من يسيرها.

- هناك ما هو أخطر من هذا، من يريد أن يسرق المدينة منا. أللنبي نائم على أذنيه ومزهو بانتصاره وهو لا يعرف أن الأمور لو تترك على ما هي عليه، هناك من سيحول هذه المدينة إلى قبر لقواتنا.

- أنت تبالغ يا سيدي لورانس. آلتنا قوية أمام هؤلاء البدو البسطاء ولا أعتقد أنهم قادرون على تنظيم أحوالهم بدوننا. على كل حال، كلما تحركنا بشكل أسرع، ربحنا وقتا أكبر.

- المهم علينا ألا نترك الوضع يفسد إذا كنا قادرين على سبق الأحداث.

استقل لورانس سيارته بصحبة ستيرلينغ وسارا نحو عمق المدينة. توجها نحو نزل فكتوريا، على حافة بردى، ليس بعيدا عن ساحة المرجة حيث البلدية. كان الناس يمشون مجموعات مجموعات، رافعين الرايات والخرق الملونة، تملأهم سعادة غامرة. هناك من كان يبكي وهناك من كان يرقص وهناك حتى من كان يغني وينشد الأهازيج الشعبية. كانوا يسدون مدخل البلدية بكثافتهم وراياتهم.

اقتحم لورانس المكان بقوة بعد أن فتح له الطريق حارسان من

حراس البلدية عندما قدم لهما نفسه. كان يبدو متضايقا جدا من الفوضى وعيناه تتراقصان كأنهما تبحثان عن شيء ما. صعد الطابق العلوي مسترشدا بالحاجب الذي قاده إلى حيث يستريح أعضاء مجلس الشورى المؤقتون.

لم يفاجأ بالحاضرين. فقد كانت المعلومات تصله تباعا من شكري الأيوبي. كان أغلبية أعضاء مجلس الشورى يتلاحقون الواحد تلو الآخر لينضموا إلى قاعة الاجتماعات. الأمير ناصر ونوري الشعلان يتحاوران في جلسة مسترخية وكأنهما يتمتمان بشكل خفي. يحيط به يمينا وشمالا كل من الأمير عبد القادر الصغير والأمير سعيد الذي قرأ شرا في ملامح لورانس وهو يدخل بشكل مهين. حياه الجميع بينما لم يقم عبد القادر الصغير لتحيته. نظرا إلى بعضهما بعضا بحقد تطاير عندما تقاطعت خزراتهما. لاحظ الأمير ناصر ذلك ولكنه اعتبر المسألة من بقايا حادثة جسر اليرموك، فلم يعرها اهتماما كبيرا، فهو يثق بأن الأيام كفيلة بمحو كل أشكال سوء التفاهم.

مد الأمير سعيد يده إلى لورانس وهو يقدم نفسه:

- الأمير سعيد والأمير عبد القادر الصغير من أحفاد الأمير عبد القادر يرحمه الله. وكما ترى لقد تم الإعلان عن تكوين حكومة الشريف حسين في انتظار وصول الأمير فيصل بمساعدة كل من ترى هنا في القاعة، مجلس الشورى المؤقت، شكري الأيوبي وبيت صلاح الدين.

كان شكري الأيوبي ممتعضا من كلام الأمير سعيد. ولم يستطع أن يخبئ أحاسيسه الدفينة. بعد لحظات انسحب شكري الأيوبي مع لورانس في عمق الزاوية الخلفية لقاعة الاجتماعات. نظر الأمير عبد القادر الصغير صوب أخيه الذي ارتسمت على محياه المرتبك علامات الاستفهام الكثيرة. لماذا ظل شكري الأيوبي صامتا عندما سأله الشريف ناصر عن رأيه في كل ما حصل، وأعطى الانطباع بهز رأسه بأنه موافق على كل ما تم؟ لماذا ينسحب الآن مع لورانس بأمر منه وكأنه تحت إمرته؟ تساءل الأمير سعيد باندهاش.

في الزاوية المنعزلة من الصالة المجاورة، لم يجد شكري الأيوبي أي حرج بمواجهة لورانس بما كان يراه اغتصابا للحكم:

- لا تسمية لما حصل أمام أعين الجميع سوى اغتصاب ولا شيء آخر.

- ولكن الشريف ناصر كان موافقا على ذلك ولم أر في نظرته ما يبين انزعاجه.

- أشعر كأن الأمير عبد القادر الصغير يسيطر على الشريف ناصر، ولا أعرف السبب. يبدو لي كأنهم خدعوه بالكلام المعسول والكاذب. فقد ظل الأمير سعيد مع الأتراك حتى آخر لحظة من هرب هؤلاء. ولما رأى أن الأمر لم يعد في صالحه، انضم إلى الثورة العربية. دخل هو وأخوه على لجنة فيصل بشكل فجائي وتهديدي واستولوا على مقاليد الأمور ووضعونا أمام الأمر الواقع. هذا يا سيدي لا اسم له إلا الانقلاب. وهؤلاء المغاربة خطرون ليس فقط على العرب ولكن على مصالح الإنجليز. علاقاتهم بفرنسا كبيرة ومتشعبة منذ الجد الأول، ويتقاضون منها رواتب كبيرة تسمح لهم بتجنيد الناس ضدكم، كما سبق أن قلت لك. إيقافهم عند هذا الحد أمر ضروري.

- لو كان الأمر بيدي وحدي لما ترددت في إعدامهم، خصوصا ذلك المعتوه الذي يظن نفسه فوق الكل. بيني وبينه حسابات قديمة سأعرف كيف أدفعه إياها في الوقت المناسب.

- ستريح المدينة من شرهم الداهم.

- سنرى. سأتولى هذا الأمر بنفسي. لنعد إلى القاعة ونستمع إلى بقية الأحاديث. ما يحيرني في العملية هو الأمير ناصر، لا أدري هل هو مع أخيه أم يعمل ضده؟

الحركة التي قام بها لورانس بسحبه لشكري الأيوبي نحو الزاوية، لم تعجب لا سلطان الأطرش ولا نوري الشعلان الذي ظل صامتا وحياديا في الظاهر. بينما ظل أبو تايه يبحث عن المبررات للورانس ويصفه بالرجل النزيه والخير الذي دخل الإسلام طواعية. عندما عاد لورانس

كانت المناوشة قد وصلت إلى سقفها خصوصا بين عودة أبو تايه وسلطان الأطرش. بدأت بملاسنة ثم انتهت بمد سلطان الأطرش يده إلى وجه عودة أبو تايه. سمعت رنة الصفعة في أقصى قاعة البلدية تحت دهشة الجميع. التصقا بعنف وبصعوبة تم فصلهما وإبعادهما عن بعضهما بعضا حتى لا تحتد المعركة بينهما. دخلوا بعودة الذي كان يغلي ويزبد إلى إحدى الغرف ورمي على الكنبة حتى يرتاح. ظل يصرخ حتى بح صوته وامتلأت عيناه بالدم. أقسم أن يغسل الدم الدرزي المهان.

- يستحسن أن نخرج، الجو صار مشحونا وصعبا.

قال الشريف ناصر. وخرج متبوعا بالأخوين وبعض الحراس المغاربة وسلطان الأطرش. غابوا عن الأنظار. فجأة صار المكان مقفرا وخاليا ولم يبق إلا لورانس وبعض الحرس البلدي الذي ظل يحاول أن يحاصر الناس ويدفع بهم إلى الوراء وهم يحاولون أن يدخلوا إلى عمق البلدية. طلب لورانس من قوات نوري الشعلان وأبو تايه أن تفرغ المكان من الازدحام وتبعد الناس عن أبواب البلدية وان تخرس الذين ينادون بحياة الأمير محمد سعيد وأتباعه والحكومة المؤقتة التي يمكنها أن تصبح حكومة دائمة إذا دعمها الفرنسيون. عندما أعطى نوري الشعلان أوامره، سدت الأمكنة وتراجع الناس قليلا إلى الوراء حتى صاروا خارج البلدية، فأغلقت الأبواب عن آخرها. صرخ الناس قليلا ثم تجمعوا في الشوارع وهم يهتفون بحياة الثورة وقائدها المفدى الأمير سعيد.

«- الأمير المفدى، الأمير سعيد، ها قد بدأنا نلامس ما لم نكن نريده. يجب حسم الموقف قبل أن يتحول إلى مشكلة يصعب تسييرها.»

تمتم لورانس وهو لا يستطيع أن يخبئ غضبه.

انشغاله كان باديا على نظرته المرتبكة التي لا تستقر على مكان. بينما ظل شكري الأيوبي صامتا، ينتظر ما كان يعزم لورانس القيام به. أحس لورانس كأن المغاربة صاروا فجأة قوة. وندم في داخله أنه لم يعترض الشريف ناصر ويمنعه بطريقة ما من الطرق من الدخول إلى دمشق. كان يمكنه أن يضغط على أخيه الأمير فيصل فيقوم هو بمنعه.

وبالتالي وضع المغاربة في حالة عزلة، مما يسهل تصفيتهم. ولكنه كان مصمما ألا يترك المسألة تتطور أكثر، قبل دخول فيصل وجيوش أللنبي.

وعندما هم نوري الشعلان بالخروج من قاعة الاجتماعات التي فرغت فجأة، وتجميع قواه وهو في حالة غليان، طلب منه شكري الأيوبي ولورانس البقاء قليلا معهما فلم يمانع. ارتكن من جديد في مقعده المغرف وطلب من حراسه الخواص أن ينتظروه قليلا في الخارج.

بعد اجتماع طويل انضم إليه نوري السعيد بفيالق من جيشه، كان قرار لورانس واضحا: عدم ترك حالة المغاربة تستفحل بحيث يصبح من الصعب تسييرها والسيطرة عليها وضرورة حسم قضية الحكم بشكل نهائي. كان شكري الأيوبي وبعض أعضاء لجنة فيصل من المحركين بهذا الاتجاه.

بعث لورانس برسوله الخاص ليخبر الأمراء الثلاثة: سعيد وعبد القادر والشريف ناصر بضرورة الحضور إلى مقر السراي لحسم بعض الخلافات العالقة. فعاد بسرعة منكسر الجانب ليخبر لورانس بأنهم متعبون ولا يستطيعون كسر القيلولة، ثم أنه لا يجوز إقلاق ضيف المغاربة الأمير ناصر الذي لم يرتح منذ دخوله إلى مدينة دمشق وانه عندما يقوم من راحته سيحددون الوقت الذي سيزورون فيه السراي.

اغتاظ لورانس أكثر وزادت حالة حنقه. لم يراقب لسانه كعادته عند كل انزعاج، فأخرج حممه في وجه مبعوثه الخاص.

- قل لهذا الخرا الذي اسمه سعيد أن يأتي هو وجماعته أو ابعث بمن يأتي بهم مكبلين مقيدين كانقلابيين على الحكومة الشرعية ويحاكمون أمام الملأ. هذا أمر مني ومن رئيس القوات الشمالية، أللنبي، وليس خيارا. وأرجو ألا يضطروني لحل الحكومة في غيابهم واتخاذ الإجراءات الرادعة في حقهم جميعا.

شعر الأخوان بحالة احتقان ولكن الأمير ناصر هدأ من روعهما:

- أنتما لا تعرفان لورانس مثلما أعرفه. رجل طيب على الرغم مما يبدو عليه من مظاهر العنف وقلة الأدب. فهو يريد أن يبدي للأمير فيصل

حسن نيته وتفانيه في خدمته، وهذا مفهوم بالنسبة للذي يريد أن يحصل على منصب أو إدارة أو شيء من هذا القبيل في الحكومة المقبلة. أرجو ألا تأخذا كلامه مأخذ الجد وسأعرف كيف أسوي الأمور بنفسي.

- يا شريف ناصر، قال عبد القادر الصغير وهو يحاول أن يكتم غيظه، لورانس أعرفه أنا كذلك واصْطدمت معه مرات عديدة. في رأسه شيء يريد الوصول إليه ويبدو أننا خلطنا أوراقه وحساباته. هو هنا من أجل مصلحة بلده وهذا ليس عيبا في ذاته في ظرف صعب كهذا، ولكنه خطير على مستقبل البلد وقادر أن يقتل ولا تهمه أعمار الناس. ليس رحيما بأي شيء. استطيع أن أتكفل بأمره ولكني أخشى الأمير فيصل وتبعات الوضع مع الإنجليز.

- أنت تبالغ يا أمير عبد القادر. لنذهب ونرَ معا ماذا يحدث. نحن لم نفعل ما لا يرضي الله ولا الأمير فيصل والأمة العربية المتطلعة لما نقوم به. يجب ألا نبدو صغارا أمامها وإلا سيخيب ظنها مرة أخرى وهذه المرة في بني جلدتها؟

- ليكن، مع أن قلبي يحدثني بأنه يدبر مكيدة كبيرة لنا جميعا.

- ماذا يمكنه أن يفعل؟ أن يوشوش في أذن فيصل؟ أنا كفيل بإقناع فيصل بالحقيقة.

- أخشى أن المسألة تتجاوز فيصل بكثير.

- فهمتك ولا أعتقد أنك على حق. لا، هذه مبالغة. حتى الآن لم يثبت ما قيل عن تقسيمات سايكس-بيكو. قد تكون مجرد كذبة من الأتراك المهزومين والروس لأنهم لم يحصلوا على ما كانوا يصبون إليه.

وخرج الثلاثة بصحبة المبعوث، مطوقين بفرقة من الحراسة المغربية المقربة.

كانت رياح الخريف قد كنست كل شيء، الشوارع والأوراق والغبار بينما لم تستطع أن تنقي الشوارع من بقايا الجثث والأوبئة الفتاكة التي أعطت حرية غير معهودة للجرذان لكي تسرح بحرية في الطرقات

والمعابر الضيقة التي تفجرت فيها قنوات المياه. تجمعت الجثث بالقرب من المحلات والبيوتات وصارت حالات تحللها تشم من بعيد ولا تطاق، تلتصق بجوانب الآليات المحروقة وأحجار البنايات التي فجرها الألمان قبل مغادرتهم المكان.

كسر الأمير محمد سعيد حالة الصمت التي نزلت فجأة وهم يرون المدينة التي لم تصل بعد إلى رتق جراحاتها وكسوراتها.

- الأولى بلورانس أن يمد يده ونصلح هذه الكوارث لأن ما يحدث مخيف وإذا لم تدفن الجثث وتنقّ قنوات المياه ستنتشر الأوبئة وستندثر هذه المدينة ولن تبقى إلا أشباحها. وليفرحوا وقتها بحجارتها.

- أنا متأكد أن حماس لورانس هو الذي يقوده نحو هذا التهور. ويجب ألا نعطي لمسألة بسيطة اعتبارات سياسية غير حقيقية، ضررها أكثر من نفعها.

أراد عبد القدر الصغير أن يرد ولكنه عض على شفته السفلى، عادته كلما وصل غضبه إلى القمة وانسحبت كلماته في حلقه، ثم وجه نظره تجاه سماء غيبتها غلالة الغبار الأصفر.

كانت الغربان تتكاثر على عيدان الأشجار الميتة وكابلات خيوط التليفون التي تخترق شوارع المدينة. تنظر إلى المارين بعيونها المدورة الفارغة والقاسية. تحرك رؤوسها قليلا، تنقر تحت أجنحتها بعنف لطرد الحشرات المتأتية من الجثث المتفسخة في الطرقات، ثم تعاود جلستها المستقيمة والمراقبة لكل حركة. في البداية كانت تخاف من العابرين الذين، كلما رفعوا رؤوسهم نحوها، طارت وهربت بعيدا متوقعة المخاطر من نظرات الناس وحدها، لكن مع الوقت، لم يعد يثيرها شيء. حتى عندما ينشها الأطفال تبتعد قليلا ثم تستقر على أقرب عود أو خيط تليفون، وتعاود نظراتها المشينة كمن ينظر في كل عابر، طعما محتملا.

عض الأمير عبد القادر الصغير على شفته السفلى بحدة أكثر كي لا

يتكلم، بعد أن التقت نظرته بنظرة الغراب الذي كان ينقر جثة تفسخت وتحللت على قارعة الطريق. شعر بامتعاض عميق وحاول أن يطرد عبثا كل الصور السيئة التي انتابته دفعة واحدة.

حنى رأسه لكيلا يرى شيئا وواصل سيره على وقع أخيه والشريف ناصر.

-٥-

- شو فاكر حاله؟ الله؟ لازم يعرف حدوده وإلا . . . للصبر حدود تجاوزناها.

قال الأمير عبد القادر الصغير متوعدا أمام الجمع الغفير الذي ظل متمترسا خارج أبواب السراي المغلقة، وهو يتخطى العتبات التي فتحت فجأة لاستقبالهم. لاحظ أنها كانت محاطة بفرق كثيرة من الجيش النظامي الذي كان يشرف عليه نوري السعيد ومجموعات من بدو الرَّوْلة والشعلان . . .

- يجب ألا تأخذ الأمر مأخذ الاستفزاز. نحن لا نعرف ماذا يريد. ثم إن الأمير فيصل يدخل اليوم أو غدا ويستتب كل شيء. أرجوان لا تترك عواطفك تسبقك.

قال الأمير سعيد وهو متوجس من ردود فعل أخيه.

- يا الله؟ ألا تشعر بالمكيدة؟ أرأيت وجوه جنود نوري الشعلان؟ ألم تر نظرات الجيش النظامي؟ كلها تنبئ بشيء خطير هو بصدد الوقوع. بدأت أندم لقبولي المجيء إلى هذا المكان.

- أي شيء خطير وصاحب الملك على بعد مسافة أقل من يوم من دمشق؟

- الأمير سعيد على حق، قال الشريف ناصر مهدئا من روع عبد القادر، يستحسن ألا نضخم الأمور وألا نصب الزيت على النار. هناك من ينتظر مثل هذه الأوضاع ليفرض فوضاه.

ردد الشريف ناصر مرة أخرى وهو يصعد بسرعة الأدراج الموصلة لقاعة الاجتماعات.

كانت القاعة الواسعة غاصة بالناس. حضر الجميع، حتى الذين قاطعوا البلدية والسراي منذ تنصيب الأمير سعيد. ولكن الوجوه كانت مشدودة والعيون مرهقة من الخوف وكثرة التعب وقلة النوم.

دخل الأخوان بحراسهما الشخصيين يسبقهم الشريف ناصر. كان نوري الشعلان برجاله في داخل القاعة وعلى الأبواب، يقف وراء لورانس. شكوك عبد القادر الصغير لم تكن بعيدة عن الحقيقة.

- كل الناس هوني، قال نوري الشعلان، يمكننا أن نبدأ.

فجأة وبخفة نمر بري متوحش، اعتلى لورانس منصة قاعة الاجتماعات:

- أشكر كل الحاضرين، لجنة فيصل وممثلي البلد ووجهاء المدينة. نعرف أن الكثير من الأمور لم ييسر لها أن تسير مثلما كان يجب أن تسير. ووقعت تجاوزات كادت أن تتسبب في الفوضى وربما في حرب أهلية وانا موكل وبصفتي ممثلا شخصيا للأمير فيصل، بأن أتخذ القرارات التي تحفظ أمن البلد مهما كانت قاسية. لا يمكن أن نلعب بمصير الناس لإشباع غرائز السلطان لدى البعض.

- الأمن محفوظ بدونك وبدون هذه الفوضى.

- ستعطى لك الكلمة يا عبد القادر لتقول ما تشاء. الآن الكلمة لي وأنا المسؤول المخول بتنظيم الأوضاع التي بدأت تفلت وتحل محلها الفوضى العارمة.

فجأة بدأ الصراخ من وراء القاعة يتعالى ويتحول إلى ضجيج.

«- نريد الشريف فيصل أو من ينوب عنه في انتظار وصوله. لا نريد أن يحكمنا الغرباء.»

- أحسنتم، قال الأمير عبد القادر. نحن أجانب ولورانس نبت في هذه الأرض أليس كذلك؟ معكم حق. يوم يبيعونكم في سوق النخاسة بأتفه الأثمان، ستعرفون من هو الأجنبي ومن هو الحر.

بإيعاز من الشريف ناصر، طلب الأمير محمد سعيد الكلمة:

- يجب أن نكون واضحين، أنا أستغرب غياب أغلبية الوجهاء وأعضاء مجلس الشورى. ألم يكن من الأجدى استدعاؤهم ليقولوا كلمتهم في مصير بلادهم؟

- لجنة فيصل هنا بالتمام والكمال، تدخل شكري الأيوبي بهدوئه المعتاد، وهي المخولة قانونا بالبت في كل شيء ولا قوة تستطيع أن تحل محلها، في انتظار وصول حاكم هذه البلاد.

- أفهمك جيدا يا أستاذ شكري لو قلت هذا الكلام في حضرة الأعيان ومجلس الشورى عندما دعيت في الأيام العصيبة وفضلت أن تتغيب.

- اغتصبتم الحكم بالقوة، أنت وأخوك وأتباعكم. كل الأمور كانت منظمة سلفا وكلمتنا لم تكن قادرة على تغيير الكفة. كنتما مصممين على الذهاب بعيدا في الاستيلاء على السلطان.

- لم نستلم شيئا إلا برضا عائلة الشريف حسين وعلى رأسها ابنها البار الشريف ناصر. هل هو كذلك غير مخول؟ ليكن. على كل حال كلنا نقوم بنفس الوظيفة وهي حماية البلد من الفلتان الأمني. لنعمل اليد في اليد، مجلس الشورى والأعيان ولجنة فيصل والقادة العسكريون ونحفظ جميعا الأمن في انتظار وصول الشريف فيصل الذي هو على أبواب دمشق. ألا نستطيع أن نتفق لمدة يوم أو يومين.

لم تحرك القاعة ساكنا. تأمل عيون الحاضرين، عسكر الشعلان، كانت تتقد شرا، عينا الشريف ناصر، كانتا باردتين كعيني ميت. لم يشعر في حياته بالوحدة والعزلة والخيبة مثلما شعر بها في تلك اللحظة. لم يكن الأمر يحتاج إلى وعي كبير لمعرفة أن الأمر دبر سلفا.

عاد إلى مكانه محفوفا بصمت يشبه في كل ملامحه صمت الموت.

رفع حرس نوري الشعلان أسلحتهم عاليا ونادوا بحياة لورانس والشريف فيصل. فعاد إلى المنصة من جديد وقد تعمقت ثقته في نفسه.

- ما دام الأمر هكذا، أستطيع أن أعلن أمامكم وبرضا الأغلبية،

حل الحكومة المدنية وتنصيب شكري الأيوبي حاكما عسكريا ونوري السعيد قائدا أعلى للقوات المسلحة رسميا وبعد استشارة الأمير فيصل. وعزمي مكلف بالمؤونة وجميل مسؤول عن الأمن العام. وأؤكد لكم أن الأمير فيصل راض عن هذه الحكومة العسكرية وهو الذي عينها.

- هذا اسمه انقلاب انجليزي، قال الأمير عبد القادر الصغير بعد أن قفز باتجاه المنصة وقد فقد أعصابه. أنت تهيننا عربا وبدوا يا لورانس وتنظم الأكاذيب كما تشتهي!؟

- أنت تمارس عصيانا ضد الدولة وقد يكلفك ذلك غاليا.

- من وضعك أنت في هذا المكان حتى تقرر في مكان سادتك ما يجب تقريره؟

- سيدي الشريف فيصل وانا أدين له بالكثير.

- أنت لست أكثر من جاسوس مسيحي يشتغل لمصلحة أبناء جلدته. لا شيء يهمكم من هذه الحرب إلا التحكم في العرب ونهب خيراتهم. أشك في أن الأمير فيصل هو الذي وضعك في هذا المكان. أقسم برأس أمي إذا اتضح أنك كذبت علينا، سأكون أنا من يضع على رقبتك حبل المشنقة في ساحة المرجة وسأكون أول من يسحب كرسي الإعدام من تحت حذائك النتن.

ثم التفت نحو ناصر الذي كان قد عاد لتوه من خلوة صغيرة مع نوري السعيد وبعض الأعيان.

- لم تبق إلا أنت يا ناصر ولك حق أولى من هذا الوغد الإنجليزي، أدعوك لأن تطالب بحقك ونحن وراءك حتى آخر قطرة من دمنا. لا يمكن أن نسلم المدينة لأزعر مثل هذا وزبانيته، افعل شيئا يا أخي؟! صمتك يوهمهم بأنك معهم؟! أوقف هذه المهزلة بإشارة واحدة من يدك.

- سيد عبد القادر؟ حسّن كلامك والزم حدودك. لقد تحملناك كثيرا. أنت لست في سوق.

قال أبو تايه وكأنه كان يريد أن يعلن عن وجدوده في المكان.

- حتى إنت يا أبو تايه؟

التفت الشريف ناصر نحو لورانس الذي برزت عيناه الزرقاوان بتساؤلات واستغرابات عديدة ثم تأمل وجه الأمير سعيد الذي بدت انكساراته وخيباته مرتسمة بشكل واضح على كل محياه. نظر إلى نوري الشعلان الذي هز رأسه بشكل خفيف ذهابا وإيابا كمن ينهى طفلا عن الكلام. ثم حنى رأسه وصمت، كأنه لم يكن معنيا بما كان يدور أمام عينيه من مشاهد لم يكن قادرا على تحملها.

منذ تلك اللحظة لم يعد أمام عبد القادر الصغير ما يخسره. فقد أطلق العنان لفورة غضب لم يكن قادرا على التحكم فيها على الرغم من خزرات أخيه التي كانت تحاول أن تمنعه من الذهاب بعيدا في كلامه. فقد تشمم بحاسته المكيدة المنصوبة له.

- أية أمة هذه؟ تقبل الذل والمهانة وتضع الحبل في رقبتها بخيارها؟ أي قادة هؤلاء الذين يمشون منكسي الرؤوس في أثر سادتهم؟ أي دنيا هذه وصلت لها أمة كانت سيدة على العالم قبل أن يغتصب حرمتها الأتراك؟ أي دين يقبل بتولية القتلة على أمور المسلمين؟

- العالم تغير يا سيد عبد القادر، وعليك أن تقبل بذلك، أنت ومن يسير في فلككم. يفضل أن نحسم النزاع بالعقل وألا ندفع إلى استعمال القوة.

قال لورانس الذي كان كأنه يقود عبد القادر الصغير إلى أقصى درجات الغضب.

- أعرف أن العالم تغير. ولكني أعرف كذلك أن العالم الذي تبشرون به سيأكل الأخضر واليابس وسيضع هذه الأرض تحت وصاية أبدية حتى تنزف كل خيراتها الظاهر منها والخفي وترمونها بعد أن تدخلوها في حروب عرقية، جهوية ودينية ستأتي على كل شيء واقف وحي. أدرك جيدا أنك أفلحت في وظيفتك. أنت لست أكثر من جرذ حقير وتافه يبحث عن مخبأ له في مكان ما في هذه البلاد لينخرها

كالسوسة من الداخل. لو لم أخش تبعات حركتي لقطعت رأسك بهذا السيف بلا تردد. . .

ثم بصق على الأرض أمامه. هش عليه ليضربه فتدخل عودة أبو تايه مرة أخرى ومنعه من الحركة، بينما انتظم رجال نوري الشعلان في شكل حلقة تنتظر أوامر قائدها.

قام نوري الشعلان الذي بقي مدة طويلة منهمكا في الحديث مع رولا:

- أنت ترى الوضع جيدا يا سيد عبد القادر، ولا داعي للشتائم والكلام الفارغ. يستحسن أن تزن كلامك ومفرداتك وتقبل بالأمر الواقع، فلست في وضع من يملي الشروط.

فهم الأمير سعيد الوضع جيدا، فسحب أخاه واستعدا للانسحاب من السراي محوطين بحرسهما الخاص. التفت الأمير سعيد للمرة الأخيرة صوب المجتمعين، قبل أن يتخطى عتبة القاعة، فأفرج له الحراس الطريق:

- صار الآن كل شيء واضحا. إنكم تسيرون بهذه الأرض نحو حتفها المؤكد. سترون أي منقلب ستنقلبون وسترون الخراب الذي يلحق بهذه الأرض بسبب سوء تدبيركم. قادوس المياه مغلق، الناس يعانون من العطش، ابعثوا بلجنة مختصة لكي تصلحه، فجثث الأتراك تسد كل منافذه. لا تحملوا على رقابكم موت الآلاف من الأمراض الفتاكة والنهب والأطماع. لا نور في المدينة، كل شيء فيها صار يعوم في الظلمة، فهي تنتظر. اخرجوا من هذا المكان وانتبهوا إلى ما يحيط بكم، هناك شعب يحسب خطاكم وينتظركم في الزاوية. اتبعني يا عبد القادر. . . نظفوا المدينة من علامات الحرب، إنها ممتلئة بالعربات المكسورة وبقايا الآليات التركية والألمانية، وادفنوا جثث المقتولين فقد بدأت تتفسخ وتيبس على الأرض كأنها جثث كلاب وقطط وليست لآدميين مثلنا. التيفوس والأمراض الأخرى تملأ البلد. قوموا بهذا وأنقذوا المدينة من خراب محتوم. . .

- سنعيد كل شيء إلى مسالكه الطبيعية. قال لورانس في نوع من التحدي:

- طيب. وماذا ستفعل بالذين قتلوا الأتراك العزل؟

- سنعطيهم أوسمة، خلصونا من قتلة ومن مجرمين. ولكننا بدءا من اليوم سنقوم بسحب الأسلحة من سكان المدينة، خصوصا المغاربة. لا نريد دولة في دولة.

- وماذا تفعل بالأستراليين الذي سرقوا البنك السوري ونهبوا كل أمواله، ونهبوا محتويات متحفه القديم وذهب الست زينب والجامع الأموي؟

- مجرد كلام لتشويه صورة جيوشنا أمام العملاء. لا أكثر.

- أنت أعرف الناس أن ما أقوله صحيح ولا غبار عليه. اسألوا أعضاء لجنة المدينة التي حاورت أكثر من ألفي رجل وامرأة من بينهم موظفو البنك والمتحف القديم وخدام مقام الست زينب.

- هذا كلام المحبطين والخاسرين.

لم يرد عليه سعيد ولا بأية كلمة ولكنه وهو يلتفت بظهره للنزول متبوعا بأخيه، مرت بذهن لورانس فكرة إعدامهما وشنقهما في الساحات العامة بتهمة الخيانة العظمى، مثلما نكل بهما جمال باشا، لكنه خاف من التبعات وردة فعل فيصل، خصوصا الشريف ناصر الذي اشترط على نوري الشعلان عندما استفرد به بتوصية من لورانس، مقابل صمته، عدم المس بالأميرين.

-٦-

كان لورانس نائما عندما جاءه عواد، رئيس العسس، ينبئه بالخبر الذي أقلقه وأزعجه في قيلولته التي صارت طقسا يوميا ولا يستطيع أن يتنازل عنه وإلا فإن كل يومه لن يكون له معنى.

- هاه... ماذا وراءك يا عواد، أنت لا تأتي إلا بأخبار الكوارث؟

- سيدي. . . سيدي. . . عبد القادر الصغير أعلن العصيان وهو الآن يذكي نار الفتنة ويجند وراءه مجموعة من أنصاره في الأحياء المسلمة وحتى بعض الأحياء المسيحية التي مازالت تدين بالولاء لجده الذي أنقذها من موت محتوم في ١٨٦٠.

- وماذا يقول في حملته المسعورة هذه؟

- يقول إن الأمير فيصل وإخوته وأباهم الشريف حسين ليسوا إلا صناعة إنجليزية ويجب الدفاع عن الأمة قبل فوات الأوان. إنهم يسرقون انتصار الشهداء والمعدومين.

- وموقف أخيه، زعيم الانقلاب؟

- لا يبدو أنه لا يملك شجاعة عبد القادر. ولكن حظوته بين أتباع المركزيين كبيرة. وله امتدادات في العائلات الدمشقية العريقة. حاول أن يجمع حوله أعضاء مجلس الشورى ولكن نسبة كبيرة منهم تخلوا عنه والتحقوا بلجنة فيصل.

- وماذا يفعل المعتوه المجنون، عبد القادر؟

- كما قلت لكم يا سيدي، يبدو أنه جُن. إنه يداهم، على رأس مجوعات درزية مسلحة، بيوتات الكثير من الناس ويصرخ وهو يحرق أملاكهم: قولوا لسادتكم الإنجليز إني مازلت هنا، فليأتوا لحمايتكم.

- سنرى. بالنسبة إلى الدروز سيتكفل بهم الدروز أنفسهم، أما هو فله من يهتم به وبشكل نهائي. أشكره أنه أعطاني هذه الفرصة الكبيرة. غدا سأتفرغ له بشكل جدي. الأستراليون ينتظرون أوامر من يطلق أيديهم، وسيكون لهم ذلك.

فجر اليوم الموالي، نزل الجيش بوحداته المختلفة بقيادة نوري السعيد، إلى مكان العصيان مسبوقا بأبو تايه والرَّوْلة وجيش نوري الشعلان وطوقوا المنطقة بكاملها في شكل حزام كبير. وعندما بدأ التراشق يزداد حدة، انسحبت القوات الدرزية صوب الوادي الذي ظل سالكا وغابت بين خلجانه بعد أن تركت وراءها الكثير من القتلى ملقين

في الطرقات طوال الليلة التي مضت ومنع الأهالي من دفنهم أو حتى الاقتراب منهم. ووضعت الجثث، في كل الأيام التي تلت، تحت حراسة مشددة. كان الأطفال يلعبون لعبة القط والفأر مع بدو الدروز وعسكر الأستراليين، كلما وجدوا فسحة أو حالة غفلة، زحفوا وراء جذوع الأشجار وسحبوا الجثة إلى الوراء قبل وضعها في إزار وتسليمها إلى الأهل ودفنها في أقرب حفرة. شاب أغمض عينيه وراح لكي يسحب جثة والده. سحب اليد بقوة ولكنه لم يستطع. استعمل كل طاقته فانسحب الذارع بكامله في يده. وهو يتراجع، انتبه له الحارس. لم ينبهه كما هي العادة. فأطلق النار أحد الجنود الأستراليين من الذين كانوا يقودون عمليات المسح مع الجيش النظامي، فبقي هناك في مكانه يتقلب ويزحف حتى جمد الجسد نهائيا، ليس بعيدا عن جثة كانت قد بدأت تتحلل، متمسكا بشدة بذراع والده في يده.

اقتحمت الدورية الأسترالية حي العمارة بدون سابق إنذار، قد ألقت القبض على الأمير محمد سعيد واقتادته إلى دار البلدية لمواجهة لورانس للمرة الأخيرة:

قال له لورانس وهو يستقبله:

- ها أنت مرة أخرى أمامي.

- فعلك يذكرني بجمال باشا. هو على الأقل بيننا وبينه شيء مشترك.

- لم آت بك لأسألك عن هذا، أريد أن أعرف أين يختبئ المعتوه.

- أولا هو ليس معتوها. المعتوهون من يظنون أن العالم كله صار تحت أقدامهم وهم مخطئون. لا أعرف ولا تنتظر مني أن أجيبك عن سؤال منحط كهذا لا يصدر إلا عن قاطع طرق. إنك بصدد ارتكاب أكبر جريمة في حق المدينة، ولن يمر ما تفعله بخير.

- كنت أظنك أعمق من هذا ولكن يبدو أنكم تتشابهون. أتشوق لإعدامك. لأن أراك معلقا على حبل مشنقة، أراك وأنت ترتعش وتبول في سروالك، وأنت تصعد على الخشبة ولكني لا أريد أن أجعل منك

شهيدا قبل الوقت. أنتظر القبض على المعتوه أخيك لكي يكون العرس مزدوجا.

- أفضل أن أصمت.

ثم صفق لرئيس الحرس القريب منه:

- خذه يا عواد إلى حيث يرتاح، ربما جعلته جدران السجن أكثر تعقلا.

عند الباب وقبل أن يغيب في البهو الذي ابتلعه فجأة، التفت نحو لورانس:

- تعرف يا لورانس، عماك هذا يذكرني بعمى الحجاج. أعرف أنك لا تفهمني ولكن سيأتي يوم وستجد من يشرح لك هذا الكلام.

كانت هذه كلماته الأخيرة، لم يره بعدها أبدا.

بعض الأخبار التي كانت تصله تباعا أكدت للورانس موقع الأمير عبد القادر الصغير. لم يتوان لحظة واحدة. فطلب المساعدة من القائد شوفيل Chauvel، الذي وضع تحت تصرفه فرقة بكاملها كانت في الثكنة التركية وهي أقرب مركز له لكي يستعمله عند الحاجة الملحة. البادية التي اختبأ فيها عبد القادر الصغير كانت مكشوفة. بعد ساعات من العمل والحصار والحرق، تحضيرا للهجمة الكبيرة والنهائية، كان الكولونيل الأسترالي كيركبريد Kirkbride في مكتب لورانس. استلم المعلومات والأوامر ثم انسحب وهو يضحك:

- كل شيء صار جاهزا. واحدة من اثنتين، إما أن آتيك برأسه أو بخبره.

- أرجو أن تعود سريعا وسالما خصوصا، فالرجل خطير جدا.

- هو في قبضتنا وقد وضعنا حزاما كبيرا حول المنطقة ولا يمكنه أن يفلت هذه المرة.

- لا أريده لا سجينا ولا حيا.

- هذه من مهماتنا.

عند منتصف النهار بالضبط، كان كل شيء قد انتهى وانسحب

الفيلق الأسترالي من المكان بعد أن أحرق المزارع التي آوت عبد القادر الصغير وعذب كل من ساعده من قريب أو من بعيد. وبدأت حملة تفتيش في البادية ومداهمات بنزع أسلحة الدروز الذين ناصروا عبد القادر الصغير وطردوا هم وأطفالهم من البادية، باتجاه الوديان والجبال المجاورة.

كان الكولونيل كيركبريد منتشيا عندما دخل على لورانس بدون استئذان.

- سمعت أخباركم الطيبة، قال لورانس وهو يحاول جاهدا أن يكتم سعادته.

- لم يكن الأمر صعبا كثيرا. فقد حددنا مكانه بإشارة مؤكدة من طرف أحد عملائنا. كان معه ثلاثة من القادة الذين ساعدوه في كل شيء. بعد أن أتعبناهم بالمناوشات وحددنا نوع أسلحتهم، هاجمناهم واقتحمنا مخبأهم وانتهى كل شيء.

- ماتوا في الهجوم؟

- لا يا سيد لورانس أنت لا تعرفني جيدا. اسأل القائد شوفيل. أنا لا أقتل بدون بحث ولا أسجن. هذه قاعدتي. الحرب هكذا إما أن تبيد أو تباد. الرومانسيات تركناها وراءنا في لندن وسيدني يا صاحبي.

- لم أفهمك جيدا. ولو أني في أعماقي كنت أريد سجنه ومعرفة نوازعه ومحاكمته وتصغيره ولم أكن أريد أن أجعل منه شهيدا، فهو لا يستحق ذلك.

- هذا كان رأيك ولم يكن رأيي. اتفاقي كان مع القائد شوفيل. ألقيت عليهم القبض واستمتعت بقتلهم واحدا واحدا. صاحبك بصق على وجهي ولهذا منحته رصاصا أكثر من أصدقائه. وقطع جنود أبو تايه رأسه ورموه في الحي المغربي الذي رفع الرايات السوداء. العرب هكذا، ينسون بسرعة على الرغم مما يبدو عليهم من توحش، فهم مخلوقات رقيقة وحساسة، إذا عركت آذانها بقوة فهمت موقعها وفكرت بعقلها.

لم يقل شيئا ولكن قائد الحرس دخل مرة أخرى ليخبر لورانس بوصول طبيب الثكنة التركية.

- قل له أن يدخل، لا يوجد أي إشكال بحضور الكولونيل كيركبريد.

كان الطبيب الأسترالي أصفر الوجه عندما دخل إلى المكتب.

- الوضع يا سيدي وصل إلى درجة لا تطاق. خطير جدا على صحة الجميع. ويجب التحرك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأوبئة على الأقل. هناك مرضى يموتون في الثكنة التركية ويمكن أن نتفادى وباء معمما في المستشفى. لم يعد أغلبية الأطباء يقبلون الدخول إلى العمق حيث الكثير من الجرحى يموتون في صمت، خوفا من الأوبئة.

ارتدى لورانس معطفه الخشن ثم استأذن من كيركبريد الذي قام بدوره:

- أضطر إلى تركك يا كيركبريد. لا أدري ماذا يمكنني أن أفعل في هذه المزبلة ولكن علي أن أذهب لأرى ما يمكن فعله حتى لا يلومنا العرب بأننا قصرنا في حقهم.

- لن تفعل شيئا يا سيدي وسط جحر من الأوبئة. الثكنة تعج بهم وكأن لا أحد يعرف ما يجب أن يصنع بهذه الكائنات الشبحية. حل من الحلين، إما إطلاق سراحهم إذا كان فيهم من يصلح أو دفنهم.

- شكرا كولونيل كيركبريد. حلولك لا تحتمل أي نقاش.

- مزعجة فقط لأنها صريحة. هذا كل ما في الأمر. على كل سأتصل بالقائد شوفيل وسأتبعك.

سار لورانس وراء الطبيب نحو الثكنة التركية. عندما وصل، منعه الأستراليون الذين كانوا يحرسونها من الاقتراب منها. كلمهم بالإنجليزية واستطاع أن يقنعهم بضرورة السماح له بالعبور نحو عمق الثكنة. جعلته الرائحة الكريهة التي تشبه رائحة الجيفة يتقيأ عند المدخل. تمتم الطبيب:

- أنت يا سيدي لست إلا في المدخل. الأفضل أن تغطي أنفك بهذا الواقي.

واخرج من جيبه شاشا أبيض وضعه على أنفه وفمه كما فعل الطبيب.

كانت الثكنة تشبه المخزن العاري والفارغ والمعزول. كانت شبه خالية من أية روح. السجناء الأتراك تم سحبهم نحو الأعماق حيث لا يراهم أحد ولا تسمع أصواتهم. جمعوا داخل إسطبل مغلق، امتلأ بالمرضى وحتى بالأموات الذين حين لفظوا أنفاسهم الأخيرة، سحبهم زملاؤهم نحو الأطراف ومنعوا من إخراجهم أو دفنهم. حوالي ثلاثين جثة منها العارية التي نزعت ألبستها، أو التي ماتت بلباسها العسكري وظلت في مكانها. كانت الجرذان لا تنتظر المساء لكي تخرج أنوفها، فقد كانت تفعل ذلك في وضح النهار، تتبدى في عيونها المرتعشة، حالة جوع حقيقية. حتى السجناء تعودوا عليها، ولم يعد الموت ولا الجثث المتحللة ولا الميتة حديثا تثير أحدا. بعض الجلود اصفرت على العظام أو اخضرت بفعل الرطوبة الكبيرة أو اسودت وصارت لا تشبه شيئا. بعض الجثث انتفخت قبل أن تنفجر مخلفة رائحة قاتلة وبعضها كان ما يزال محافظا على الهيئة الأخيرة التي سبقت الموت بقليل.

كان لورانس يمشي على الجثث ويسمع تعجنها تحت حذائه الطويل وانكسار عظامها الهشة. كلما حاول أن يتخطى جثة بصحبة الطبيب الذي كان بيده قنديل زيتي قديم، وجد نفسه على رأس التصق بالأرضية حتى لم يعد يرى. فجأة سمع أنينا في الحجرة الداخلية التي زادت برودتها. رفع لباسه قليلا وضبط أكثر الشاش الثاني على أنفه وفمه، الأول لم يعد كافيا لدرء الروائح الكريهة. سمع صوتا عرف أنه تقاتل الجرذان فيما بينها وهو يحاول أن يقفز فوق جثة. وجد مجموعة من السجناء ما يزالون أحياء.

في النهاية عندما خرج إلى الساحة شعر بنقاء الهواء الذي رفضه عند المدخل. بدا له كأنه يخرج من قيامة. كان كيركبريد ينتظره في الخارج. تقيأ طويلا قبل أن يغير ألبسته وحذاءه ويغسل يده ووجهه. شعر كأن الرائحة الكريهة كانت فيه.

- مازالت أوامر سيدي شوفيل سارية. أنا تحت تصرفك إذا احتجتني في أي شيء.

- أرجو أن تدفنوا الأموات وأن تنقذوا ما يمكن إنقاذه.

- سنحاول. . .

- لا شيء يمنع من القيام بذلك حالا لتفادي استشراء الأوبئة الفتاكة التي بدأت تهدد هذه المدينة التي صرت أكرهها كل يوم أكثر.

- مطلقا يا سيدي. أمر مثل هذا لا يتعدى تعليمة شفوية منك ومن سيدي شوفيل.

قال كيركبريد وهو يحك ذقنه الذي ظهر زغبه.

تم حفر حفرة عميقة وطويلة في شكل واد جاف ولكنهم اصطدموا بحاجز إسمنتي منعهم من التمدد طولا أكثر. فقال لورانس هذا يكفي. ثم جيء بـ ٥٦ جثة و ٢٠٠ أخرى من التي كانت في النزع الأخير، على الرغم من احتجاجات الطبيب وصراخه في وجه العساكر الذين يعملون بشكل آلي. سحبوها واحدة، واحدة من الرجلين واليدين ثم رموها ككيس من الزبالة في عمق الحفرة. وضعت الأجساد التي كان بها نفس صغير من الحياة، فوق بعضها بعضا وردمت وهي تحاول عبثا أن تصرخ. بعض الجثث عندما رمي عليها التراب أخرجت يدا أو رجلا نكاية وسخرية في الموت. نجا من الردم أقل من النصف ووضع الباقي في الجزء الأخير من الحفرة الطويلة. رميهم لم يكن صعبا، فالأجسام كانت هزيلة ومطواعة ولا تحتاج إلى اتساع كبير. كانت تتراكم وتتداخل بدون أي إشكال. وتم دفن الكل، البعض كان سهلا والبعض الآخر من الجثث المتحللة انفرط كاللعب المفككة بمجرد لمسه، فتم تجميعها بالرفوش قطعة قطعة قبل أن ترمى في القبر الجماعي. حتى المساعدون، بعضهم من الحمالين الأتراك من أغمي عليهم، واحد منهم ردم حيا واختلط بالجثث ولم توقظه إلا الكتلة الأولى من الأتربة الرطبة التي وضعت باردة على وجهه، فقام يجري من مكانه وهو لا يصدق ما كان

يحدث أمامه. لم يسمع لأوامر القائد الأسترالي الذي طلب منه البقاء في مكانه. فالتصق بألبسة لورانس:

- يا سيدي أرجوكم قولوا لهم ألا يدفنوني. أنا حي كما ترى يا سيدي.

- لن يدفنك أحد، اطمئن يا ابني. نحن على أرض فيها قانون ولسنا في نظام الغاب كما مع الأتراك. اغسل نفسك من الأتربة وتعال، قد نحتاجك لمساعدتنا.

كانت الجثث تتداخل فيما بينها وتتآكل، تتحرك عبثا قبل أن تستسلم للموت.

قبل أن يذهب للنوم سأل لورانس العقيد كيركبريد وكان الرجل الذي أنقذ من الدفن حيا ما يزال وراءه، يرتعش من شدة الخوف وقد أصبح وجهه أزرق كوجه ميت. ينظر يمينا وشمالا، متفاديا كل الأيادي التي كانت تقترب منه. كان يظن أنها تريد اقتياده نحو القبر. كان يشك في نظرات الجميع بما فيها خزرة لورانس عندما يدخلها الانزعاج والغضب من شيء ما.

- أعتقد أنه يمكنكم الآن تنظيف الثكنة وتحويلها إلى مكان مقبول. يمكنك يا كولونيل وضع الجير الحي على الجثث الميتة أو التي في طريقها إلى ذلك لتفادي الأمراض. منذ مجيئي من درعا لم أنم أبدا. متعب ولا أريد أن أرى ذلك ولا أتحمله ولا أريد أن يخرج من هنا شهود.

رأى لورانس كيركبريد يضع الجير على عينين انفتحتا قبل أن يردمهما، الرجل لم يستطع الكلام ولم يهتم به أحد. أراد أن يوقفه ولكن الرفش الأول من التراب كان قد غطى وجهه ثم الثاني والثالث، فلم يبال ولكنه بدا له كأنه سمع صرخة أحدهم ماتت في عمق فمه.

- كل شي يسير على ما يرام. الوباء خطير. لا تشغل بالك. الحفرة التي تحمل مئة سنجعلها تتحمل ألفا. سيتكدسون، الأحياء والأموات.

كل واحد يخلي المكان لصاحبه. الأموات في هذا الأمر غير أنانيين بالنسبة إلى الأحياء، تتسع لهم الأمكنة بسهولة عند الحاجة الماسة.

ثم ردم كل شيء وحولت الحفرة في ساحة الثكنة إلى مكان تتوقف فيه السيارات العسكرية بعد أن تم تبليط الطريق بالحجارة والإسمنت. ورفع العلم الإنجليزي بسرعة وكأن شيئا لم يكن.

- يجب أن يجد فيصل كل شيء نظيفا.

قال لورانس وهو لا يستطيع أن يخبئ سعادته بالانتهاء من حفرة الوباء هذه.

- من حيث النظافة، تستطيع أن تنام مرتاحا يا سيدي. سنضطر لفتح مدفن جماعي خلف الثكنة للبقية، ما تزال الجثث في العمق، لم نستطع الوصول إليها. هناك أجساد ما تزال حية أكلت جزءا منها الجرذان سندفنها بدائها كما فعلنا مع الدفعة الأولى وإلا ستصاب الثكنة بالأوبئة الفتاكة.

- البركة فيك يا كولونيل. . .

ردد لورانس، غامزا كيركبريد وهو يستقل سيارته. بينما ظل الطبيب فاغرا فمه فيما كان يدور أمام عينيه من أحاديث، قبل أن يخرج شاشا أبيض من جيبه ويضعه من جديد على فمه.

قال لورانس ضاحكا بعدما أصبح داخل سيارته:

- يا حكيم، انتهت الرائحة. كل شيء قد تمت إزالته؟ البقية سيتكفل بها كيركبريد، فهو قادر على التوغل بعيدا، إلى أعمق نقطة في الداخل. وهذا هو الفرق بين المدني والعسكري المحترف، الأول تحركه اعتبارات إنسانية والثاني تحركه ضوابط الوظيفة وحبه لعمله.

- الرائحة؟ مازلت أشمها يا سيدي ولا أستطيع أن أتخلص منها.

- أنت تعرف يا حكيم، أنه لإزالة بعض الأوبئة يجب استئصالها من العمق حتى ولو كلف ذلك غاليا وهو ما سنحاول فعله للحفاظ على النصف مليون ساكن الذين تعج بهم هذه المدينة. وإلا سيموت الكل وسنذهب نحن في أثرهم. كبار الضباط في إفريقيا وفي الهند كانوا

يفعلون ذلك ولسنا أفضل منهم أبدا. أستطيع أن أعلن اليوم أن المرحلة الأولى من عملنا انتهت عند هذه الحفرة الموبوءة.

- مممم...

غمغم الطبيب بدون أن يفتح فمه، قبل أن يندفن عميقا في آخر ركن في الثكنة بصحبة كيركبريد وبعض العمال الأتراك الذين ألقي عليهم القبض في المدينة وسيقوا إلى الثكنة، حيث الحرب الضروس بين الجرذان الضخمة وبقايا الأحياء الذين كانوا ينظرون إليها وهي تتقاتل على أصابع أرجلهم، أو أياديهم المشلولة أو وهي تدفن أنوفها الكريهة والطويلة داخل شعرهم بحثا عن منفذ لغرز أسنانها الأمامية الحادة. في الليل لا يرون إلا عيونها المدورة وهي تبرق أو يسمعون أصواتها الحادة وهي تتقاتل على جثة أو على لحم متفسخ ما تزال فيه بقايا روح تقاوم عبثا الموت.

الليلة الثانية

مدافن الخيبة

-١-

من وراء زجاج الحديقة يبدو القمر مرتسما في شكل دائري تام. يتسرب نوره في شلالات متلاحقة تغمر من حين لآخر الحديقة وجزءا كبيرا من الصالة التي لا تضيئها إلا لمبة الهالوجين المصوبة نحو المكان الذي كان يجلس فيه بابا شريف.

الليل في طوليدو ينزل بسرعة. الذين يسكنون هذه المدينة يعرفون ذلك جيدا ولا يتساءلون عن السر. شيء غريب في هذه المدينة يقربها باستمرار من ناس طليطلة الأم في إسبانيا. لا ينقصها إلا نهر التاج لكي تصبح شبيهة بالمدن الأندلسية. ربما يعوض البحر الذي يطوق طوليدو من كل مكان، هذا الفقدان. حتى الناطحات التي تخترق ساحلها وخليجها، لا تثير السكان بقدر إثارة اسمها الملتبس.

تمتم جاز وهو يرى بدهشة انكسار الأضواء الجميلة على النباتات والأشجار الصغيرة التي تغير الألوان الأصلية باتجاه تدرجات أكثر سحرا وعمقا.

كانت عائشة المغربية قد رفعت الستائر لتظهر الحديقة تحت ضوء القمر والساحة كأنها قطعة من الجنة عائمة في فراغ من الألوان الكثيفة. وضعت القهوة من جديد على المجمر الذي غيرت فحمه بعد أن أوقدته في الخارج. سحبته مع النرجيلة ووضعت الكل بالقرب من الكرسي المغرف، حيث يجلس بابا شريف. يحب هذا الكرسي لأنه يحويه من

كل الجهات ويمنحه إحساسا كبيرا بالاستقلالية والراحة وشيئا من الغرابة التي تعود عليها كلما جلس في هذا المكان.

- هكذا جيد، أنا في وضع مريح أحسد عليه.

قال بابا شريف وهو يحاول أن يكمل دورته في البيت قبل أن يجلس ويشرب قهوته اليومية بعد العشاء التي لم يستطع طبيبه منعه منها على الرغم من كل النصائح منذ أكثر من عشرين سنة. يمد يده نحو النرجيلة لتحريك جمرتها بالملقط الذي وضعته عائشة في متناوله:

- نصف كلام الأطباء كذب. لو سمعت كلامهم يفترض أني الآن انتهيت وشبعت موتا. لا شيء يعوض رشفة وسحبة طويلة من النرجيلة. يا الله، يبدو أني أرهقتكم بخرافاتي التي لم تعد اليوم تهم أحدا...

- لا يا جدي. ما قلته وضعني داخل عالم لم أكن أعرف إلا حوافه. ما أجهلنا يا بابا شريف وما أقسانا إذ نظن أن تاريخ البشر نزهة يصنعها الذين ذهبوا ولم يعودوا اليوم بيننا. أنا مازلت مندهشا من هذا التاريخ الذي سرق بهذه السهولة. ينتابني الإحساس يا جدي كأن العالم لم يتغير إلا قليلا أو ربما لم يتغير إلا في شكله الخارجي وكأن البشرية وصلت إلى حد من التطور أصبح من العسير عليها أن تكون خلاقة إلا إذا جاءت بشرية أخرى أكثر قدرة على إعادة تأمل الدنيا. ربما أنا أهذي ولكن هذا هو إحساسي المتولد من سماعك. طوال اليوم وأنا أستذكرك مع ميترا.

- تعرف يا جاز ابني، هذه قصة صغيرة كتب لي أن أعرفها. هناك قصص كثيرة مات أصحابها وأخذوها معهم وهي تساوي الكثير. يا الله، عليكم أن تتحملوني. جدك الآن مثل الآلة القديمة، إذا لزم مكانا واحدا مدة طويلة، أصابه الصدأ بسرعة وأصبحت حركته شبه مستحيلة. الله بالخير... الله بالخير يا ابني، كما كان يقول رستم حيدر الله يرحمه، كلما ضاقت الدنيا في عينيه.

ثم تحرك قليلا متفاديا كل ما يمكن أن يوجعه في جلسته حتى وجد متكأه الجيد في عمق كرسيه المغرف الذي لا يستريح أبدا في غيره.

عندما اعتدل بابا شريف من جديد في جلسته لم يكن يعلم أن شهيته للحكي قوية إلى هذا الحد. ربما كان إصرار جاز هو الأساس في كل ذلك وهو الذي حرك فيه كل هذه المدافن. ربما كانت علامات الموت التي بدأت ترتسم في أفق يزداد ظلاما كلما مر الوقت، هي الدافع نحو إخراج هذه المرارات والتخلص منها والسفر بسرعة وبأثقال أقل. **الهم يزن ويثقل كاهل صاحبه يا بابا، قل ما في قلبك وتخلص من هذه المقبرة التي تحملها معك،** كما كانت تقول له مايا دائما في حالات يأسها وهي تحاول أن تخرج من قلبه ما يحترق في داخله. اليوم كلما تذكرها امتلأت عيناه بضباب كثيف حد من رؤيته وشعر بشيء يضغط على قلبه بقوة. مايا كانت شيئا كبيرا في حياته. يتشابهان ولهذا لم يفهم أحدهما الآخر حتى النهاية.

حك بابا شريف عينيه من غبش نزل عليهما وأثقلهما. اكتشف أن قوة ضوء الهالوجين هي السبب. طلب من عائشة أن تخفف من حدته قليلا بحيث يصبح خفيفا وناعما.

عندما التفت ليتناول قهوته ويسحب نفسا عميقا من النرجيلة، كان القمر قد مال كليا وأصبح في زاوية بحيث كان الوحيد الذي كان يراه ويواجه إشعاعه الحاد.

- لا أحبها كثيرا. كانت النرجيلة تبدو لي دائما دليل خمول ولكن مع الزمن استسغتها، وأصبحت مع تقاعدي أحد أهم أصدقائي. إنها تشعرك بسيولة الزمن ولذته. وأنت ترى الأدخنة تتصاعد، ترى ألوانا وحيوات لبشر مروا من هنا. لا تتصور أنها مجرد أدخنة ميتة. لا تشبه في شيء السيجارة التي نتناولها لنسيان الهم، النرجيلة لتذكر الحياة والأصدقاء الذين مضوا بحب وبشوق كبيرين. الهَمُّ لا يدخلها. هل رأيت رجلا أو امرأة يدخن النرجيلة وهو يستذكر ما ينغص عليه حياته؟

- يبدو لي يا جدي هذا الأمر صعبا جدا. منك أتعلم. لم أر النرجيلة إلا في مطاعم اللبنانيين، عند خالات أمي اللواتي أناديهن خالاتي، في بروكلين عندما كانت مايا تزورهن.

- أعرف أن هذه الأمور قد لا تعني لك الشيء الكثير ولكنها بالنسبة إلي هي كل شيء. طيب خلينا نرجع للزمن الفائت الذي تشتهي معرفته.

ثم انحنى على المجمر وسحبه أكثر باتجاهه. مد يده نحو الركوة. كانت ما تزال محافظة على حرارتها. ملأت عائشة إلى النصف تماما كأسه، فهو لا يريدها ممتلئة. عندما ذاق طعم القهوة شعر بها دافئة في فمه وفي حلقه. الشفطة الأولى سحبت وراءها كل الرغوة العائمة على الكأس. مزمز قليلا. شعر بلذتها الكبيرة.

- يعطيك الصحة يا عائشة، بنتي. الكأس بهذه الطريقة نملكها ونستلذها وليست هي التي تسيطر علينا.

- تسلم يا بابا شريف. ردت عائشة وهي تسحب الركوة من أمامه وتضعها على المجمر من جديد.

عندما التفت، اكتشف فجأة أن كل العيون كانت مصوبة نحوه، تنتظر بقية الباخية كما كان يقول أجداده الأندلسيون: جاز، ميترا وعائشة. شعر بسعادة ما على الرغم من التعب الذي خط مسالكه المعقدة على وجهه الذي شاخ ولم يفق بحريقه أبدا. زاده ضوء القمر المتسرب من الخارج إشراقا ونورا.

فتح جاز مسجله من جديد بدون أن يثير انتباه جده.

لم يستطع أن يكتم تنهيدته.

- إيه، بيي شي بيوجع القلب، هالحكي. لا أعرف من أين جاءتني كل هذه الشهية للكلام؟ ربما لأني كنت مقهورا داخليا ولم أجد يوما من يسمعني كما أشتهي. مايا الله يرحمها كانت منشغلة بأشواقها وآلامها وألوانها. وأنت نفسك منشغل بحياتك الخاصة يا جاز حبيبي.

لاحظ جاز أن جده لأول مرة يقول عن مايا الله يرحمها. كان دائما يرفض موتها. ذهابها ترك فيه فراغا لم يستطع ملأه إلا برفض الموت نفسه. شعر جاز كأن دما جديدا بدأ يسري في ملامحه. كل ما كان يعرف عنه لم يكن يساوي شيئا أمام ما سمعه منه في الليلة الماضية.

لا شيء يمر هكذا بدون إيقاعات وموسيقى في رأس جاز. رأى في

عيني جده المارشات المنتظمة التي تشبه مسيرة ردانسكي[٧١]. أحس بالملحمة ونواقيس الحروب ودوي المدافع والبرود التي تلسع اللحم وتلتمع كالبرق في الآفاق البعيدة. رأى المدافن وقبور الناس والرايات السوداء التي كان يرفعها الناس في الحي المغربي كلما فقدوا عزيزا أو كلما ترملت امرأة وهي في عز شبابها. رأى الوجه الطفولي لابنة خالته زهور أو مانيا كما كانت تشتهي العائلة تسميتها، وهي تختلق الأسباب لتختلي بشريف، في الزاوية المظللة من البيت حيث يتدلى اللبلاب بأوراقه وزهره الذي يتداخل مع شجيرات الياسمين الشامي الذي كثيرا ما رسمته أمه في البيوتات الشامية القديمة وهي تتمايل محدثة حفيفا يشبه الإيقاعات الخفية. شعر بأنه كان داخل عالم تحكمه الرموز والإشارات ولم يكن كما كان يتبدى له دائما في سهولته وشكله الخارجي. الكثير من المفاصل الموسيقية التي بناها سابقا، رآها تنكسر وتتبدل لتحل محلها إيقاعات جديدة أمضى بقايا الليلة الماضية وجزءا من النهار في تدوينها في النزل وهو يعيد الاستماع لها في مسجلته. شيء ما فيها كان ساحرا وكان عليه أن يتمكن من لمسه وإلا كأنه لم يفعل شيئا. لا يدري بالضبط لماذا انتابته الرغبة لسماع نداءات الهنود الحمر والغوص في موسيقاهم التي كانت تملأ دماغه. لا يدري لماذا بان وجه ماريا كالاس ممتزجا بوجه مايا التي كانت لا تضيع لحظة واحدة للاستماع إلى السهرات الكنسية التي يكون فيها صوت ماريا هو الحاضر. حتى عندما سألته ميترا وهي في غبش نومها:

- حبيبي ألا ترتاح قليلا من هذه الأصوات التي صارت تعذبك وتأكلك بنهم؟

قبَّلها، احتضنها عميقا حتى أغمضت عينيها ونامت بين ذراعيه. ميترا كالطفل، لا تنام إلا على صدره كما كانت تفعل في صغرها مع والدها الذي أكلته سجون فقهاء إيران ورملت أمها في وقت مبكر ويتمتها

---

(٧١) La Marche de Radinsky

وهي لا تتذكر من وجه والدها إلا بعض العلامات التي تغيب كلما حاولت أن تلمسها عن قرب. يتذكر جيدا أنه همس في أذنيها وهو يتنصل من فراشها بهدوء مخافة إيقاظها ومشى نحو الزاوية التي تنفتح على الجبل الذي يختبئ وراء كثافة الأشجار العملاقة التي تتصف بها طوليدو والبحر الذي لا ينام بعيدا. انزلق من السرير وهو يهمس في أذن ميترا بنعومة تعودت عليها:

- ميترا حبيبتي، شيء فيَّ إذا لم يجد مسلكه سيذهب ويموت. الموسيقى كالكتابة، تنظمها روحية خاصة وحساسية كبيرة، إذا لم نقبض عليها في عنفوانها وألقها، ستندثر في الفراغ وتضيع، ويصبح من الصعب استعادتها. النهر يا روحي لا يرجع إلى الوراء.

- لا تطول علي كثيرا، أشتاق إليك بسرعة... صحتك؟ صحتك يا مجنون... مـ...جـ...نو...ن... بحق. سأشهد ضدك أمام جدك وسأقول له عن كل شيء ربما استطاع ضبطك قليلا وأعادك إلى فراشنا لكي ترتاح قليلا وتهتم بصحتك.

قالتها في شكل همس سرعان ما اندفن داخل وسع الغرفة وهدوئها الوهمي. وحده جاز كان يحس بذلك الضجيج الملتبس الذي اختلطت فيه الموسيقى وأصوات المدافع والهمس المتنامي من حوله كحفيف الريح الفجرية على حافة المحيط الهادي، أو أجنحة فراشة تزرع لونها في عمق العيون وتغرس حفيفها في صلب الأذن مختلطة برعشات القلب لسطوة هذه الحالة التي لا تقاوم.

«سيتغير كل شيء. كل شيء سيذهب أدراج الريح ويحل محله عنفوان آخر.»

تمتم جاز وهو يخط رموزا وعلامات على الورق الأبيض ويغمض عينيه طويلا. بينما تمتمت ميترا في فراشها من بعيد أو تخيلت ذلك:

- احذر حبيبي من أن تضيع كل شيء. احذر...

الدنيا هكذا. الأشياء العميقة جدا تتغير، وحدها الثوابت الميتة تنتفي

بسرعة عندما تجمد في مكانها أبدا. كان جاز يبحث عن اللحظة التي ضاعت وسط آلاف اللحظات المتشابهة، واحدة كانت كافية لتهز سكون الأرض وتبعثر سكون اليقين الوهمي، إما أن نلمسها أو نمر بجانبها وقد نخسر عمرا بلا طائل.

الليلة الأولى غيرته ومحت جزءا كبيرا من موسيقاه. أصبح يقينه مؤكدا بأنه سيعيد تركيب الكثير من المفاصل الموسيقية التي كان يظنها تامة ومنتهية، وسيزرع فيها روحا جديدة وحياة أكثر نبضا. لا يمكن أن تمر كل هذه النداءات هكذا. كل ما كان يعرفه عن جده كان محدودا وناقصا. يمكنه الآن أن يدعي أن مشروعه يمثل جده أو جزءا من القرن الذي عبره هذا الأخير كالسهم بدون أن يلين. فضل شريف أن يموت صمتا ويقهر لغته وأنينه ويمنح قلبه راحة ظلت غائبة طوال الأزمنة الماضية، على أن يدخل معارك كل ما كان فيها كان خاسرا ولا يمكنه إلا أن ينسحب نحوها.

معارك صعبة لم يكن جاز مهيأ لها.

- وينك بابا، أنت مو هون؟

قالها بعربية شعبية صافية وكأن طائرة حطته للتو من بلاد الشام.

ابتسم جاز.

- أنا معك يا جدي، كنت أفكر فقط في هذه الخسارات التي غيرت وجه تلك الأرض وأقول في خاطري هل ما حدث كان بالصدفة أم أن أيادي تشابكت بقوة لكي تمنع تلك الأرض من العبور نحو الجهة الأخرى. أجزم بأن عقلا يفكر باستمرار تخصص في عملية المنع وهو يملك وسائل خارقة وخطيرة للتدمير.

لم يدر من أين جاءته تلك الكلمات. في البداية ظن نفسه يكذب كذبا أبيض لكي يتفادى ملاحظات جده الذي لا يعرف ردود فعله إذا حدثه عن انغماسات الليلة الماضية، لكنه وهو في عمق الكلام خرج كل شيء محموما ومجروحا... وصادقا.

- قصة طويلة يا حبيبي. لا شيء في هذا العالم يشتغل بالصدفة وإلا على الدنيا السلام. اشرب قهوة فهي تفتق الأشواق وتنظف الروح من جروحها الخفية.

الرشفة الأولى قادته من جديد نحو بابا شريف بقوة أكثر.

-٢-

- أشعر كأنه لم تعد لدي معركة أخوضها. كل معاركي توقفت وهدأت تلك الشعلة التي احترقت طويلا قبل أن تأكل نفسها وتخبو نهائيا. حتى معركة الموت خسرتها ولم يحدث لي ما يحدث للناس عادة، ذلك الخوف الأخير والرغبة المبطنة للمزيد في الحياة حتى ولو بنصف قلب وربع رئة وبضباب في النظر. الموت لم يعد يخيفني وأنتظر أن أذهب في صمت كبير وأُضاف بهدوء إلى ملح هذه الأرض. لن أتيح للموت فرصة أن يهزني في اللحظة الأخيرة. عندما أصبح أعيش بنصفي أو بربعي أو بأقل منه، سأسبق الموت من حيث لا يدري، قبل أن يرفع يده ويقهقه طويلا من ارتعاشي ومن خزراتي المستجدية والخائفة من يده متى تنفتح تاركا موسى المقصلة الحاد ينزلق باتجاه رقبتي النحيفة. يبدو لي، كلما طال العمر، زاد إصراري على التعامل مع الحياة والموت كما يجب التعامل معهما بالضبط. كل في موقعه.

«عِشْ بشكل صحيح، أو اخرج ولا تلتفت وراءك.»

- لا يا جدي. ما يزال في العمر الكثير. أنت تعرف يا جدي أن العلاقة بالحياة والموت ليست علاقة جاهزة ولكن هي بالضبط ما نفعله نحن بها. كلامك دقيق. يمكننا أن نختار حتى في أصعب اللحظات وأقساها.

- قصدي أن الكسورات الكبيرة والخيبات التي نحملها قوية بدرجة ألا شيء يساويها، حتى فقدان الحياة نفسه لا يهزها كثيرا. ماذا بقي اليوم من كل الذين مروا عبر القرن الماضي؟ صنعوا التاريخ وهل صنعوه

حقيقة؟ كانوا هنا ولم تبق إلا هزائمهم القاسية وانتصاراتهم الصغيرة.

- طيب... وماذا حدث عندما عاد فيصل يا جدي؟

- إيش كان يصير يعني؟ خليني أقولها لك حاف وبهيك طريقة فجة ومو مهذبة. لا أعرف إذا كان علي أن أشتم الرجل عما فعله أم أقدره؟ شو كان ممكن يعمل قدام آلة كانت مستعدة لطحن كل شيء. المهم. لا شيء خاص، لأن الأمر الأساسي الخاص بالسلطان كان قد حسمه لورانس بمساعدة أللنبي. وكان على الجميع قبول ذلك بمن فيهم الأمير فيصل الذي دخل إلى الشام منتصرا بآلة الآخرين ولهذا ظل رهينا لها وللرياح الصفراء التي جاءت به من بلاده ورماله إلى حواف دمشق قبل أن يتركها تحترق في اللحظة الحاسمة. الحب ليس كلاما ولكنه أحاسيس كبيرة، لا نستطيع أن نقول: إننا نحب مدينة ثم نتخلى عنها ونبحث بشكل محموم عن تعويض لها، لا. كان حبه للسلطان أكبر من حبه للمدينة.

في ذلك اليوم عاودت الرياح الرملية هبوبها القوي. غطت المدينة التي تبدت في جانبها الشرقي للحظات وكأنها خرجت من قبر كبير، لتعود إليه من جديد وتختفي، كأن يدا خشنة سحبتها نحو الأعماق من جديد لتغرقها في الغبار والرمل.

لم ينتبه فيصل إلا عندما تعالت الزغاريد الأولى متبوعة بزخات متتالية من البارود، كانت تأتي من أمكنة قريبة لم تسمح الرياح الصفراء باكتشافها، بأنه كان يتمترس على مداخل الشام هو وخيالته وأدواته الحربية. شيئا فشيئا، مع زوال الغشاوة التي كانت تغطي المنطقة، بدأت أعداد الناس تظهر بألبستها الفضفاضة التي كانت الرياح الخريفية ترفعها عاليا حتى تغطي أوجهها وبدت منطقة القدم الواسعة كأنها رحلت على بكرة أبيها بناسها وخيولها وأغنامها.

لم يكن فيصل يعرف جيدا وهو يعبر مداخل المدينة، درجة الاستقبال الذي كان ينتظره. فجأة تراكضت بعض الأحصنة الدرزية باتجاهه متبوعة بأعداد مهولة من الفرسان الذين غطوا الساحات نهائيا.

عرف من بين المستقبلين أخاه الشريف ناصر ثم شيئا فشيئا بدأت الوجوه الأمامية تتضح من جديد. كان يعرف الكثير منها.

نزل من على حصانه وعانق مستقبليه طويلا.

- كل هؤلاء الناس لأجلنا؟ كثير علينا يا ناصر.

- هذا اليوم كبير يا حبيبي ولابد ألا يمر عاديا. بعد أربعمائة سنة يأتي من يحرر المدينة من ثقل القتلة والمتغطرسين، هذا شيء عظيم. خمسمائة ألف فارس لاستقبالك ليست شيئا كثيرا، تستأهل أكثر من ذلك كله. اسمك صار على كل لسان وحوامل هذه السنة أقسمن أن يسمِّين المواليد باسمك، إذا رزقهن الله صبيانا.

- هذا شيء كثير.

كانت ساحة القدم قد أظلمت بأعدادهم التي لا حصر لها، بشرا وخيولا وأسلحة وحيوانات وألبسة وأعلاما متعددة، من العلم الرسمي حتى الخرق التي يغلب عليها اللون الأخضر. آلاف الفرسان كانوا شاهرين سيوفهم وبنادقهم يهتفون بحياة فيصل والثورة العربية وينتظرون أمر التوغل في عمق مدينة دمشق التي رفعت الرايات والأقمشة الخضراء والبيضاء منذ أن أصبح دخول فيصل أمرا مؤكدا.

أعطى أبو تايه ونوري الشعلان الأوامر للميمنة والميسرة لتتأخرا قليلا وتنسحبا إلى الوراء لإفساح الطريق أمام الأمير فيصل وأخيه وقادته وخيالته وبعض أعضاء الحكومة العسكرية التي استقبلته في اكتمالها، ليمروا إلى الأمام للدخول إلى المدينة. شيئا فشيئا استقامت الفرق وبدأت حركتها في نظام كبير وكأنها تدربت على ذلك زمنا طويلا. كانوا يخترقون شوارع دمشق مهللين، بينما كانت ترمى عليهم الأزهار والياسمين الشامي والعطور والملح ضد العين والسكر، من أعالي البنايات. كان من الصعب على الخيول التي تعودت على فضاءات الجبال الواسعة أن تجد مسالكها وهي تعبر الشوارع المكتظة بالبشر. كل واحد كان يركض نحو فيصل لتقبيل يده. محظوظون قليلون استطاعوا

الوصول إليه. شعر فيصل بالزمن يتضاءل حتى ينتفي. تمنى في لحظة من اللحظات لو كان والده حاضرا بجانبه.

«أربعة قرون من الطغيان التركي وكأنها مجرد هواء ساخن، هب ثم همد؟ كل شيء ذهب مع الريح؟»

تمتم فيصل وهو لا يريد أن يُصدق أن ما كان يحدث أمام عينيه لم يكن حلما أبدا وأن الأتراك خرجوا وأن العرب صاروا سادة على أراضيهم.

- هل يمكن يا ناصر ملء أربعمائة سنة من الفراغ والضياع والمظالم؟ كيف سيتغير هؤلاء الناس ويصيرون سادة أقدارهم على أرضهم التي حرروها؟

- لم نصل إلى هذا، مشاكلنا الكبيرة والحيوية ما تزال قائمة.

وكأن ناصر أرجع أخاه إلى أرض الواقع المر.

- وصلتني أخبار الصراعات. حسنا فعل لورانس وإلا لضاع كل شيء وخسرنا ببلادة ما ربحناه بالدم، وهذا ما يحدث للعرب بشكل مستمر ودائم.

- إلى اليوم لم نتوصل لكنس الشوارع من الجثث البشرية والحيوانية التي تفسخت وتحللت. شيء غريب يحدث، وفي كل صباح نسمع بجثث مقطوعة الرؤوس أو مكبلة مرمية في مكان ما، البارحة فقط، وجد المواطنون في زاوية من أحد المعابر الرئيسية في باب توما جثة أكثر من عشرين مسيحيا، قبلها، خلف قلعة دمشق أكثر من عشر جثث لسنيين. لا ندري من يقف وراء هذه الأعمال البشعة؟

- الحروب دائما هكذا. قد يكون الخاسرون وراء استقلال العرب من وراء العملية. لكن المؤكد في مثل هذه الظروف يتحول الإنسان إلى مجرد رقم أو آلة تسهل الوصول إلى السلطان. الإنسان يخسر نهائيا شرطه كإنسان. إنهم يريدون أن يزرعوا اليأس فينا.

- حتى الأتراك الشغالون في المزارع لم يسلموا. الكثير منهم قتل

في الأيام الأولى ومن نجا، أحرق حيا بتهمة أو بأخرى. لا أدري إذا كانت المشكلة راجعة للفوضى أم إن الأمر مرسخ في أدمغة الناس.

- مهمتنا كبيرة ولكنها ليست مستحيلة أبدا.

كان كل شيء منظما بإحكام كبير. عندما دخل فيصل إلى السراي، وجد في انتظاره كل وزراء الحكومة العسكرية وقادة الجيش والضباط والمدنيين والسياسيين الذين تركوا الأتراك والتحقوا به. حتى الشيخ عبد القادر، مفتي الديار والخطيب الكبير التحق بالجموع في لمح البصر، لم يتفطن لدخوله أحد إلا عندما زحف منكسا كراية قديمة ليحتل الأماكن الأمامية. وبدون انتظار، انحنى حتى كاد يلامس الأرض وقبل يد الأمير فيصل. ثم التفت نحو الحاضرين وحثهم على مبايعة فيصل بدون أن يطلب منه أحد ذلك.

- أيها المؤمنون والمؤمنات أينما وجدتم، يا أهالي دمشق وبلاد الشام العظيمة، إننا اليوم لا نبايع رجلا أو حاكما عاديا ولكننا نبايع أميرا للمؤمنين ومحاربا كبيرا، من ذرية الرسول الأعظم، صلى الله عليه وسلم. نحيي فيه رجلا مقداما ومجاهدا جادت به الأمة العربية بعد أربعة قرون من الطغيان والقتل. تحدثت عنه الكتب الخفية وأسرار النجوم، ولم تعرف إلا قليلا برباطة جأشه وقوته والمهمة التي كلفه بها الله لكي ينقذ الأمة من خراب كان محتوما. فقد وضع حياته فداء للعرب ودينه. أنادي أمامكم وعلى الملأ بضرورة إطاعة أولي الأمر منكم، الذين فضلهم الله على الناس العاديين تفضيلا...

تحدث طويلا ولم يتوقف إلا بعد أن نوه بذرية الشريف حسين التي بوأها الله أعلى المراتب على المعمورة لكي تنشر النور والخير ونوه بالإسلام ولزوم إتباع القرآن والسنة الحميدة لتفادي الفرقة بين المسلمين الذين صاروا اليوم قوة يحسب حسابها.

تململ أحد فقهاء مسجد الشيخ الأكبر، الشيخ شبارو، من الذين سجنهم جمال باشا مدة شهور في سجن المزة، بسبب خطبة جمعة نادى فيها بضرورة تحرير خطب الجمعة من السياسة، ولومه له على إهماله

مقام ابن عربي وقبر الأمير عبد القادر الذي خربت أياد مأجورة بعض أجزائه، مفرجا عن أسنان صفراء، يابسة، كانت تصطك حقدا ضد الإمام الشيخ عبد القادر الخطيب:

«- سبحان الله! كيف يتغير البشر بهذه السرعة؟ من سماه الحرباء لم يكن مخطئا. قبل أيام معدودات، لحظات قبل خروج الجيش التركي، كان قد أصدر فتوى بقتل فيصل وكفره لأنه قسم المسلمين وفرق صفوفهم وحلل دمه على كل مسلم ومسلمة واليوم كل شيء تغير؟ سبحان مغير الأحوال!.»

فكر أن يقوم ويصرخ بأعلى صوته حتى تسمعه الذئاب التي صارت كل ليلة تقترب أكثر من الأماكن الشمالية والجنوبية للمدينة ولكن الوقت لم يكن مناسبا ثم إن اللحظة هي لحظة فرح أولا وأخيرا. كل العلماء الجالسين، يعرفون جيدا أنه، عند إعلان الثورة العربية في الحجاز، تملق جمال باشا فخطب في الجامع الأموي لاعنا الملك حسين وقال إنه خارجي وعاص، عصى الله وشق عصا الطاعة وخرج على خليفة المسلمين فحق قتله هو ومن اتبعه...

«- البقية يعرفها القاصي والداني...»

تمتم الفقيه مرة أخرى ثم دفن أنفه في صدره وانزوى يستمع إلى البقية.

* * *

- هل تعرف يا جاز، قال بابا شريف وهو يتلمس النرجيلة مرة أخرى ويرشف كأس القهوة، مثل هذه العينات هي التي أحاطت بفيصل. لم تكن مقلقة له أبدا. كانت تسير في مسالكه التي يحبها. الحكم يا ابني يعمي البصر والبصيرة عند صغيري العقول. والدين في هذه الحالات يتحول إلى عكاز مخروم لتمرير كل مظالم الدنيا بدون أن يتمكن أي واحد من ردة الفعل. ما دور المراكز الدينية الكبرى سوى تبرير الطغيان؟

- ألم يتساءل فيصل عما كان يختبئ وراء ذلك؟ ألم تكن له إستراتيجية يفهم بها الأوضاع المستجدة؟

- لا أدري إذا كان هو من قام بالحرب أو إن العرب لم يكونوا إلا لحم المدافع؟ النتائج تجعلني اليوم أشكك في كل ما ترتب على الحروب الفائتة. جيد أن تنتصر في حرب وهذا كان يرضي الجميع، أللنبي، والفرنسيين ولورانس المغامر والشريف حسين وفيصل وناصر الذين كانوا في حرب ضروس ضد من كان ينافسهم في الحكم في بلادهم. الأمر طبيعي جدا. الحرب ركزت ملكهم أكثر مما ركزت دولة عربية مستقلة. الدولة العربية بدأت حلما انتهى كابوسا خانقا.

- والذين ماتوا يا جدي؟

- يرحمهم الله ويضافون إلى قائمة الشهداء التي تنسى بسرعة. من يتذكرهم اليوم؟ من يتذكر آلامهم؟ أين ذهب كل ما قدموه للنيران والعذابات؟ لا أدري ولكني في وضع على الحافة بين الموت كما أشتهي والحياة كما يريدها الآخرون ففضلت الموت وفق شهوتي في هذه المدينة التي أشعر بعروبتها أكثر من أي مدينة عربية أخرى. العزلة ليست شيئا سيئا يا ابني وعلينا أحيانا أن نقبل بالاعتراف بأن ما قمنا به انتهى وأننا ملأنا عصرنا بالأشياء الجميلة والحماقات والسلام. لكن الثمن كان باهظا.

- وماذا حدث بعدها إذن؟ أشعر بأن هناك التباسا في كل شيء.

- ولا تنتظر مني أن أحل ذلك اللبس، أنا عاجز. كل ما أقوله هو ما عشته أو مجرد أحاسيس تولدت من حياتي اليومية التي كانت تتجاوز طفولتي. لا أتذكر أني عشت طفولة. مع والدي كان علي أن أكون رجلا ومع أمي وأعمامي كان علي أن أكتم جرحي ويتمي وأعوض والدي. وعند أخوالي كان علي أن أتعلم كل شيء لكي أحافظ على سطوة وشجاعة عائلة الحسيني التي أنتمي إليها من أمي. كنت دائما أضحك في أعماقي من هذه الوظيفة التي لا تليق بي ولا تناسبني أبدا. فقد كانت في الحقيقة لغيري. أما أنا، فقد كان شأني مع مانيا هو الشأن الكبير. دورت العالم كله وعشت طفولتي رهين ابتسامات مانيا.

- ولكن يا جدي لم أفهم جيدا هذا القتل المجاني والرخيص، من الجاني ومن الرابح؟

- أنت موسيقي كبير يا جاز وأحاسيسك مرهفة. ربما كانت مايا من وراء ذلك كله. تصور، عندما سمعت ثم رأيت انفجار البرجين ومركز التجارة العالمية، سقط كأس القهوة من يدي وشعرت بنفسي قذفت بعيدا في الفراغ وكأني في داخل أحدهما مع أني كنت على بعد مئات الكيلومترات عن نيويورك. شعرت بنفسي أعوم في الفراغ. لف البياض مخي ولم أفكر في شيء آخر إلا فيك. ثم بعد ذلك فكرت في هذا التقتيل الجماعي الذي لا معنى له إلا الجنون. تذكرت بالفعل ما تسألني عنه. لم أجد رابطا كبيرا ولكني شعرت أن البشرية لم تتطور كثيرا وأن التاريخ حقود وأعمى. فكرت بعدها فيما ينتظر العرب والمسلمين، ليس اليوم، اليوم سيمر وسينتهي الذين عاشوا الحقيقة وعرفوها ولكن كيف سيكون الذين يتلقون هذه الحقيقة وكيف سيتلقونها؟ وكيف سيكون هذا القرن ومن سيكون أكبر ضحاياه؟

- عندما كلمتني يومها يا جدي كنت في نفس الوضع الذي كنت فيه، في الفراغ الذي لا قرار له. لم أفكر في كل هذه التفاصيل ولا في الجرحى الذين ساعدتهم على الحياة من جديد. فكرت فقط كيف كان يفكر القاتل وهو يدفع بالطائرة نحو التلاشي؟ كيف كان يفكر المسافر وهو يظن بأن طائرته تدور لتتخذ مسارها الطبيعي قبل الاصطدام؟ ثم كيف كان يفكر وهو ينتظر أن تتفتت الطائرة على واجهة البرجين. أي ألم يشعر به الإنسان يا جدي وهو يعرف أنه بعد لحظة سيكون طعما لموت عبثي لم يصنعه. ماذا كانت ستقول إحدى صديقاتي في دار أوبرا بروكلين وهي التي قضت عمرها وأفنته بجانب صديقها نعوم شومسكي في الدفاع عن العرب وعن حق الفلسطينيين في العودة وفي الاستقلال كبقية سكان الأرض، لحظات قليلة قبل ارتطام الطائرة وموتها؟ هل خدمنا هؤلاء القتلة أم أطلقوا أيدي قتلة آخرين كان يكبلهم ما تبقى من القانون الدولي؟ لا أعرف يا جدي ولكنها ربما حساسيتي المفرطة. مشكلة كبيرة هذه يا جدي ولا أعتقد أنها ستحل قريبا.

- لا يا جاز، العالم أكثر تعقيدا. الظلم يورث الأحقاد ويخرجها في

شكل دفعات قاسية. مرة أخرى أشعر أننا سنكون، نحن سكان هذه الأرض المسالمين، الطريق السهل الذي سيسلكه تجار الحروب والقتلة. أما الضحايا فسيكونون وقتها عند البوابات الرسمية وفي الشوارع مشكلين مجموعات صغيرة غير مسموعة، يبحثون عن الحقيقة بعد أن غطيت بخمسين أو مائة سنة من الكذب والتلفيق. البشرية تخطئ مرة أخرى طريقها. قرن آخر من سوء التفاهم والأفكار الجاهزة وربما التقتيل المجاني والجماعي والمزيد من الأحقاد، فالحقد هو الزيت الذي يسهل حركة الضغينة بين الأمم والشعوب.

- كلامك رائع ولكن يا بابا شريف، هل إلى موضوعنا؟
- أتظن أننا ابتعدنا عنه أم أننا فيه حتى الدم؟
- ... ...

فجأة، عند مرور تيار هوائي، انفتح الباب الزجاجي المفضي إلى الحديقة قليلا. هبت نسمة بحرية باردة كانت تأتي من بحيرة مومي ريفر[٧٢]. ارتفعت الستائر الشفافة قليلا مفرجة عن الحديقة مرة أخرى بعطرها وروائحها التي تسربت قوية إلى عمق الصالة الشرقية. انفتحت أسارير شريف أكثر قبل أن تنزلق عائشة بسرعة وتعيد الباب الزجاجي إلى وضعه الأول.

- بابا شريف لا يتحمل كثيرا التيار الهوائي ولا يطيق غلق الأبواب كليا ولهذا هو مصاب بزكام مزمن.

قالت عائشة وهي تبرر حركة غلقها للباب.

- هذا زكام السن يا عائشة. الهواء يفتح الشهية كثيرا ويعيد نسمات الشباب إلى الحياة من جديد. المثل الشعبي الذي حملته معي قبل أكثر من نصف قرن يقول: **اللي بقى في عمره نهار، مات**. وأنا أقول اللي بقى في عمره نهار، ولد. وأدرك اليوم، بعد كل هذا الزمن الذي انقضى، أنه في نهار واحد، قصدي في يوم فريد، تمنحه لنا الأقدار،

---

(٧٢) Maumée River

يمكن أن نبني عالما ونخلق أشياء من العدم ونعيد إلى البشرية الضائعة في هبلها وجشعها وجنونها، بعض عقلها ورزانتها، أو على العكس، تدمير كل ما بنته السواعد عبر القرون.

-٣-

كان جاز مأخوذا بصفاء ذهنية جده بل وحدتها، وهو يراه يرشف جرعة أخرى من قهوته المرة التي يرفض أن يضيف لها سكرا، وإذا اضطر لذلك فقط ليمنع القهوة من الغليان. انطفأت نهائيا جمرة النرجيلة ولم يطلب بابا شريف من عائشة تغييرها ولا تحريكها. شعر جاز بلمعان في عينيه ووضاءة خاصة على وجهه الذي كان يشع من وراء لمبات الحديقة. لاحظ أنه لم يكبر كثيرا ولكن محيطه الذي من حوله هو الذي شاخ وتوقف حيث اللحظة التي تركه فيها وعليها.

- أنا لا أفهم يا جدي كيف يقبل الأمير فيصل بأن تدار دفة الحكم في حضرته بذلك الشكل البغيض؟ بمعنى أدق، هل عرف بقصة سجن الأمير سعيد ومقتل الأمير عبد القادر الصغير، فهو يعرفهم جيدا وهم أصدقاؤه وأصدقاء والده. ألم يصدر منه رد فعل يحفظ ماء الوجه؟

- أعتقد أن صديق فيصل الوحيد هو لورانس والإنجليز، ما عدا ذلك عموميات. ثم إن المغاربة قاطبة كان ينظر إليهم على أنهم من المناصرين لفرنسا في المنطقة ولهذا لم يكن ذلك مقبولا. انتفاؤهم حل مشكلات متعددة للجميع، للإنجليز، لفيصل وللورانس وربما حتى لفرنسا ليتم التقسيم في ظروف أفضل. كان حلم فيصل أن يصير ملكا على المنطقة. لكن هذا الحلم انتهى به إلى العراق وليس إلى الشام كما اشتهى. شيء أفضل من لا شيء على الأقل كما يقال. لم يكن الأمر مهما ولهذا في لحظة القسوة ترك دمشق وركب قطار الحجاز. القصة معروفة، والقصص عندما تعرف خواتمها ولا تحمل أية دهشة فليست مهمة كثيرا.

لورانس كان قد رتَّب كل شيء. في الأيام التي تلت، كل شيء مر بسرعة كبيرة. تصفية عبد القادر الصغير تركت أثرا بليغا في حي المغاربة. لم أنم ليلتها وشعرت كأني خسرت والدي مرة أخرى وربما أكثر. لقد أخذوا مني جزءا كنت أتكئ عليه وارى فيه شجاعة والدي وشجاعته. بكيت في حجر أمي طويلا. هي التي أسكتتني بصوتها الذي يشبه النشيج.

«- ليس الأول ولن يكون هو الأخير. ملح الأرض يا وليدي. من كثرة ما فقدنا لم يبق لنا دمع. في كل يوم ضحية، يبدو أن هذه المدينة صارت مشؤومة. وأفكر أن أرحل بك بعيدا لكيلا تمسك بك عدوى هذا المرض الذي يقدس الموت أكثر مما يفعل مع الحياة. نعيش في حضن أخوالك حتى يفرجها الله. خالك يحيى هناك والله فتح عليه، تجارة البرتقال بين الشام وبيروت والضفة الغربية تدر عليه ما يسمح له بالعيش الكريم، وكل العائلة مستعدة لمساعدتنا، ولم أعد أشعر بالرغبة في البقاء. شيء ما تغير في العمق.»

أمي كأنها فجرت قنبلة موقوتة في أعماقي. فجأة شعرت بتمزق داخلي بين سعادتي بلقاء مانيا وفقدان عمي عز الدين. قلت في خاطري سأقترح على عمي عز الدين أن يذهب معنا. عندما فاتحته بالموضوع، ضحك طويلا ثم قال لي وهو يحك على رأسي:

- بصفتي ماذا؟ وكيف أعيش معكم؟

- تزوج ماما صفية وخلاص وتصير بابا.

لا أدري كيف خرجت الكلمة مني ولكني مساء أنّبت نفسي كثيرا، ولم أنم طوال الليل. فكرت أن أذكر ذلك لأمي ولكنني انتهيت إلى كذبتي الاعتيادية وأني رأيت غولة تريد ابتلاعي لكيلا أطيل في الموضوع. ضمتني أمي إلى صدرها. نمت بسرعة وحاولت أن أطرد فكرة زواج أمي بعمي عز الدين.

فترة الفراغ لم تدم طويلا. في ٥ من أكتوبر ١٩١٨ عهد فيصل إلى

رضا الركابي بتأليف حكومة تدير البلاد ومنحه صلاحيات الحاكم العسكري. فتكونت من عرب الأقطار المشاركة في الثورة. فتولى قيادة الجيش نوري السعيد وهو عراقي، إدارة الأمن العام أوكلت لجميل المدفعي من العراق كذلك، إدارة الشرطة لمحمد علي التميمي من فلسطين، قيادة موقع دمشق لزكي العظمة من سوريا وإدارة العدلية لإسكندر عمون وهو لبناني ماروني من دير القمر. أعتقد، هذا هو هيكل الحكومة العسكرية الأساسي. نتساءل اليوم لماذا الحكومات العسكرية؟ كل شيء في حياتنا يتنفس العسكر، حتى الحكومات المدنية عسكر مزيف. المسلك الغلط لا يمكنه في نهاية المطاف إلا أن يقود إلى المهالك الأكيدة التي تدفع ثمنها الأجيال المتتالية.

- وشكري الأيوبي؟ لم أفهم جيدا وضعه. أكان يهمه فيصل إلى هذه الدرجة أم إنه كان معنيا بالأتراك ومنصبه أولا وأخيرا؟ نجده هنا وبعد مدة نجده هناك، في الصف المناقض تماما.

- هذا الرجل الطيب أنا نفسي لم أعرف يوما كيف أصنفه؟ ليس رجلا غبيا ولكنه راهن على الذي يملك البندقية والسيف وكان عاجزا أن يتحرك كمدني وكرجل ذكي. فقد عين حاكما عسكريا على بيروت وأمر بالتوجه مباشرة إليها لإعلان الحكومة العربية في منتصف ليلة الجمعة بصحبة معاونه رفيق التميمي، ورئيس أركان حربه جميل الألشي. فباتوا في خان ميسلون بصحبة رستم حيدر الذي لم يتوقف عن كتابة يومياته وهو في الحرب. هذا الرجل لا يعرف شيئا إلا الكتابة. ومروا على ظهور الخيل براشيا، هناك استقبلهم والد عارف الشهابي الذي أعدمه السفاح جمال باشا. وزاروا زوجة الشهيد فخطب رستم حيدر الذي كان رجلا حساسا وبليغا على طريقته، فأبكى الحاضرين. لديه قوة تأثير استثنائية ولا يتوانى عن استعمالها كلما دعت الحاجة إلى ذلك. كان الله يرحمه، قبل أن يقتل، يعرف كيف يخترق القلوب بلغته وأحاسيسه. ويبدو أنه في بلداننا يا حبيبي، الرجال الكبار لا يعمرون طويلا. يقتلون أو تسحبهم سكتة قلبية بسرعة. اغتيل وكان عمره لا يتجاوز الخمسين

عاما ولم يكن يملك إلا دارا مرهونة وقليلا من النقود. بطل كبير يتحول في ثانية واحدة إلى رماد؟

صمت شريف قليلا كمن تذكر فجأة شيئا مهما. امتعض وجهه وكأن الحدث وقع للتو وفي اللحظة. ثم مد يده إلى الصندوق وبدأ يبحث. فجأة أخرج وثيقة مكونة من ثلاث وريقات من صحف قديمة تكاد تلتصق مع بعضها بعضا، علت أطرافها صفرة وتمزقات صغيرة كأن أنياب الفئران أو دود الورق هي التي فعلت ذلك. سحبت عائشة لمبة الهالوجين قليلا وسلطتها على الورقة وقدمت النظارات إلى شريف:

- اسمع يا ابني جاز ماذا قيل عن هذا الرجل الذي ظل بجانب فيصل حتى النهاية. لا أدري، أشعر بعطف كبير تجاهه وأنا لم أعرفه في حياتي. رأيته مرة واحدة عندما قضى الليلة في الضيعة بصحبة عمي عز الدين وهو الذي صحبهم خارج المدينة عندما كانوا يريدون الالتحاق بفيصل. عبد القادر الصغير لم يكن يحبهم كثيرا ولم يكونوا يبادلونه نفس الحب. كان في العربية الفتاة ثم التحق ليلا لأول مرة بفيصل عن طرق الصحراء وجبل الدروز. حدث ذلك بسرعة. في ١٠ آب ١٩١٨خرج مع مجموعته، متنكرين متفرقين واتجهوا نحو بساتين جرمانة بغوطة دمشق فأجمعوا أمرهم وغيروا زيهم، وغادروها ليلا باتجاه قرية خلخلة. وعندما تفطن الحاكم التركي لخروجهم، وضع جائزة قدرها خمسمائة ليرة ذهبية لكل من يأتي برأس أحدهم. واستطاعوا أن يلتحقوا بجيش فيصل. هذه قصة أخرى.

- وهل التحقوا ببيروت أخيرا، وهل سبقوا الإنجليز بعد أن تم تعيين شكري الأيوبي حاكما على بيروت؟

- كانوا مدركين مهمتهم ولهذا بذلوا جهدا معتبرا لتحقيق ذلك. مروا على جسر الخردلة على نهر الليطاني. ونزلوا في النبطية في بيت محمود الفضل. كان الإنجليز وراءهم. ولما وصل الإنجليز إلى صيدا، اختاروا هم الذهاب مباشرة إلى بيروت دون المرور على صيدا ربحا للوقت للوصول قبل الإنجليز. ودخلوها في ٧ أكتوبر ١٩١٨، وساروا

محاطين بالجماهير المرحِّبة حتى ساحة البرج. وركز، رستم حيدر الله يرحمه، العلم في موقع الشهداء ورفعته فاطمة المحمصاني شقيقة الشهيدين محمد ومحمود تكريما لها. لكن مشكلتنا البنيوية التي فينا ظلت معنا. بدل أن نرث من حروبنا محبتنا لرجالنا الذين يحملون النور في عيونهم، رحنا نطفئ نورهم ونركن للجهلة. أشعر أحيانا بشيء مخيف وأننا نعيش زمنا الجهل هو سيده. هو المنتصر الوحيد فيه. اسمع وقل لي إذا كنت مخطئا في حكمي. تلك الأيام أكدت لي أن مصير العرب قد خط نهائيا ولن تقوم لهم قائمة إلا إذا تغيرت كل المعادلات الخفية التي لا نعرفها:

«بينما كان صاحب المعالي السيد رستم حيدر وزير المالية جالسا في مكتبه الرسمي حوالي الساعة الحادية عشرة قبل ظهر اليوم، إذ استأذن في الدخول عليه المدعو حسين فوزي توفيق، من مفوضي الشرطة المفصولين، فأمر بإدخاله. ولما حضر أمامه قدم إليه كتابا وبعد ما قرأه معاليه، توجه نحو الباب للخروج فأطلق المذكور عليه من الخلف رصاصة من مسدسه، فأصابت خاصرته من الجهة اليسرى ونفذت من الأمام. وعلى إثر دوي الطلقة هرع الأهلون وبعض أفراد الشرطة فقبضوا عليه. ونقل معالي الوزير إلى المستشفى الملكي لإسعافه. أما الجاني فقد كان مفوضا في الشرطة. وفي ٣-٧-١٩٣٥ استغني عن خدمته لسلوكه الشائن وعدم قيامه بواجباته. ثم استخدم في الأشغال العسكرية بأجرة يومية. وبعد مدة الطرد أيضا للسبب نفسه وقد راجع السجون والري للاستخدام فلم يسعف طلبه بعد الاطلاع على إضبارته الشخصية. *١٨ كانون الثاني ١٩٤٠ مدير الدعاية العام*»

تصور قدر الحماقة؟ لا أدري إذا كانوا أغبياء أم أذكياء، لكنهم. . .

- من هم يا جدي؟

- الذين حكموا رقابنا دائما. كلما أرادوا قتل إنسان نبيل وفي قلبه شعلة ما تزال حية، أطفؤوها بلا تردد واخترعوا لها معتوها أو مجنونا؟

كانوا يريدون رأسه لأنه كان أذكاهم وأكثرهم أناقة وثقافة. والذكي في بلداننا يقتل من طرفنا أولا وقبل غيرنا، نمحوه بأيدنا في الأغلب الأعم. فقد اختير لنا أن نبقى أغبياء. لم أفهم هذا إلا في السنوات التي تلت الخيبات الكبيرة. كان يظن بأنه لم يسئ إلى أحد وبالتالي لن يخاف من أحد. ونسي أن ذكاءه وحده كان أكبر إساءة للآخرين الأغبياء. والأجمل من هذا عندما يضعون في جيب القاتل وصية هي الشاهد الوحيد على فعله المشين. سبحان الله، العالم لم يتغير إلا قليلا، فقد وجدوا في جيب الجاني حسين فوزي توفيق، وصية مؤرخة ب١١-١٢- ١٩٣٩ انظر ماذا تقول.

وفتح شريف وريقة أخرى كانت ملصقة بالأولى وكأنها لم تفتح منذ زمن غير يسير:

«إن داعيا وطنيا دعاني بهذه التجربة ما دمت قد صممت على الانتحار وهي أن أنقذ أمتي وبلادي من شرور أحد الخونة على الأقل وأنه ليس هنالك من حرضني على هذا الواجب، والله شهيد.»

- أنا لا أعرف كيف يمكن لأديب يكتب برقة ويكره الصهيونية العالمية ومعلم سابق وقارئ حي ومقاوم للمظالم والاستعمار وصحيح أنه أحب النازية كرها في الصهيونية وليس حبا في هتلر، أن يقتل هكذا؟ ربما كانت هذه قصة أخرى ليس هذا وقتها. ولكن اسمع معي هذا النعي وتأمله جيدا.

ثم فتح الورقة الأخيرة الملصقة بالاثنتين بشكل أكبر كجناحي فراشة. وجد صعوبة كبيرة في عزلها عن الورقتين خوفا من بعثرة أجزائها:

«بأسف عظيم، ننعى المرحوم السيد رستم حيدر وزير المالية. اختاره الله إلى جواره حوالي الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين من صباح اليوم، متأثرا من جرحه بالعيار الناري الذي أطلقه عليه معتد آثم. وعلى الفور سارع إلى المستشفى فخامة رئيس الوزراء وأصحاب

الفخامة والمعالي الوزراء وكبار رجال الدولة لوداعه الأخير وتفضل حضرة صاحب السمو الملكي الوصي المعظم، فأمر بدفن الفقيد العزيز في المقبرة الملكية إلى جانب مثوى الفقيد المحبوب المرحوم السيد جعفر العسكري وتألفت لجنة برئاسة أمين العاصمة قوامها ممثلون عن الداخلية والخارجية والدفاع، لتنظيم منهج التشييع الذي سيذاع مساء هذا اليوم بمنشورات ومن الراديو العراقي وسيكون التشييع رسميا وشعبيا في الساعة العاشرة من صباح غد. ولا يسع العراق حكومة وشعبا إلا إبداء الأسف الشديد لهذه الخسارة الفادحة والتنويه بما قدمه الفقيد العزيز من خدمات جليلة للبلاد. *بغداد ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٠.*»

وانتهت القصة باتهام العديد من المتهمين، وزراء دفاع ومالية ومتصرفين ومحامين وتجار وبرئ الكل وحكم على المنفذ حسين فوزي توفيق وتم تنفيذ الحكم فجر الأربعاء ٢٨ آذار ١٩٤٠ بعد صدور الحكم بأسبوع. وقد سمع الحراس المتهم وهو يقول ويصرخ: **ورطتني... ورطتني... فأين وعدك يا نوري السعيد؟** وقيل كذلك إنه قبل الشنق هتف بحياة هتلر. وأنكر ذلك العقيد سعيد يحيى الخياط الذي حضر تنفيذ حكم الإعدام بأمر من نوري السعيد. أين هي الحقيقة ومن يسيرها؟ كتب على حقيقتنا أن تظل مؤجلة دوما؟ الذي أوجع قلبي ليس الموت في حد ذاته لكن الأرض التي قاتلت لتقوم على ركبتيها ويبدو لي أنها لن تقوم أبدا بعد أن رسخت الجريمة فيها بشكل طبيعي. صار كل من لم يرضوا عنه، دبروا له قتلة مهذبة، ونظموا له جنازة من أجمل الجنازات وأرقاها. وسيموت عقلاء كثيرون بهذه الطريقة، أنطوان سعادة، الصلح الذي كان وراء اغتياله، الملك عبد الله في القدس وغيرهم، وبدأنا ندخل الحروب ونحن نجر شيئين الهزائم المفروضة والارتباك في كل شيء، هو نفس ارتباكنا اليوم ولا أرى أفقا لذلك، ربما لأن الزمن الصعب حولني إلى رجل أعمى وأطرش ولكني مازلت محقا إلى أن يأتي ما يغير ظني ويقيني.

حنى بابا شريف رأسه قليلا وصفن قليلا في صمته، قبل أن يضيف بحسرة:

- الله يرحمه كان رجلا شجاعا، تربى في عمق المعركة والخيبات ولكنه ظل مؤمنا بالانتصار على الاستعمار والتخلف ولكنه لم يكن يعرف أن الاستعمار كان في حجرة نومه بل في رئتيه، يراقب تنفسه.

- وما مصير فيصل والثورة؟

- قلت لك الخدعة كانت جميلة. منذ هذه اللحظة بالذات بُدئ في تطبيق الاتفاقية المسطرة وتقسيم الأرض التي كان ذنبها الوحيد أنها واسعة جدا.

- لم أفهم يا جدي؟

- أقصد اتفاقية سايكس-بيكو التي حسمت بالمسطرة. في ٨ أكتوبر احتجت فرنسا على رفع العلم في بيروت. القوات الإنجليزية التي كانت تحتل لبنان، انسحبت في اليوم نفسه، مخلية مكانها للفرنسيين وطلبت من شكري باشا الأيوبي مغادرة بيروت وأصدر الجنرال أللنبي في ٩ أكتوبر قرارا بتعيين الكولونيل الفرنسي دي بيابان حاكما على المنطقة الغربية وأصدر أمره بإنزال العلم العربي في احتفال كئيب. دون أن يرفع مكانه شيء آخر. وفسر ذلك على أساس أنه عمل يقصد من ورائه تفادي الفوضى. أتساءل أحيانا، هل كان العرب عميانا بأنهم يباعون بشكل غبي ورخيص؟ كيف قبلوا بأن يتصرف الإنجليز في حياتهم. مقتل سيدي عبد القادر الصغير كان قد فتح حواسي عن آخرها ووضعنا في مسارات أكثر تعقيدا.

- وماذا حدث بعد ذلك؟ هل تغير الوضع؟ هل اهتزت المدينة؟

قال جاز وهو يقرب مسجله الصغير أكثر ويضعه ليس بعيدا عن الكرسي المغرف بدون إثارة انتباه جده الذي ظل منهمكا في الحديث والتأمل من حين لآخر.

- ما حدث كان أكثر تعقيدا. ظهر جليا أن ما كان يحكي عنه عمي

عز الدين وفؤاد غصن وصديقهما ديمتري الشيوعي الروسي الذي كان يوصل لهما الأخبار عن اتفاقيات سايكس بيكو وغيرها لم يكن خرافة أو هستريا زائدة سببها الخوف والهزيمة. وما كان يبدو خرافة دافع عنها الإنجليز أمام الشريف حسين اتضحت صحتها. لقد سرقوا منا البلاد التي حرروها معنا.

- طيب لماذا لم يستعمروها مباشرة ما داموا يملكون الآلة الحربية والأسلحة القوية؟

- لا يا جاز؟ لا يا حبيبي. العرب كانوا لحم المدافع، وكانوا في حاجة إلى أناس يرمونهم في الأتون، ولكن القيادة لم تمنح أبدا لا لفيصل ولا لناصر ولا لغيرهما. كان أللنبي هو سيد الحرب ومسيرها وذئبها الأساسي. عندما بدأ العرب يتفطنون، كان كل شيء قد انتهى. أو كاد أن ينتهي... كاد...

- ألم يكن بالإمكان حمل السلاح من جديد والمقاومة؟ رفض الاستعمار الجديد... لا أدري أي شيء، لا يعقل أن يتم التسليم بهذه السهولة، هناك دائما حل لأي مشكلة تطرح.

- يسلم لي ها الفمّ. هناك حل لكل مشكلة تطرح، بس أضيف إلو شي تاني، لازم تطرح بصدق وبشكل صحيح وأمانة وإيمان بما نقوم به.

- لا أفهم جيدا، أناس عادوا من الجبهة ووضعوا حياتهم رهن التحرير، لا أفهم. أعتقد أنه كان بإمكان فيصل أن يقول لا، أن يرفض.

- يقول لا لمن؟ لمن وضعه في سدة الحكم والإمارة؟ هل هذا ممكن؟ كان بإمكان بلاد الشام أن تقاوم باستماتة أكثر مثلما حدث في المدن العظيمة، روما، غرنيكا، ستالينغراد ولكن لم يمنحوها هذا الشرف. والمدن العربية لم تمنح يوما هذا الشرف. لا يمكن لمدينة أن تقاوم بدون رمز أو قائد وماذا يبقى عندما تنتفي الرموز؟ وضعوا المفاتيح على الدرج الأول المقابل للباب وانسحبوا حفاة عراة حتى لا يشك في أمرهم أحد وحتى لا يحدثوا ضجيجا يمكن أن ينبه إلى وجودهم.

- لم أعد أفهم الشيء الكثير من هذه القصة. لا أفهم...

- لا يمكنك أن تفهم لأن كل شيء حدث في الظلام. . . يحدث في الظلام. . . ويستمر في الظلام. . .

ثم غرق شريف في تمتمة تشبه كلاما خافتا مشوبا بالريبة والانكسار.

كان القمر الذي كان يضيء جزءا كبيرا من الحديقة قد مال نحو الجهة اليسرى ونشر ظلا كبيرا تسرب من بين الأشجار ثم الصالة التي لم يفصلها إلا الزجاج السميك وأكواريوم الأسماك الملونة. تمدد الظل أكثر نحو زوايا الصالة قبل أن يغلف الجزء الأيسر من وجه شريف الذي كان قد انسحب بذهنه بعيدا، بهالة من السواد والرماد وغبار الليالي الغامضة. . .

معابر بيروت الضيقة

-١-

أواخر الخريف لم تأت بشيء جديد سوى أن يما صفية أصرت على قرارها النهائي الذي اتخذته على الرغم من معارضة عائلتي من والدي، بالذهاب إلى أهلها في فلسطين وأغلقت أمام بعض أعمامي المنشغلين على تربيتي ومستقبلي، كل إمكانية للنقاش. لكنها قالت إنها ستؤجل كل شيء إلى ما بعد ذهابها لبيروت للوقوف على هضبة الصنائع حيث دفن سليم مع رفاقه تحت أكوام التراب، وساحة المدفع ونزل الخديوي لتوديع زوجها للمرة الأخيرة.

كل شيء تغير في أعيننا أنا ويما صفية، حتى المدينة تبدلت علينا ولولا عمي عز الدين لصارت مكانا موحشا. كل شيء فيها كان ينذر بخطر الانفجار. كانت أمي وبعض أخوالي يتحسسون ذلك بحاسة شمهم كالحيوانات. كانت كل يوم ترمي بخبر جديد إلى الشارع يدفع الناس إلى المزيد من التساؤلات عن فشل الحكومة في فرض سلطانها على الإنجليز والفرنسيين.

استقالة ساطع الحصري، وزير المعارف وانعزاله في بيته، كانت هي القطرة التي أفاضت الكأس. كان الخبر الذي تلقفته الكثير من الجرائد على كل الألسن. الحدث غطى حتى على العودة القريبة للأمير فيصل من مؤتمر فرنسا، وأخرج مشكلات الحكومة والصراعات الداخلية إلى الشارع. كانت الاستقالة تدل على أن خلافات حادة وعميقة كانت

تعصف باستقلال البلاد الهش والغامض، وأن هناك خلافات كبيرة لا يحلها إلا الأمير فيصل الغائب منذ مدة في باريس، وأن الأمير زيد الذي أنابه، لا يحل ولا يربط، كما يقول العارفون.

ليالي نوفمبر باردة. الرياح الخفيفة التي كانت تهب على المدينة تعطر شوارع دمشق وبناياتها القديمة بروائح الياسمين الشامي الذي يغطي واجهات البيوت. حتى الحشرات الناعمة التي تلتف حول قناديل اللوكس في الشوارع الخلفية بحثا عن منفذ للضوء المخبأ وراء خلفية زجاجية رقيقة، تسحبها الرياح بعيدا وتنقي شوارع المدينة منها.

كان ساطع الحصري في بيته يقرأ كعادته كتابه الليلي، ويسجل الملاحظات التي يرى أهميتها. كان يتهيأ للدخول إلى فراشه عندما سمع دقا على الباب عرف أنه لياسين الهاشمي. «وحده ياسين يدق بتلك الطريقة»، تمتم ساطع الحصري وهو يضع على ظهره لباسه الخشن خوفا من التيار الهوائي الذي يخترق عرض البيت. عندما فتح الباب لاحظ صفرة حادة تعلو وجه ياسين الهاشمي فأدرك أنه لا يحمل بشارة خير.

بقي صامتا للحظة.

- قهوة أخي ياسين؟

- لا.

قالها ياسين الهاشمي بشكل جاف.

- خير إن شاء الله أخي ياسين؟ أكيد فيه شي لا يبشر بخير.

لاحظ ساطع الحصري.

- من وين يجي الخير يا ساطع؟ الوضع كل يوم يزداد خطورة.

- لم أفهم؟ مع أن الأمير زيد يقوم بالواجب وزيادة...

قال ساطع الحصري بنوع من السخرية الخفية التي تطبع كلامه لتخبئة انفعالاته الساخنة.

- أعرف أنك لست جادا فيما تقوله. المسألة تتجاوز الأمير. جئت لأرجوك أن تترك أمور المعارف الآن جانبا، وتحضر إلى مجلس المديرين غدا لتشترك معنا في دفع الخطر العظيم الذي يداهم البلاد.

لولا حاجة الوطن الماسة إليك، ما أقلقتك في آخر هذا الليل.

- بأية صفة أحضر؟ أنت تعرف أني قدمت استقالتي من مديرية المعارف العامة لاختلافي مع الحاكم العسكري العام في الكثير من الأمور المتعلقة بتسيير معاملات الدولة بوجه عام وتنظيم شؤون المعارف بوجه خاص. الاختلاف إذن لم يكن مسألة شخصية، فقد بدأ منذ مدة غير يسيرة ووصل إلى أقصاه في أواخر شهر أكتوبر. فاعتقدت بضرورة الاستقالة تخلصا من مسؤولية الأعمال التي كانت تخالف ما أقول به من المبادئ وتنافي ما أعتمد عليه من خطط. ولا أرى جدوى من عودتي والأوضاع هي على ما تركتها عليه.

- لكن الأمير زيد رفض استقالتك وطلب منك أن تستمر في أداء مهمتك الوطنية. وقد وسط الكثيرين من أجل عودتك.

- أنا قلت لك إن المشكلة ليست شخصية ولكنها تتعلق بمسألة عميقة وجوهرية. الحاكم العسكري هو الحاكم الفعلي لبلادنا وأنا لا أتحمل تبعات ذلك.

- تحليلك صحيح ولهذا فعودتك مهمة جدا بل وضرورة وطنية. لقد قرر الإنجليز أن يسحبوا جيوشهم من المنطقتين الغربية والشرقية على أن تحل الجيوش الفرنسية محل الجيوش البريطانية في أقضية راشيا وحاصبيا وبعلبك. وقد أبلغونا هذا القرار وأعلمونا بأنهم سينفذونه قريبا. إن احتلال الأقضية المذكورة من قبل الجيوش الفرنسية يعني تطبيق أحكام اتفاقية سايكس-بيكو بجميع حذافيرها. إذا سمحنا بهذه الخطوة الآن فسنخسر فيما بعد كل أمل في إصلاح الحال خسرانا تاما. يجب علينا أن نحول دون تنفيذ القرار المذكور ودون احتلال هذه الأقضية.

- لا أراني قادرا على فعل شيء مهم. ثم المفروض أن مسألة مثل هذه محسومة سلفا. أنت تعرف أن كليمانصو سبق أن طرح المسالة على الأمير فيصل في ١٦ أفريل ١٩١٩ ورفضها. قال له إن الإنجليز سينسحبون من الشام وحلب وإني أود أن تقوم عساكرنا مقام العساكر الإنجليزية هناك. رد الأمير فيصل كان قاطعا، فهو لا يحب الفرنسيين

كثيرا: «أنا لا أستطيع الموافقة على فكرة مثل هذه. سورية لا تحتاج إلى عساكر أجنبية وإذا احتاجت إلى ذلك فلن تتردد في طلب المساعدة منكم.»، كليمانصو لم يستسلم وحاول أن يتحايل أكثر موضحا فكرته: «أنا لا أود احتلال بلادكم وإنما أقول ذلك نظرا للحالة الراهنة، فلو كان الأمر راجعا إلي، لما اختلفت معكم دقيقة واحدة. بل كنت سايرتكم في كل ما تريدون، غير أن الأمة الفرنسية لا يرضيها ألا يكون في سورية أثر يدل على وجودها فيها. فإذا غاب العلم والجيش الفرنسيان عن سورية، فالأمة تعتبر ذلك عارا وخذلانا. لا نود أن نرسل قوة كبيرة ولكن فيلقا بسيطا يدل على وجودنا الرمزي.»

- وما هي قراءتك لكل هذا؟

- لم يستسلموا لما يريدون تحقيقه. كليمانصو يفاوض من داخل اتفاقية سايكس بيكو، ويسعى باتجاه معاهدة توفق بين آمال العرب والمصالح الفرنسية. هناك خلافات بينهم وبين الإنجليز ولم يتفاهموا بعد. عندما يقبل الإنجليز، هذا يعني أن تقسيم مناطق النفوذ تم الاتفاق عليه. وحركة الإنجليز بالانسحاب من الأقضية يخيفني من هذا الجانب.

- ونحن كذلك ولهذا نريد حضورك الاجتماع. الحاكم العسكري العام ينزع إلى المسالمة ولا يميل إلى المقاومة. زملاؤنا الآخرون كثيرو التخوف والتردد وقليلو الجرأة والإقدام. من الضروري أن تحضر الجلسة التي ستعقد غدا لتغليب روح المقاومة والدفاع. أعتقد أنك تسلم معي بأن هذه القضية خطيرة جدا.

- أنت تضعني داخل كماشة لا أستطيع ردها.

- إذا لم تحضر الجلسة أنت، أخشى ألا نحصل على الأكثرية اللازمة لتقرير المقاومة. أرجوك رجاء خاصا، أجل خلافات المعارف الآن وساعدنا على معالجة هذه القضية الخطيرة قبل فوات الأوان.

- قضية الاستبدال قضية خطيرة وحيوية بالنسبة لأرضنا واستقلالنا ويجب أن تُقدم على جميع القضايا التي كانت قد حملتني على الاستقالة والاعتزال. طيب...

خمن ياسين الهاشمي بأن شيئا خاصا يشغل ساطع الحصري:

- بقي مشكل لم نتطرق له؟

- ملاحظة بسيطة. . . هل تعتقد بأن القوى العسكرية التي نملكها الآن تكفي للمقاومة والدفاع؟

- لا أشك في ذلك أبدا. قدت الجيوش العثمانية وأعرف جيدا مقدراتنا الأساسية.

- أثق فيما قلته، فأنت صاحب الميدان وليس أنا. سأحضر معكم غدا إن شاء الله.

لم يكن ياسين الهاشمي مخطئا في قراره بدعوة ساطع الحصري الذي حضر في اليوم الموالي مجلس المديرين. بفضل حضوره القوي، انتصر جناح مؤيدي المقاومة على جناح التردد والقبول بالأمر الواقع. حتى الحاكم العسكري لم ير أمامه من بد إلا الاستسلام لقرار الأغلبية. واتخذت الحكومة حالا جميع التدابير اللازمة للحيلولة دون احتلال الأقضية، وأفهمت الإنجليز والفرنسيين معا أن تقدم الجيوش الفرنسية نحو أية ناحية من نواحي المنطقة الشرقية لابد أن يؤدي إلى اصطدام دموي قد تنتج عنه عواقب وخيمة. وكانت أولى التدابير التي اتخذتها الحكومة، دعوة المؤتمر السوري العام الذي ظل معلقا، إلى الانعقاد لإبراز رأي الأمة في هذه القضية الشائكة.

-٢-

السفر إلى بيروت كان بمثابة العزاء الأخير. لم تنتظر يما صفية طويلا للانتقال إلى بيروت. كانت بدايات الشتاء قاسية ودمشق في غليانها. عادت إلى بيروت تبحث عن كسوراتها وبقايا أحزانها لتوديعها للمرة الأخيرة.

شيء واحد كان يملأ دماغها ظاهريا. أقول ظاهريا لأني لم أتجرأ يوما أن أسألها عن حالة ظلت تؤرقني عميقا وكم كنت أتمنى أن يصير

يوما عمي عز الدين أبا لي. عرفته وبقيت معه أكثر مما بقيت مع أبي. ولكني لا أدري إذا ما كنت سأحبه عندما يسرق مني كل مساء أمي ويختلي بها وحده. أمي كانت طرفا في حياتي العاطفية المرتبكة. عندما أفكر طويلا أجد أن حبي لمانيا لم يكن إلا لأنها تشبه أمي كثيرا أو ربما كنت أرى ذلك. المؤكد أنه كان بها شبه كبير بخالتي. وبين خالتي وأمي توأمة غريبة في كل شيء. لو لم تكن مانيا كذلك، لا أعتقد أني كنت سألتفت نحوها أو كنت سأحبها.

كلما تذكرت عمي عز الدين لا أستطيع أن أنفصل عن الجملة التي قلتها له وندمت عليها. كأني في أعماقي كنت أشتهي زواجهما. لم يكن من حق أمي أن تظل ملفوفة في إزار أبيض وأحيانا أسود، حزنا وكلما نزعت ذلك، رأيت شمسا، يدا خفية تجبرها على الذبول ولهذا لم أكن ضد أن تخرج أمي من هذه الدائرة المغلقة، عكس أخوالي الحسينيين الذين كانوا في عالم آخر. لم يتحملوا هذه المدينة، فاستقروا جميعا تقريبا في فلسطين. هناك وجدوا أرضا أخرى، صغيرة ولكنها كانت أكثر حبا بما فيهم خالي يحيى الذي قضى وقتا طويلا بين دمشق وبيروت والقدس قبل أن يعود نهائيا إلى فلسطين.

كانت أمي تريد أن تعود إلى بيروت للمرة الأخيرة لتوديع والدي قبل السفر إلى فلسطين وترك الشام. لم يعد هناك ما يثيرها في هذه المدينة التي أرهقتها.

عندما فاتحت عز الدين، قال لها انتظري عودتي من الجبل وسنرى الموضوع معا. ولكن غيابه المتكرر جعل أمي تسأل عنه كثيرا وكأنها وجدت السبب الذي يبرر سؤالها عن عمي عز الدين. كلما رأتني، سألتني: ما شفت عمي عز الدين؟ ما إجى من الجبل لسه؟ والله يبدو أنه طلق الشام طلاق الثلاث؟ ما كان لازم يعلمنا أنه يتأخر بالجبل حتى نعرف كيف نتصرف؟ كانت تسأل بينما كان هو بين حواف دمشق البعيدة، لبنان، والجبل والدروز، وعندما نشرع في نسيانه، يعود وكأنه كان يعبث بعواطفنا كالطفل الصغير. أنا نفسي بدأت أشعر بغربة. كنت

أجد ألعاب أصدقائي تافهة وبليدة. ربما لأني كبرت بسرعة وصرت رجلا بعد أن أحرقت مراحل متعددة في طفولتي. لم يعد لدي نفس الحماس تجاه المدينة وتجاه محيطي، الذي كنت أحسه في السنوات الأولى. كأن هناك حزنا نزل فجأة على المدينة فأنهكها وأثقل عليها راحتها.

قالت أمي ونحن نتعشى وكانت المرة الأولى التي ألحظ فيها تصميمها وإصرارها على الخروج:

- يا شريف يا ابني، أكرر عليك مثل الببغاء الممل، لم يعد هناك ما يشغلنا في هذه المدينة. لازم نروح نودع والدك للمرة الأخيرة في الرملة قبل أن نسافر إلى فلسطين. لقد ردم هناك مع الجماعة. سنقف عليهم جميعا ونبتعد أكثر نحو العمق، ربما استطعنا أن ننسى ونعيش وتتعلم أنت ما تشتهي تعلمه. لم أعد متحمسة للبقاء هنا. اتفقت مع أخوالك، سيضعوننا في أعينهم.

- وعمو عز الدين؟

قلتها بشكل غير عفوي كما تعودت، منتظرا ردة فعلها. صمتت قليلا وارتعشت شفتها السفلى، عادتها كلما أحست بحالة إحراج أو خوف. التفتت نحو الحائط. تأملت الخطوط والتعرجات والأحجار التي كانت تخرج من تحت التلبيس الذي تقشر مع الزمن بسبب الرطوبة وغياب الصيانة. كانت عيناها شاخصتين في الفراغ. لا اعتقد أنها كانت مركزة على شيء، كانت داخل بياض ودوائر لا حدود لها، مثلما يحدث مع العشاق.

- عمك عز الدين رجل شهم، يستأهل كل خير وشاب يافع وحيوي.

- وأنت كذلك شابة يافعة وحيوية يا يما صفية.

- قصدي، عنده بيت وأهل وعنده ناسه الذين ينتظرونه كل مساء.

- هو مش متزوج يا يما صفية.

ضحكت قليلا وكأنها لم تفهمني.

- أنا ما قلت أنه متزوج، هيدي حياته الخاصة. قلت لك ناسه، قصدي أهله وأقاربه المباشرين اللي بيسألوا عنه. طلبنا يرافقنا إلى بيروت، بس تأخر كثيرْ. هو بيعرف منيح كل الأماكن. وهنيك بتشوف بعينيك قبر سليم ونودعه سوا وبعدها نروح لفلسطين عند أخوالك، تعبت من الشام.

يما صفية عندما فاتحت عز الدين حول سفرها، لم تكن تنتظر رده. لم يرفض مرافقتنا ولكنه قبل أن يجيبها، حنى رأسه قليلا قبل أن يرفعه ويواجه عيني أمي الهادئتين المرتشقتين في عينيه.

- مش من الأفضل أن تنسي سليم وبشكل نهائي؟ من الصعب أن يقضي المرء حياته كلها في الألم وفي انتظار قلق هو أول العارفين أنه عبث، وأنه لا أفق له مطلقا.

- صعب. لهذا أريد أن أبتعد عن هذه المدينة نهائيا. كل شيء فيها يقودني نحوه وأنا بدأت أتعب. أتعب من هذا القلق المبهم الذي لا يساعدنا على حمل مشقة الحياة. وحياتك أصبحت لا أطيق هذه المدينة. سأحمل شريف وأذهب عند أخواله. المدينة صارت رائحتها عفنة بالفعل. ولهذا لا أريد أن يكبر شريف ميتما من ذكرى والده. ثم إن بيروت على بعد خطوتين.

شعرت في لحظة من اللحظات، أو ربما كانت ظنوني الفاسدة هي السبب، أن أمي كانت تهرب من عمي أكثر مما كانت تريد أن تهرب من دمشق. لم أتجرأ يوما أن أسألها عن غموضها فيما يتعلق بعمي عز الدين.

- يا الله، ستتركين المكان موحشا وسنشتاق إلى حبيبي شريف. أعدكم أني كلما وجدت وقتا، سأزوركم في فلسطين. أنا أعرف أن آل الحسيني سيضعونكم في أعينهم. عمي سعيد يطلبني للبقاء معه بعض الأيام. سأنزل عنده في بيروت ونسافر وقتها معا. أرافقكم إلى الرملة وبعدها أترككم لحياتكم الجديدة في القدس.

- عمك تعرفه جيدا، من ساعة ما فتحت عيني وهو يريد أن يصلح

بين الذئب والشاة، هكذا كان يقول عنه سليم دائما. نواياه طيبة جدا. فهو يريد أن يكون شبيها بجده الأمير عبد القادر، يريد أن يتشبه به في كل شيء ولكن الظرفية والزمان وقوة الشخصية تختلف. الأمير عبد القادر وصل إلى السلام بعد أكثر من خمس عشرة سنة من النضال والحرب ضد المستعمر. قصة طويلة، قصة محمد سعيد، الله يكون في عونه.

- كعادته يلح ألا نرد بالسلاح على ما يحضر لنا من مصير مشؤوم. ولكن نشتغل في السياسة إذا أردنا أن نحقق شيئا من حقوقنا. الحرب آلة خاسرة كما يقول.

فجأة قامت أمي من مكانها. لأول مرة أراها تفعل ذلك وقد تغير لون وجهها وعينيها:

- أرجوك يا عز الدين، لا تكن غبيا. أنت تذكرني بجنون سليم. لا شيء يساوي الحياة يا روحي. الحياة دائما أثمن مهما كانت الظروف. لا تكن بطلا مردوما تحت التراب وأنت بإمكانك أن تكون إنسانا حيا وقادرا على الحصول على حقك. هذه الرغبة الاستشهادية تخيفني كثيرا ولا أعرف إلى اليوم جدواها. ربما لأني لم أخضع لنفس التربية العسكرية ولكني أراها خطيرة. الدنيا يا عز الدين ليست بالسهولة التي نتصور. أحيانا أسأل نفسي إذا لم يكن عمك محمد سعيد محقا لو لم يزودها حبتين.

فوجئت بكلمة أسمعها للمرة الأولى من عمي عز الدين. أمي كأنها كانت تقصدني. كنت أريد أن أشبه عمي عز الدين في كل شيء. حتى في جنون الاستشهاد ولكني كنت أقول لنفسي دائما: أستشهد مع من وضد من؟ كانت أسئلتي التي صاحبتني مدة طويلة قبل أن أتخلص منها.

- أتمنى أن تفكر فيما قلته لك. نريدك حيا، قادرا على خدمة أهلك وأقربائك والسهر على كل من تحب. الإصرار على الحياة لا يتضارب مطلقا مع الرغبة في العيش بكرامة. الفارق بسيط وحاد بين إنسانين في نفس المعركة، واحد يذهب نحو الموت والآخر يذهب نحو الحياة.

التفت نحوي ثم أدخل يده في عمق شعري.

- من أجل أن يعيش هؤلاء في عز.

- أي عز؟ استشاطت أمي. هذا ما كان يقوله سليم. وها نحن ننعم بعز غيابه، تمنيته أن يبقى حيا. هل تعرف أنه لو ذهب نحو الحياة لكان قد هرب، أو تخفى عند أصدقاء أو تحايل على قتلته ولكنه لم يفعل شيئا. ماذا يضرنا أن نناصر الحياة ونقاتل من أجلها. الناس يا حبيبي عندما يضعونك تحت التراب ينسونك بسرعة وتأكلهم مشاغلهم اليومية. ثم، تتحدث عن الآخرين، وأنت أين تضع نفسك؟ أنت؟ لست شيخا يا روحي؟ أمامك حياة طويلة عريضة، عليك أن تعيشها بامتلاء وعنفوان كأي شاب في عمرك. سبحان الله؟ تتحدث وكأن عمرك صار مئة سنة.

التفت عمي عز الدين نحوي وهو يحاول أن يخبئ ابتسامته الجميلة:

- شفت يا شريف؟ أمك صعبة كثيرْ شو بدنا نسوي معها؟

منذ استشهاد سليم لم تعد يما صفية تتحمل ما تراه من تقديس للموت.

- يا الله يا ست صفية، إن شاء الله خير.

جملة عمي عز الدين عندما يريد أن يهرب من أي نقاش وينسحب.

في ذلك اليوم شعرت كأن مصيري ارتبط بمصير عمي عز الدين نهائيا وختم بالشمع الأحمر. شعرت به أكثر قربا أكثر من أي زمن مضى وان أمي لم تكن مخطئة عندما انتظرته طويلا قبل أن يأخذنا إلى بيروت.

-٣-

طريق بيروت يمتد كثعبان.

حاولت أن أنام لكي أنسى الرحلة الأولى التي قطعتها مع أمي باتجاه دمشق أول مرة.

«وحياتك فيصل هو اللي قال هذا الكلام: أنزلوا العلم في بيروت؟!

ما هو علم وخلاص؟ خرقة ملونة؟ الدنيا تهدت يعني، هكذا برر موقفه؟ هذا كلام مسؤول يا ست صفية؟ والله ما بيستحو أبدا.»

كان صوت عز الدين يأتيني خافتا تحت هز العجلات الحديدية للقطار الذي كان يقطع الجبال باتجاه بيروت. لم أسمع صوت يما صفية ولا احتجاجاتها المعهودة. كانت صامتة تستمع إلى عمي عز الدين وهو يغلي.

«وحياتك يا ست صفية، تلك البلاد أنجبت رجلا كبيرا وعظيما، كان من القلة القليلة في هذا الزمن الذي بدأ يتحول بسرعة. يوسف العظمة. قال كلمته وهو لا يدري أن مصير البلاد كان معلقا على كلمة الرجل الذي كان يقابله. الرجل الوحيد الذي يحبنا ونحبه.»

حاول فيصل يومها أن يخفف الإحساس بالخيبة التي ارتسمت على كل الوجوه.

- أعرف... أعرف جيدا ما تحسون به والألم الذي يعتصركم. بيروت منا ونحن منها. أنا واحد منكم ولا أستطيع أن أكتم ما يغلي في داخلي. لم أجمعكم لهذا، فهناك ما هو أكثر استعجالا. أريد أن أتداول معكم قضية في غاية الأهمية. لم يعد سرا أن مؤتمر الصلح صار على الأبواب والوالد كلفني نيابة عنه، ومندوبا عن البلاد العربية، بمهمة كبيرة يكاد ظهري ينوء بثقلها، السفر إلى فرنسا أصبح ضرورة قومية، لحضور مؤتمر فرساي للصلح.

التفتت الرؤوس إلى بعضها بعضا بدون أن تنطق، كأن الحاضرين كانوا يتحدثون بواسطة الرموز. لم تكن تبدو على الضباط الذين حضروا الاجتماع الطارئ أية سعادة. فمنذ أن أنزل العلم في بيروت وردة فعل الحكومة الباهتة والخانعة، وهم يتساءلون في أعماقهم عن الإستراتيجية التي اختارها فيصل لمواجهة الغطرسة الاستعمارية الجديدة والتهديدات. حتى إن هناك، من ردد في دوائر ضيقة وموثوقة، فكرة الخيانة وبداية التخلي عن المطالب العربية. الشارع نفسه كان في حالة غليان كبير. فقد تحرك ولكنه قمع في اللحظة وسجن بعض المنظمين حتى قبل خروجهم

من بيوتهم، حتى لا يتم التشويش على تخطيطات الحلفاء. وجد الناس ضالتهم في المقاهي لتبادل الأفكار حول الخديعة التي بدأت رائحة عفنها تصل إلى كل مكان. وكلهم يلحون على الوجود الحقيقي للاتفاق السري ولو أن الأمير فيصل ينفيه كلما سئل عنه مدعيا أن الأمر لا يعدو أن يكون لعبة تركية-ألمانية جديدة لخلط الأوراق. مع أن كل ما كان يحدث، يؤكد على حقيقة وجود اتفاقية سايكس-بيكو. الغزل الفرنسي الإنجليزي أكد للجميع أن شيئا جسيما كان بصدد الحدوث.

حاول فيصل أن يسترجع أنفاسه ويواجه صمت القاعة بحزم أكثر.

- يقولون... يقولون... خليهم يقولوا، ومالو؟ نحن في بلد مفتوح، انتهى العهد التركي الغاشم. في كل مكان لا أسمع إلا هذا الكلام، ولكن من يقول؟ الحقيقة غائبة ولا يدعمها أي شيء ملموس. على الشعب وقادته أن يحذروا مما يدبر لهم لتدمير وحدتهم الكبيرة التي صنعوها بالدم.

- إذا كان سيدي يسمح لي بإمكاني أن أنوره ببعض المعلومات.

قال يوسف، أحد الضباط الكبار الجالسين في آخر القاعة.

لم ير فيصل أي مانع من فتح إمكانية الكلام مع المتدخل.

- تفضل يا طويل العمر.

- بناء على الوثائق التي سربها الروس، نشعر يا صاحب السمو، أن هناك تقسيما واضحا للبلاد تم في اجتماع سان بيترسبورغ في الرابع من آذار ١٩١٦ والنصوص موجودة وها أنا أضعها بين يديكم. ولا شك أنكم تعرفونها. المادة الثالثة تفصل التقسيم بدقة. بهذا الاتفاق كل ما فعلناه سيذهب مع الريح وتكون أرواح الذين ماتوا، هواء في هواء وخسارة في خسارة. الأمر واضح ومفصل ولا يمكنه أن يكون مجرد كذبة: العراق وفلسطين والخليج للإنجليز، والساحل السوري بما في ذلك الجبل، كلها ستصبح تحت سيطرة فرنسية. لقد أباح السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو لنفسيهما حق تمزيق البلاد العربية. وقسمت بخطوط، لفرنسا المنطقة الأولى (الزرقاء) ولانجلترا المنطقة

الثانية (الحمراء). وأنشئت إدارة دولية لفلسطين. الإسكندرون وحيفا ستكون موانئ حرة للإنجليز والفرنسيين. هل بقي شك بعد كل هذا؟ ما يحدث أمام أعيننا يقودنا نحو تصديق هذه الحتمية. علينا أن نستعد لمواجهة هذا التقسيم الجهنمي. أكثر من ذلك يا سيدي، إن بريطانيا أرادت إلغاء الاتفاق لأنها شعرت أنه ليس في صالحها إلا إذا تنازلت فرنسا نهائيا لانجلترا عن فلسطين والموصل مقابل جزء من نفط الموصل وفرنسا قبلت ذلك على مضض لأن خياراتها كانت محدودة. ثم إن. . .

- الله. . . معقول؟ تتحدث وكأن مفاتيح الحقيقة في حوزتك؟ ما هو دليلك في هذا؟ هذه الوريقات يعرفها الجميع وقد سبق أن أرسلتها روسيا إلينا عن طريق جمال باشا السفاح، والكل يعرف ماذا فعل جمال باشا في ثوارنا وفي أهالينا؟ هل تريد أن تقول: إن جمال باشا كان يريد لنا الخير وانه كان على حق عندما كشف لنا سر هذه الوثائق؟

- ولكن يا سيدي الوثائق موجودة وقد نشر بعضها. . .

- ولكنها كذبت كلها وهي عبارة عن حرب أعصاب بين المنتصر والمنهزم. والدي احتج لدى السير ريجنالد ونجت الذي خلف مكماهون في مصر وكذب ما قاله جمال باشا السفاح. وأقول لك بالضبط رده: **إن حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وحلفاءها مازالت واقفة موقف الثبات لكل نهضة تؤدي إلى تحرير الأمم العربية وهي مصممة على أن تقف بجانب الأمم العربية في جهادها حتى تبني عالما عربيا يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني وتجتث التنافس المصطنع الذي أحدثته السلطات الرسمية التركية**. فهل هذا يكفي كدليل؟ أم لديك شيء آخر تريد إبلاغه؟

- إذا سمح لي صاحب السمو، أريد أن أوضح له موقفي أكثر وإن أقرب الفهم له أكثر.

- تفضل. قالها الأمير فيصل كاتما غضبا دفينا، عندما لاحظ تململا في أعين الذين حضروا الاجتماع.

قام الضابط من مكانه ثم تقدم حتى وسط القاعة بحيث يراه

الجميع، بسط خريطة كبيرة أمام الأمير فيصل والحاضرين الذين كانوا يجلسون في الصفوف الأولى، وفيها تقسيم واضح للمنطقة، بالمسطرة والألوان.

- انظر يا سيدي التقسيم المقترح وهذه الخريطة سربتها الصحافة الروسية والبريطانية، فهي إذن من أصحاب القرار. الخط الأزرق والخط الأحمر، والمنطقة (أ) والمنطقة (ب). كل شيء يبدو محكما ودقيقا. حركة الفرنسيين من هذه الناحية لا غبار عليها، فهم، استنادا إلى هذه الوثيقة، يشعرون بأنهم في عمق حقهم. طبعا لا يثقون في الإنجليز ولا الإنجليز يثقون فيهم ولكنها المصالح يا صاحب السمو. إنزال العلم في بيروت، ليس فقط إهانة، هو أشد من ذلك، عدم اعتبار. نصب الحلفاء الكولونيل الفرنسي دي بيابان للتسيير، وقد فعلوا ذلك كما شاءوا ولم يكلفوا أنفسهم مشقة إخبارنا أو التشاور معنا.

- هل قرأت البيان المشترك وفهمت ما فيه؟ الموقف واضح من الجميع. أما ما حدث في لبنان فهو ترتيبات أمنية مؤقتة لا أكثر، فرضتها الظروف لتفادي الفوضى. يجب ألا ننسى بأننا جزء من تحالف كبير بيننا وبينهم، ولا يمكننا أن نسير الأمور مثلما نشتهي لوحدنا. على العرب أن يكونوا عاقلين وإلا سيخسرون كل شيء كما تعودوا أن يفعلوا كلما استشيروا في موضوع من الموضوعات.

- ولكننا يا صاحب السمو، نساوم على أراضينا. نحن غير محسوبين في المشاورات على الإطلاق، مع أننا الطرف الأساسي في المعادلة. فلسطين يا سيدي ستُجتزأ من أرضنا. أنظر ماذا كتب اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية في ٢ نوفمبر ١٩١٧ إلى اللورد روتشيلد أحد أقطاب الصهيونية العالمية: **إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية.**

- يبدو أنك جئت مدججا بالمعلومات. يجب أن تحذر من كلام الجرائد وإلا سنصير نحن عبارة عن طراطير وفزاعات. أنت تعرف أن

والدي لم يصمت. وان الإنجليز بعثوا له الكموندان هوجارت رئيس المكتب العربي في القاهرة في الأسبوع الأول من شهر يناير ١٩١٨. فقابل والدي مرتين وطمأنه بأن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحا إلا بقدر ما يتفق مع حرية السكان العرب من الناحية السياسية والاقتصادية. واحتجاجا، أوقفنا الحرب إلى جانب الحلفاء، حتى توضيح الموقف الإنجليزي. كان جيشنا إذ ذاك يقترب من العقبة. اسأل نوري السعيد ينورك. نور يوسف يا نوري؟

قام نوري السعيد وعلى وجهه بعض علامات الإحراج التي بدت واضحة:

- نعم يا سمو الأمير. ربما لم يكن على علم بما حدث في ١٩١٨؟ هناك رسالة الأقطاب السبعة من رواد الحركة العربية التي بعثوا بها إلى الحكومة البريطانية: رفيق العظم، مختار الصلح، عبد الرحمن شهبندر، خالد الحكيم، فوزي البكري، حسن حمادة، وكامل القصاب والتي أعربوا فيها عن قلقهم من الاتفاقية ووعد بلفور؟ وقد أجابتهم وزارة الخارجية مثلما أجابت والدكم في ١٦ جوان ١٩١٨. جددت الحكومة البريطانية تعهدها بشكل واضح وصارم.

- يجب ألا نبالغ نحن كذلك في طلباتنا يا يوسف. نحن لسنا طراطير في خدمة الإنجليز أو الفرنسيين، يجب أن تعرف هذا يا يوسف، وبشكل نهائي.

- حاشا أن يسمع سيدي مني مثل هذا الكلام. رد يوسف بنوع من الاعتذار وهو يلتفت صوب الأمير فيصل. أبديت رأيا طلب مني تقديمه يا سيدي. وما ترونه من وثائق، ليس فيها ما هو سري اليوم. جئت بها لنعرف فقط كيف نرد على الآخرين ولا نتركهم وحدهم في ميدان كان لنا شرف المشاركة فيه وكنتم وما زلتم على رأس جيش كريم قدم النفس والنفيس لتحرير هذه الأرض الطيبة.

تململ الأمير فيصل وهو يحاول أن يخبئ انزعاجه:

- طبيعتك العسكرية يا يوسف تجعلك تضخم الأشياء كثيرا. لا

يوجد ما يثير المخاوف. الإنجليز رجال كلمة ولا يمكن أن يخدعونا، فمصالحهم معنا لا تعد ولا تحصى. لا أعتقد أنهم لا يحترمون وعودهم وأنهم سينكثونها. أكرر ما قلته في حلب قبل مدة. إننا في موقف حرج. الأمم المتمدنة وحلفاؤنا ينظرون إلينا بنظرة الإعجاب والتقدير وأعداؤنا يرمقوننا بعين الانتقاد. لقد خرج الأتراك من بلادنا ونحن غير نادمين عليهم. وضعنا اليوم كحال الطفل الذي يحتاج إلى رعاية كبيرة، لا حكومة ولا جند ولا معارف علمية وثقافية، والسواد الأعظم من الشعب لا يفقهون معنى الوطنية والحرية ولا ما هو الاستقلال. يجب أن يفهم الناس قدر نعمة الاستقلال وحتى كبارنا عليهم أن يدركوا ذلك. الصحافة تبالغ وأخشى أن تدفع بنا إلى مصادرتها.

عاد يوسف العظمة إلى مكانه ثم انكمش في كرسيه ولم يزد كلمة واحدة.

واصل الأمير فيصل، وكأنه كان يريد أن يضع حدا لسوء التفاهم بينه وبين يوسف العظمة.

- هذا هو المطلوب منا تجاه حلفائنا الذين يجب ألا نخيبهم. لم نعد قبائل متفرقة كل جهة تفكر لحالها، نحن دولة وعلينا أن نخرج من النظم والرؤى الضيقة.

لم يستطع يوسف أن يصمت.

- ما يراه صاحب السمو، نسير على هديه. أنا مجرد عسكري مأمور. أعطيت رأيا لسيدي لأنه طلب مني ذلك من طرف زملائي الضباط، ولكم كل الحق في تأمله أو رفضه.

- عافاك الله. نحتاج إلى الوحدة أكثر من حاجتنا إلى المهاترات الفارغة. أكرر ما قلته في جميع مواقفي بأن العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد وان الديانات تأمر باتِّباع الحق والأخوة فمن يسعى لإيقاع الشقاق بين المسلم والمسيحي والموسوي فما هو بعربي وسأسعى لنشر الإخاء والمودة بين الناس ولكني سأجبر الجميع على احترام القانون والسير على هديه. يجب أن نبدأ في التفكير في مؤتمر الصلح الدولي

ونخرج بتوصيات نقدمها لحلفائنا لكي نستطيع الدفاع عن حقوقنا.

ظلت القاعة صامتة مدة من الزمن قبل أن يضج أحد الحاضرين بصوت جهوري وكأنه حضر لهذه المهمة، فضجت على وقعه، القاعة بأصوات متناغمة وكأنها في مهرجان سياسي:

- عاش صاحب السمو الأمير فيصل... عاش... عاش... عاش الرجل العظيم، محرر العرب من براثن الأتراك... عاش... عاش... الذي لم تثْنِه أية قوة إلا محبة الله والرسول والحرية للعرب. عاش... عاش...

تصاعدت الأصوات بقوة حتى سمعها الذين تجمهروا في الخارج يستقصون الأخبار التي كانت تصل بكثافة مهدمة كل الآمال في التحرر وبناء المملكة العربية الموحدة.

ثم انطلقت الأناشيد القومية التي لم تتوقف إلا بعد قرابة الساعة عندما افتتح الأمير فيصل الجلسة رسميا بقراءة رسالة والده التي يرشحه فيها لخلافته في المؤتمر. وبدئ النقاش حول مؤتمر الصلح الدولي ولم يكن أحد يعرف محاوره الكبرى ولا جدول أعماله باستثناء بعض الأفكار المشتتة.

-٤-

كان مقهى الميناء غاصا بالبشر، الذين ينتظرون عزيزا قادما من مسالك الغربة والذين يشتهون البحر والتمتع ببيرة في انتظار ما يحمله اليوم من سعادات صغيرة.

- عاش الملك... مات الملك... حبيبي يا فيصل... اليوم سيصل فيصل؟

قال يوسف استيفان وهو يمد يده إلى عمق شعر ماريكا الأسود والطويل والى وجهها الهادئ ويتحسس ملامحها التي لم يفقدها الزكام أي رونق.

- يجي أو ما يجي؟ ماذا سيحصل؟ قالت ماريكا وهي تسحب وجهها بلطف من بين يدي يوسف استيفان. لا شيء. كل شيء مرتب بشكل محكم وهو داخل هذه الدائرة ماذا يملك أن يفعل؟

كان ضجيج المقهى كبيرا لا يمنح فرصا كبيرا للاستماع، فكل الناس يتكلمون في كل شيء.

- استيفان، تستطيع اليوم أن تصرخ على الملأ بأنك حبيبي. لقد اندحر جمال باشا وتراجع زبانيته. تستطيع أن تستقبل الناس الذين تحب بحرية أكثر.

- ماريكا أنت مجنونة. مشكلة جمال باشا كانت المقاومة قادرة على فكها، لكن الآن كل شيء تبدل بقوة وصار مخيفا. تحارب من؟ وبماذا؟ ومع من؟ إنهم يتخلون عن كل شيء في دمشق وهنا أنزلوا العلم ولا أدري ماذا سيحصل فيما بعد. تدرين أني يومها، في لحظة من اللحظات فكرت أن أتشعنق بالراية وأتشبث حتى ولو أطلقوا علي الرصاص ولا أتركها تنزل أكثر مما نزلت ولكن يدك لم تتركني. ولكن كيف قبل ذلك وهو سيد الأرض؟

- لأني بكل بساطة لا أريدك أن تقتل بغباء. الثوار أحيانا على الرغم من ذكائهم الخارق لا يفكرون، فيصيرون بالفعل أغبياء. ماذا كنت ستفعل؟ الراية كانت ستنزل مادامو قد قرروا ذلك وكنت أنت ستقتل كأية حشرة ويبكيك من يحبك وبعدها، ستدفن تحت التراب كبقية المنتحرين. لا شيء سيتغير مطلقا. صاحبك تأخر، هو مو جاي من الشام حتى يشوف فيصل؟

- يكفي من السخرية. عز الدين جاي عند عمه وما إلو علاقة بفيصل. فيصل فعل معهم ما فعله جمال باشا السفاح في أهله.

قال يوسف استيفان وهو يهرب بوجهه الحزين نحو الميناء المليء بالظلال والبرد ونحو موقف السفن الكبيرة. ثم صفن قليلا في وجه ماريكا الصافي كفجر جبلي قبل أن يملأ صدره بنظرتها الهادئة ويلتفت من جديد صوب البحر.

من وراء الزجاج المندى، تتبدى بيروت بدون ملامح قارة ويبدو المارة علامات بلا هوية، يتماوجون في الطريق بدون هدف محدد، يتداخلون كالظلال الهشة، قبل أن يذوبوا في المنعطفات والمعابر. زاد عنف الأمطار قوة حتى كون سيولا وسواقي صغيرة عند مداخل البنايات والأسواق وحيث يكثر المارة. البرد القارس زاد حدة وتوغلا في الأجساد، كأنه قادم من أعالي سيبيريا.

لم تحمل بدايات سنة ١٩١٩ أي جديد على الرغم من قلق الانتظار الطويل، ولا حتى نهايات شهر فبراير سوى الرياح الباردة والأمطار التي تنهك مدينة ثقيلة في أصلها بما كان يحدث على حوافها، ولا بعض أفراح الناس الذين تعودوا عليها في مثل هذا الفصل لأن الأمطار تغسل المدينة من العديد من الأمراض، السل، التيفوس، الملاريا، الكلب... لا شيء يوقظ الأفراح الميتة، كان الزمن مثل ذيل كلب يدور حول نفسه باستمرار دورات مكررة ورتيبة ومخيبة، يدور لكي يعظ نفسه ولكن بدون جدوى.

كلما صعدت الشمس أكثر ازداد مقهى الميناء اكتظاظا. مليئا بالغادي والرائح، وبالناس الذين كانوا يأتون منذ الصباح، مباشرة بعد صلاة الفجر، بعضهم يقضي يومه كاملا من طاولة لطاولة والبعض الآخر، يفطر قبل أن يتيه في شوارع المدينة الثقيلة. ويعودون مساء، يلعبون الزهر والنرد أو الشطرنج أو يمرون عند السمان، يشترون فحما قبل أن يدخلوا إلى بيوتهم وهم يدارون البرد الحاد الذي يلفح الوجوه كالسوط.

- خيو، ما هذه السخافة؟ يحيا مؤتمر الصلح! عاشت عصبة الأمم وعاش أميرنا الهمام، نصره الله على أعداء الأمة!؟ اسمع... اسمع... يكفي كذبا. البلاد بكاملها وضعت تحت الوصاية. باعوها بشربة مي. أي شلل يا الله وأية خيبة؟ يبدو أننا سندخل زمنا لن تقوم لنا فيه قائمة.

كاد استيفان أن يكسر زجاج النرجيلة وهو يضرب بيده على الطاولة الخشبية القديمة التي تحملت كل ضربات الذين رموا بكل قواهم عليها في لحظات يأسهم.

- يا رجل ماذا حصل لك؟ هل فقدت عقلك أم تريد عالما على قد

المقاس؟ هذه هي الحروب وهذه هي نهاياتها. لا توجد حروب طيبة وحروب غير طيبة. توجد حروب وبس والقوي هو الذي يفرض نظامه. الذكي هو من يخرج بأقل الخسارات الممكنة. ما عدا ذلك، يحدده الآخرون وليس فيصلك.

- خرج العصملي من النافذة كسارق بعد أن عاث فسادا أربعمائة سنة، دخل الأوروبي من الباب، الله وحده يعلم متى بيخرج. ومين قال لك بيخرج؟ وحياتك سنعلن الحرب ضده إذا أراد الخروج وتكون حربنا الحقيقية الوحيدة التي سنخوضها طوال العقود القادمة.

- يكفي من السخرية.

- مين قال لك أنا أسخر؟ وصايا مؤتمر الصلح واضحة: إن الدول التي خرجت من مظلة الاستعمار، لا تقوم بنفسها، وتحتاج لمن يرقيها ويحضرها أولا. ويجب وضع هذه الشعوب في عهدة الأمم الراقية. فهي وديعة مقدسة في أيدي العالم المتمدن، مع تقديم تقرير سنوي عن الوضعيات التطورية. فيه وضوح أكثر من هيك حبيبتي. هيدي هي قوانين عصبة الأمم وقراراتها وهذه هي اجتهادات مؤتمر الصلح المتولد عن الحرب العالمية الأولى. حتى الوثيقة التي قدمها الأمير فيصل في ٢٩ جانفيه في المؤتمر، قبلت بالتقسيم مبدئيا ولم تكن ضده.

- يبدو لي هذا الرجل متناقضا جدا. ذكر بأنه مجرد ممثل لوالده. وطالب أن تكون الشعوب الناطقة بالعربية في أسيا من خط الإسكندرونة إلى ديار بكر حتى المحيط الهادي جنوبا معترفا باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الأمم. ويستثنى من هذا الطلب الحجاز لأنها دولة ذات سيادة. وعدن وهي محمية بريطانية. وقال إنه بعد التحقق من رغبات السكان في تلك المنطقة يمكننا أن نرتب الأمور فيما بيننا مثل تثبيت الدول القائمة فعلا في تلك المنطقة وتعديل الحدود بينها وفيما بينها وبين الحجاز وفيما بينها وبين البريطانيين في عدن وإنشاء دول جديدة حسب الحاجة وتعيين حدودها؟

- أسوأ من هذا. خطاب السادس من فبراير كان سابقة خطيرة.

الذين جاءت بهم فرنسا إلى المؤتمر هم من ألحوا وأشادوا بالحماية والتقسيم. فقد تكلم شكري غانم بوصفه رئيس الجمعية السورية اللبنانية في باريس وطالب بإقامة وحدة سورية بإشراف فرنسا. وتدخل داود عمون فطالب بانفصال لبنان عن سورية بإشراف فرنسي ويمكنك أن تقيس على هؤلاء من الجهة الإنجليزية.

- يا الله عاد بخرقة ستر العورة. وقع مع حاييم وايزمن على اتفاقية تعترف بالوطن القومي لليهود في ٣ كانون الثاني ١٩١٩ وفي البند الثالث من بنودها التسعة، تقديم الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية، وعد بلفور (٢ ت٢- ١٩١٧). والبند الرابع يشجع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع مع حفظ حقوق المزارعين العرب، يا عيني على الحقوق؟ فقد وعده ويلسون بإرسال لجنة استفتاء العرب في حقيقة مطلبهم وتقرير مصيرهم. أين وصلنا وإلى أين يسير بنا عباقرتنا؟ عندما أتذكر الذين مدوا أعناقهم للشنق في دمشق وبيروت والذين ما تزال ساحتا البرج والمرجة تردد نداءاتهم الأخيرة، ماذا سيقولون لو عرفوا بكل هذه البهدلات المتكررة. ما هذه الصرعة التي جاؤوا بها؟ قسمونا إلى مناطق للعدو: سورية وفلسطين قسمتا إلى منطقتين، الأولى منطقة العدو المحتلة-القسم الجنوبي وتضم فلسطين تحت إدارة بريطانية. والثانية منطقة العدو المحتلة-القسم الشرقي وتضم داخل سوريا من العقبة إلى حلب وإدارتها عربية بإشراف الأمير فيصل والثالثة منطقة العدو المحتلة-القسم الغربي وتضم لبنان والساحل السوري من صور إلى حدود كيليكية وإدارتها فرنسية.

صمتا قليلا وغرقا في تأمل الصوت الخشن للسفينة التي كانت تحاول أن تجد مكان توقفها.

- هكذا الحروب يا صاحبي، قالت ماريكا. جيل يبني وآخر لا يعرف ماذا يفعل بالبناء الذي بين يديه. العرب كانوا عميانا. مثل الأطرش في الزفة. استعملوا في الحرب كوقود للمعارك وينتظرهم الآن ما هو أسوأ مما حدث حتى الآن.

لا شيء إلا الحديث عن المؤتمر الذي طال كثيرا ولم يسفر عن الشيء الكثير. اصطدمت فيه نزعتان، نزعة العدل للرئيس الأمريكي ويلسن وتنافس فرنسا وبريطانيا وروسيا لاقتسام تركات الرجل المريض.

- ربما أهم مكسب في هذا المؤتمر هو موافقة أعضاء المؤتمر على حق الشعوب في تقرير مصائرها بنفسها. ولكن فرنسا وبريطانيا ضغطتا بقوة.

- ولو. هذا الحق رسم نهائيا، إذا لم نستفد منه اليوم سيستفيد منه أبناؤنا. خلينا نقول وجوده أحسن من عدمه. مؤتمر فرساي من هذه الناحية رسم شيئا تحلم به كل الشعوب المغلوبة على أمرها. أما الأمير، مغلوب على أمره ولا ينتظر منه الشيء الكثير.

- الأمير أهين ولم يستقبل بالشكل اللائق إلا بعد تدخل انجليزي وأمريكي ومساعدة لورانس. حتى ولو وسعوا التمثيل من واحد إلى اثنين واختياره رستم حيدر لمعرفته الحقوقية والسياسية بمساعدة نوري السعيد وأحمد قدري وعوني عبد الهادي كأعضاء مساعدين في لجان المؤتمر. كل هذا لم يكن مساعدا. كل شيء يسير نحو التمزق والقلق. تزداد قوة بدون أن يستطيع أي واد إيقافها أو على الأقل التقليل من تأثيراتها السلبية. تهديدات غورو لم تسهل مطلقا من المهمة بل عقدتها أكثر فأكثر.

- حتى لجنة كراين لم تستطع تفادي الخلافات والتمزقات الحزبية. كانت المطالب الشرقية أكثر إجماعا كما يبدو من العرائض في المنطقة الغربية أو الجنوبية. واتفقت الأحزاب المتضاربة على تأييد المؤتمر السوري واعتبرته مرجعها. طالبوا بسورية المتحدة. رفضوا المساعدات الفرنسية ووقفوا ضد البرنامج الصهيوني وهجرة اليهود. واتفقوا على طلب المساعدة من أمريكا. وأيد اليهود المشروع الصهيوني. وطالب الدروز بحكومة عربية تحت الوصاية البريطانية. وانقسم المسيحيون بحسب الطوائف. مسيحيو الجنوب واللاَّتين طلبوا الوصاية الإنجليزية، وأرثوذكس دمشق نفس الشيء. أما الموارنة والكاثوليك فكانوا في صف

فرنسا. أنصار المؤتمر السوري يطالبون بإنشاء حكومة وطنية تستمد سلطتها من مشيئة الشعب الحرة، ويلحون على وضع سورية تحت وصاية واحدة، وتدعو إلى ضرورة تنقيح البرنامج الصهيوني لفلسطين تنقيحا كبيرا لاسيما هجرة اليهود غير المحدودة التي ترمي إلى جعل فلسطين بلادا يهودية. فإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي لا يعني جعل فلسطين بلادا يهودية، وتصان وحدة العراق وتخطط حدوده المضبوطة، ويوضع العراق تحت دولة منتدبة واحدة واختيار أمريكا كدولة منتدبة.

- الخلافات وصلت حدا أن المجلس الحربي أحس بالطعنة في أعماقه والإهانة. غورو كل يوم ينسج قرارا لتدمير الوحدة المحققة حتى الآن. ينتظرون فقط عودة فيصل لكي يبتوا في الأمر. يحسون كأن يدا تقودهم نحو الاستسلام القسري. الشعب معهم وانتفاضة القلعة وموت أكثر من عشرين في الاصطدام الدموي ما تزال في رأس كل الناس.

كانت ماريكا في مقهى الميناء تنظر إلى البحر والى الطيور التي كانت تعبر المسافات وكأنها استرجعت كل اللحظات التي هربت منها قبل زمن، مثلما حدث معها في ذلك اليوم الذي التقت فيه بيوسف استيفان الذي أنساها العسكري التركي ثقيل الدم الذي لم يعرف كيف يدافع عن حبه لها:

- هل تعرف حبيبي أننا لا نأتي للأماكن الدفينة فينا إلا لنتذكر زمنا انفلت منا بسرعة ولم يسألنا يوما عن رأينا وعما نفكر فيه. هكذا نظل ندور في الدوائر المغلقة حتى نرحل عن هذه الدنيا لا نحن قادرون على عيشها ولا هي قادرة على التخلي عن استفزازنا. من يستطع أن يقطع معها نهائيا فذاك أعظم الناس. يجب أن نعيش عزاءنا مرة واحدة لكي نتمكن من عيش الحياة وإلا على الدنيا السلام.

رشفت ماريكا كأس القهوة القوية والحادة. التفتت من جديد صوب المرفأ الذي كانت تتحول فيه أجساد الناس إلى أشباح هاربة وأشكال هلامية تأكلها الحيطان الهرمة وكتل الإسمنت والمنعطفات التي يرتادها الصيادون عادة داخل نصف دائرة يشبه الجزيرة، والممرات المنحدرة.

عندما دخلنا عليهما، كانت ماريكا تحرك كأسها للمرة الأخيرة بشكل دائري قبل أن ترشف القهوة بكل تلوتها وثقلها. عندما رفعت عينيها، بقيت مشدوها للحظة في وجهها وملامحها الرقيقة والناعمة، بينما قامت هي من مكانها وحيتنا قبل أن يعانق عز الدين يوسف استيفان.

أول ملاحظة أبداها عمي عز الدين وهو يجرني من يدي باتجاه يوسف استيفان كانت أن سأله:

- أنت طبعا لا تعرف هذا الشاب الجميل؟ ومن يكون؟ ولماذا هو هنا؟

كنت ما أزال صافنا في كلام أمي وفي وجهها الطيب وفي الكلام الذي سمعته منها وأنا نصف نائم وهي تناقش عمي عز الدين في طريق دمشق بيروت، ثم في وجه الأمير سعيد الذي زرناه في بيروت. ما يزال كلام يما صفية يطن في أذني:

«- أرجوك ما تخرب لي أخلاق الولد.

- معقول يا ست صفية، شريف في عيني.»

أمي حتى عندما تمزح لا تستطيع إلا أن تكون جدية.

عندما التفت نحو يوسف استيفان، كان يتفرس في وجهي بعينيه الطيبتين. ساعده عمو عز الدين:

- أكيد ما عرفته يا ستيفان؟ طيب أقول لك مين بس، شد حالك كويس حتى ما تسقط على رأسك. هذا الشاب العظيم هو ابن الشهيد سليم الله يرحمه.

بقي استيفان لحظات طويلة هامدا قبل أن يتحرك من مكانه ويأخذني في أحضانه. ولم يقل الكلمة المعهودة، **رجل ومن صلب رجل**. ولكنه أشرق بابتسامة عريضة وراح يعيد إلى ذاكرة ماريكا القصة بكاملها وكيف استطاع أن يهرب بفضل والدي الذي لم يقف ضده مطلقا، بل ودفع بالحارس الذي حاول أن يقوصه. لا أدري مدى صدق ما حكاه لنا ولكنه زادني التصاقا بسليم.

لأول مرة أشعر بأن القهوة كانت مسكرة ولذيذة ولأول مرة أرى النوارس وهي تمارس أجمل رقصاتها وتتدفأ بدخان السفينة التي كانت تبحث عن مكان توقفها.

-٥-

كان المساء عندما عوت السفينة بقوة كذئب البراري.

شمس بيروت الصفراء انكسرت وراء الغيمات الهاربة. انسحبت فجأة لتظهر وراءها ساحلا واسعا ممتدا على مرمى العين وسفنا صغيرة وبارجة ارتكنت في الزاوية اليمنى من الميناء بأنفها الطويل وكأنها حيوان أسطوري يستعد لابتلاع كل البنايات الصغيرة التي بدت وراءه صغيرة وقزمة.

بدا الأمير فيصل وهو ينزل من على السلم متبوعا بمفرزة عسكرية إنجليزية فرنسية كانت كأنها تحرس ظهره وتغطيه. الوجوه الواقفة على الحواف التي انكسرت ملامحها، سرعان ما عمقت الأشعة والظلال المتسربة، فجواتها التي كانت تبحث عن تفاصيلها الضائعة. كان حملة الأعلام يحركون أياديهم بدون حماس كبير في شكل مكرر وكأنهم يؤدون واجبا ويتهامسون أو يخبئون ضحكات مكتومة. في الصفوف الأولى الوفود التي جلبت لاستقبال الأمير اندفعت فجأة نحوه بعد أن انكسر نظامها، حاملة الأعلام ورافعة أصواتها بالأناشيد الوطنية.

تأمل استيفان كل هذه الحركة وهو يسحب، بحركة غير محسوبة، يده من يد ماريكا التي كانت تلبس لباسا ناريا وعلى رأسها برنيطة ملونة. كان كل من يمر بقربها ينحني ويحييها، بعضهم يعرفها وبعضهم الآخر يظنها سيدة من سيدات المجمتع الخاص.

غياب الأمير فيصل لمدة سبعة أشهر كانت كافية لأن تحرك كل الشجون.

قاده الشاب الذي كان يسبقه باتجاه المنصة بينما تراجع مرافقوه :

بمن فيهم العساكر والمستقبلون الذين دفعتهم المفرزة إلى الوراء. تدحرج بثقل نحو المنصة متبوعا بوجهاء المدينة الذين استقبلوه عند بوابات البارجة العملاقة، وكأن متاعب السفر تكاتفت مع ارتباكات بيروت منذ مينائها إذ لم ير الشمس التي انتظرها ولكن واجهته سماء غير منطلقة وضيقة بعد أن محت الغيوم الثقيلة زرقتها الأصلية.

فتح فيصل ورقته بينما علقت ماريكا:

- إن شاء الله ما يكون ملبوكا ويحكي نفس ما سمعناه قبل زمن.

- لا حبيبتي، لدينا أمير سيحكي عن الفتوحات التي حققها في جولته الطويلة التي دامت مدة لا تحصى، تجول فيها بمرسيليا قبل أن يذهب ينشف الطاولات. شو راح يقول يعني غير أن زيارته كانت ناجحة وانه خلف انطباعا طيبا لدى الحلفاء، والبلاد تنزلق من بين يديه ولا أظنه مهتما كثيرا لذلك.

- أنت بتظلم الزلمي. مش لازم ننتظر شو حامل وراءه؟ هو عائد من رحلة مصيرية منحت للشعوب حق تقرير مصيرها على الأقل.

-حبيبي؟ قال يوسف استيفان وهو يرد على ملاحظة عز الدين. المؤكد أن الزيارة حققت تقرير المصير ولكنها كذلك رسمت تقسيم بلادنا. أحيانا أتساءل إذا لم يكن الطاغية جمال السفاح أرحم. هو على الأقل قتلنا ولم ينتظر أوامر تأتيه من وراء البحار، وقاتلناه بوسائلنا البسيطة.

فتح الأمير فيصل الورقة عن آخرها، كادت أن تأخذها الرياح البحرية التي هبت خفيفة وباردة. بدأت ترتعش في يده وهو متشبث بها كحطبة الغريق. ثم بدأ يقرأها بصعوبة كمن يفك حروفا هجائية مغلقة.

«ها قد عدت إلى الوطن بعد أن فارقته خمسة أشهر وقد أبلغت العالم المتمدن ما انتدبتموني إليه من بيان مطالبكم فتقرر مبدئيا استقلال بلادكم وصحت النية على إرسال لجنة تحقيق دولية تحقق ما نقلت إلى الغربيين من رغائبكم. وستصل اللجنة في هذين الأسبوعين. وبهذا

ترون أنه قد تم القسم الأعظم من المهمة الخارجية التي نعمل لأجلها وذلك بحسن نيات الحكومات الأربع المعظمة وصدقها في أقوالها وتمسكها بمبادئها السامية. التي جعلتها دستورا لأعمالها وطبقا لأماني الأمة. واني آمل أن تثبتوا للعالم أنكم أحفاد أولئك الأجداد الذين كانوا سدنة الحرية.»

نظر استيفان إلى وجه ماريكا، سحبها من يدها بلطف وخرج من التجمع نحو الأماكن الخلفية.

- هذا بيستغبينا. قبل بالتقسيم وجاء يقنعنا بشيء آخر، وحياتك لولا خوفي من الحالة العبثية لقفزت أمامه وبصقت على وجهه. كيف يقبل بكل البلاوي ويأتينا في شكل ثائر همام؟ يا الله يا خوي، يا الله. الحفل خلص. انتهى كل شيء. أرض الله واسعة والثورة ليست على هذا الساحل المسالم.

- انتظر شوية يا استيفان. مو لازم نكتب تقرير عن الزيارة. كيف راح تتحدث وأنت لم تر شيئا ولم تسمع شيئا. أقنعي هالزلمه يا ماريكا، رأسه زي حجر الصوان. لازم يعرف أن وجودنا في هذا المكان ليس للاستقبال ولا لرمي الزهور ولكن للعلم والمعرفة وأننا مكلفون بمهمة.

- وحياتك يا عز الدين هذا هو انطباعي. كأنه جيء بي لكي أحمل الأعلام مثل الذين يقفون على الحواف أو مثل ذلك الطفل الذي حمله الكبار وقدموه للأمير لكي يقبل جبهته والصغير يظنها لعبة ولكنها لعبة تخيفه إذ لا يظهر على ملامحه ما يثبت سعادته.

كانت الهتافات تتصاعد وتحاول أن تجد مسالكها وسط الجموع الكثيفة التي جيء بالكثير منها.

لم يتحكم استيفان في أعصابه:

- كل المحارق ونداءات الألم والأجساد التي فككت وهي في عز عنفوانها، كل هذا لا قيمة له أبدا. يعود وهو يمجد بالدور الذي لعبه. إلى اليوم لا نرى هذا الوطن الذي يتحدث عنه. لقد ربحوا المعركة

الخاسرة وخسرنا المعركة التي كانت رابحة. ماذا يقول الذين ماتوا وهم يشدون على رقابهم ويتحسسونها بألم قبل أن يسلموا أمرهم لله بعد أن تيقنوا أن ما كان يحدث كان يجب أن يكون كذلك. هذا الرجل يقتل نشيدهم.

- أنت تضخم الأشياء. لقد تحدث عن وطن.

- وهم يتحدثون عن محمية، ربع وطن.

- من نصدق؟

- أصدقهم لأنهم في موقع القوة. والذي في موقع القوة يملي شروطه. فليتركوا الأموات يرتاحوا ويموتوا براحتهم لا يقتلوهم مرة أخرى بأدوات أكثر خسة.

مسدت ماريكا على رأس استيفان.

- أنت اليوم منكسر وكأن الأمر جديد عليك؟ قالت ماريكا وهي تهزه من كتفيه بقوة. مؤتمر الصلح لم يؤكد لك إلا ما سمعته من هذا الرجل. وماذا بإمكانه أن يفعل وماذا كنت تنتظر؟

- لا شيء. أن يحافظ على نفسه وقائمة الشهداء التي على ظهره.

- العرب في حالة ضعف وتبعية. فهل كان أمامه أكثر من ذلك؟

- لا أدري ولكن الأمر يبدو لي مشكوكا فيه. أشك فيما إذا لم يكن الرجل منشغلا بمصيره كحاكم أكثر من انشغاله على وضع البلاد. لم أعد أفهم شيئا. واحدة من اثنتين، إما أن هناك غباء متأصلا فلا نفع لحكمنا عليه، واما أنه كان يعرف ولكن الحكم أعمى ويبطل كل الاندفاعات.

- استيفان حبيبي يجب أن تتريث قليلا قبل أن تصدر أحكامك وكأنك تواجه جمال باشا.

حاولت مرة أخرى ماريكا أن تهزه من جديد وهي تفتح بيتها وتسبقنا عميقا في الداخل.

- يا الله يا شريف ساعدني على ترتيب هذه الطاولة، أنت على الأقل مخك لسِّته أبيض وصافي.

ساعدتها قليلا وأنا مندهش في بيتها الصغير والجميل. نوافذه

الكثيرة كانت مغلقة. لم يكن يشبه بيوتنا أبدا. لم يكن مضاء ولكنه كان معطرا وبه رائحة مثل رائحة النساء. وضعت كؤوس القهوة على الطاولة بينما كان عز الدين منهمكا في حديث طويل مع استيفان في الحجرة المجاورة. لم أكن أعرف وقتها عما كانا يتحدثان فيه. ثم وضعت الركوة.

- بتعرف يا شريف أنا أحب القهوة الثقيلة مع الدخان؟ لا يزعجك التدخين.

- طبعا لا.

قلتها آليا وأنا لا أعرف لماذا سألتني عن رأيي وهي في دارها. كنت مندهشا من ثلاثة أشياء، لغتها مع استيفان الحرة والكلمات الكبيرة التي كانت تأتي منها بدون أي قيد ولا أسئلة. رشاقتها التي كانت تساعدها على الحركة السريعة ثم يدها التي وضعتها على رأسي وهي تفلي في عمق شعري. شعرت بنعومة كبيرة. أدركت فيما بعد أن النعومة ترى وتحس. كانت جميلة مثل أمي وتغني مثل أمي ولكنها كانت أقل حياء من أمي التي تقيس كل شيء بمقاييس الآخرين بكلمات تكررت كثيرا حتى حفظتها:

«طيب يا حبيبي، وشو راح بيقولوا عنا الجيران؟»

قالت ماريكا وهي تواصل فلي شعري:

- ماذا فعلت أمك بعد استشهاد والدك؟

- لا شيء.

- وكيف تعيشون في هذا الزمن الصعب؟

كيف نعيش؟

لم أطرح على نفسي ولا على أمي يوما هذا السؤال. ولكن كان علي أن أجد جوابا مقنعا، ليس بعيدا عن الحقيقة التي تخيلتها في التو.

- بابا ترك إلنا مصاري كثيرة. ونحن عايشين بين أخوالي وأعمامي في حي المغاربة. كل الناس يتحملون بعضهم بعضا، ليس مثل بيروت، كما قال لي عمي عز الدين.

- معك حق يا روحي. معك حق.

ثم التفتت نحو الركوة وترتيب الكؤوس بينما مشت نحو الشرفة التي تسرب منها هواء بارد. بدت لي المدينة حزينة لا شيء فيها إلا العلم الفرنسي الذي ظل يرفرف عاليا على رأس البلدية. فجأة بدا لي المربع والحديقة ونزل الخديوي ثم ارتسمت في الساحة التي كانت ممتلئة بالأشجار أعواد المشانق المصطفة كعساكر مستعدة لإطلاق النار. حاولت أن أتفادى السواد الذي نزل بشكل فجائي على عيني وان أتذكر مانيا متناسيا الساحة ولكني لم أستطع. بماذا كان يفكر سليم وهو يسند رأسه إلى عقدة الحبل المزيت؟ رأيت نزل الخديوي فجأة في مواجهتي وحددت حتى النافذة التي كنت ألمح من ورائها سليم وهو يرفع يده نحونا. بدت لي التفاصيل واضحة. كل شيء كان كما هو سوى أن الطائر الذي وقف على النافذة لم يكن موجودا ولكن حل محله غراب ظل يدور ويدور قبل أن ينزل على النافذة في المكان نفسه.

- شريف، ممكن تغلق النافذة، أشعر ببرد؟

سمعت ماريكا في عمق المطبخ ولكني شعرت بنفسي جامدا في مكاني. لم أتحرك إلا عندما عادت اليد الناعمة تفلي في عمق شعري وتقف ورائي واشعر بأنفاسها الطيبة على رقبتي. لم تقل ولا كلمة وإلى اليوم لا أدري إذا ما كانت قد أحست بي أم لا. لم أسألها ولم تسألني. ولكني كلما تذكرت وجهها شعرت بها قريبة إلى القلب مثل أمي ولم تنفرني في أي يوم من الأيام حتى عندما عرفت قصتها. لا أدري ولكني ازددت إعجابا باستيفان وبها.

عندما جلسنا نشرب القهوة، كنا مجموعين، ولم تجلس النساء في بيت والرجال في بيت آخر مثلما يحدث في حي المغاربة. كانت يدا ماريكا الناعمة التي لم تغادرني أبدا وأصابعها الرقيقة والطويلة تأخذني بعيدا بحيث لا أرى غيرها. لا أراها إلا هي. أنستني أحيانا حتى وجه أمي.

- وحياتك يا ماريكا السفاح أرحم. قال استيفان. لقد قتلنا وتحولنا

إلى أقل من كلاب الخلاء لكي نحفظ هذا الحلم وها أنذا أراه ينتفي. اسأل نفسي إذا لم يكن من الأفضل وضع رصاصة في دماغه والانتهاء من هذه الخيبة مرة واحدة؟ شو راح يصير يعني؟

- ليس حلا. أعتقد أن فكرة المؤتمر العام مش بطالة. سيظهر فيها كل شيء وما يتخذه الشعب هو الذي ينفذ وعلينا أن ننتظر النهايات وبعدها يفرجها الله.

- ومع ذلك أرجو أن تنبه عمك سعيد، الكثير من الوجهاء يرتادونه وكذلك الفرنسيون، يريدون وضعه على رأس قائمة المنطقة. نبهه، فهو يسمعك. بنيته الطيبة يمكنه أن يجد نفسه في حيص بيص. هوني عصابة تلعب به وبغيره. يتعشون مع الحاكم الفرنسي ويتغذون مع الإنجليز ويسهرون مع فيصل ويدغدغون عمك بالحكم. يعرفون جيدا أن عمك خسر الحكم في الشام ويريدون وضعه على رأس بيروت. نبهه، ما سمعناه كما قلت لك لا يبشر بخير. لا يمكن أن نقدم أعناقنا للموت وترك الناس يعبثون بها. هذه الأوضاع لا يقبل بها عاقل. القوات الفرنسية عندما حطت رحالها في ميناء بيروت، لم تجد صدورا غير صدورنا. نحن من رفع الأعلام ولكننا رفضنا إنزالها. فقد عين الرئيس كليمانصو الجنرال غورو قائدا عاما للجيش الفرنسي في الشرق، الذي تحول بسرعة إلى طاغية صغير. وقد صرح بما لا يدع مجالا للشك أن مهمته هي إحلال الجنود الفرنسيين مكان الجنود البريطانيين. ثم سمعنا بألم كبير أن فيصل كان مستعدا للاتفاق مع فرنسا شرط أن تعترف بحكمه وأحقية ملكه. بريطانيا تخلت عن مسؤوليتها وأطلقت يد فرنسا. وبدل أن يطلب من المجلس أو البرلمان تفويضه مؤقتا، كلف فيصل أخاه زيد لكي ينوب عنه بعد سفرته في تسيير شؤون المنطقة الشرقية أثناء فترات غيابه وان يهدئ الخواطر فالمفاوضات ما تزال مستمرة. ولكن غورو لم يسأل أحدا عندما نزل في المدينة وانزل الأعلام وهدد باجتياح المدن التي لا تنصاع لأوامره.

- الأوضاع لا تبشر بخير واشتعال المنطقة وارد جدا. الناس بدأوا

يرفضون الوضع القائم بالقوة. أحداث بعلبك مجرد بداية. عندما حاول ضابط الارتباط أن يدخل المدينة عنوة، حاصره السكان ومنعوه من الدخول إلى البلدة. عاد أدراجه هاربا بجلده ولم يريدوا قتله ولكنهم صادروا أمتعته. عدت السلطة الفرنسية في بيروت هذا إهانة لها فهجمت على بعلبك ودمرت بعض القرى ثم غادرتها بعد أن أعادت أمتعة الضابط. هل تظن هذا حلا؟ وضع الحكومة العربية في مأزق لا تحسد عليه. أتساءل أحيانا إذا لم تكن مثل هذه الأعمال مدبرة ومرتبة لإيجاد ذرائع التدخل.

- وماذا تريد يا عز الدين؟ لم يتركوا للناس حلولا أخرى. عندما تنزل رايتك التي قاتلت من أجلها، بشكل مهين، هذا يعني أن يدا ما تريدك أن تظل منكس الرأس دوما.

- ولهذا فثقتي في المؤتمر السوري كبيرة فهو الذي سيسمح لنا بتنظيم قوانا.

- حنشوف. أنا عارف رايحين للهاوية ومع ذلك. . .

كعادتها، عندما انتهت ماريكا من كأس القهوة الأخير، حركته طويلا بشكل دائري وهي تحكي قبل أن تشربه مثل الذي يشرب كأس ليمونادا وليس كأسا نصفه قهوة ونصفه الآخر تلوة.

عند الباب، ونحن نستعد للخروج، لامست شعري بأناملها الرقيقة وهي تمتم:

- لا تنس تسلم على الماما.

مثلما يفعل مع الأطفال عادة من باب العادة. بينما التفتت نحو عمي عز الدين. طبعت على خده ثلاث قبل، سمعت بلذة وقع صوتها النقي مختلطا بصوت استيفان المجروح:

- لا تنس، ننتظرك غدا. سيحضر الجميع.

- وهو كذلك.

عندما خرجنا، تفادى عمي عز الدين المرور على رصيف نزل الخديوي الذي بدت كل نوافذه مغلقة والغراب الذي جلس على الحافة

تعدد حتى صاروا أكثر من سبعة، ولكنه سار على الرصيف المقابل واختبأنا في درب صغير أبعدنا بسرعة عن الساحة. لا أدري إذا ما كان قد فعل ذلك عن قصد أو بالصدفة. حسنا فعل لأني لو مررنا من هناك لمكثت طويلا بلا حركة أسترجع الجرح البارد والمفتوح دوما، بينما وقته كان ضيقا إذ كان عليه تسيير ثلاثة أشياء في الوقت نفسه، مسؤولية أمي، اجتماعاته الكثيرة ولقاءاته المستمرة مع الأمير سعيد.

عندما رفعت رأسي صوب غرفة ماريكا كان كل شيء قد غاب ولكنني شممت رائحة عطرها وتحسست ملامس أصابعها على شعري.

انكسار ظلال اليقين

-١-

لم يعد الأمر سرا وانفجرت القنبلة الموقوتة على وجه الجميع.

كانت دمشق تغلي منذ شيوع خبر إخلاء الإنجليز للمواقع التي كانوا يحتلونها منذ الحرب، ولا حديث في يوميات الناس إلا هذا الخبر الذي استغله كل واحد بطريقته حتى إن الحكومة اتهمت بالتواطؤ مع الإنجليز والصمت على ضياع البلاد والعباد. الشيء الوحيد الذي رآه الشارع بعين الرضا هو عدم توقف حملات التجنيد والتطوع للدفاع عن الحق في الأرض. أصبح ظاهرا للعيان أن وضعا صعبا كان بصدد الحدوث. التقارير السرية التي وصلت إلى السراي كانت كلها تجمع على أن تغييرا في سياسة بريطانيا وفرنسا هو بصدد الحدوث.

- كل شيء يسير عكس التيار.

قال فيصل الذي كان بصحبة ساطع الحصري وعلاء الدين الدروبي، وينظر إلى وجه نوري السعيد الذي عاد لتوه من بيروت بعد أن أوفده إلى الجنرال غورو يطلب منه إعداد وسائل السفر لعرض قضية سوريا على مؤتمر الصلح وحل الخلافات دوليا وبالطرق الديبلوماسية.

- إنه يرفض سفركم يا مولاي ويقول إنه سيعمل على منعكم من أية حركة إذا لم تقبلوا شروطه.

قال نوري السعيد بارتباك بدا على وجهه بشكل واضح.

- وماذا تقول هذه الشروط المشؤومة؟

قال فيصل وهو يهز رأسه بنوع من اليأس والتعب. أخرج نوري السعيد ورقة مطوية عدة طيات من جيبه وبدأ يقرأ:

- هاهي الشروط كما أملاها هو بنفسه عليَّ يا مولاي:

١- وضع سكة حديد رياق-حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي. يقول إن الهدف ليس عسكريا ضدكم، ولكن لتسهيل الإمدادات لجيشه الذي يحاصره الكماليون الأتراك بالقرب من كيليكيا.

٢- قبول الانتداب الفرنسي، ويقول يا صاحب السمو إنها مسألة شكلية وستستفيدون من ذلك أكثر مما تستفيد فرنسا. ويؤكد أن الانتداب ليس استعمارا بأي حال من الأحوال.

٣- إلغاء التجنيد الإجباري وتسريح المجندين.

٤- قبول الأوراق النقدية التي أصدرها البنك السوري-اللبناني.

- طيب... طيب فهمت، قاطعه فيصل بنوع من الانفعال، ألم يقل بأن البنك الفرنسي هو الذي أصدرها ولا تحمل من البنك السوري إلا الشكل؟ وهم من أصدر قرارا يقضي باعتبارها عملة رسمية إجبارية التداول في البلاد وهو قرار مناف لأبسط قواعد الحقوق الدولية لأنه يعني بكل بساطة التصرف بمقدرات البلاد الاقتصادية. ألم يقل بأن البلاد ليست في حاجة إلى ذلك في الوقت الراهن، فالمعاملات التجارية بين الناس تجري عادة بالعملة الذهبية وبالجنيهات المصرية وبالليرات الإسترلينية؟ الاستبدال الذي يريده غورو يعني ببساطة استبدال هذه الأوراق بذهب البلاد؟ اللهم إلا إذا أراد غورو إدخالها بقوة الحديد والنار، طيب... واصل...

- هناك نقاط أسوأ يا مولاي يريد هذا المجنون فرضها علينا:

٥- معاقبة المجرمين الذين استرسلوا في معاداة فرنسا. ويقول يا سيدي إنه سيبعث الإنذار بالشروط المرفقة رسميا، والشروط الخمسة كل لا يقبل التجزئة أبدا. يقبل ككل أو يرفض ككل. وفي حالة الرفض سيصبح لفرنسا حق التصرف وقد لا تكتفي بالضمانات المعتدلة. والمسؤولية ستقع على كاهل حكومة دمشق.

- بالعربي الفصيح، نسلمه رجالنا المقاومين وندخل البلد في حرب أهلية لكي يرضى عنا. ونفتح له أبواب دمشق ونقول له تفضل، البلاد بلادك؟ لا لن يكون هذا أبدا.

قاطع ساطع الحصري:

- كنت أتوقع ذلك يا صاحب السمو وعلينا أن نتحرك بأقصى سرعة ممكنة. لا يوجد وقت، الرجل متهور وحركة جيوشه التي هي الآن على مرمى البصر دليل قاطع على ذلك.

- وماذا تقترح يا ساطع من حلول عملية باستثناء الاجتماع العاجل لمجلس الوزراء؟

- هناك أشياء ضرورية يجب القيام بها. أولا : نقل الخزينة مع الأوراق والوثائق المهمة إلى درعا استعدادا لنقل الحكومة حتى نستطيع ضمان تمويل مقاومتنا إذا استدعى الأمر ذلك.

تدخل علاء الدين الدروبي الذي ظل صامتا، بعنف ظاهر:

- مجنون يا ساطع؟ أنت لا تعرف الحوارنة؟ ما فيش مخ، والله ليذبحوننا واحدا، واحدا. وحياتك لن يتركوا منا أحدا.

رددها محركا يده اليمنى في كل مرة من الأذن إلى الأذن عبر العنق.

- والله ليذبحوننا، اصرف نظر أخي ساطع عن هيك موضوع. لا نحتاج إلى حلول غير محسوبة.

لم ير يوسف العظمة ضرورة لذلك ولكنه اقترح حلولا ستوضع بين يدي الأمير ومجلس الوزراء.

- لا أرى من حل آخر سوى حل المقاومة. تهريب الوثائق والنقود لا يفيد في شيء إذا كانت قواتنا منكسرة وغير قادرة على الدفاع. ولنبدأ بإصدار بلاغات رسمية عن الحركات العسكرية والاعتداء الذي تتعرض له البلاد.

- هذا سيظهرنا أمام العالم كمعتدين بعد أن أعلنّا قبولنا بالتحكيم؟ من المستحسن أن أحادث أللنبي، جيوشه هي المسؤولة عن المنطقة وليس من حقها أن تفرغ الأمكنة بهذه الطريقة وتقدمنا لقمة سائغة

للفرنسيين. أخشى أن نكون في عمق دوامة تطبيقات سايكس- بيكو ونحن لا ندري؟

قال الأمير فيصل.

- طيب وكيف تدافع عن الأرض والعباد؟ من هم ناسك الذين ستعتمد عليهم؟

- تحديد القواد الذين ستوكل لهم مهمة الدفاع؟ قال يوسف العظمة.

- ومن ترى في هذه المهام الكبرى؟

تساءل مرة أخرى الأمير فيصل.

- أهم الجبهات هي جبهة مجدل عنجر ولا أرى أحدا يقود هذه الجبهة أحسن من الأمير زيد وأفكر في تعيين ياسين الهاشمي في رئاسة الأركان. المسألة في طور الإعداد لأن الوقت ليس في صالحنا ومنذ أن حطت هذه الطاحونة العمياء رحالها في بيروت، تأكد لي أن الأمر سيزداد خطورة ولكننا سندافع عن أرضنا بكل ما نملك من قوة.

- ألا تخشى من أن تعيين ياسين الهاشمي في هذا المنصب سيقرأه الإنجليز رسالة تحدّ ضدهم؟ لم يخرج من معتقلهم إلا منذ شهرين وهو ما يزال تحت رقابتهم؟

- ولكنه قائد ولم يعد رأي الإنجليز يهمُّنا كثيرا يا صاحب السمو، بعد الذي حصل.

- أنصحك أن تتريث وأن تتأمل الوضعية جيدا. سأرى الأمر مع أللنبي للمرة الأخيرة ما يمكن فعله معا وبعدها يفرجها الله. رحمة الله واسعة.

- وإذا ما فرجها؟ يجب أن نعرف أولا ما يجب فعله قبل أن نفاجأ بنتائج الله وحده يعرف قسوتها علينا وعلى شعبنا.

- الشعب يمكن أن نداويه بسهولة. الذي يشغلني هو هذا التخلي المفاجئ من طرف الإنجليز.

- الأمر واضح يا صاحب السمو. قال ساطع الحصري وقد اصفر وجهه. إنهم بصدد تطبيق تقسيمات سايكس-بيكو. بلادنا التي مزقت بالمسطرة والقلم الأزرق والأحمر، ستقطع أوصالها الآن بالسكاكين والنيران. لا أتصور يا صاحب السمو حلا آخر سوى التهيؤ لمواجهة قد تكون قاسية وصعبة ولكن لا حل آخر لنا غير ذلك. نحن لا نعلن الحرب يا صاحب السمو، أعرف قلقك وأقدره حق قدره، ولكننا لن نكون البادئين.

- مازلت أومن بحل آخر، وأللنبي الذي أنارنا دائما بآرائه الصائبة، لن يتخلى عنا.

«- ولكن يا صاحب السمو، كل شيء منه؟ من غير اللنبي خرب حلم هذه البلاد ورغبتها في بناء دولة حية وسعيدة؟» قالها يوسف العظمة بمرارة قبل أن يصمت نهائيا ويحني رأسه مثل الآخرين.

-٢-

ظل الأمير فيصل صامتا كأن لسانه جمد في حلقه، بشكل أقلق أللنبي الذي كان ألم البواسير يحركه يمينا وشمالا، لا يستقر على مكان، قبل أن يجد الجلسة المناسبة مؤقتا، متناسيا الآلام التي أقلقته. قام من مكانه مصطنعا تعاطفا لم يبد عليه أي صدق. فقد كان وجهه باردا كقطعة ثلج والأمور محسومة بذهنه.

- أعرف يا سيدي مقدار الخيبة. فقد كنت تنتظر منا شيئا آخر غير هذا. أنت تعرف أن ما يجمع بريطانيا بفرنسا كبير، وقد وصل إلى درجة التحالف. قد لا يكون هناك حب كبير بيننا وفي الكثير من الأحيان ارتبكت مصالحنا وأوصلتنا إلى حروب لولا حكمة الطرفين وتغليب المصلحة العليا.

لم يرد فيصل ولكنه حك على رأسه بارتباك معدلا من عقاله بشكل أكثر وعدل من جلسته.

- وأنتم تتحدثون بحماس يا سيدي، أسأل نفسي عن موقعنا نحن العرب في كل هذه المعادلة التي تبدو بسيطة ولكن الظاهر أنها معقدة أكثر مما تصورت وتصور والدي. ألسنا أصحاب الحق الأوائل؟ ألسنا من يستشار أولا قبل القيام بأي شيء؟

- طبعا. والقرارات الجديدة المتخذة لا تضر مطلقا بحقوقكم. لقد قلت لك في لقائنا الأول في فندق فكتوريا في ٣ أكتوبر: طالما كانت العمليات الحربية مستمرة، فإن القائد العام يتولى المسؤولية الكاملة حتى يتم عقد السلم وتظل سورية خلال تلك الفترة جزءا من أراضي العدو المحتلة. اليوم لا أحمل لك جديدا سوى التأكيد على الممارسات التي يجب ألا تزعجك. لقد بدأنا بتثبيت بعض الإجراءات الخاصة بتنظيم الإدارة العسكرية في سوريا بتقسيمها إلى مناطق ثلاث، جنوبية تحت الإدارة البريطانية، شمالية تحت الإدارة الفرنسية، شرقية تحت الإدارة العربية. عليكم فقط انتظار مؤتمر الصلح، فهو الكفيل بحسم كل الخلافات الممكنة والمستجدة. يجب ألا يصل المتحالفون إلى حل مشاكلهم بالحروب وإلا كأننا لم نفعل شيئا. أعرف أن المسألة قاسية بالنسبة لكم ولكن هذه مقترحات التاج البريطاني التي لا تقبل النقاش.

- أنا ممنوع من السفر كما أعلمتكم قبل هذا الوقت والمسؤولية هي تعنت غورو. كأني أشم يا سيدي في هذا رائحة تقسيمات اتفاقية سايكس-بيكو. أشعر بأن كل ما قمنا به لم يكن له أي معنى لا لكم ولا لنا. لا أفهم كيف تقبلون تسليمنا لأكبر أعدائكم بينما أنتم أصحاب القرار في هذه الأرض التي حررتموها معنا؟

- أنت تعرف يا أمير فيصل أن في كل الحروب هناك ما يعلن عنه وهناك ما يبقى خفيا وسريا. وأنا عسكري مثلك ولا أقول لك إلا ما يعطى لي من أوامر، لست رجل سياسة.

- ومع ذلك، كلمتكم مسموعة في بلدكم وإلا لما أوكلت لكم هذه المهمة التحريرية الصعبة والمعقدة. لكن المشكلة عندنا أكثر تعقيدا. بأية لغة أواجه الذين اعتبروني فاتحا لم يروا مثله منذ قرون؟ في لحظة من

اللحظات شعروا بالفعل أنهم تخلصوا من قيد، وغير مستعدين للعودة إليه من جديد.

- مع ذلك، أقول لكم بكل صداقة، يستحسن أن تقبلوا بهذا الوضع خصوصا وأنكم مازلتم في البداية. لا تكسروا ثقة الآخرين فيكم الذين ينظرون إليكم كأهم محاور في المّعادلات القادمة. إذا ما حاولتم عكس ذلك، ستنكسرون لا محالة. القوة الفرنسية كبيرة ولا يمكن مجابهتها بالوسائل التقليدية التي معكم وبريطانيا لا يمكنها أن تدخل في حرب خاسرة ضد حليف كبير. عليكم أن تتفهموا التزامات التاج البريطاني تجاه من كان بجانبنا.

شعر الأمير فيصل بتغير فجأة في نبرة أللنبي.

- ولكننا لم نكن ضدكم ولا أفهم ردة الفعل هذه؟

لم يرد أللنبي ولكنه ترنح في مكانه من جديد بسبب آلام البواسير، شرب كأس ماء وبلع قرصا مخففا للآلام. ثم ختم الحديث بجملته المكررة التي تعود عليها محاوروه عندما يريد أن يوقف حديثا عند حد معين.

- إذن اتفقنا يا أمير.

قال أللنبي ثم قام نهائيا مستعدا للذهاب.

قام فيصل مجبرا وهو يتمتم آخر الكلمات:

- تفاهمنا كمن لم يفهم شيئا. ومع ذلك فأنا أشعر بتعد كبير على حقوقي كملك على هذه الأرض.

- هذا أمر آخر، سابق لأوانه ولم نتفق عليه. إلى اليوم، لم يحسم المؤتمر الدولي أوضاع الممتلكات الأجنبية التي صارت في رقابتنا وعليكم الانتظار طويلا قبل وجود حل نهائي للقضية العربية. خذ كلامي من صديق يخاف عليكم، التسرع لا يفيد مطلقا في مثل هذه الأمور. المهم الآن التفكير في تسيير البلاد وبجانبك جيش فرنسي كبير يمكنه أن يسندك شخصيا كلما احتجت إلى مساعدة، والجيش الإنجليزي الذي لا يمكنه أن يتخلى عن التزاماته مع أصدقائه.

- ولكنها أرضنا يا سيدي، ويجب أن يتفهم الآخرون توجسنا.

- أنتم ارتكبتم أخطاء كبيرة. يجب ألا ينظر إلى المشكلة بعين واحدة ولكن في كل تفاصيلها. لم يكن من حقكم رفع العلم في بيروت في وضع غير محلول ولا هوية له بعد. هذا غير مقبول أبدا. والمفروض، بوصفي قائدا لجيوش الشمال، أن أعلم بكل شيء. وأنا من يتخذ القرار النهائي؟

صمت فيصل قليلا قبل أن يتدخل وهو يبحث عن كلماته:

- ومع ذلك توجد زوايا غامضة يا جنرال أللنبي، وأنا داخل وضع كهذا، ما هو وجهي أمام العرب الذين منحوني حياتهم؟ بماذا سأجيبهم وأنا من أعطى رفع راية الاستقلال في دمشق وبيروت؟

- المهم موقعكم، هنا أو هناك، لن يتأثر بأي شكل من الأشكال. هذه الأمور ستأتي بالهدوء والرزانة. اتفقنا مبدئيا على إنشاء حكومة عسكرية عربية يبدأ سلطانها من حدود الحجاز ويضم شرقي الأردن ودمشق وحمص وحماة وحلب وتكون أنت على رأسها ولكن باسم القيادة الحليفة، وقد عينت الكولونيل كورتواليس ممثلا لي والجنرال كوس ممثلا للفرنسيين كضابطي ارتباط لديك لحل أي إشكال يمكن أن يطرأ في انتظار أن يحل المؤتمر الدولي المشكلات العالقة. للانتظار مزاياه الكبيرة يا أمير فيصل.

- والساحل السوري، تساءل الأمير فيصل؟

- في الوقت الحالي هو تحت وصاية عسكرية. سيديره الكولونيل الفرنسي دي ياباب وأما الساحل الفلسطيني فسيديره ضابط بريطاني هو الميجر جنرال آرثر مولي. وبالتالي فأنت معفى من مسؤولية الإشراف على هذه الأماكن، مما يترك لك أمر تسيير مشكلات المدن التي تحت وصايتك.

- وهذه الوضعية دائمة؟

- ليس قبل أن تحل المشكلة دوليا ويعقد الصلح كما قلت لك.

وقبل أن يخرج طلب من العسكري الذي كان يصحبه أن يفتح

الخريطة الكبيرة التي كان يحملها تحت إبطه. وأطلعه على الخطة الإنجليزية التي بموجبها يجب تسيير البلاد، لا كدولة ولكن كأراض كانت مستعمرة وليس لها وضع اعتباري محدد حتى الآن. لم يكن الأمير فيصل على ما يرام ولكن كلام أللنبي على قسوته، أراحه وطمأنه قليلا وأعطاه الثقة بأن الوضعية مؤقتة وستحل في إطار دولي وأنه سيعرف وقتها كيف يدافع عن حقه كما يفعل بقية الحلفاء.

- الناس ينتظرون أن تطمئنهم وأن تعقلهم، هذا واجبك السماوي والأرضي.

- الناس يا جنرال ينتظرون منا أن نكون مثلما يتصورون لأنهم لا يعرفون دواليب الحكم. ولكن اشكر الله أن لدينا اللغة التي بها يمكن أن نطوع بها العاصين. لسنا مضطرين للكذب ولكننا نستطيع إسماعهم ما يريدون ونستطيع نحن كذلك أن نتخلص من المسؤولية التي على الظهر. هذا ما يجب فعله. أمامنا مؤتمر دولي وعلينا أن ننتظر ما يفضي إليه.

- سنحاول.

- وسنغض الطرف عن بعض القسوة ضدنا. لا يهم إذا كانت تضمن السكينة والهدوء.

- أعتقد أني لن أكون في حاجة إلى ذلك.

وفي مساء يوم ٧ نوفمبر أصدر الأمير فيصل البيان التالي الذي وزع على كافة محافظات المدينة ومكاتب الربط والقرى الكبيرة التي بها إدارة:

«إن السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وانجلترا في الشرق تلك الحرب التي هيجتها مطامع الألمان. إنما هو لتحرير الشعوب التي رزحت أجيالا طوالا تحت مظالم الترك تحريرا تاما ونهائيا. وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختيارا حرا. ولقد أجمعت فرنسا وانجلترا أن نؤيد ذلك بأن تشجعا وتعينا على إقامة هذه الحكومات والإدارات الوطنية في سورية والعراق المنطقتين التي أتم الحلفاء تحريرهما. وفي الأراضي التي ما زالوا

يجاهدون في تحريرها وأن تساعد هذه الهيئات وتعترف بها عندما تؤسس فعلا. وليس من غرض فرنسا وإنجلترا أن تنزلا أهالي هذه المناطق إلى الحكم الذي تريدانه، ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والإدارات التي يختارها الأهلون من ذات أنفسهم وان تضمن لهم عدلا منزها يساوي بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الأمور الاقتصادية في البلاد بإحياء مواهب الأهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للتخلف القديم الذي قضت به السياسة التركية. تلك هي الأغراض التي ترمي إليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الأقطار المحررة.»

الأخبار التي وصلت الأمير فيصل من لبنان وسوريا وحتى من دوائر الحلفاء كانت إيجابية. فقد خلف البيان ردة فعل أعادت الطمأنينة إلى الناس، وأراحتهم في قناعاتهم ولم تقتل أحلامهم التي انكسروا وماتوا من أجلها. رفعت الأعلام العربية على بعض البيوت الخاصة والأهازيج والأناشيد مثلما حدث في الأيام الأولى للتحرير. وسار كل شيء مثلما حدد له أن يسير.

لم يترك لورانس الأمير فيصل أبدا خصوصا في الظروف الصعبة. حتى إن فيصل قال له ذات يوم وهو يضحك من الذين انتقدوا ثقته العمياء فيه واتهموه بأنه وضع كل شيء في يد مخبر الإنجليز الأول:

- حسادك كثر يا صاحبي، في كل زاوية من زوايا المدينة إلا وتعثر على أحدهم.

- لست مهتما لذلك لأن ثقتي فيكم كبيرة يا سيدي. عمياء.

- لو لم تكن معي في هذه الظروف الصعبة، لا أدري ماذا كنا سنفعل بهذه الأرض الواسعة التي لم ترتح في أي زمن من الأزمان؟ سابقا كانت مرتعا للصراعات الدينية واليوم تقسم خفية، تمزق بالمسطرة والقلم.

فهم لورانس مباشرة ما كان يشغل الأمير فيصل وقرأ في عينيه حزنا مشوبا بسخرية غير معلنة.

- أفهمك جيدا. تعرف يا سيدي أن حبي للفرنسيين قليل وربما منعدم. في هذه الصفة نشترك بقوة. أشعر أنهم يلعبون وفق ذكاء مكشوف مثل لاعب شطرنج يظن أنه ذكي وهو من حيث لا يدري يكشف بسرعة إستراتيجيته. الفرنسيون هم أذكى الأغبياء في تعاملهم معنا. ولكن ما يسمى تقسيم سايكس-بيكو أنا لا أعرفه جيدا، ولا أعتقد أن أللنبي يعرفه في تفاصيله كذلك ولكنه ربما كان في صالحكم. التقسيم إذا طبق مثلما سمعت، سيمنحكم جزءا عربيا تديرونه بكل حرية. أعاهدك أن أظل في صفك حتى النهاية. ثم يا سيدي أليس من حقنا أن نرتاح قليلا من هذا الضغط الذي يكاد يأخذنا ويقضي علينا؟

- لكن المشكلة كبيرة وعلينا أن نجد لها حلا مناسبا قبل أن نصبح في الكماشة الفرنسية الصعبة. تحدثت مع أللنبي ولكنه لم يفدني إلا بالقبول والرضوخ للأمر الواقع.

- إذا رأى أللنبي ذلك فلأن رؤيته صحيحة. أدعوك أن تسير وفقها وبعدها نرى عن قرب ما سيحدث. لأن كل ما يقال الآن هو مجرد اجتهادات وعلينا انتظار مؤتمر الصلح، فهو الحاسم.

- في هذه أحييك. فما يزال أمامنا مؤتمر الصلح.

ثم مد يده مصافحا من جديد فيصل.

- الدنيا ليست مغلقة كما ترى. لنا كل الدنيا أيها الأمير الطيب لحل هذه الخصومات. أما نحن فسنواجه أقدارنا الصعبة والقاسية وحدنا والدنيا القلقة لا تمنحنا زمنا يسيرا لكي نعيش ما تبقى من حياتنا بعد طول عناء.

نظر إلى عيني لورانس الزرقاوين كعيني سيدة إنجليزية ثم إلى شفتيه القرمزيتين، إلى ظاهر يده وأصابعه الرقيقة:

- ياه يا لورانس؟ عندما تكون في صفائك تكون لذيذا جدا.

شعر فيصل باندفاع داخلي تجاه لورانس لم يستطع لجمه.

مد لورانس يده نحو يد الأمير ليصافحها. أحس بقوتها وعنفوانها الكبيرين. وأحسَّ بخشونة شعر ظاهر اليد الذي كان ينحدر على طول

الذراع الأيمن المكشوف حتى المرفق. شعر الأمير بنعومة يد لورانس. أشرق وجهاهما بابتسامتين مليئتين بالأشواق.

ابتسم الأمير فيصل وهو يشعر بنشوة انتصار خاصة، داخلية وعميقة جدا، بينما كان لورانس قد أغمض عينيه وحاول أن ينسى مشكلات الحكم والعسكر وألا يحتفظ إلا بما يقربه من رعشاته الداخلية الأكثر صدقا التي تنتابه من حين لآخر منذ أن اختار هذه الرمال المحروقة وهذه الأرض وهذا الرجل القريب منه إلى حد كبير.

-٣-

زادت حرارة الفراش. كان الأمير فيصل يتصبب عرقا. لم ير في حياته حمى مثل هذه؟

«كل شيء تبدد بسبب هذا الخرا المجنون الذي اسمه غورو؟»

تمتم فيصل وهو يحاول أن يغمض عينيه لكي ينسى كل ما كان فيه أو يحيط به.

لا شيء في الأفق سوى الخيبة التي كانت تقرأ في كل العيون.

استمر خروج الجيش الإنجليزي أياما عديدة. كل مكان كان يخليه الإنجليز يحتله، في اللحظة نفسها، الجيش الفرنسي. شعر فيصل بالضعف الكبير والوحدة القلقة وشعر كأن مخه لم يعد قادرا على التفكير.

الحمى التي بدأت صغيرة، تعقدت أكثر ولم تغادره منذ يومين.

كل شيء تغير وتحول إلى رماد في عيني فيصل الذي لم يستوعب ما كان يحدث أمام عينيه. بدا كأن المسألة ضاعت وأن ما كان يبدو مجرد دعاية صار حقيقة يتم إنجازها ميدانيا، وإلا كيف يُفسر هذا الخروج المفاجئ؟ تساءل فيصل وهو يبحث عن إجابات لم تأت.

«لم يبق إلا حقك أنت يا غورو؟ رصاصة الرحمة.»

تململ في الفراش. تلعثم وهو يبحث عن كلماته المرتبكة في موجة

حمى الحرارة الباردة التي كانت تأكله من الداخل والخارج. شعر بالعرق يسيل راسما خطا مستقيما يمتد من رقبته، منزلقا بين الكتفين قبل أن يندفن إلى منتهى ظهره باردا ولزجا.

«كيف وصلنا إلى هنا؟ شيء يصعب تسييره بسهولة. يجب أن يتوقف كل شيء عند هذا الحد، لم أعد قادرا على التحمل أبدا؟ ماذا كان بإمكاننا أن نفعل يا الله؟ الحرارة والبرد الداخلي، لابد أن تكون حمى مفاجئة؟!»

عندما صاح الديك المجنون بدا له كأنه ضيع الوقت الكثير. تباشير الليل في أواخرها وهو لم ير النوم. تأمل الساعة الحائطية التي كانت تترنح بخطواتها الثقيلة مثل السلحفاة. تحرك في سريره. كانت الصحف الكثيرة التي تحيط به تكاد تغطيه وتراكمت بجانبه مع عدد من البيانات. أعاد قراءتها وفليها واحدة واحدة.

«هناك شيء لا يمكن فهمه إلا بإعادة النظر فيه.»

تمتم بكلام لم يفهمه إلا هو. كان يبحث عن شيء هو نفسه لم يكن يعرفه؟

الصباح ما يزال بعيدا وهذه الحمى الباردة تزداد قوة. تسحقه من الداخل. كانت حرارة الصيف قاسية ولكنها لم تفعل فيه مثلما فعلت اليوم. كأن النار كانت تخرج من جسده على الرغم من البرودة التي اخترقته عميقا. ليالي الشام عادة طيبة ورطبة ولا توجد بها أجواء النهار الثقيلة جدا. استرجع شريط الوقائع:

«لم يكن بيشون غبيا عندما التقيت به في باريس في ذلك الصباح الربيعي، بالضبط في يوم الكذب العام: ١ أفريل ١٩١٩. كان كل شيء واضحا ولا يحتمل الشك وأن الدسيسة كانت أكبر مما كنت أتصور.»

قال بيشون بدون أن يبحث عن مبررات:

«- أنتم تعلمون أن فرنسا لها منافع عظيمة في سوريا وقد كانت بياناتكم في المؤتمر مخالفة من وجوه عديدة لتلك المنافع. لا يمكن أن تتحدثوا عن الاستقلال وأراضي العدو المحتلة لم يبت بأمرها؟

- أنا لم أفعل شيئا غير ما يسير وفق مصلحة البلاد ولا يناقض ما اتفقنا عليه. نعم، لفرنسا منافع ولكني كذلك ترجمان لمنافع أهل البلاد الأصليين.

- لابد أن يكون الكولونيل لورانس قد حدثكم عن خلافاتنا مع إنجلترا في الكثير من هذه القضايا، فأنتم مازلتم على أراضي العدو المحتلة وهي بالتالي أراض لا تحمل أية هوية حتى الآن.

- الكولونيل لورانس لم يكلمني في أي شيء من ذلك؟»

ذئب هو لورانس، يعرف كل شيء ولا يسرب المعلومات إلا بالتقتير. حدثني عن الصغيرة والكبيرة ولكني كنت أعرف سلفا أنه لا يحب الفرنسيين كثيرا. بل يكرههم كدم الأسنان. كل شيء يوحي اليوم بأن الدولتين تتجهان نحو التوافق على رأس سلطان العرب وحقهم في الاستقلال... وحقنا في الملك وبناء الدولة المستقلة.

- نحن نود حقيقة أن تتفقوا مع إنجلترا وتبينوا لنا شروطكم واقتراحاتكم.

- أنا لا أدري لماذا أعامل هكذا؟ جئت إلى باريس لأكلم الحكومة الفرنسية ليس فقط بشأن سوريا ولكن البلاد العربية كلها. ففرضتم علي الحديث عن سوريا فقط؟ قبلت على مضض وأنا لست مؤمنا بنقاش يفصلنا عن امتداداتنا الشامية والعربية. ولا أدري لماذا تريد حكومة فرنسا أن تظل وراء إنجلترا؟ لماذا لا تبادرون؟

«يبدو أنني كنت أبول في رمال الربع الخالي، فما كان بينهما أخطر من أي تصور.»

- أنت تعرف يا صاحب السمو، رد بيشون على ملاحظتي، أننا لا نريد أن نغضب حليفتنا إنجلترا ونحب أن نحتفظ بولائها ولهذا كلفناكم بهذا التكليف. أن تكونوا عادلين في التعامل مع حليفيكما الفرنسي والإنجليزي.

كان يريد بيشون أن يضعني في عنق الزجاجة بالخصوص بعدما ذكَّره

المسيو غو بضرورة المساواة في تعاملنا بين فرنسا وإنجلترا، إذ من غير المقبول أن تميل الكفة نحو الإنجليز.

- أنا لم أمنح شيئا للإنجليز في العراق ولا حتى في فلسطين التي أخضعوها لقانون خاص لا يدخل لا في الخط الأزرق ولا الخط الأحمر. أريد استقلال البلاد العربية كلِّها. وإذا لبيتم لي طلب استقلال سوريا، سهل الاتفاق فيما بيننا.

- لا توجد بلاد عربية في الوقت الحاضر على الأقل. هناك فقط أراضي العدو المحتلة التي تنتظر أن يبت في شأنها، المؤتمر الدولي الخاص. تفاوضوا مع المسيو غو وحاولوا أن تصلوا معه إلى حل معقول ومقبول للجميع. واعلموني بالنتيجة النهائية لنرى ما يمكن فعله.

- لكن يا سيدي تفاوضت طويلا مع المسيو غو فلم نحصل على أية نتيجة. هو يحدثني عن شيء وأنا أريد أن أفاوض على مبدأ استقلال سوريا. لو خالفت هذا المبدأ سينبذني العرب والسوريون كما ينبذون قشرة ليمون فاسدة.

لم ينتظر بيشون كثيرا وقام متقدما قبل أن يدفع بي نحو الأتوموبيل التي كانت واقفة عند الباب. كلام... دائما الكلام... ولا شيء غير الكلام. وتحول المسيو غو إلى زئبق، كلما لامسته أو شعرت بذلك، انزلق من بين أصابعك. في كل مرة يعتذر لسبب ما؟ في المرة الأولى لم يأت للغذاء لأسباب مرضية تتعلق بالحمى الإسبانية التي كان يفترض أن تأخذه في طريقها، في المرة الثانية تخبأ وراء استمرار المرض نفسه وبعث من ينوب عنه. في المرة الثالثة قيل لنا إنه بُعِث في مهمة كبيرة. ومن حين لآخر تصلني أخبار مهينة من بيشون وكليمانصو: فرنسا منشغلة بمسائل أهم من سوريا. سمعت أن بيشون عندما راجع كليمانصو حول المسألة السورية، قال له هذا الأخير: «بينما أنا مشغول في المسائل الحيوية مثل الرون والسَّار، التي يتوقف عليها مستقبل الأمة، تكلمني أنت عن قضايا ثانوية؟». لم يعد هناك ما يجدي سوى السفر والعودة إلى الأرض التي كانت غلياناتها قد بدأت تطفو، خصوصا بين العرب والأرمن.

شهور متوالية في الفراغ والانتظار المهين، دون أن أتوصل إلى مقابلة كليمانصو؟

أبلغت طولا برغبتي في السفر بعد أسبوع، مرورا برومية[٧٣] وطورانتو.

شعر فيصل وهو يتقلب في الفراش بأن الوضع بدأ ينسحب من يده وأنه لم يكن في أية لحظة سيد المتغيرات. فجأة بدا لنفسه أصغر من نملة تائهة في غابة استوائية؟ هناك شيء ما يتجاوز قدرته على التفكير. كل ما كان يبدو بسيطا وسهلا صار شيئا غريبا. تذكر والده الذي بدا له وكأنه يعيش في غيبوبة غير محدودة ولا يتكلم إلا حينما يستيقظ للحظة قبل أن يستغرق من جديد في غيابه. كان الخواء يملأ كل شيء، حتى خزرته التي بدت له، ربما بفعل الحمى، فارغة وبلا معنى. عندما تلمس لباس النوم الحريري، كان مليئا بالعرق البارد على الرغم من الحرارة التي كانت تصعد وتنزل بلا نظام. الحمى الباردة لم تخف وتجتاح جسده مثل الموجات الشمالية التي تجمِّد كل شيء في طريقها.

مد يده مرة أخرى نحو الجرائد. شعر بها تغتال ما تبقى حيا وواقفا في داخله. كل الجرائم... عفوا، الجرائد... تكذب وهي دائما مع الأقوى.

تلعثم وهو يبحث عن الكلمات التي اندفنت في حلقه. فجأة لمع اسمه واضحا على رأس الرسالة التي كانت بجانب الوثائق التي أخرجها من خزانته الخاصة وبعثرها على السرير عله يفهم ما هرب منه بين السطور في القراءة الأولى:

«**من أمير فيصل إلى المسيو كليمانصو**

يا حضرة الرئيس.

لا أزال تحت تأثير الاستقبال الجميل الذي تلطفتم به عليَّ وإني أحسب من أعز واجباتي أن أشكركم على ذلك. وقد وافقت امتثالا لرغبة

---

٧٣ المقصود بها روما (إيطاليا)

حضرتكم على تأخير سفري إلى أن يعود المسيو برتلو، آملا أن نحل في هذه البرهة حدود لبنان. وإني سعيد جدا لتمكني من أن أقدم في هذه المناسبة دليلا جديدا على رغبتي القوية في الوصول إلى اتفاق حقيقي. ولا أشك أن العطف والاهتمام اللذين أظهرتموهما لي بعثا بي جسارة على أن أعرض بكل إخلاص على سعادتكم ما يخامرني من القلق الذي لم تكن وضعية الجنرال غورو في البقاع إلا لتزيده شدة، ورغما من محاذرتي إضاعة وقتكم الثمين فإني لا أرى مندوحة من أن ألخص لحضرتكم الموقف الحاضر كما هو: إن من مقتضى الاتفاق الذي عقدناه في الخامس والعشرين من الشهر المنصرم بأن لا تحتل الجنود الإفرنسية البقاع وأن تنسحب منه الجنود العربية ولا يبقى محلها، خاصة بعلبك وحاصبيا وراشيا إلا الدرك التابع لأوامر القائمقامين، وستؤلف بعثة تفتيشية من ثلاثة ضباط عرب وإفرنسيين يرسلون معا إلى تلك النواحي لكي يلاحظوا حسن تنفيذ وظائف الدرك والشرطة المسؤولين عن الأمن، وإذا وجد الضباط العرب والإفرنسيون أن قوات الدرك غير كافية، فتعزز بقطعات دركية أخرى يؤتى بها من دمشق. فهل التجاوز الذي وقع على الضابط الإفرنسي وجاويشه يبرر الإخلال بهذا الاتفاق ويجيز القرار الذي اتخذه الجنرال غورو؟ خصوصا أن السلطات المحلية هي المسؤولة وحدها عن إرجاع الأمن وأن جلب القوى من دمشق عند الضرورة منصوص عليه في هذا الاتفاق.»

ياه... ما أبأس هذه الدنيا! كنا نريد استرجاع البقاع، فصرنا نخشى ضياع دمشق؟ أية كارثة تنزل الآن على الرأس؟ كان يجب تأسيس هذا المؤتمر البائس ليقتنعوا على الأقل أننا قادرون على تسيير شؤوننا الداخلية. تمتم فيصل وهو يبحث عن كلماته التي كانت تخرج من أعماقه صامتة وناشفة ويابسة. يريدون برلمانا مؤقتا بدون حاجة كبيرة للوصاية، هكذا اقترح علي الأصدقاء الإنجليز وكان لهم ما أرادوه، هل هي مناورة أخرى من طرفهم مثلما فعل الفرنسيون؟ الدورة الأولى التي استمرت من ٣ جوان ١٩١٩ إلى ٤ ديسمبر ١٩١٩ ألقيت فيها خطابا

حددت فيه مهمة المؤتمر. كنت أعرف مسبقا أن الآذان التي تستمع إليَّ كثيرة ولا تنتظر إلا الانزلاقات الصغيرة لكي تدخل بقواتها وجبروتها. وأكدت بأقصى صوتي وصراخي الذي لم يعد يسمعه أحد «**إن واجب أعضاء المؤتمر الأساسي هو تمثيل البلاد أمام اللجنة الأمريكية وعرض مطالبها وأمانيها ثم سن القانون الأساسي مع ضرورة وضع نصوص صريحة لحفظ حقوق الأقليات.**» لم يكن الأمر صعبا على اللجنة التي وصلت في ١٠ جوان إلى يافا، الدخول إلى دمشق بعدها وتستقر في فندق فكتوريا. وفرنا لها كل شروط العمل المستقل. بدأت أعمالها في ظروف حسنة. كان الحماس كبيرا. فقد زودت هاشم الأتاسي، الذي كان وسيطي مع اللجنة، بكل المعلومات قبل أن ينجز الصيغة النهائية ويقدمها للجنة على رأس وفد مؤلف من ٢١ عضوا يمثلون جميع المناطق السورية خلال اجتماع ٣ جويليه. ما تزال غنته ترن في رأسي «**نحن الموقعين أدناه بإمضاءاتنا وأسمائنا، أعضاء المؤتمر السوري المنعقد في دمشق الشام والمؤلف من مندوبي جميع المناطق الثلاث الجنوبية والشرقية والغربية، الحائزين على اعتماد سكان مقاطعاتنا ومفوضيهم من مسلمين ومسيحيين وموسويين، قد قررنا في جلستنا المنعقدة في نهار الأربعاء المصادف لـ ٢ جويليه ١٩١٩ وضع هذه اللائحة المبينة لرغبات سكان البلاد الذين انتدبونا ورفعها إلى الوفد الأمريكي المحترم من اللجنة الدولية:**

١- إننا نطلب الاستقلال السياسي التام والناجز للبلاد السورية، التي تحدها شمالا جبال طرطوس وجنوبا رفح فالخط المار من الجوف إلى جنوب العقبة الشامية والعقبة الحجازية، وشرقا نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقي أبي كمال إلى شرق الجوف وغربا البحر المتوسط بدون حماية ولا وصاية.

٢- إننا نطلب أن تكون حكومة هذه البلاد السورية ملكية، مدنية نيابية تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الواسعة وتحفظ فيها حقوق الأقليات على أن يكون ملك هذه البلاد الأمير فيصل الذي جاهد في

سبيل تحرير هذه الأمة جهادا استحق أن نضع تمام الثقة بشخصه وأن نجاهر بالاعتماد التام على سموه. . .»

شعر الأمير فيصل مرة أخرى بشدة البرودة تخف وتنزل ولكنها لم تستقر أبدا وباللزوجة تلتصق بكامل جسمه وبرائحة تشبه الغمل والبيض الفاسد والرطوبة تخرج مع إفرازات العرق ومن جلده. كان الوهن قد استبد بكامل جسده وأنهكه من الداخل ولم يعد قادرا على الحركة كما يشتهي.

«غريب أمرنا نحن العرب؟ بلا شيء ونطالب بكل شيء؟ نتحدث وكأننا صرنا دولة؟ ثم **المادة السادسة** التي تقول إننا لا نعترف بأي حق تدعيه الدولة الإفرنسية في أي بقعة كانت من بلادنا السورية ونرفض أن يكون لها مساعدة أو يد في بلادنا بأي حال ومكان كان. كيف وأنا اتفقت مع كليمانصو؟ ثم **المادة السابعة**: إننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي من البلاد السورية أي فلسطين وطنا قوميا للإسرائيليين ونرفض هجرتهم إلى أي قسم من بلادنا لأنه ليس لهم فيها أدنى حق ولأنهم خطر شديد على شعبنا؟ كيف وأنا وقعت على وثيقة مع وايزمن بهذا الصدد؟ هل سيتعاملون معنا بجدية؟ كل شيء قبل من طرف المؤتمر ولم يعترضوا إلا على **المادة الخامسة** التي أقرت الانتداب من خلال صيغة قبول المعونة الأجنبية. كان يجب أن أرفض الموقف الرافض والكلي الذي لا يسمن ولا يغني من جوع. اخترت الطريق الوسط. العرب لا بد لهم من مساعد ومرشد وأما رفض فرنسا فينطلق مما أعلنته فرنسا من غايات ومآرب استعمارية في سورية. الأمر الذي يجعل من بريطانيا حليفة العرب يرجع إلى كونها مولت وجهزت ثورتهم ووعدتهم بالاستقلال والحرية والوحدة. أصدقاء بريطانيون أوحوا بذلك ومالو؟ أنا لا أفهم ردود الفعل هذه؟ وين الغلط؟ كيف تأمر الآخرين بالانصياع لأوامرك وأنت لا تملك الآلة التي بها تجبر الآخرين على احترامك؟ إننا نقايض الحد الأدنى وكلما أعطينا أوامر وركبنا رؤوسنا، بدا الأمر عناديا ومستحيلا. أعرف جيدا أننا خرجنا، ولكن مجبرين، عن

الحدود التي تضمنها ميثاق دمشق الذي سلمه الزعماء العرب في جمعيتي العهد والفتاة ليكون أساسا للعمل المشترك بين العرب وبريطانيا للقيام بالثورة العربية، فقد تقلصت الحدود إلى حدود سورية بأقاليمها الثلاثة فقط. لكنها الظروف والتغيرات الدولية التي لم أصنعها أنا.»

تقلب فيصل مرة أخرى في الفراش وهو يرى التراب ينزل عليه من كل الجهات حتى يردمه ولا يعرف جيدا هل كان كابوسا أم حقيقة؟ لأنه عندما مس فمه وجده ناشفا ومنغلقا كفم حلزون صيفي.

«ماذا كان بإمكاني أن أفعل أكثر مما فعلت؟ سافرت إلى فرنسا مرة أخرى ووجدت نفسي أمام حائط التقسيمات التي كانت قد تمت ولم أُسْتشَر فيها. انتهت المعركة الدبلوماسية باتفاق لويد جورج- كليمانصو في ١٣ أيلول ١٩١٩. يحدثونك في شيء وعندما تلتفت وتعطيهم ظهرك، يلتقيان ويفتحان جرحا يضعك في حالة إحراج أكثر من ضرر الجرح نفسه. يضعون رأسك في المقصلة. الإنجليز انسحبوا من سوريا، وكنت مضطرا إلى الاتفاق مع فرنسا بنصيحة من الإنجليز نفسهم. القوات الفرنسية احتلت البقاع والأقضية الأربعة، مع بداية كانون الأول. وكان منتظرا أن يحتج ثوار جبال العلويين بقيادة صالح العلي، وفي جبل الزاوية بقيادة إبراهيم هنانو وفي تل كلخ وفي الحولة بقيادة محمد الفاعور. ليس غريبا. الغربيون مهابيل، يظنون أن القوة تحل الإشكال وينسون أنهم يغرسون بذرة الحقد التي ستنسف كل شيء في طريقها. في مظاهرات دمشق التي لم أكن موجودا فيها، انتصر الحل المتطرف بصحفه المجنونة التي تلهب حمية الناس. حتى المؤتمر السوري أصدر منشوره على الأمة يدعوها للدفاع الوطني. مظاهرة دمشق في ٢٢ أكتوبر قدمت عرائض إلى زيد احتجاجا وطالبت بالتحالف مع الأتراك. عندما عدت، حاولت أن أسترضيهم وأتحالف مع الأتراك الذين لم يعودوا قوة، والتقيت سراً مع مصطفى كمال أثناء زيارته إلى حلب في ١٦ جوان ١٩١٩ وكان بذهني إعلان الجهاد المقدس مع ضباط عرب من خريجي المدارس التركية ولكن الأمر لم يسر كما اشتهينا. الفرنسيون سبقونا إلى

مصطفى كمال وأعطوه ما اشتهى وعدنا وحيدين. خدعنا مصطفى كمال؟ وماذا فعلنا نحن تجاه تركيا؟ وجهنا كل بنادقنا صوبها. وجاءت سفرة أوروبا الثانية بطلب من الإنجليز ١٥ أيلول ١٩١٩ بوفد من أعضاء المؤتمر الذين لم يكن منهم إلا حداد باشا، يوسف، توفيق الناطور، أحمد قدري، فؤاد الخطيب، محمد إسماعيل الطباخ، تحسين قدري، سامح الفاخوري وأمين التميمي وأمين كسباني...»

انسحبت الحمى الباردة نهائيا وحلت محلها حرارة عالية أشعرته بأن الرجفة التي انتابته من الرأس حتى أخمص القدم قد أذابته عن آخره. شعر بالخواء يملؤه وكأنه ينزل من علو شاهق، بأحشاء فارغة لا بطن فيها ولا أمعاء سوى جلدة متآكلة تلتصق بالعظام التي كانت تصطك.

«المؤتمر السوري الثاني لم أحضره وتحملت ثقل نتائجه. حضره أخي زيد لمناقشة خطاب رضا باشا الركابي وكان التعليق قاسيا. اعتبر المؤتمر نفسه ممثلا للأمة العربية السورية قانونيا وسياسيا وأدان موقف الحلفاء وانقلابهم واعتبر اتفاق لويد جورج-كليمانصو مؤشرا واضحا على سوء القصد بشأن مصير سورية. كنت أنا في ميزان التحكيم؟ واجب الدفاع وإعلان الاستقلال التام للقطر السوري بحدوده التي عينها المؤتمر السوري بقراره الذي قدمه للجنة الدولية الأمريكية وقد أصدر بيانا مقتضبا دعا فيه الأمة إلى الدفاع بدنا ومالا ضد كل من يحاول الإخلال بوحدة البلاد واستعمارها والعبث باستقلالها. الأمير زيد لم يكن أمامه مسلك آخر في وجه هذا المد المتطرف في كل شيء، إلا المحافظة على الوضع كما هو. ولا أدري هل كان على الحكومة أن تذيع بيانها في ١ ديسمبر الذي أعلنت فيه أن الجنود الفرنسيين سيحلون محل الجنود البريطانيين في شتورة ورياق وبعلبك وتسحب منها القوات العربية؟ بيانات الفوضى. ألم يكن من الأفضل ستر كل شيء أمام هذه الجلافة الكاسحة التي لا تفكر في العواقب؟ لم يكن لديهم ما يخسرونه وكانت خسارتي كبيرة. المؤتمر عينني ملكا والى اليوم ما يزال هذا الملك ريحا خاوية ومشكلاته بلا حلول. أية جرائد هذه التي لا تشيع إلا الضغينة والبؤس؟ لقد

أخطأت يا زيد. أوصلتنا إلى طريق اللاَّرجوع يا ابن أمي. كان يجب عدم تصديق الذين يركضون وراء السراب. كان بإمكانك يا زيد أن تمحو الرؤوس وتنزع رقابهم وز... حتى يتعلموا ولكنك، يا بن أمي لم تفعل، فأغرقتنا في مخرأة.»

رمى فيصل جريدة **العاصمة** بعيدا عن رجليه. ثم التفت من جديد إلى الرسائل والوثائق التي كانت تحيط به، بانزعاج ظاهر. أول وثيقة قفزت عند عينيه، رسالة الركابي عندما استقال من الحكومة بسبب خلافاته مع الأمير زيد:

«انعقد المؤتمر السوري في ٤ ديسمبر وكانت فكرة إعلان الاستقلال هي الأساس. كانت دورة المؤتمر السوري المؤقت هي النواة الأولى التي تشكلت منها الهيئة العامة للمؤتمر لردع موجات الخيبات التي تكرست في دواخل الناس. المؤتمر خفف من الشحنة ولكنه أجل اشتعالها. فقد تألف من أعضاء منتخبين وأعضاء موكلين، محامين، أطباء، ضباط، علماء الإسلام وأصحاب الأراضي وزعماء القبائل، والكثير منهم متخرج من المعاهد التركية العسكرية أو الحقوقية مثل هاشم الأتاسي، سعيد حيدر، إبراهيم هنانو، صبحي بركات... بينما كان عزة دروزة سكرتير المؤتمر هو المحرك الأساسي. وتولى صياغة مشروع القانون الأساسي للدولة السورية حقوقيون معروفون عثمان سلطان، هاشم الأتاسي، سعيد حيدر... لم يمنع هذا المؤتمر الفوضى من أن تصير قانونا. تزايدت الأعمال العنيفة ضد فرنسا، فقدم الرّكابي استقالته في ١٠ ديسمبر الأمر الذي حدا بزيد إلى تشكيل حكومة جديدة لقبت بحكومة الدفاع وكان من أركانها مصطفى نعمة، يوسف العظمة، وسارعت إلى قانون التجنيد الإلزامي في ٢١ ديسمبر «**قاموا وشكلوا الحكومة الحاضرة وسموها الحكومة الدفاعية، ولست أعلم شكل الدفاع الذي أجروه والثمرات التي اقتطفوها**»، هكذا قال لي رضا الركابي وهو يبحث عن كلماته المرتبكة ويشكو حالات التهور التي لحقت البلاد والعباد.»

«عندما عدت من سفرتي الأوروبية الثانية، كنت ناويا تغيير كل

شيء. وعلى هؤلاء الناس قبول ما اتخذ من قرارات، لسنا دولة في الهواء؟ لدينا روابط أممية. دعوت وجهاء العاصمة وأركان الجمعيات الوطنية وذوي الكلمة المسموعة على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم. رفض المغاربة الحضور. بعثت من يقنع الأمير سعيد ولكنه رفض حتى استقبال المبعوث باستثناء يوسف العظمة الذي كانت تربطه بهم علاقات طيبة. لست أنا من قتل عبد القادر الصغير، ولم أكلف أحدا ينوب عني في الحكم، ولا حتى الأمير سعيد الذي جلس على كرسي لم يكن له. فلماذا انتحل الأمير صفتي. كلمته حول ضرورة العمل على تجاوز الإنجليز والوصول قبلهم لإعلان الحكومة، ولكني لم أكلف أحدا بفعل ما فعله في غيابي؟ صحيح أن حضوره أوقف جزئيا فوضى في دمشق وأنقذها من حرب أهلية؟ كان عليه ترك الناس يأكل بعضهم بعضا ويتناهشون، فهم لا يسيرون إلا هكذا لأظهر أنا كالمهدي الذي ينقذ الجميع. ثم ما جدوى أن أخسر لورانس وأربح الأمير سعيد الذي لا يضيف شيئا للسلطان؟ كان يجب إقناع الحاضرين باتفاقية كليمانصو ولهذا طالبت بعقد اجتماع في ظهر ٢٠ جانفيه ١٩٢٠ لأبين مزاياها. صرخت في الرؤوس المنغلقة: **الاتفاقية تجعل من فرنسا حليفة تضمن لسوريا استقلالها ووحدتها بين الداخل والساحل عدا جبل لبنان واعتراف جمعية الأمم باستقلالنا وتمدنا بما نحتاج إليه من مال وتبعث إلينا بما نطلبه من خبراء فنيين دون أن يتدخلوا في أمورنا في إدارة شؤوننا الداخلية، وتدرب جيشنا العربي إلى أن يستطيع النهوض بأعباء الدفاع عن الوطن ويستغنى عن الجنود الفرنسيين فلا يبقى جندي واحد عندنا**. سمعت همهمات وكلمات مرتبكة هنا وهناك، ولم أر واحدا يعطيني رأيا صحيحا. انسحبوا الواحد تلو الآخر منكسي الرؤوس وكأنهم مُنوا بهزيمة نكراء.»

الحمى زادت على الرغم من أنها خفت داخليا. سمع صوت القطار وهو ينسحب حاملا معه نحو المجاهل أشياء كثيرة. في لحظة من اللحظات خاف أن يكون منها وأن يضطر ذات يوم إلى التخلي عن كل شيء والرجوع من حيث أتى بعد أن يترك وراءه بلدا عرضة للموت.

ترك فراشه. استقام بصعوبة بعد أن ترجرج طويلا. خاف أن ينكسر كشجرة مفرغة من الداخل. لف نفسه في بطانية صوفية ارتسم على واجهتها وجهان عاشقان كتب حولهما بالفرنسية: Bonne nuit ma belle. حمل السماعة وفكر في لحظة من لحظات الشدة، أن يطلب أحمد قدري، مرافقه وطبيبه الخاص، ولكنه تراجع. تمنع طويلا قبل أن يتخذ القرار بالاتصال به لإخباره بهذه الحرارة التي بدل أن تسخن جسده أعطته بردا قويا وثقيلا لم يعهده أبدا في جسده. أحمد قدري إضافة إلى كونه طبيبا كبيرا، فهو مرافق طيب ومحدث جميل.

لم يتأخر أحمد قدري طويلا. بسرعة كان متمترسا في الحديقة الخاصة ينتظر خروج سيده.

خرج فيصل إلى الجنينة في يده مجموعة من الجرائد والأوراق والرسائل، وتوجه نحوه، ملفوفا في لباسه الخشن والبطانية التي كانت تغطي ظهره. ملأ صدره طويلا بهواء دمشق الرطب والناعم:

- خير إن شاء الله مولاي؟

- أي خير يا أحمد؟ لا أدري، البوصلة ضاعت. أشعر بأني بدأت أهذي. حرارة كبيرة مصحوبة ببرودة قوية وتعرُّق غير معهود ورائحة كريهة تشبه رائحة القمح الغامل الذي يلتصق بجنبات المطامير. الحرارة نزلت قليلا لكن البرودة عادت من جديد لتملأ هذا الخواء الداخلي. أشعر كأني مملوء بالهواء فقط ولا شيء غير ذلك. الإنجليز تخلُّوا عنا وباعونا بنفط الموصل يا حبيبي ولم يعد أمامنا الشيء الكثير لكي ندافع عنه. لم يكن كراين مخطئا عندما قال وهو في طريق العودة إلى أمريكا، بعد الاستفتاء: «دخلت الشرق متفائلا وخرجت منه إلى أوروبا خائبا وحزينا، فقد باعت بريطانيا صداقتها للعرب بزيت الموصل.»

- لا تهتم يا سيدي، ما يزال أمامنا المؤتمر الوطني.

قال أحمد قدري بصوت يكاد لا يسمع.

- أنا منهك يا أحمد ومنكسر بشكل عميق. أنت الوحيد الذي يعرف ما يعتريني من كسور وخيبات.

- ربما كان الإرهاق الشديد في الشهور الأخيرة التي تكاثرت فيها المشاغل والمتاعب والضغوطات. لقد سافرت كثيرا يا سيدي وأنت بحاجة ماسة إلى الراحة. الإنجليز من جهة والفرنسيون من جهة ثانية، لم يتركوا لك فرصة التنفس ولو قليلا. الضغط النفسي والجسدي هو السبب.

- لا. ليس هذا ما يشغلني. أنا لم أعد أفهم الكثير مما يحدث من حولي. كلام غورو تهديد مبطن وأحيانا مفضوح. كنت أظن أن دخول دمشق كان كافيا لكي يجعلنا نبني دولة كما نشتهيها، من الخليج إلى المحيط ولكن الظاهر المسألة أكثر تعقيدا. وان الأقدار لا تسمع إلا لنداءاتها الداخلية. ألم تقل لي أنت نفسك إن علينا أن نطلب المساعدة من أمريكا أو انكلترا لغلق الباب في وجه فرنسا الاستعمارية؟

- نعم. ولكن...

- طيب... الهيئة الإدارية للفتاة لم تقبل بهذا الاجتهاد وألحت على نزع إنجلترا وفرنسا معا من الطريق. وقلتَ إن أمريكا أصلا لم يكن يعنيها التدخل بسبب مبدأ مونرو فتبقى إنجلترا بالضرورة؟ عزة دروزة لعب دورا مهما وحاسما في تقريب الهوة الفاصلة بيننا وبين الفتاة. انظر مثلا ماذا يقول هذا الزفت لطفي الحفار في جريدة **لسان العرب** ليوم ٢٣ جوان ١٩١٩: إن الأمة التي تريد الحياة الاستقلالية يجب عليها ألا تعرف شيئا من هذه الأسماء الحديثة والصور الجديدة، ويجب على أحزابها وجمعياتها ونواديها وصحافتها، قبل كل شيء، ألا تعزز غير مبدأ الاستقلال التام بدون حماية ولا وصاية ولا انتداب ولا... وإنَّ ما نحتاج إليه من مساعدة لا غنى لنا عنه، نشتريه بالثمن غير مقيدين بما نشترطه على أنفسنا. فلا نضع الحبل في عنقنا بأيدينا؟ أكاد أختنق يا أحمد من هذه العقلية التي لا تريد إلا الكل وكأن العالم لا عمل له إلا تلبية نداءاتها؟

- أنت أديت واجبك الذي ترى فيه صلاح الأمة يا سيدي، البقية، المؤتمر وحده سيفصل فيها. أما عن تهديد غورو، المهم أن يوكل الأمر

للمؤتمر السوري، فهو قادر على اتخاذ القرار المناسب.

- ولكني مرهق، وأشعر كأن الخيط بدأ يفلت منا. ولا أعرف حتى كيف أفكر بشكل جيد.

- ربما، ولكن يا سيدي عليك أن ترتاح قليلا من هذه الضغوطات وهذا القلق المتواتر الذي لا أظن أنه سيخف قريبا. على العكس من ذلك، الكل يسير نحو تعقيدات كبيرة وتحتاج يا سيدي إلى قوة خارقة لكي تتمكن من مقاومة هذه المصائب. ينتظرك في الأيام القليلة القادمة اجتماع كبير وخطاب الـ ٥ مايو.

- هناك حلقة مفقودة يا عزيزي أحمد وعلي أن أجدها وأضعها في مكانها وإلا ذهب كل شيء مع الريح. أشعر كأن العالم يضيق علينا حتى قبل بناء دولة تستحق هذا الاسم. يخنقنا بقراراته وإملاءاته.

لم تكن الأيام التي تلت إلا نسخا مكررة من الأيام الأولى. لا شيء تغير أبدا. خطاب ٥ ماي الذي وجهه فيصل في بهو السراي الحكومي لم يكن كافيا لكي يوقف الغليان الذي كان يملأ الحارات والجرائد اليومية وقلوب الناس المرهقين. الاستقلال ولا شيء غير الاستقلال.

«ولكن من يسمع لصراخهم الغوغائي؟ عليهم أن يتعلموا كيف ينصتون إلى العقل وإلا على دنياهم السلام.»

تمدد على أريكة الحديقة وحاول أن ينام. شعر بالنسيم الذي هب على الأشجار، قد أعطاه راحة كبيرة وملأه بنعومة افتقدها طوال الليالي التي مضت.

-٤-

الوفد الذي زار دمشق عاد خائبا كما كان متوقعا ولم يحصل على إجابات صارمة.

الأمير سعيد أخبر الذين زاروه في بيته من العربية الفتاة عن المخاطر الناتجة عن تعصب الكثيرين وان فيصل يقود البلاد إلى الهلاك. فكر

فيصل قبل أن يبعث يوسف العظمة لمحاورته أن يسجنه أو يشنقه على ثقته الزائدة، ولكنه خاف من الفرنسيين، فعدل عن فكرته ودفع بيوسف لما له من مودة لدى المغاربة. فقد رفض سعيد دعوة الأمير فيصل ولكنه لم يمانع من استقبال أعضاء الحكومة. عندما ألحوا عليه بزيارة الأمير فيصل، قال:

- قبلت الالتقاء بكم لأني أقدر فيكم شهامتكم وشجاعتكم. أقسمت ألا أزور فيصل منذ أن خرجت من السراي بذلك الشكل البشع. ومنذ أن بهدلني الإنجليز في السجن بدون أن يفعل فيصل شيئا. قتل أخي وكأن شيئا لم يكن. ليزره اليوم صديقه لورانس الذي قتل أبناءنا وهو يتفرج عليه ثم ولى الأدبار بعد أن أدى مهمته. لن أذهب وليفعل فيصل ما بدا له إذا كانت ما تزال لديه قوة لفعل شيء غير الكذب وتدمير البلاد. جئت إلى هنا بإلحاح من وجهاء لبنان والشام ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

- لكن البلاد كلها عرضة للخراب، تدخل يوسف العظمة ببرودة.

- ليس في الأمر جدة، منذ أن وضع فيصل أمر البلاد بين أيدي الإنجليز، كانت النتائج معروفة. هل سمع لكم عندما أخبرتموه باتفاقية سايكس-بيكو؟ هل استشار أحدا قبل أن يوقع على إنشاء دولة لليهود في فلسطين؟

- ولكن الوضع معقد يا صاحب السمو ويجب أن نجد له مخرجا. كل الضغوطات تبين بأننا نتجه نحو كارثة كبيرة لا أحد يضمن عواقبها.

- أعرف ولهذا فالتهور ليس في مصلحة أرضنا أو على الأقل ما تبقى منها مستقلا. وإذا لم نعرف ما نفعله سيؤول كل شيء إلى الخراب. ولهذا على المؤتمر التفكير جديا قبل اتخاذ أي قرار نهائي.

وظل النقاش يدور في حلقة مفرغة بين سؤال وجواب بدون نتيجة تذكر. بعد أقل من ساعة خرج الوفد الذي كان يترأسه يوسف العظمة. خرج الأمير سعيد معهم حتى الباب. قال وهو يصافح يوسف:

- يوسف أنت رجل كبير ومن عائلة عريقة وعظيمة. ما تطلبه

موضوع بين يديك إذا كان ذلك ثمنا للجهاد ولكني لن أمنح فيصل حتى رصاصة الرحمة. تحدثت طويلا مع جماعة غورو وهم مصممون على فصل لبنان وربما الزحف على دمشق ولهذا أوصيكم ببعض التريث في قراراتكم. نحاول أن نثنبهم عن هذا الغزو ولكن قل لناس الشام أن يتعقلوا.

- لم يعد لنا الكثير من الأمور التي بها نناور ولكن يبدو أن الرجل عازم على إذلالنا. غورو لن يتراجع أمام أي فعل. هناك مشروع كبير لتدمير المنطقة وتقسيمها وإذا حدث ذلك فلن تقوم لهذه الأمة قائمة لمدة قرون وليس سنوات. ستدخل في حروب وصراعات تنمي الأحقاد والصراعات التافهة أكثر مما تعمل على تحريرها النهائي.

- لا تمنحوهم فرصة تدمير ما بني حتى الآن.

- لكنهم بدأوا يا سيدي. وقد أعود لك ثانية لطلب مساعدتك لإنقاذ البلاد.

- أنا قلت لك: إن الأمور إذا وصلت إلى المذلة، الحي المغربي فداك بكامله وتستطيع أن تستفيد من خبرة رجاله ولكن احذروا من المغامرة. جدي رحمه الله عندما كان يحقن الدماء بين المسيحيين والمسلمين نبه وسط الدروز والموارنة وبقية الأطياف الإسلامية والمسيحية، أن أحداث ١٨٦٠ ستتحول إلى بركة دم فاصلة بين الأديان والقوميات، إذا لم نعرف كيف نحقنها، وأخشى أن يكون الزمن قد فات وان ما هو آت مخيف لا محالة. لم يسمع له أحد لولا أن شهر بنادقه في وجه القتلة وحمى في بيته ضحايا الضغينة من المسيحيين. وأخشى بالنسبة إلى أرضنا أن يكون الزمن قد ولى وأن عهدا جديدا لا أحد يعرف ملامحه هو في طور التكوين. انظر من حولك، كل شيء يسير بخطى حثيثة نحو الخراب الأكيد: موجة الاستياء التي عمت البلاد في الفتاة حيث نشب صراع بين الشاميين وما سمي بالغرباء والمقصود بذلك الضباط الذين انضموا إلى الثورة العربية وكان غالبيتهم من العراقيين؟ وهل من حرر البلاد صار غريبا؟ أي زمن هذا وأي منطق يشتغل به

فيصل؟ السبب يعود أصلا إلى فيصل الذي بدأ يركز على سوريا وتخلى نهائيا عن الفكرة العربية. في مؤتمر الصلح في ٢٠ ك٢ ١٩١٩ طالب بدولة محدودة وليس تلك التي ذهب من أجلها: استثنى منها الحجاز ومرفأ عدن والإمارات المحمية ولم يأت على ذكر فلسطين لأنه كان قد وقع على وثيقة وايزمن مقابل مساندة الصهيونية الانتداب الفرنسي.

عندما خرج يوسف العظمة راكبا سيارته لم يكن يعرف بأن الوضع في البلاد كان خطيرا جدا إلى الحد الذي لم يعد التفكير فيه مجديا. هو يعرف جيدا أن ما قاله الأمير سعيد لم يكن فقط من عنده.

حتى دورات المؤتمر السوري الثلاث لم تأت بحل سوى أنها عمقت الهوة. وعندما كانت الدورة الأخيرة تجري، كانت الأناشيد الحربية تملأ مدخل المجلس والسراي والخلافات الداخلية تمزق المؤتمر السوري وتدفع به نحو الحرب والمقاومة. انسحب الأرستقراطيون المحافظون، محمد فوزي العظم الذي كان مواليا للفرنسيين وعبد الرحمن اليوسف الذي أشاد باتفاقية كليمانصو- فيصل، معاكسا بذلك الاتجاه الوطني الغالب في المؤتمر. كانا يرفضان سيطرة العربية الفتاة التي كان بها في الهيئة الإدارية القوية: ياسين الهاشمي، أحمد قدري، رفيق التميمي، سعيد حيدر، أحمد مريود، عزة دروزة، شكري القوتلي وقد سيطرت هذه اللجنة على الحكومة. وكانت بمنزلة جمعية الاتحاد والترقي من الحكومة التركية، فلا يتم شيء بدون أمرها. وحتى الحكومة العربية التي كونت من تشكيلتي العهد والعربية الفتاة، برئاسة رضا باشا الركابي الذي احتفظ بصفته كحاكم عسكري، لم تكن كافية لرأب الصدع. ولا حتى لجنة كراين التي أسسها الرئيس الأمريكي ولسن، الذين دخلوا دمشق في شهر جوان لاستفتاء السكان وقد تألفت اللجنة من هنري كينغ وتشارلز كرين للرئاسة وعضوية كل من دليبايرو ومونت كومري، والكابتن وليام بيل، ومدير أعمالها مور وسكرتيرها المنضبط باستقامته، بروري. وعرفت بلجنة: كينغ-كرين.

لم يزد قرار مجلس إدارة جبل لبنان في ٢٠ مايو، إعلان استقلال

لبنان بحدوده التاريخية والجغرافية والطبيعية، إلا حدة وقلقا على الاستقلال والوحدة.

عاد الغليان يملأ شوارع دمشق من جديد. لم يعد أحد يشكك في أن اتفاقيات سايكس- بيكو هي بصدد التنفيذ وإلا لم يكن أحد قادرا على فهم تخلي بريطانيا لفرنسا عن الأراضي السورية. ما كان يحدث كان يسير بسرعة كبيرة غير محسوبة. المؤتمر السوري الذي كان قد عقد بدعوة من الأمير زيد زاد الأمر تعقيدا. تحت الضغوطات الشعبية، ندد بنكث العهود من طرف الحلفاء وخرقهم لميثاق جمعية الأمم المتحدة. وكان قد دعا بشكل واضح، الأمة إلى الدفاع عن وحدتها. يوسف العظمة الذي كان قد عين في منصب وزير للدفاع أقر الخدمة العسكرية الإجبارية لمدة ستة أشهر من سن العشرين إلى الأربعين. لم تتردد القوات الإنجليزية في اعتقال ياسين الهاشمي، رئيس ديوان الشورى الحربي ونقلته إلى معتقل الرملة لأنه أقر طلب الهيئات الوطنية بفرض الخدمة العسكرية الإجبارية وساعد الثوار في المنطقة الغربية في العراق. وكل ما أرسله الشريف حسين لمواجهة الوضع الصعب، مجموعة من بطاريات الجيش التركي، قديمة وعاجزة.

ومع سقوط حكومة كليمانصو ومجيء حكومة جديدة هي وزارة ميليران. انتهى كل شيء. كل الوعود التي قطعت لم يعد لها ما يبررها ويجعلها إجبارية.

عقد المؤتمر السوري في ٦ مارس ١٩٢٠ دورته الثالثة والأخيرة برئاسة هاشم الأتاسي وافتتحه السيد عوني عبد الهادي نيابة عن الأمير فيصل : **إن مهمتكم خطيرة ومهمتك كبيرة فأوروبا تنظر إلينا عن كثب وستحكم لنا أو علينا انطلاقا من الخطة السياسية التي سنسير عليها والأعمال التي سنقوم بها في المستقبل.** في اليوم نفسه قرر المؤتمر إعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية بما فيها فلسطين وان يكون فيصلا بن الحسين ملكا عليها وان يكون علمها العلم العربي ذو الألوان الأربعة مضافا إليه نجمة بيضاء في مثلث أحمر. ورفض وعد بلفور

والاحتلال العسكري للمناطق السورية الثلاث وأكد على وجوب استقلال العراق.

في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر ٨ مارس زار الأمير وفد انتخبه المؤتمر وابلغه قراره التاريخي فقبل وشكر الوفد. ثم انتقل إلى دار البلدية حيث اجتمع أعضاء المؤتمر وأعضاء بلدية دمشق ووجهاؤها ورجال الحكومة وقادة الجيش لمبايعة الأمير. وحضر ممثلون عن فرنسا وايطاليا باستثناء بريطانيا. ورفع العلم رئيس بلدية دمشق غالب الزالق ونشره فهتف الناس الذين كانوا يملأون ساحة الشهداء، المرجة. وتمت المبايعة من كل الديانات. نفس الشيء حدث في العراق وأعلن الأمير عبد الله بن الحسين ملكا دستوريا عليه.

ألف فيصل حكومة دفاع وطني برئاسة هاشم الأتاسي والحصري للمعارف ورضا الصلح لرئاسة مجلس الشورى والدكتور عبد الرحمن شهبندر للخارجية ويوسف العظمة للحربية وفارس الخوري للمالية وجلال زهدي للعدلية ويوسف الحكيم للتجارة والزراعة وعلاء الدين الدروبي للداخلية وخلف هاشم الأتاسي في رئاسة المؤتمر رشيد رضا.

كان الوضع في دمشق كل يوم يزداد اشتعالا وتطرفا وتوترا.

مدارات اليأس

-١-

«- كل أملي أن تكون العواقب سليمة. يريدني الأمير فيصل أن أستفسر بشكل دقيق عن أوضاعنا العسكرية من ذوي المسؤولية والاختصاص من المرتبطين مباشرة بجيشنا. ياسين الهاشمي، مصطفى نعمة ويوسف العظمة، ونقرر بعدها القرار النهائي من تهديد غورو. ماذا لو جاءت الإجابات متوافقة مع تخوفاتنا؟ لا يمكن. ما سمعته يدفع إلى أكثر من التفاؤل. لا يمكن أن تكون الأقدار بهذه الخساسة. لا يمكن أن يتخلى الله عنا في ظروف قاسية كهذه. لا يمكن... لا يمكن أبدا...»

تمتم ساطع الحصري وهو يقطع الزقاق المؤدي إلى الشارع الرئيسي.

لقد قرأ التهديد الرسمي العديد من المرات حتى حفظ بعض أجزائه ولم يعد بإمكانه فهم ذلك كله.

«باسم الحكومة الفرنسية، لي الشرف بأن أعرض على سموكم الملكي لآخر مرة موقف هذه الحكومة إزاء السلوك الذي سلكته حكومة دمشق منذ مطلع هذا العام. سادت السكينة في سورية إبان الوجود الإنجليزي، ولم يعكر صفو الأمن وتبدأ الاضطرابات فيها إلا اليوم، عندما حلت قواتنا محل الجنود البريطانيين وقد استفحلت هذه الاضطرابات في الآونة الأخيرة. ولقد أثرت هذه الاضطرابات في رقي

سوريا ونظامها السياسي والإداري والاقتصادي أكثر من تأثيرها في سلامة جنودنا في الاحتلال الفرنسي للمنطقة الغربية، فحكومة دمشق تحمل كل التبعة إزاء أهالي سوريا الذين عهد مؤتمر الصلح إلى فرنسا بأن تمتعهم بحسنات إدارة مؤسسة على الاستقلال والنظام والتساهل والثراء. . . وقد تقرر التجنيد الإجباري ونفذ في ديسمبر ١٩١٩ مع أن البلاد لم يحسم أمرها دولياً. هذا العبء الثقيل الذي لا يجدي نفعا قد أكره عليه الشعب حتى في المناطق التي لها شكل خاص كالبقاع ونفذ في ناس مستثنين منه كاللبنانيين والمغاربة المقيمين في المنطقة الشرقية، ولاقى هذا التجنيد الباطل مقاومة نزيهة أدت في بعض الأحيان إلى إراقة الدماء. ثم إن المجلس المدعو بالمؤتمر السوري يسن القوانين، بل يحكم باسم حكومة لم يعترف بوجودها. فضلا عن ذلك، فقد قدم اللقب الملكي لسموكم بدون حق ولا وكالة، مما وضعكم كما عبرتم عن ذلك في موقف التمرد على مؤتمر الصلح. لذلك ترى فرنسا أنها مضطرة لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة جنودها وسلامة السكان الذين نالت من مؤتمر السلم مهمة الانتداب عليهم، فأتشرف بإبلاغ سموكم الملكي أن هذه الضمانات هي كما يأتي:

- التصرف بسكة رياق-حلب. . .»

فجأة وجد نفسه في المنعطف المؤدي إلى مدخل الحديقة الذي ينتهي إلى بيت ياسين الهاشمي الذي كان ينتظر زيارته. لم يستطع أن يكتم غيظه من الوثيقة الرسمية التي بات يقرؤها ويحاول أن يجد فيها مدخلا يمكن أن يتسرب من خلاله لإعادة ربط الصلة والدخول في محاورة مع الفرنسيين كما قال له الملك فيصل الذي يعيش حالة قلق وردود فعله غير محسوبة بسبب الارتباك.

لم يستطع أن يكتم غيظه كلما تذكر بنود مذكرة ١٤ جويليه ١٩٢٠

«- تفو. . . أي منطق هذا؟ وأي تسلط وأية عنجهية؟ القوي يأكل الضعيف وبعدها تصبح كل الحجج مقبولة. يبدو أن هؤلاء الناس لا يفكرون إلا بالقدر الذي يجعلهم يرتاحون لكذبهم المفضوح.»

عندما دق على الباب، جاءه الصوت من داخل الصالون واضحا وخشنا.

- الباب مفتوح يا ساطع. ادخل يا رجل، لا داعي للاستئذان، أنا في انتظارك منذ أكثر من ساعة.

- لا تهتم. ذهني صار مشوشا إلى أقصى الحدود ولا أعرف كيف سنتصرف لمواجهة هذا الطغيان. فيصل ما يزال تحت وقع أللنبي. وبدأت الشكوك تنتابني إلى حد بعيد.

- تريد أن تسألني عن حالة الجيش، أم أنا مخطئ في تخميني؟

- بالفعل. كيف وضع الجيش بصراحة؟ كل شيء مبني على تصورك وتصور يوسف العظمة. أخشى أن ندخل حربا نحن على شبه يقين بخسرانها.

- يا سيدي خوفك في محله. بصراحة... الجيش الموجود لا يستطيع أن يدافع عن البلاد. أذهب إلى أبعد من ذلك، فهو لا يستطيع حتى أن يدافع عن نفسه. لا يصمد أمام العدو بالوسائل التي يملكها حاليا، أكثر من ساعتين وفي أحسن الأحوال إذا أخذنا بعين الاعتبار التضحيات وحماسة المقاومة التي تملأ الناس حاليا.

- ولكن هذا الكلام يناقض روح التفاؤل التي لاحظتها في حديثك عندما زرتني في بيتي ليلتها. ألم تقل لي بعظمة لسانك بأننا نستطيع أن ندافع عن أرضنا بكل سهولة؟

أجاب ياسين الهاشمي بدون تردد:

- بلى. لكن الأوضاع تبدلت منذ ذلك التاريخ تبدلا كبيرا. فقد أتى الفرنسيون بقوى جديدة، أما نحن فلم نفعل شيئا يذكر. إن المدافع التي مرت أمامكم في الاستعراضات، ليس لها إلا عدد قليل جدا من القذائف وهي لا تكفي لحرب تستمر أكثر من ساعة واحدة. وأستطيع أن أقول الآن: إن الجيش إذا اشتبك في حرب نظامية بعد ساعتين سينفد عتاده العسكري. ويمكنك أن تتصور البقية.

- ويوسف العظمة يعرف هذه الحقائق المرة؟

- يعرفها جيدا وأكثر من أي واحد فينا.

- ولماذا لم يصارح فيصل؟

- لا أدري ولكنه رجل حرب ولا يريد أن يبدو مهزوما أمام الآخرين وسيذهب نحو هذا المنطق حتى النهاية إذا أمره فيصل بالمقاومة. يوسف بك رجل منضبط إلى أقصى الحدود. يستحسن أن تصارحه، فهو يكن لك احتراما كبيرا.

- هذا ما كنت أفكر فيه. بصراحة، بدأ رأيي والحال هذه يميل نحو القبول بشروط غورو أو على الأقل التحايل عليها وربح الوقت. هذا الطريق الذي نسلكه سيقودنا إلى الهلاك لا محالة.

- ماذا تريد؟ نحن مجرد عساكر، La chair à cannon, ni plus, ni moins لحم المدافع في نهاية المطاف.

- لا أومن كثيرا بهذه الأقدار المصنوعة من طرف غيرنا وسنحاربها حتى النهاية وأعرف أن القبول سيجر علينا غضب الشارع ولكن الشارع ليس محقا في كل الحالات. البلاد بكاملها مهددة بالزوال والانقراض، وهذا القدر بالذات أرفضه وأقاومه بكل الوسائل الممكنة. سأسأل مصطفى نعمة، خبرته ليست عادية في المجال العسكري. فقد شغل منصب الحاكم العسكري بالوكالة ويتوفر على حقائق ربما غابت عنا.

خرج وفي قلبه انكسارات لم يكن قادرا على مقاومتها. لم تكن المواجهة مع مصطفى نعمة أفضل من سابقاتها. قال وهو صافي الذهن ولم يبحث عن كلماته:

- أنت سيد العارفين. نحن نحارب عندما نؤمر بفعل ذلك دون أن نفكر إذا كنا سنكسب المعركة أم سنخسرها.

- ولكني أود أن أعرف هل لدينا ما يكفي من العتاد لخوض حرب مواجهة مع قوة غاشمة مدججة؟

ببساطة أجاب وكأن مسائل الحروب أقدار يمكن أن تحل بقرارات:

- تريد الصراحة؟ الحق ليس لدينا مقدار كاف من العتاد ولكن الله

سبحانه وتعالى قد يسهل علينا الأمر ويقدر لنا الاستيلاء على عتاد العدو في أول صدام يقع بيننا وبينه وعندئذ نحاربه بالعتاد الذي نأخذه منه كما حدث في حروب طرابلس الغرب.

قال ساطع بدهشة واستغراب.

- الحروب التي ستجري في جبال سوريا وسهولها لا يمكن أن تقاس بالحروب التي جرت في سواحل طرابلس الغرب وصحاريها.

- هذا هو القماش يا سيدي وفصَله كما تشاء فلن يزيد شبرا واحدا عن مقاسه الأصلي.

رأى ساطع الحصري أن يصارح يوسف العظمة بالتريث والموضوعية وأن يخرجه من رومانسيته. عندما سأله، لم يكتم حقيقة الأمر. أجابه بلغة تركية أنيقة يتقنها بشكل جيد:

- هو الوضع كما وصفته وكما وُصِف لك.

- ولكن ليس هذا ما فهمته منك عندما سألتك عن إمكاناتنا لخوض حرب قد لا تكون سهلة.

- كنت أكذب يا عزيزي لمخادعة الفرنسيين.

- لكن الأمور تجاوزت حد الكذب. لقد أصبحنا أمام تهديد حقيقي. هل يسمح لنا سلاحنا الموجود برد العدوان ودفعه؟

- لا. للأسف. لو كان فيصل يسير معنا على طول الخط منذ البداية لكان الوضع على غير ما نحن عليه. لكنه لا يريد أن يغضب الإنجليز.

- وماذا سنفعل إذا بدأ الفرنسيون هجومهم علينا؟

- عينك ميزانك. نحاول تأخيرهم قدر المستطاع. المنطقة الشرقية التي نسيطر عليها محرومة من السواحل ومحاطة من جميع جهاتها بأراض يحتلها الإنجليز أو الفرنسيون. مما يجعل تموينها بالذخائر الحربية أمرا عسيرا إن لم يكن مستحيلا. لا سيما عتاد المدفعية الذي يقتضي وجود موافقة مسبقة من الإنجليز والفرنسيين. وطبعا سيرفض

الفرنسيون ويحذو حذوهم الإنجليز لأنهم حلفاؤهم الطبيعيون. ويعرفون كل ما يملكه الجيش العربي من إمكانات عسكرية، لقد اعتادوا التقتير عليه حتى في أيام الحرب. المفاجأة ستكون قاتلة لنا والجيش لا يملك ما يكفي للصمود أمام هجمات جيش نظامي أكثر من بضع ساعات.

- كارثة.

تمتم ساطع الحصري وهو يحاول أن يخبئ مرارته.

- إذا قبلنا، سينقلب علينا الشارع الذي لا يعرف تفاصيل الأوضاع، وإذا لم نقبل بشروط الإنذار، ستنتهي الحرب بانكسار الجيش انكسارا سريعا. سنخسر كل شيء من دون أن نكسب شرف الاستماتة في سبيل الدفاع وقد لا تقوم للدولة الفتية قائمة أبدا. كأن قبول الشروط صار مسألة تحتاج فقط إلى من يخرجها بأقل الضرر.

- إذا توجب أن نقاوم سنفعل ولكن لنتح للساسة فرصة الحفاظ على البلد.

- أتمنى ألا نصل إلى هذه الوضعية.

تمتم ساطع الحصري وهو يقوم من مكانه.

عند الباب أضاف بلغة صافية وواضحة هذه المرة وكأنه كان يتوقع المشهد بكامله:

- الأمير يريد بعثي للتباحث مع غورو ولكنني طلبت منه التريث حتى نختبر قواتنا. أعتقد أنه كان على حق عندما قال بدون رومانسية كبيرة: يا ساطع حبيبي، الخطاب مبين من عنوانه. يبدو أننا سنضطر لأداء واجب أليم جدا. طبعا يمكنني أن أتوقع من الآن ما سيحدث بين أعضاء الحكومة. سيفلسف فارس الخوري ويربط ذلك بالواجب الوطني وبردة فعل شعب لا يفهم كثيرا. وسيرد عليه عبد الرحمن شهبندر بأن الشعب سيقدر ذلك إن عاجلا أو آجلا. وسيفهم بأن قيادته الحكيمة خلصته من ورطة حقيقية. وستنادي المظاهرات بسقوط الوزارة وسيفعلون كما فعلوا دائما وسيهجمون على القلعة بغية اقتحامها والاستيلاء على أسلحتها. وسيهجمون على قصر الملك ويطالبون

بسقوط الوزارة وسيتهم فيصل نفسه بالخيانة. سيأمر رجال الحرس بالخروج لمنع المظاهرة وسنحاول أن نمنع المظاهرة التي قد تقودنا نحو مجزرة تعقد الوضع أكثر مما تحله.

- تتحدث عن شيء كأنك تعرفه في كل تفاصيله.

- لا يحتاج الأمر إلى كبير تفكير، بلادنا نعرفها جيدا. يبدو أن الأمور لا يمكنها إلا أن تسير بهذا الاتجاه.

ثم ودعه وغادر المكان والانكسار باد على وجهه.

- رحمة ربنا واسعة...

سمع جملته الأخيرة وهو يعبر ممرات الحديقة.

- أية رحمة وأي اتساع مع آلة حربية تتهيأ للانقضاض على البلاد؟

ولكنه سرعان ما ابتلع جملته وهو يغيب في جنح الظلام الذي شعر وكأنه نزل فجأة على المدينة.

-٢-

في غرفة الملك فيصل التي بدا سقفها محنياً على غير العادة.

- لا أدري ماذا يريد منا. سلمناه موافقتنا، ولكنه لم يتوقف عن الزحف وقد احتلت جيوشه المدججة مدنا كثيرة، فتقدمت من شتورة وزحلة نحو مجدل عنجر ثم دخلت وادي الحرير دون أن تصادف أية مقاومة بسبب قرار تسريح الجيوش السورية وسحبها من منطقة مجدل عنجر. ماذا بقي لنا أن نعطيه؟

قال الملك فيصل بانفعال بدا واضحا على ملامحه التي كانت مشدودة بقوة وعلى صفرة وجهه. كان كأنه خرج من قبر طري التربة. زادت لحيته غير الكثة ظهورا مبرزة عظام وجهه.

- لكن يا صاحب السمو يقول إنه لم يصله شيء.

قال ساطع الحصري بنوع من الانكسار.

- لهذا جئت بك. أنت تعرف أن غورو دبابة وعندما يريد أن يفعل

شيئا يجد كل الحجج. لا تهم آراؤنا فيه الآن. ستذهب بنفسك وتسلمه نسخ البرقيات التي بعثنا بها إليه في الوقت الذي طلبه.

ثم وضع بين يدي ساطع الحصري برقيتين. الأولى موجهة إلى الجنرال غورو بتاريخ ١٨-١٩ جويليه ١٩٢٠ يخبره فيها قبوله الشروط. والثانية جواب الجنرال على هذه البرقية يشكر فيها فيصل على قبوله الشروط ويطلب إليه إرسال برقية القبول النهائية مع ذكر الشروط بالتفصيل.

- وجود هاتين البرقيتين مهم جدا لأنهما، إذا كانت النوايا طيبة، وهي ليست كذلك، تكفيان لإبطال حجة غورو.

ثم خرج ساطع من غرفته مهيأ لأداء المهمة باتجاه غرفة الوزراء. اقترحوا عليه أن يصطحب معه عسكريا يساعده في مهمته الصعبة. وكان عبد الرحمن الشهبندر يتحادث مع جميل الإلشي. اقترب من المبعوث:

- أخي ساطع، أنا أقترح عليك أن يرافقك جميل، فهو خبير متمرس في المسائل العسكرية ويمكن أن يساعدك في مهمتك. فقد كان من مرافقي جلالة الملك وكان معتمدا قبل ذلك في بيروت.

- على كل حال لا أعتقد أن المسائل العسكرية ستكون محل بحث مع غورو. وعلى كل حال، الرفقة مهمة دائما. سأكون بين طولا والإلشي. جيد...

وغادر دمشق بعد العصر في سيارة مفتوحة وبجانبه الكولونيل طولا وجميل الألشي.

سارت السيارة ببطء بسبب ازدحام الطريق بالسيارات وبقوافل البغال والجمال وبقطعات الجنود. وكانت تضطر للتوقف لإخلاء الطريق من حركة الناس. أجبرت السيارة على التوقف في الديماس بسبب كثرة الجنود الذين صادفوهم هناك. لم يمنع جميل الألشي نفسه كالعادة من الثرثرة معهم أمام طولا عن قضايا عسكرية حساسة تتعلق بالمواقع العسكرية. نبهه ساطع باللغة التركية:

- حبيبي لازم تحذر. الرجل يعرف العربية وقد يستفيد من أسئلتك

للجنود ويطلع بواسطتها على أحوالنا العسكرية الخاصة. احذر من هذا النوع من الأسئلة. نحن في مهمة خطيرة تلزمنا الصمت والتبصر في كل شيء.

- لن يعرفوا شيئا. فهم يملكون المعلومات وليسوا في حاجة إليَّ. على كل لم أتحدث إلا في العموميات.

- ومع ذلك لا نعطيهم الفرصة على الأقل.

التفت جميل الإلشي نحو طولا وبدأ ينتقد القوات الفرنسية نقدا لاذعا. فرد عليه هذا الأخير:

- لا تكلف نفسك كل هذا العناء، المشكلة ستحل بسهولة وسيتوقف الجيش الفرنسي عن الزحف بمجرد الاتفاق. وسيدخل بعض ضباطنا إلى دمشق كترضية معنوية وتطوى القضية نهائيا.

- أنتم تعتدون على ملك وعلى دولة قائمة بذاتها وهي ثمرة لنضالنا ولمؤتمر الصلح. جيشنا الباسل لن يقف مكتوف الأيدي أمام هذا العدوان غير المبرر.

- نحن في مهمة وأعتقد أنكم تملكون الدلائل القاطعة التي تبين حسن نية الأمير.

- الملك.

- انتظروا قليلا اعتراف الدول الأخرى بدولتكم وقد تكون مسألة أيام أو شهور لا أكثر.

فجأة تدخل ساطع الحصري ليوقف جميل الإلشي بشكل غير مباشر:

- على كل لسنا مخولين في الحديث عن تفاصيل هي ليست من شأننا ولا من اختصاصنا.

عندما وصلت السيارة إلى حواف خان ميسلون والسفوح المطلة على وادي الزرزور، شوهدت جماعة من الجند كبيرة وعلم أن يوسف العظمة كان قد اختار الموقع المذكور لتحشيد الجنود وتكوين الجبهة وكان قد شرع في تحصين المنطقة بحفر الخنادق في مختلف

الاتجاهات. بالمقابل كما قص الجند، كانت القوات الفرنسية قد وصلت قبيل المغرب إلى مدخل وادي القرن بأسلحة ثقيلة ودبابات. واضطرت إلى التراجع بسبب كثافة نيران الجبهة.

بلباقة انفصل ساطع الحصري عن مرافقيه بعد أن سحبه يوسف العظمة متأبطا ذراعه وهمس بالكاد في أذنه:

- أكرر ما رجوته منك في دمشق، اكسب لنا أكثر ما يمكن من الوقت. يبدو أنه لا خيار لنا في خوض هذه المعركة. قواتنا أجبرت الفرنسيين على التراجع وأبلت البلاء الحسن ولكن ذلك كله لا يكفي. نحتاج إلى بعض الوقت لإعادة ترتيب قواتنا الخاصة.

- ولكن إلى متى تظل تقاوم؟

- وهذا بالضبط ما أريده منك، أن تمدد الوقت إلى أقصى حد ممكن يمكِّننا من ترتيب قواتنا. لو فقط استمع إلي الملك لكنَا غيرنا أشياء كثيرة في هذه المعركة المفروضة علينا.

ثم اندفعت السيارة في عمق ملتويات وادي القرن حتى بلغت الصحراء الجديدة حيث تخيم قيادة الحملة الفرنسية التي يرأسها الجنرال غوابه قائد الحملة والكولونيل بتلا رئيس أركان جيش الجنرال غورو.

بلغت السيارة عاليه صباحا لتدخل حديقة كبيرة مطلة على البحر. دخل طولا قبل أن يعود بسرعة:

- الجنرال غورو ينتظركما.

فتوغل الجميع في عمق البناية المطلة على البحر.

-٣-

مد الجنرال غورو يده اليسرى إلى مبعوث الملك فيصل بالجلوس. فجأة وجد ساطع الحصري نفسه وجها لوجه مع غورو. لاحظ بأن كم يده اليمنى كان يتدلى فارغا من كتفه. تذكر ساطع أن غورو فقد ذراعه في حروب الدردنيل.

كان الجنرال جالسا في وضع عسكري، مستقيم الجذع مرفوع الرأس. غرق قليلا في نسخ البرقيات المبعوثة له من طرف الملك إضافة إلى رسائل الإيفاد.

قال بلهجة هادئة وجافة:

- انتظرت جوابكم حتى منتصف الليل بعد تمديد الإنذار بيومين وبما لم يأتني أي جواب، أصدرت أوامري إلى الجيش بالزحف على المناطق الشرقية. أما البرقية التي جئتني بنسخة منها والتي تنبئ بقبول الشروط، فقد وصلتني بعد نصف ساعة من إصدار الأوامر.

- ألم يكن من الممكن إعطاء أمر بالتوقف؟

- لابد أنك تعرف أن في المسائل العسكرية أي تردد هو خطر جدا على فرقنا. أليس كذلك يا سيد الإلشي؟

- نعم سيدي. التردد هو الذي يدمر كل فرصة للانتصار.

شعر ساطع الحصري بنوع من الإحراج وهو يستمع إلى الإلشي يؤكد وجهة نظر غورو.

- ولكن لابد أنكم اطلعتم، يا سيدي، في الوقت نفسه على أن البرقية المذكورة كانت سلمت إلى ممثلكم بدمشق قبل منتصف الليل بست ساعات؟

أجاب غورو على الفور وبدون تفكير:

- نعم اطلعت عليها، غير أن البرقية تأخرت مع الأسف في الطريق أكثر من عشر ساعات. علمت بعدئذ أن سبب التأخر راجع إلى انقطاع الأسلاك التيليغرافية بين الزبداني وسرغايا بسبب عمل تخريبي من طرف عصاباتكم.

- لا علم لنا بذلك.

- إنها سياسة حكومتكم، هي التي أفسحت مجالا كبيرا لتشكيل العصابات. وعليه فالمسؤولية تقع على عاتق حكومتكم. وحدها تتحمل المسؤولية كاملة.

- لابد أن ممثلكم قد أخبركم أن الحكومة لم تكتف بقبول الشروط

بل أقدمت على تنفيذها. أصدرت الأوامر لتسريح الجيش وسحبت القطعات من مواقعها. وتقبلت بشجاعة غضب الجماهير واضطرت إلى استعمال السلاح لتهدئة الوضع وكان هناك ضحايا من أبنائنا. قواتكم عندما تقدمت في مجدل عنجر أو في وادي الحرير المنيع، لم تقابل أية قوة عسكرية بالرغم من أهمية المكان الإستراتيجية. وهذا دليل على التزامنا بما اتخذناه من قرارات استجابة لإنذاركم.

لم يبحث غورو عن كلماته

- أعرف حسن النية ولكننا نتعامل بالوثائق والبرقية تأخرت كثيرا ولم تصلني في حينها.

لمعت عينا ساطع الحصري الذابلتان ببريق أزال عن وجهه التعب وخيبة المحاورة.

- ولكن أيها الجنرال تذكرون ولا شك بأن الملك فيصل كان قد راسلكم شخصيا قبل ذلك وأخبركم قبوله بمجموع الشروط. ألم يكن من الحكمة اعتبار ذلك التزاما مبدئيا؟ تسلمتم هذه البرقية المؤرخة بـ ١٩/١٨ جويليه بدليل جوابكم عليها الذي تظهرون فيه ارتياحكم وتشكرون الملك فيصل على قبوله الشروط.

- صحيح ولكنني طلبت في الجواب نفسه تأكيدا والتزاما رسميين. وكان جوابي يلح كذلك على ضرورة تنفيذ الشروط وهو ما لم يتم بشكل فعلي.

- الطلب المذكور في الإنذار كان يتضمن الشروع في التنفيذ الذي يمتد حتى آخر هذا الشهر.

- المسألة ليست لغوية يا سيدي. طلبت من الأمير جوابا يؤكد الالتزام بتطبيق بنود الإنذار واحدا واحدا.

- التفاصيل التي طلبتموها كانت تتعلق بالشكليات على كل حال. وأنا أعتقد أن تأخر برقية تضم التفاصيل الشكلية أمام برقية الملك الصريحة، لا أهمية لها ولا تبرر تقدم الجيوش الفرنسية باتجاه المناطق الشرقية.

حك الجنرال جبهته وكأنه يبحث عن كلماته الضائعة.

- ليكن. البرقية تأخرت وما كان يسعني أن أنتظر أكثر من ذلك. فقد نفد صبري وصبر ضباطي. تصرفت بمسؤولية وتبصر كما يتصرف أي عسكري على ظهره مسؤولية كبيرة جدا.

- طيب أما كان بالإمكان توقيف الزحف؟

قال ساطع كمن يريد أن يغير مجرى الحديث.

ابتسم قليلا.

- أنت لست عسكريا ولذلك لن تستطيع أن تقدر هذه المسائل حق قدرها. إسال الأستاذ جميل الإلشي فهو يعرف جيدا ما معنى هذا الكلام؟ إذا بدأ جيش بالزحف، لا يستطيع أن يقف في أي حاجز كان قبل أن يصل إلى مكان يأمن فيه من جميع الطوارئ والاحتمالات ويجد فيه ما يضمن حياته من حيوانات وماء. مبادئ الجيش الأساسية. ولهذا من المستحيل إصدار أوامر التوقيف في ظرف مثل هذا.

شعر ساطع بأن الحل الذي كان يبحث عنه، قاد الجنرال باتجاهه:

- سيدي الجنرال. لنضع كل الماضي جانبا. إن جيشكم يرابط الآن في مكان مؤمن ومريح حياتيا، لم يعد أي عائق أمامكم الآن لأمره بالعودة إلى قواعده وانتظار إتمام تنفيذ بنود الإنذار.

رد غورو بصرامة التمعت في عينيه بحدة وقسوة:

- لا. Ah ça non! Non, non، لم نعد نثق فيكم وفي وعودكم. من الواجب أن نطلب منكم ضمانات جديدة تؤكد لنا حسن نيتكم والتزامكم بما تقولونه.

مد غورو يده اليسرى نحو درج مكتبه وأخرج ورقة كان قد هيأها سلفا.

- هذه هي الضمانات التي نطلبها الآن.

ثم أخذ يقرؤها بهدوء على مسمع ساطع الحصري.

- وعلى الحكومة أن تنشر هذا البيان المربوط بظروف الزحف على

دمشق. وهاهي الشروط باختصار ويمكنك أن تطلع عليها فيما بعد كاملة:

١- تظل الحملة العسكرية في المنطقة التي وصلت إليها.

٢- حق الحملة في التصرف التام بسكة حديد رياق-التكية.

٣- تعويض المفارز الشريفية الموجودة المرابطة غرب نهر التكية وشماله بما في ذلك البقاع برجال الدرك تحت أوامر السلطات العسكرية الفرنسية.

٤- توقيف المساعدات التي تقدمها الحكومة للعصابات المناهضة للحملة خصوصا عصابة الشيخ صالح.

٥- نزع السلاح من الجنود المسرحين والأهلين.

٦- الموافقة على لجنة في دمشق تشرف على تنفيذ الشروط وتطبيق بنود الانتداب الفرنسي في المنطقة الشرقية ومشاركتها في تسيير أمور الدوائر الوزارية والمصالح العامة. وتكون تحت رئاسة الكولونيل كوس في المجال العسكري والاقتصادي والمعارف.

رد ساطع بعفوية وهو يشعر أن الموضوع في العمق يتجاوز مسألة الإنذار:

- هذه حرب معلنة على سيادة دولة مستقلة. أنت تفرض علينا دولة موازية يا سيدي. أنا مندهش من الطلبات الجديدة التي لم تدخل في الحسبان.

- دخلت في الحسبان بدءا من الآن. من واجبنا أن نحصل على الضمانات التي تؤكد لنا حسن النية.

- كما قلتم المسالة ليست لغوية. ما تطلبونه، شروط جديدة لا أكثر ولا أقل. عليَّ أن أعود إلى دمشق لأعرض هذه الشروط على صاحب الجلالة ونرى ماذا يمكننا أن نفعل استجابة لطلباتكم.

- لا. قال الجنرال بحدة. لا أرى أية ضرورة لتأجيل حل القضية.

الأمير أوفدك بسلطة كاملة. رسالة الإيفاد تقول: لقد أوفدنا وزير معارفنا السيد ساطع الحصري إلى طرفكم مع تفويض تام. فأنت تحمل سلطة القرار. لك أن تقبل أو ترفض، الآن وفي هذا المكان.

- يا سيدي أنا متأكد أنه لم يخطر على بال الملك ولا على وزرائه هذه الشروط الجديدة. فأنا لا أجد نفسي مزودا بسلطة اتخاذ القرار المصيري في مسالة كنت أنا أول من يتفاجأ بها.

- أكرر عليكم بأني لم أطلب شروطا جديدة ولكني طلبت ضمانات. يمكنك أن تتخذ قراراتك الآن ونحل الإشكال نهائيا.

- الأمر يتجاوز صلاحياتي التي أعرفها جيدا. لا يمكن لعسكري بقيمتكم يا سيدي وقائد يمثل فرنسا ويحمل شرفها، أن يدفعني للقيام بما لا يريده هو لضباطه ومبعوثيه.

لان الجنرال في الأخير.

- شرط أن تسرع وألا نكرر الأخطاء السابقة.

- وهو كذلك يا سيدي الجنرال.

ودعه ساطع الحصري ثم خرج بسرعة إلى الحديقة حيث كان يجلس الكولونيل طولا وجميل الإلشي.

- فلنهيىء السيارة لنذهب الآن وبلا تأخير يا طولا. الوضع لا يحتمل أي تردد، والوقت يحاصرنا.

نظر طولا إلى عيني ساطع الحصري الهاربتين، شعر بالقلق الذي كان يملأهما.

- طيب، لكيلا نضيع وقتا كثيرا، دعني أرى إذا ما كان غورو يحتاج إلى شيء الآن حتى لا نضطر إلى الرجوع في منتصف الطريق. دقيقة...

دخل طولا على غورو ليعود ثانية حيث كان ينتظر جميل وساطع:

- كله تمام... سنتأخر بعض اللحظات. يريد الجنرال غورو أن يتحدث قليلا إلى السيد جميل الإلشي على انفراد. يقول إنه بحاجة ماسة إليه، ربما ليستفسر عن شيء ما.

لم يشعر جمال الإلشي بأي قلق وكأنه كان ينتظر هذه الدعوة من

غورو، بينما أحس ساطع الحصري بنوع من الامتعاض تبدت علاماته على وجهه.

- يا سيد ساطع، دقيقة ونعود لك.

قال طولا وهو يحاول أن يخفف من تساؤل ساطع الحصري.

بسرعة اندفن جميل الإلشي في مكتب غورو. لم يلبث وقتا كثيرا، إذ سرعان ما خرج بصحبة طولا الذي أخذ ساطع الحصري من يده وهو يردد مصطنعا ابتسامة لم يستقبلها هذا الأخير بارتياح كعادته:

- لا تغضب سنذهب بسرعة. مازلنا سادة الوقت. الجنرال يريد أن يحملك رسالة للأمير فيصل.

- الوقت يمر بسرعة كبيرة وأشعر كأننا لن نصل إلى دمشق في الوقت المطلوب. أتمنى ألا نستهلك كل الزمن في عاليه وبعدها يُنزل علينا بسيف ديموقليس وأننا تأخرنا.

- لا تهتم، أجاب طولا بنوع من الارتياح. في أسوأ الأحوال، يمكننا أن نسافر بالقطار الذي يتحرك من رياق عند الساعة الثانية عشرة ويصل إلى دمشق قبيل المساء.

في الطريق إلى دمشق، تذكر ساطع الحصري أنه عندما واجه الجنرال غورو للمرة الأخيرة، كانت علامات الانتصار بادية على وجهه بشكل واضح ولم يكن منشغلا أبدا بتنفيذ الإنذار.

- أرجو أن توصل هذه الرسالة إلى سمو الأمير. إني أناشد فيها وطنيته وحكمته العالية.

ثم بدا له وجه الإلشي مكشرا فجأة. لم يفهم ساطع الحصري لماذا استدعاه غورو على انفراد مع أنه لم يكن إلا مرافقا عسكريا لا أكثر، لم تدع الضرورة إلى استشارته أبدا. حاول ألا يتذكره، لكنه كلما التفت نحوه وهما في السيارة، شعر بوجهه يستفزه بصفرته ونحافته وأسراره:

«- أنا لا أفهم لماذا فعل ذلك؟. . . لا أفهم. . .»

تمتم وهو يلتفت صوب البحر، شم رائحة الملوحة والفراغ المثقلين بالرطوبة.

-٤-

كلما دخل أحمد قدري على مجلس ما، فرض إحساسا خاصا بالأمان.

هذه المرة، وعلى غير عادته، لم يلتفت وراءه عندما انزلق بسرعة الريح نحو السراي.

كان الملك فيصل متكئا على كرسيه وحيدا كأنه كان يعوم في فضاء يتجاوز قدرته على التحمل أو كأن به مغصا عميقا بعدما استمع إلى كل التقارير بما فيها تقرير ساطع الحصري وجميل الإلشي الذي كان قد بات عند الملك، في السراي، منذ العودة من مهمة عاليه مع غورو.

على يمينه، في مكان أبعد قليلا، كان يجلس الدكتور عبد الرحمن شهبندر وبقية أعضاء الحكومة المبعثرين كل واحد في زاوية وسط حالة مطبقة من الصمت والحيرة.

عندما دخل أحمد قدري ورأى وجه فيصل في ذلك الصباح، تأكد من أن الوضع زاد خطورة منذ عودة الوفد من معسكر غورو في عاليه، وأن ما كان يبدو حلولا ممكنة على الرغم من قسوتها، تدهور ووصل إلى درجة الإهانة. طلب منه ما لا يستطيع فعله، كلمته التي ظل يكررها باستمرار كلما فكر في إيجاد حل للمعضلة التي صارت تواجهه.

وجه الملك فيصل كان منكسر الملامح وتعمقت سمرته حتى صارت زرقاء داكنة.

- عمت صباحا يا صاحب الجلالة.

- وأنت من أهله يا أحمد. لم يبق أمامنا إلا يوم واحد بالكثير.

رد الملك فيصل بكثير من القلق، قبل أن يواصل.

- يجب أن نرد يا سيدي على غورو وبسرعة. علينا ألا نمنحه فرصة أخرى لتدمير كل ما شيدناه.

- إنني لأخشى أن تسير أمور الدولة من الآن فصاعدا في الوعر. وأن تتكوم العقبات أمامنا. يبدو أن في رأسه قرارا سيقوم بتنفيذه قبلنا أو

لم نقبل. كلما قبلنا بشيء، أثقلنا بشيء آخر أكثر صعوبة.

- وماذا حدث؟

تساءل الدكتور أحمد قدري:

- إن الفرنسيين عقدوا اليوم كل شيء ويريدون تسيير البلاد بأيديهم.

- من الأحسن أن يرتاح سيدي من المتاعب. أنت لم تنم طوال الأيام الماضية.

- أية متاعب أمام ما ينتظرنا؟ المفرزة الفرنسية احتلت محطة السكة الحديدية رياق الكبرى في البقاع وتقدمت مفرزة في شمال سورية وعسكرت على نهر الساجور وقد قدمنا احتجاجا كبيرا وابلغنا ممثلي الدول الأجنبية ولكن لا أحد رد على طلبنا. أرأيت كيف تطورت الأوضاع بسرعة عجيبة مع غورو؟ فبعد أن منعنا من السفر إلى أوروبا للاتصال بمؤتمر الصلح للظفر بمعونة محبي السلام، وكذب على نوري السعيد عندما قال له إن سبب الرفض يكمن في خشيته من ألا تستقبلني فرنسا إذا سافرت من غير ميناء بيروت. ثم عليَّ أولا أن أعترف بالانتداب قبل أية خطوة أخرى. فرض بعدها علينا شروطا تعجيزية جديدة جاء بها ساطع الحصري بعد شروطه الأولى التي قبلنا بتنفيذها على الرغم من قسوتها، لا يتخيلها عاقل؟ تأكد لنا أنْ لا شيء في رأسه إلا احتلال البلاد وأن خطط سايكس-بيكو بُدئ في تطبيقها.

- ما تزال المبادرة بين أيدينا ونستطيع أن نجند كل قوانا ونبدو بمظهر الدولة القوية.

- أي مظهر يا أحمد؟ يجب أن نتخذ قرارا لهذا الإنذار البشع بملحقاته الجديدة، الذي يؤرقني منذ ١٤ جويليه، تاريخ وصوله. الإنذار واضح ومهين إلى أقصى الدرجات. إنه لا يعترف بمؤتمرنا وكل ما ترتب عليه. وينعت القوات الشريفية بالقوات الأجنبية والمؤتمر السوري بأنه مجلس يحكم باسم حكومة ودولة غير معترف بهما. والآن يدخل على

الحكومة جواسيسه وهو يعرف أنه من الصعب علينا قبول هذه النقطة. أريد أن أعرف رأي كل واحد منكم. كيف نواجه هذ الطغيان؟ ولم يبق أمامنا إلا يوم واحد وعلينا أن نتخذ القرار السليم. الوفد الذي بعثت به إلى حيفا للتشاور مع أللنبي يصر على ضرورة الدخول في اتفاق مع فرنسا وضرورة القبول بالشروط حفاظا على الدولة الفتية.

- بالحسم.

- أفصح.

- ألا نرضخ، كلها تخويف لو كانوا قادرين لفعلوا ذلك بدون استشارتنا. حاولوا وردعناهم.

- نحارب يا سيدي، قال يوسف العظمة، لا يوجد أمامنا قرار آخر غير ذلك. وقد نشرت ما تبقى من قواتنا التي استطعت إرجاعها إلى مواقعها.

ولكنه سرعان ما انكسر عندما تدخل ياسين الهاشمي قائد منطقة دمشق:

- لا أستطيع النهوض بأعباء الدفاع عن هذه المنطقة. الجيش ضعيف وغير مدرب.

- جيشنا ضعيف، صحيح، قال يوسف العظمة، ولكن ما هي الخيارات التي تركها لنا غورو؟ الشعور القومي يأبى على المرء أن يسلم بلاده للغزاة. الشعب ألح على ذلك ويعلن التفافه حول جيشه. والقتال إذا طال، وإذا استطعنا أن ننال من الأعداء بقواتنا النظامية والشعبية فهذا سيفتح المجال لمفاوضات طويلة ويعزز موقفنا ومطالبنا المشروعة.

- وما هي الذخيرة التي تقاوم بها؟ تساءل الملك. لا أرى أية وسيلة لرفع التحدي الصعب.

- الإرادة هي أكبر سلاح. السلاح المادي هو ٢٥ ألف بندقية في دمشق وحلب ودرعا ولكل منها ٢٥٠ خرطوشة. ولدينا ٥٠ مدفعا عيار ٧,٥ و ٤ مدافع عيار ١٠,٥ ولكل مدفع خمسون قذيفة. ولدينا الكثير من

المدربين في الجيش التركي الذين التحقوا بالصفوف الوطنية. حوالي العشرة آلاف جندي، لقد حل الجيش بعد اتفاق الهدنة، ولم أكن متفقا مع أخي ياسين الهاشمي عندما فعل ذلك.

- أنا لست مع الرد العسكري، نحن في حالة ضعف وسنخسر المعركة إذا دخلناها الآن، قال ياسين الهاشمي.

- وأنا مع هذا الرأي قال ساطع الحصري. هذا رأي حكيم وسديد. وقد رأيت بأم عيني تحضيراتهم ورأيت تحصيناتنا ولكن إمكاناتنا لا تصمد أمام جبروت آلتهم. المشكلة مؤلمة ولكننا سنبحث باتجاه القبول وبأقل الخسائر.

- وأنا كذلك، قال الوزير يوسف الحكيم. إن أركان الجيش وهم مصطفى نعمة، وأحمد اللحام، وشريف الحجار ومصطفى وصفي وعارف التوأم وحسن الصبان أبلغوا مجلس الوزراء أن العتاد الحربي لدى الجيش لا يزيد عن مائتين وسبعين رصاصة لكل بندقية حرب، وثمانين قذيفة لكل مدفع من المدافع السبعين.

وتم على مضض وبألم كبير، القبول في ذلك اليوم بقرار غورو حفاظا على الأرواح ومنعا لسفك الدماء. وأُعطي الأمر بتطبيق البنود وتسريح العسكر. والانسحاب من جميع القلاع والحصون.

بناء على بعض الأخبار التي تسربت من السراي، أشاعت بعض الجرائد المنتقدة للحكومة خبرا مفاده أن الحكومة باعت البلاد وتستعد للهرب باتجاه الكسوة بالقطار، وأنها وعدت بإصدار بيان خاص بالوضع، لم ير النور أبدا. بينما سيلتحق الملك فيصل بها على متن سيارته لأن أعصابه كانت متوترة جدا ولا يطيق السفر في القطار. فقد بعث بنوري السعيد للاتفاق سريا مع الفرنسيين والبحث معهم عن إمكانات جديدة لحل مشكلات الحكم والحكومة.

كثرت الشائعات وأصبحت تسري كالنار في الهشيم. فقد زعم الكثيرون من شهود عيان، أو هكذا يدّعون، أن الفرنسيين يزحفون بسرعة، وقد بلغوا الغوطة. ويتقدمون الآن نحو القدم، وأن أهل الميدان

أخذوا يتجمعون استعدادا لإحراق المحطة وتحويلها إلى كومة رماد احتجاجا على خيانات الحكومة.

كانت الأعصاب في قمة هيجانها. خرج عدة جنود من ثكنة البرامكة شاهرين سلاحهم بدعوى أن الحكومة خانت. مروا بشارع النصر على حراس الموقع الذين التحقوا بهم وتجمهروا. فتم هجوم الجنود على القلعة واستولوا على الأسلحة. ويقال إن رد الفعل كان قويا ولا أحد أكد أو نفى الثلاثين قتيلا وقرابة المائة جريح ما عدا بعض الجرائد التي تصب دائما الزيت على النار لكي تبيع أكثر. بينما استمرت وبشكل ظاهر، حملات تنظيم التطوع للذهاب إلى ميسلون لمن أراد أن يدافع عن أرضه وعرضه ووطنه.

الشيء الوحيد الذي لم يختلف عليه الناس هو أن ظلاما داكنا نزل بقوة على دمشق الشام.

-٥-

التفت الملك فيصل تجاه زعيم اللجنة الوطنية كامل القصاب الذي استدعاه بالمناسبة.

- هل تعرف لماذا جئت بك إلى هنا؟

- لابد أن يكون سيدي قد احتاج إليَ لمسألة كبيرة وأنا تحت تصرفه.

- عشت. إني أمنحك فرصة الشهادة والتعبير عن تدفقك الوطني. لقد كانت سعادتكم كبيرة يوم مدحتم الحكومة الوطنية التي رفضت أن تمنح جيش غورو حق استعمال السكة الحديدية لإرسال القوات والمؤن والذخائر إلى كيليكيا حيث كانت الجيوش الفرنسية مشتبكة مع القوات التركية الكمالية. ولكن رفضنا دفع بهم إلى الدخول في اتفاق مع مصطفى كمال على الجلاء عنها واسترداد قواتهم منها ودفعوا بها كما تعلم نحو دمشق انتقاما وتأديبا.

- أنت تعرف يا سيدي أن بعضنا طالب بالتعاون مع تركيا الكمالية لمحاربة فرنسا وحملها على الاعتراف باستقلال البلاد. ولكن لم يسمع لنا. حكومة رضا الركابي كانت معترضة وكانت ترى تحالفها مع فرنسا أفضل بكثير من التحالف مع الأتراك وانه ترك مكانه لحكومة الأتاسي التي رفضها غورو.

- ما شاء الله. فشر. استمعنا لكل ما قيل. وبعثنا يوسف العظمة وسعيد حيدر إلى إعزاز على الحدود التركية وتم التحادث مع موفدين من الحكومة الكمالية فوعدوا بتوصيل كل ذلك إلى قائدهم. ولكن يبدو أن جيش غورو سبقنا إليهم باقتراح الهدنة والجلاء. ولكن هذا هو غرض حوارنا ودعوتي لكم.

اندهش كامل القصاب وبدأت عيناه تدوران في غير نظام.

- لقد تتبعت كل تدخلاتك وما تقوله. ربما كنت محقا في حق الحكومة. لقد نزلت اليوم أنا وحكومتي على الرغبة التي طالما ناديتم بها لمقابلة العدوان بالقوة وقبلت قولكم بأن القوى الوطنية مستعدة للاضطلاع بتلك المهمة فهيا أرنا همتك ونشاطك؟ وجئنا بالقوة التي تقول إنها مهيأة للزحف. نحن نحتاج كثيرا إلى وطنيتك الكبيرة والى دقة بصيرتك.

عرف قصد الملك ولكنه شعر في الوقت نفسه بأن هناك انكسارا وأن الملكية في حالة ضعف.

- مازلت عند رأيي وأستطيع أن أجند عشرة آلاف مقاتل بأسلحتهم وذخائرهم.

- هذا ما نحتاجه بالضبط في هذه الظروف العصيبة.

ثم التفت نحو يوسف العظمة.

- أرأيت يا يوسف هناك دائما من يفكها عندما تلتبس الأمور وتتعقد. أنت دائما تنظر إلى الأمور بحذر كبير ولكن وراء الشدائد والأزمات لحظات انفراج قليلا ما نعطيها قيمة ووقتا.

لم يكن يعرف يوسف العظمة إذا ما كان فيصل يسخر أم كان جادا. ولكنه لم يتعود في حياته أن يأخذ الأمور بهذه الطريقة التي لا هي جد ولا هي سخرية.

في الوقت نفسه استأذن كامل القصاب في الخروج من القصر فسمح له بذلك. التفت فيصل نحو يوسف العظمة.

- هل تثق في أنه سيمنحنا عشرة آلاف من المسلحين؟

- أشك كثيرا في ذلك. الناس متعبون ولا أعلم ما هي القوة التي يملكها لفعل ذلك. في الظروف الصعبة الكلام صعب جدا ولكن الفعل لا يقوم به إلا المستعدون للموت. لا أعرف يا سيدي سوى أن ما نملكه قد لا يسمح لنا بالذهاب بعيدا، الدمشقيون بدأوا يدخلون في حرب شبه أهلية طاحنة، نصف المغاربة خسرناه وانحاز إلى الجيش الفرنسي، ولكن سؤالي هو ما هي خياراتنا للمناورة للحفاظ على قواتنا وعلى كرامتنا؟ ما خضناه كان لاسترجاع الكرامة المهانة منذ أربعة قرون، فلا نقبل أبدا أن ندوسها نحن بأرجلنا وننكسر صاغرين. مازلت مؤمنا أننا لم نخسر الكثير من الأوراق. وأنت سيد العارفين يا سيدي.

- طيب وماذا فعلت فيما اتفقنا عليه؟

- ما استطعته. لا ألومك يا سيدي ولكن صدرك الواسع يسمح بالحديث بصراحة. لم أكن موافقا على التسريح السريع حتى في حالة موافقتنا على شروط غورو. لقد قرأ أخطاءنا وضعفنا وانكسارنا بشكل عسكري واضح. المناورة في مثل هذه الحالات تقتضي مقايضة وأخذا وعطاءً حتى ولو كنا نعرف بأننا سننصاع ولكن بخسارات أقل. ثم إنهم لا يعرفون جيدا ماذا نملك من قوة. أوقفت التسريحات بقرار عسكري داخلي. وأمرت القوى المنسحبة من مجدل عنجر بالتوقف والتزام أمكنتها الدفاعية أو العودة إليها بسرعة. وطلبت من قوات الدرك والجيش أن تسترجع وحداتها التي سرحتها.

- على كل حال لقد رفض غورو كل شيء ويمعن في الإساءة بتقديم المزيد من الشروط التي لم أعد قادرا على تحملها. يريد أكثر مما

طلبه في البداية، القبول ببعثة فرنسية تشرف على الشؤون المالية والإدارية والاقتصادية والتربوية والعسكرية في دمشق، ذذ تخيل، الحكومة بها تململ بين القبول والرفض كما تعلم ولكني أريد أن أستأنس برأيك.

- كل هذا كان متوقعا يا سيدي. قال يوسف العظمة؛ فهو يمعن في الإساءة وحتى هذه سيرفضها بمجرد حصوله عليها. يبدو أن قراره دخول دمشق صار من غير المشكوك فيه. الحكومة تميل نحو الاستسلام ولكن الأمر يبدو قاسيا. والخيارات صارت ضيقة جدا. وكلا المسلكين يقود إلى هلاك أكيد. إذا سلمنا المدينة بلا دفاع سيلحقنا العار أبدا. كل مدن العالم دافعت عن نفسها حتى في أقسى درجات اليأس وإذا اخترنا المواجهة سنقبل بالموت والهزيمة في كلتا الحالتين مؤكدة ومع ذلك مرارة الثانية أقل قسوة من الأولى. وعلى كل حال لم يبق مجال كبير للتفكير. والإنجليز يا سيدي؟

- لا أفهم موقفهم، هم الكارهون لفرنسا يدفعوننا إلى قبول شروط غورو. غريب!

- لا غرابة يا سيدي. لقد قبض الإنجليز ثمنا لبيعنا، نفط الموصل. واتفاقية سايكس-بيكو ليست كلاما فارغا بل هي مسألة حقيقية وتتجلى يوما بعد يوم أمام أعيننا بشكل واضح لا يحتمل الشك.

- أريد أن أعرف ماذا نفعل الآن؟ هذه هي المشكلة التي علينا أن نواجهها.

- يمكننا أن نذهب إلى أبعد حد ممكن تفرضه علينا أوضاع مثل هذه والتي لا تترك لنا حلولا كثيرة. نجند القوات الشعبية المتبقية وندعوها للدفاع عن أرضها وعرضها، هي كذلك مسؤولة ومستعدة. نخرجها من الحماس العام وندخلها في غمار المعركة. نحاول أن نحصل على كل الأسلحة الممكنة والرجال. يمكننا أن نطلب سند المغاربة أو ما تبقى منهم، لقد صاروا يشكلون قوة منظمة ومهيكلة بشكل جيد في دمشق. صحيح أن علاقتهم بالأتراك وفرنسا كبيرة وتقليدية، لكن الكثير منهم مناضلون، سجنوا وماتوا دفاعا عن هذه الأرض. لا الأتراك

رحموهم ولا الحكومة تعاملت معهم بطيبة خاطر. يوجد منهم من لا يزال قادرا على مساعدتنا والالتزام بخط المقاومة.

- من الصعب إدخالهم في حساب المقاومة، جزء كبير منهم اختار الطريق الفرنسي وسار فيه. مرتبطون بوثائق عدم رفع السلاح بوجه فرنسا منذ الجد الأول، الأمير عبد القادر، الذي استقر في هذه الأرض ولهذا من الصعب جدا على الأحفاد اختراق هذه الاتفاقيات. وقادتهم استقروا في بيروت منذ أن بينت فرنسا نواياها. ولا أرى جدوى من وراء إقناعهم بأن يسيروا معنا في نفس الطريق.

- هناك أحقاد علينا أن نتفهمها ونأخذها بعين الاعتبار. لورانس قتل الأمير عبد القادر الصغير يا سيدي. وهذه غلطة كبيرة لم يكن هناك داع لها أبدا. وشُرِّد الأمير سعيد الذي نفته القوات التركية، والحكومة لم تفعل أحسن من ذلك. وسجن الأمير مختار، وهل كان علينا أن ننتظر تهديد غورو لإطلاق سراحه؟ ومع ذلك هناك فيالق جاهزة للمعركة وهي فيالق سرية لا يعرف القادة التقليديون المغاربة عنها الشيء الكثير ويشتغلون بين بيروت والشام وهم مستعدون للموت دفاعا عن هذه الأرض.

فكر الأمير فيصل لحظة قبل أن يعلن عن حيرته.

- لا أدري كيف سنتعامل معهم، لقد نعتونا بأتباع الإنجليز يا يوسف وبهدلوا تاريخنا الشخصي، وأهانوا أمام الملأ لورانس حليفنا الذي لا يمكن أن ننكر دوره في تحرير هذه الأرض. أما الأمير مختار فقد أطلق العنان للسانه في شتمنا وتهديدنا ورمي حلفائنا الإنجليز بكل النعوت. لا يمكن والحال هذه أن نظل صامتين، نتلقى الضربة تلو الضربة.

- هذه كلها أمور ستجد حلها تلقائيا إذا استطعنا أن نغرس قليلا من الثقة بيننا وبينهم. ما عدا ذلك، فالله والتاريخ وحدهما سيحددان من كان على حق ومن لم يكن. يجب ألا ننسى أبدا أن عبد القادر الصغير الذي قتل من طرف الفيلق الأسترالي هو أول من رفع العلم العربي الذي

منحه له والدكم في موسم الحج وصلى عليه آلاف الحجاج. والأمير سعيد هو الذي سير المدينة وحفظها من الفوضى ودمار الحرب الأهلية، بعد هروب الأتراك وسلم مقاليد الحكم لأخيكم يا سيدي. ما زلت مؤمنا بأنهم سيستمعون إلينا إذا استطعنا إقناعهم، ونستطيع أن نربح بعضهم في هذا التجنيد. الأمير سعيد لم يمانع مبدئيا. أنا أعرف جيدا أنه لا يريد أن يتورط في الثورة ضد فرنسا ولكنه في أعماقه ضد استعمار الشام وبيروت وضد الاحتلال، خصوصا أنه يريد أن يظهر بصورة جده الأمير عبد القادر، إذ يقول العارفون إنه يقلده في الصغيرة والكبيرة، صورة المقاوم والجامع للشمل. وقد اتصل به الكثير من وجهاء بيروت والجبل لإقناعه بقبول المنصب ولكنه ما يزال مترددا بدون أن يقطع سبل التواصل.

– يحتاج أمر مثل هذا إلى تأمل كبير. أفهم جيدا ما تفكر فيه، لكن ما أعرفه عن المغاربة، أنهم يكنَون كرها شديدا لنا، حتى إن بعضهم انضم إلى الجيوش الفرنسية التي ترابط في كيليكيا وخاضت حربها ضد مصطفى كمال. وبإمكانهم أن يقلبوا علينا كل النظام مقابل ضمان مصالحهم مع الفرنسيين.

– نحن في وضع خاص جدا والوقت الممنوح لنا قصير. إما أن نتحرك بدءا من الآن للدفاع عن أرضنا وعرضنا، وإلا سنظل ندور داخل دوامة لا تفضي إلى أي شيء مهمٍّ. الوشاية كثرت هذه الأيام، ولا ندري الصحيح فيها من الغلط. هم كذلك مزقتهم هذه الثورة التي منحوا فيها شهداء كثيرين ولا أعتقد أنهم سيرضون بالمستعمر لبلدهم. وسأعرف كيف أتصرف معهم إذا سمح لي سيدي بذلك.

– الأمير سعيد لم يستطع ترك بيروت، هكذا سمعت، مع من ستتحاور؟

– المغاربة ليسوا كلهم الأمير سعيد، هناك خلافات كبيرة بينهم، جزء اختار طريق فرنسا أما الجزء الآخر وهو من الأقلية المثقفة والقومية، فمع المقاومة، وأنا أعرف جيدا الكثيرين من الذين لا ينتظرون إلا إشارة حمل السلاح من جهتنا، والدفاع عن البلاد.

- لك ما تراه يا يوسف ولو أني لست متفائلا كثيرا.
- لن نخسر شيئا إذا جربنا.
- لنجرب.

-٦-

كانت الحركة في حي العمارة قد زادت بكثافة كبيرة. بعض الخيالة الذين يتجولون في المدينة تحسبا لما كان يشاع عن الحرب التي على الأبواب، قد دخلوا وربطوا أحصنتهم في الإسطبلات قبل أن يلتحقوا ببيت الضيافة. لأول مرة تتنقل الحكومة إلى دار الأمير سعيد الذي كان غائبا في بيروت ولكنه أعطى أوامره لاستقبال يوسف العظمة استقبالا طيبا. كانت القوات الإنجليزية والعربية لا تمر عبر حي العمارة إلا للتهديد والسجن ولكن هذه المرة، الأمر يختلف. الكثير من المغاربة لم يكونوا معنيين بما كان يحدث في السراي منذ مقتل الأمير عبد القادر الصغير. فهم كارهون لحكومة لم تحرك ساكنا ولم تستنكر الجريمة، بل احتضنت مخبرا وجاسوسا لديها أو على الأقل هكذا كانوا يقولون حتى إن بعضهم طالب باغتيال فيصل نفسه وبعض أفراد الحكومة. لم يكن المغاربة متَحدين في هذا الموضوع، كانوا ممزقين إلى مجموعات كثيرة من مع ومن ضد ومن كان لا يكتم سعادته بكسر شوكة فيصل من طرف الفرنسيين. البعض الآخر لم يكن معنيا بما كان يحدث حوله، كان يعرف أن المجتمع صار مقسما إلى جزر متعددة ويدرك جيدا موقعه وجماعته.

عندما دخل يوسف العظمة مصحوبا بحرسه الخاص فقط وبعض أعيان المدينة من أصدقاء الأمير سعيد، كان الناس يتمتمون ويتهامسون. سحبني عمي عز الدين من يدي وقدمني إلى رجل طويل القامة بشوارب حادة عند الرأس. كان ظله كبيرا ويغطي كامل جسمي ويلبس لباسا عسكريا رماديا مطرزا بالأزرار:

- هذا ابن الشهيد سليم.

- الله يرحمه.

ثم احتضنني ووضعني بين ذراعيه طويلا. رأيت إشراقا كبيرا في عينيه الكبيرتين.

لا أدري ماذا قلت بالفعل ولكني كنت واعيا لما يجب فعله وقد أقنعني أحد أعمامي بضرورة فعل شيء حتى ولو لم يكن المغاربة راضين عن الحكومة. خيبة كبيرة تملأ دماغي. من كثرة الحديث عن يوسف العظمة وخصاله في البيت وشجاعته صرت أتخيل وجهه خارج المعقول وانه لا يشبه الآدميين. ولكني عندما تأكدت أنه مثلنا جميعا، لم أكن سعيدا إلى حد كبير.

- هل تذهب معنا لخوض الحرب؟ مازحني يوسف العظمة وهو لا يعلم أن كلامه الذي أطلقه جزافا ومحاباة لابن شهيد سيتحول إلى كلام سيلاحقني طوال حياتي.

- طبعا، سأذهب أنا وعمي عز الدين إلى الجبهة.

- عز الدين سيكون في الجبهة الأمامية، لا خيار له، أما أنت فبإمكانك أن ترفض.

- أروح وين يروح عمي.

كان عز الدين يعرف جيدا أني لم أكن جادا. فقد كنت صغيرا على الحرب وقسوتها.

عندما استراح في ديوان الأمير سعيد، أجلسني يوسف العظمة بجانبه. وواصل حديثه مع الأعيان المغاربة الذين حضر الكثير منهم وعمي الذي كان يقدره ويحبه.

- أنا أعرف كل الأحقاد والأخطاء السابقة. وأعلم ما ستقولونه لي. أنا معكم ويعلم الله أني فعلت المستحيل، مع أناس خيرين للقيام بأي شيء، ولكنَ عمى السلطان والحكم كان كبيرا وقاسيا على الجميع. اليوم نحتاج إليكم، إلى الجند والأسلحة وشجاعتكم. لقد دافع أجدادكم عن البلد في أقسى الظروف وأصعبها ووضع الأمير عبد القادر حياته في

الميزان لإنقاذ المسيحيين ولم يتوان لحظة واحدة. ولم يكن العلم العربي الكبير الذي رفعه على السراي الأمير عبد القادر الصغير إلا استمراراً للتفاني في حب هذه الأرض.

- ولهذا قتلوه وشردوا كل العائلة؟

التفت عز الدين إلى المتكلم وخزره بعينيه. تدخل أحد الحاضرين للتخفيف من الضغط:

- لا تفهم سيدي يوسف أننا ضدك. أنت رجل كريم وشجاع ولا نحفظ لك إلا الود ولهذا نجلس معك ونحاورك بقلب مفتوح، ولكنك تحت إمرة سلطان فاسد وحتى مجرم.

- لكل منا رأيه فيما حدث ويحدث ولكنني جئت نحوكم لقضية واضحة لا تحتمل الانتظار. أنا بحاجة ماسة إليكم وعليكم يرتكز جزئيا مصير البلاد. إما أن نضع اليد في اليد لمحاربة الغازي وإما أن نفترق الآن وليسلك كل واحد منا طريقه ولنترك الحكم لله عز وجل وللتاريخ.

بدأت التدخلات تأتي من كل الزوايا وكان عز الدين يحاول جاهدا أن يضبطها وألا يترك النقاش ينفرط نهائيا في تفاصيل ثانوية. فقد نبههم منذ البداية أن يوسف العظمة هو أولا ضيف المغاربة وليس عضوا في الحكومة ولا يجب قهره مهما كانت النتائج. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت السهرة قاسية وقعت فيها اصطدامات كثيرة. العائلة تمزقت بقوة. لم أر ذلك من قبل أبدا. شهدت خلافات كثيرة ولكنها كانت دائما تنتهي بشكل مسالم وينتصر فيها العقل. بين مناصر ومعاد. ولكن هذه المرة، فقد انقسم المغاربة بين مؤيد للثورة ومستسلم للجيش الفرنسي.

- خل الإنجليز ينقذونهم الآن من الورطة التي هم فيها. اختاروا أسوأ المسالك وأوصلوا الثورة العربية إلى عنق الزجاجة. الطمع والسلطان. أحترم كثيرا يوسف العظمة، فهو من عائلة عريقة ولكنها مشكلتهم الآن، فليفكوها بأسنانهم مثلما عقدوها بأيديهم.

- لكن دمشق مدينتكم والثورة من لحمكم ودمكم.

رد يوسف العظمة وهو يحاول أن يتفهم ردود الفعل المتشنجة.

تدخل عز الدين وهو يحاول أن يخفف من ردة الأفعال، من المغاربة الغاضبين ومن يوسف الذي فوجئ بالحدة المغربية.

- لكن يا سادة أنتم تعرفون أننا لا يمكن أن نصمت وأننا من عائلة لها تاريخ كبير في هذا البلد الشهم ثم إن هذا استعمار غاشم كيفما كان، إنجليزيا أم فرنسيا، نفس الشيء.

- ماذا تريد أن نفعل يا عز الدين، قال أحد المغاربة من الذين رافقوا طويلا عبد القادر الصغير، بأي شكل سنتصرف أمام من سجنونا وشردوا آباءنا وفعلوا بنا أسوأ مما فعله سادتهم الإنجليز. لو كان الإنجليز أو الفرنسيون في الحكم وحدهم، كنت حملت بندقيتي وذهبت نحوهم ولكن عندما يقتلك من هو من دمك ماذا تريدني أن أفعل سوى الإحساس بالقهر والضغينة؟

- ولكن الأرض مهددة. لتحترق كل الدنيا عندما تكون الأرض على حافة الانهيار. إما أن نموت ونقبل بالخسارة أو نعيش أذلاء؟ افتحوا أمخاخكم قليلا واتركوا الهواء يمر عبرها. نحن في وضع غير وضع معركة التحرير الأولى ونستطيع أن نثبت أننا أبناء هذه الأرض وليست لنا تربة أخرى.

لم أر عز الدين بهذه الدرجة من الغضب واليأس. حتى إني خفت عليه ليلتها من الانهيار. فقد كان يتكلم بدون توقف ذاكرا خصال جدنا الذي جاء إلى هذه الأرض حاملا معه بأسه وقوة رباطة جأشه وقاوم حتى النهاية قبل أن يصمت وينتهي متأملا الحياة.

انتهى الاجتماع مع أذان الفجر. لم أنم مطلقا، بل لم أتحرك من مكاني أبدا. انتهى بنصف حل بحيث ترك لكل واحد أو لكل عائلة الخيار أن يفعلوا ما يشاؤون بحسب ما يمليه الضمير، ولا توجد أية توصية مسبقة أو قرار. الحدة كانت كبيرة لدرجة صعب ضبطها. لكن عز الدين وجماعته كانوا يعرفون جيدا ما كان عليهم فعله وقد توصلوا إلى الحفاظ على ما أرادوه.

كان يوسف العظمة ينظر إلى الوجوه وهي تتمزق وتتقاتل. جمد

كأس الشاي بين يديه. كان يريد أن يتكلم ولكن كل الكلمات جمدت في حلقه المتعب. عندما مد يده إلى رأسه ثم إلي شعرت بها باردة كيد ميت. حك شعري ولكن عينيه كانتا مثل عيني ذئب منكسر. لم أر رجلا عظيما في حياتي بهذه الدرجة من العزلة والخيبة. كل كلماته انطفأت فجأة. شعرت بأنه خرج غير راض وأن الأمور سارت على عكس ما كان يتخيله ويتصوره بانتصار حق شرف الدفاع عن المدينة.

- فهمت. ربما معكم حق. ولكن الله خلق الموت وخلق الحياة. وعلينا أن نعرف ماذا نفعل بهما. الموت واحد والهزائم في الحياة كثيرة. يكثر خيركم. ما كان علي أديته تجاه عائلة عريقة لا أكن لها إلا التقدير والاحترام واعرف جيدا أنها لن تخون ملح هذه الأرض.

عند الباب سلم عز الدين على يوسف العظمة ولم يستطع أن يكتم حزنه:

- لا أقول شيئا. أنا مثلك حزين وأشعر بما تشعر به من خيبة. على كل مازلنا لم نبلغ بعد الموعد الذي حدده غورو ٢٣ منتصف الليل. غدا سأكون عندك بما استطيع جمعه من مسنين وشباب ومن أسلحة وأحصنة. جزء كبير مستعد لدخول المعركة بالوسائل التي يملك والاستشهاد. لم تخض كل الشعوب حروبها بالوسائل المتقدمة والطائرات والدبابات. سنفعل ما نستطيعه. ربما كان الموت ينتظرنا، أو لم يشتر الله منا أنفسنا؟

- بارك الله فيك يا عز الدين. خذ بالك من الصغير.

كنت ما أزال بجوار عمي عندما مد يده نحو رأسي مرة أخرى قبل أن ينطفئ بسرعة.

- سأكون معكم إن شاء الله.

قلتها في خاطري، كأني كنت في لعبة ولم أكن أعلم أن الموت قتل وتشويه وتدمير ولم أعلم أنه كان علي أن أنام لكي أستطيع أن أكون مثل أخوالي وبعض أعمامي. مع ذلك كنت سعيدا أن أخوالي من عائلة الحسيني وبعض أعمامي كانوا مع فكرة الانضمام للمقاومة.

في الفراش لم أسمع إلا أصوات المدافع الجافة ولم أر إلا وجه يوسف العظمة، الرجل الطيب، المليء بالعفة والحياء والنور.

-٧-

على الرغم من رطوبة المساء، كانت الحرارة الجافة خانقة ولا شيء يسمع إلا طنين الذباب والدبابير والصراصير التي تكثر حركتها في مثل هذا الوقت. على الرغم من الحديقة التي كانت تحيط بالقصر والمليئة بالنباتات الطاردة للحشرات.

عندما عبر يوسف العظمة مدخل السراي تعثر وكاد يسقط على فمه. نظر إلى المكان. تمتم:

- يبدو أن عاقبة هذا اليوم لن تكون سليمة.

- سلامتك يا يوسف بك.

- الله يسلمك يا أسعد.

قالها حتى قبل أن يراه. ثم انتبه إلى أسعد داغر الذي كان جالسا في صالون المدخل في حيرة، لا يعرف ماذا يجب أن يفعل لكيلا يبقى مكتوف الأيدي مثل امرأة ثكلى.

- هل تعتقد أن الجيش الفرنسي سيواصل زحفه؟ الكولونيل كوس جاء إلى القصر العديد من المرات ولم يحصل على أي جواب على مذكرة الجنرال غورو. حتى إنه أعد مذكرتين بنفسه واحدة فيها القبول والثانية فيها الرفض وطلب من الحكومة اختيار واحدة ولكنه لم يتحصل على أي جواب.

- لا أعتقد، فأنا متأكد من أن المسألة تتعلق الآن بالاستعمار بكل بساطة بعد أن تخلت الولايات المتحدة عن مشاريعها وباعتنا بريطانيا بنفط الموصل. ولم أتلق أية معلومة من الجبهة تبين عكس ذلك. لقد دخل الفرنسيون الأراضي السورية بحجة المرابطة على منابع المياه. واستولوا على جزء مهم من مجدل عنجر لأننا أفرغناها قبل الأوان.

- وما هي الوسائل الدفاعية.

- تريد الحقيقة؟ لا شيء إلا شجاعة الرجال واستماتتهم ليدافعوا عن مدينتهم. لقد أعطيت الأمر فأرجعت القوات المسرحة وهي في منتصف الطريق إلى مواقعها. تخيل المعنويات والحزن والخيبات في وضع مثل هذا، لا أدري بالضبط كيف سنواجه جيشا نظاميا مدربا ومجهزا؟

لم يستطع أن يكتم الدمعات التي انزلقت على خديه ولا أن يحبسها. فاتجه نحو الشرفة ونظر بعيدا. بانت له دمشق هادئة والناس يتحركون إلى انشغالاتهم اليومية وكأن شيئا لم يحدث. ربت أسعد داغر على كتفه وشدَه بقوه نحوه. شعر برهافته وانكساره.

- كان يمكن أن نتفادى ذلك كله لو كنا نستمع حقيقة لبعضنا، لو أنصت لنا الملك فيصل قليلا، ولكن للأسف، كل واحد منا يتحدث بيقين مطلق وكأنه المالك الأوحد للحقيقة.

- يا يوسف كلنا منكسرون ولكن لا خيار لنا. المنكسر يخسر دوما في حساباته. إن مزايا الرجولة تظهر في ساعات المحن والشدائد ولسنا أول أمة في التاريخ استهدفت وخدعت وأخطأت كما خدعنا وأخطأنا ونحن لا نزال في بدء جهادنا. والجهاد كالحرب يتعاقب فيها الفشل والفوز.

- سأقوم بواجبي ولست آسفا على نفسي بل أسفي على الأمة التي ستظل سنوات كثيرة أو قليلة هدفا لكل أنواع المحن والمصائب. لو فقط كتب لهذا المشروع أن يكبر بحرية.

- الأمة تحتاج إليك في جهادك الحقيقي الذي يبدأ بعد هذه المحنة. فاحفظ لها نفسك وقواك ومواهبك.

- لم يعد شيء يشغلني إلا مصير ليلى ابنتي.

- ابنتك على الراس وعلى العين، ولكن لم نصل إلى هذا الوضع المنغلق.

- فكرت ليلة بكاملها ولم أجد مسلكا غير هذا. اتصلت بساطع

الحصري وقلت له أنا ذاهب، أترك ليلى، أمانة لديكم ورجوته ألا ينسوها، إنها ابنتي الوحيدة، جاءت من الآستانة مع أمها قبل أسبوعين من هذه الزوبعة التي نعيشها. فقال لي: إن شاء الله تعود بالسلامة، ولكن تستطيع أن تطمئن على ليلى كل الاطمئنان. في رقبتي.

عندما نودي عليه دخل على الملك فيصل. كان كل شيء قد انتهى. كان فيصل منكسر الوجه ولا تبدو عليه علامات الراحة. حتى وجهه زاد نحولا واصفرارا.

- أتيت لأتلقى أوامر جلالتكم. أنا مستعد لتنفيذها حالا. لقد ودعت أهلي وأقاربي وسألتحق بالجبهة حالا.

- أنت ذاهب إلى ميسلون إذن؟

- نعم، إذا كنتم لا تودون قبول الإنذار الأخير والإهانة البليغة التي يصرَ عليها غورو.

- يوسف إذا أردت أن تتراجع مايزال هناك متسع من الوقت. أنت من أصر على الدفاع بشدة.

- وهل كان أمامنا حل آخر يا جلالة الملك؟ جنودي ينتظرونني وكلهم عزم على الدفاع عن مدينة تستحق أن يُدافع عنها باستماتة. ولم أكن أتصور أن الفرنسيين سيدوسون على كل الحقوق الدولية ويفكرون في احتلال دمشق. هل يأذن لي سيدي بأن أنصرف نحو ميسلون أنا وضباطي الذين يرابطون في مختلف المواقع؟

كانت ملامح الملك فيصل باردة ولا تظهر علامات التأثر عليها.

- ليكن. الأعمار بيد الله. يبدو أن مصائرنا صارت في مهب الريح. يجب أن ننقذ البلاد من حرب أهلية صارت على الأبواب. نحن في عنق الزجاجة يا يوسف... في عنق الزجاجة بالضبط.

- لدي طلب واحد يا صاحب الجلالة. طلب واحد ووحيد سبق أن عرضته على ساطع الحصري: لا تنسوا ابنتي يا سيدي. وديعة في أعناقكم.

الملك فيصل الذي غطى شعرُ وجهه جزءا من ملامحه الباردة والمنكسرة، لم يقل شيئا يذكر ولكنه هز رأسه بالموافقة ثم قام من مكانه وعانقه طويلا.

- لا تخش شيئا، الله قادر على كل شيء.

- ليس هذه المرة. التهديدات لا تدع مجالا للشك في النوايا.

- ومع ذلك، قال الملك فيصل. الدنيا دوارة وما ضاع حق وراءه طالب. لقد أبلغونا القرار الذي وضع في سان ريمون بشأن مستقبل البلاد بصورة مجملة فيئس البعض من جراء ذلك وظن أنه قضي على مستقبلنا وأن كل سعي نبذله لا يأتي بفائدة. وقال القسم الأعظم من سكان البلاد: لقد قضي علينا ونحن لا نريد أن نستعبد فلنمت شرفاء. ثم هددنا بالمحو والاستعمار الجديد واستطعنا أن نفرض أنفسنا، وفقنا في النهوض وسنخرج إن شاء الله من هذه المحنة القاسية. أريد من الأمة أن تثبت إلى النهاية وأن تنتظر النتيجة برباطة جأش وتمد حكومتها بالجنود والمال وتبذل جهدها والتوفيق منه تعالى وأرجو أن نكون في العام القادم حول هذه المائدة وقد نسينا هذه الأيام العصيبة.

- لا أعتقد يا صاحب الجلالة. لن يكون عام قادم يا سيدي، على الأقل بالنسبة لي.

-... ... ...

لم يضف فيصل ولا كلمة واحدة.

احتضنه ثم افترقا.

قضى يوسف العظمة تلك الليلة مع جنوده في ميسلون، في المواقع المتقدمة ينظر صوب الجبال التي احتلها غورو لأنها أفرغت قبل الأوان من الجنود والحرس. بان له الهدوء المريب والوديان الفارغة والناشفة التي قام جنوده بتلغيمها كلها لتوقيف زحف القوات الفرنسية.

في الصباح كانت شمس ٢٤ جويلية، آخر أيام الإنذار، قد أشرقت قبل وقتها أو على الأقل هكذا بدا ليوسف العظمة ورفاقه. كانت حادة وحارقة مكونة سرابا كثيفا بأشعتها التي تعمي الأبصار وأظهرت المحيط

الذي تم تلغيمه بكامله قبل أن تتحول الأشكال التي بدت من بعيد مبهمة وبلا شكل، إلى رتل من الدبابات وفرق من العسكر. كانت كلطخات من الحبر الأسود على منشفة بيضاء قبل أن تتوسع بكثافة وتملأ النظر. بدأت الطائرات الاستطلاعية الصفراء تستكشف المواقع الأمامية والخلفيات الدفاعية قبل أن تعود على أعقابها ويسود الترقب من جديد وطنين الدبابير والجراد والصمت الكبير ورعشات الخوف من الهزيمة المبكرة.

نزيف الخيول الجامحة

-١-

كنت على حصاني المرقط الذي أهداه لي عمي عز الدين. كنت هناك فقط لتوديعهم، لا أكثر. في رأسي كان شيء آخر. وكان هو يركب آخر حصان حمياني اشتراه من أحد المغاربة الذي ورث عادة جده الأول في تربية الخيول القوية.

منذ الليلة السابقة، لم يتغير شيء في الفوضى العارمة التي عمت دمشق. زادت قليلا. الشيء الوحيد الذي خفف من الخيبة التي انعكست على الوجوه المتعبة والمتربة، الحرب التي بدت واضحة على الملامح المنهكة وغمقت الملامح أكثر حتى فحمتها. كلمة الحرب صارت على كل الألسن. يحكى أن الكثير من الفلاحين غيروا اتجاهاتهم، فبدل أن يدخلوا بيوتهم أو يذهبوا نحو حقولهم، تخلوا عن كل شيء وساروا نحو محطات القطارات التي كانت تأخذ المتطوعين.

كان الناس، ومن كل الأعمار، يركضون باتجاه محطة البرامكة لامتطاء القطار. يحملون الأعلام ويهتفون بأعلى أصواتهم بدون توقف حتى تظهر عروق رقابهم قوية وخشنة. بعض الأطفال حولوا الركض إلى لعبة، يرافقون القوافل بهتافاتهم التي سمعوها من الكبار وحفظوها، ثم يعودون في المساء لتكرار نفس العملية مع أفواج أخرى.

الكثير من المتطوعين، من الفلاحين الذين يظهرون بوضوح

بألبستهم الزرقاء والمقطعة والمرقعة في أماكن عديدة من الركبتين إلى المؤخرة، لم يكونوا يحملون أسلحة إلا أياديهم الخشنة والصلبة.

كنا نتقدم بصعوبة وكان عز الدين يجد مسالكه بالصراخ والتهديد أحيانا. الناس في المدينة يعرفونه والذي لا يعرفه، استقامته على الحصان كانت تفرض نوعا من الهيبة على الآخرين. كان وراءه فيلقان من الخيالة المغاربة. التفت نحوي:

- تخيل لو جئنا جميعا ولم نؤجل الفيلق الدرزي، كلنا ملأنا وحدنا القطار.

- ولكن من أدراك أننا سنستمر حتى الغد؟ الغد يوم آخر.

فجأة التفتنا بحركة تجاه الصوت في الوقت نفسه ولكن عمي عز الدين لم يبد عليه أي اندهاش:

- والله زمان يا أستاذ صبحي ويا سعيد أفندي، لا نلتقي إلا في الهموم والحروب.

- مسرح الرجال الكبار.

- صح بس كم أتمنى أنا كمان أن أعيش حياتي خارج هذه الأجواء العكرة.

- سيأتي يوم إن شاء الله.

- طوَّل كثيرا هذا اليوم يا خيِّي؟

- اليأس مو حلو. كل شي يجي في وقته.

تعانق الثلاثة طويلا. ثم التفتوا نحوي. مددت يدي بخجل. قال عمي عز الدين:

- هذا الشاب هو ابن سليم الله يرحمه.

- سليم؟ من لا يعرفه؟ كان قبضاي صح وصحيح. الرجال في أوضاع مثل هذه لا يعيشون كثيرا. الله يرحمه.

لم يكن يبدو على الرجلين أي خوف. على العكس من ذلك فقد رأيت سعادة ما ترتسم على وجهيهما على الرغم من أنها كانت مشوبة بحزن متأصل يكاد لا يظهر أبدا.

قال سعيد الذي كان يبدو أكثر بشاشة.

- مثلك يا أبو العز، ذاهبون إلى الجبهة. باتجاه ميسلون بعد أن غادرناها منذ ليلة فقط. التسرع يكون أحيانا مضرا أكثر من الحروب ذاتها، والقيادة تسرعت في قرارها.

- ربما لأنها وجدت نفسها فجأة تحت ضغط غورو الذي لم يمنح لها وقتا كبيرا. فقد خنقها بتهديداته. ثم الإنجليز غسلوا أيديهم بالماء وتخلوا عنا؟

- قل غسلوها بنفط الموصل.

- وكيف حالة الجيش في الجبهة.

- لم نتركه في حالة جيدة. الكثير منهم فوجئوا بقرار الانسحاب. أتصور أن الجيش بكامله في حالة يرثى لها. المقدم حسن الهندي قائد اللواء الأول من الفرقة الأولى كان مرابطا عند المصنع لصد التقدم الفرنسي من سهل البقاع ولكنه تلقى في ليلة ٢٠ يوليو ١٩٢٠ أمرا تليفونيا من قيادة الفرقة بأن المسألة حلت صلحا مع الفرنسيين وأن عليه المغادرة صباحا إلى دمشق. كان اللواء مهيّئاً للدفاع بل ومشحونا للمقاومة إلى آخر قطرة من دمه، ولكن عندما جاء قائد الفرقة تحسين الفقير ووقف أمام الجنود والمتطوعين وأبلغهم بوقوع الصلح ارتبكوا وبدأوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً. بل أبلغهم بأن عليهم بمجرد وصولهم إلى دمشق تسليم أسلحتهم استعدادا لتسريحهم. ولكن الظاهر أنهم عندما خرجوا من وادي القرن وجدوا قائد اللواء، مسؤول نقطة ميسلون في انتظارهم ليبلغهم بأن الفرنسيين رفضوا الصلح وعليهم أن يرجعوا على أعقابهم للدفاع عن ميسلون. وها نحن الآن كما ترى، نحاول أن نصلح ذات البين ونعاود تنظيم المليشيات الشعبية، ربما استطعنا أن نفعل شيئا مفيدا.

وكان الضابط في الجيش العربي صبحي العمري والملازم الأول سعيد عمون ينظمان المتطوعين الذاهبين إلى ميسلون الذين ينشدون الأناشيد الدينية والوطنية. كانوا من مختلف الأعمار، فيهم الصبي

والشاب والشيخ. كانوا بدون رئيس ولا مرؤوس وكل ما يعرفونه هو الالتحاق بالجبهة والمقاومة حتى الموت. ولولا مبادرات الرجلين التنظيمية لاختلط الحابل بالنابل. بقدر إعجابي بما كانا يفعلان، شعرت في داخلي بخوف. كنت أعرف أن للفرنسيين طائرات وقوة عسكرية منظمة بإحكام. سألت عمي عز الدين:

- عمو، وبالنسبة للطائرات كيف راح تواجهونها؟

- نختبئ ريثما تمر ثم نطلق عليها النار ولدينا حظ كبير بإسقاطها. لأننا إذا واجهناها قد نقصف ونقتل بسهولة ونحن نريد أن نصعب من مهمتنا. تعرف أن ذكاء المقاتل في الساحة هو أن يجعل من مهمة قتله، مهمة صعبة وحتى مستحيلة إن أمكن. أن يرهق عدوه إلى أقصى الحدود.

وقف على حافة المحطة أكثر من مائة خيال مغربي مسلحين بما تمكنوا من الحصول عليه وينتظر أن يلتحق بهم غدا، في الصبح الباكر، فيلق آخر من الدروز لم يكونوا يثقون منذ البداية لا في الفرنسيين ولا في الإنجليز. كانوا يضمرون كرها شديدا للجميع، بما في ذلك الملك فيصل الذي اعتبروه متواطئا مع الإنجليز ومقايضا للأراضي العربية. الوحيد الذي ظلوا يكنون له التقدير والاحترام هو يوسف العظمة.

كان صبحي العمري قد توغل عميقا داخل الصفوف. فجأة صارت أكثر تنظيما وأصبح بإمكانها أن تركب القطار بدون صعوبة. التفت نحو عز الدين وعلى محياه بقايا ابتسامة شاردة من طفل ظل يصر على الذهاب حتى أخافه عندما قال: ولاك شو حبيبي. أبوك في الصفوف الأمامية، بدك ترافقه وتواجه الرصاص والموت مثله؟ نظر الطفل يمينا ثم شمالا ثم أعطى الريح لرجليه بدون أن يلتفت وراءه.

- هؤلاء الأطفال يظنون أن الحرب لعبة.

- ليس كل من له جسد طفل هو طفل بالضرورة ولا من له جسد رجل هو بالضرورة رجل. المقياس الوحيد هو الحياة، هي التي تحول الطفل إلى رجل والرجل إلى طفل.

انتبه صبحي العمري لكلام عز الدين وعرف النقد الذي وجهه له.

- أنت تعرف أني متفق معك على طول. حب الوطن لا سن له. المشكل أننا في وضعية لا نحسد عليها. تخيل عساكر تحررهم من مواقعهم، وتقول لهم سيروا، الله معكم. ثم فجأة، في منتصف الطريق تقول لهم عودوا إلى مواقعكم، دافعوا عن أراضيكم حتى الموت. كيف سيكون حالهم؟ هذه الفوضى التي نعاني منها الآن ليست إلا صورة صغيرة عن فوضى السلطان. أظهرنا بالفعل لغورو أننا غير مهيئين لبناء دولة وغير قادرين على التسيير. نتحرك بفوضى، بلا خطة ولا سياسة. نساعد يوسف العظمة بقدر ما نستطيع.

- كان سيدي عبد القادر الصغير وسيدي السعيد يعرفان أن المغامرة لا تقود إلى أي شيء. قال أحد الفرسان من الخيالة موجها كلامه لصبحي العمري الذي غرق في التشكي.

- لم نعد في ذلك الوضع، رد عمي عليه. نحن في وضع استعماري وعلينا أن ندافع عن أرضنا. حتى ولو أدى بنا ذلك إلى الاصطدام مع إخواننا الذين ساروا في طريق الفرنسيين. هناك فيالق من المغاربة والسنغاليين يقاتلون في الصفوف الفرنسية. الوضعية صعبة ولكن لا خيار لنا عندما تصبح الأرض التي منحتنا حبها، قاب قوسين أو أدنى من الانكسار.

توقف القطار بهدوء حتى رسا تماما كسفينة حربية ثقيلة، ولم تتوقف الأدخنة التي كان ينفثها بقوة. نبه الضابط صبحي العمري عز الدين الذي كان يستعد للركوب مع خيالته:

- ولكنه لا يصل حتى ميسلون، لابد أنك تعرف ذلك. يتوقف عند حدود محطة الحسينية أو التكية والبقية تتم على الأقدام.

- لا يهم. نواصل البقية على الخيول. نخفف عليها حالة الوهن حتى تستطيع المقاومة.

فجأة صار كل شيء خاليا. ركب الجميع ولم يبق على الرصيف إلا

أنا بعد أن دفعت بحصاني إلى عمق القاطرة. قرأت حيرة عمي عز الدين التي ارتسمت فجأة في عينيه:

- اتفقنا مع أمك أن تودعنا وتعود إلى دروسك.

- وأنا عند وعدي، حصاني سيساعدكم.

- طيب. طمأنتني

وقتها رأيت ابتسامة ارتسمت على محياه بلطف وعاد الدم يجري من جديد في وجهه الطيب.

لا أعلم كيف ابتلع ذلك الغول كل البشر. الخيول، الراجلين والمشاة، العساكر والضباط والمليشيات الشعبية. في الكثير من القاطرات، اختلط البشر بالأحصنة. الكثير منهم كان ذاهبا إلى المعركة وهو لا يحمل أي سلاح أبدا يدافع به عن نفسه قبل الدفاع عن الآخرين.

قال عز الدين لأحدهم:

- ألا تعرف أن الله قال لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة؟

- نعرف ولكن نستطيع ما يستطيع فعله هذا الصبي الذي يرافقكم. يمكننا أن نحصل على السلاح هناك. وإذا كانت التهلكة هي الدفاع عن أرضنا فمرحبا بالتهلكة.

- الحرب ليست لعبة.

- والصبي الذي معك، ألا تخاف عليه من هذه التهلكة؟

- هذا الصبي فقد والده ولا يذهب معنا، سيعود إلى البيت عندما يقلع القطار. المطلوب منه أن يهتم فقط بدراسته أكثر فأكثر. والده كان مناضلا وشاعرا كبيرا، وهذا يكفيه.

تمنيت في أعماقي أن يقتنع عمي ويسمح لي بالسفر معه. كان كل شيء يبدو لي مثل اللعب. ولم أر شيئا جادا يدفعني إلى تغيير رأيي. حتى عمي وفرسانه رأيتهم يستعدون لمسابقة على الخيل لا أكثر. لم أكن أدرك أن وراء كل ذلك كان يختبئ الموت الأكيد.

كان الرجل الشعبي الذي لم يكن يملك إلا جسده ولباسه يريد أن

يسأل أكثر ولكن عمي التفت نحوي ونصحني بالرجوع بسرعة إلى البيت بعد أن وضع في يدي كمية من النقود وهو يتمتم في أذني:

- هذه الأمانة أعطها لأمك. لم أجد الفرصة المناسبة لتسليمها لها. قليل من النقود ربما ساعدتها على مصاعب الحياة. بالنسبة إلى حصانك، أعدك بمراعاته قدر ما أستطيع سأعيده لك إن بقينا أحياء.

كرر عمي عز الدين مرة أخرى:

- شريف حبيبي، خذ بالك من أمك. إذا أراد الله، سنعود ظافرين وإذا كتبت لنا الشهادة فلا بأس، فقد صرت رجلا ونستطيع أن نتكل عليك في غيابنا. هذا أيضاً عمل كبير.

هذه الكلمة الأخيرة أحسستني برغبتي في الركوب. لست أدري ماذا حدث لي. كلام الرجل وفوضى الناس، أطفالا وكبارا وأحصنة، أعطتني رغبة في عدم العودة إلى البيت وخصوصا أني رأيت الكثير من هم في سني يركبون القطار. عندما ودعت أمي ضحكت كثيرا وهي تحاول أن تكتم ابتسامتها التي ارتسمت واضحة على وجهها. أمي كلما ابتسمت انتشر على محياها نور مشع وزادت إشراقا وجمالا.

- باسم الله، ما شاء الله! والله وكبرت يا شريف. ما بعرف الشيء اللي ذكرني بوالدك الله يرحمه. شو هيدا يا شريف؟ شو اللي صار؟ كأنك رايح لجبهة ميسلون.

- لما أكبر إن شاء الله يا يما، ليس الآن.

عندما بدأ القطار يتحرك شيئا فشيئا ويزداد دخانه كثافة، ودعت عمي وبدأت أسير على طول القطار وأمشي بشكل معاكس لحركته. وكلما مررت على قاطرة صاح الأطفال اركب يا جبان... روح ادفّى مع النسوان يا شاطر... اركب كلنا ذاهبون نحو الجبهة... كانت سرعة القطار تزداد شيئا فشيئا. جريت بسرعته فجأة ولا أدري بالضبط من أين جاءتني كل تلك القوة. أغمضت عيني وركضت وأنا لا أعلم اليد التي مدت إلي فوجدت نفسي بين المسافرين باتجاه شيء لم أكن أعرفه ولكني كنت أحس به كثيرا ولم أكن أعرف حتى وظيفتي. في لحظة من

اللحظات فكرت في ترك المكان نهائيا والقفز من القطار والعودة إلى البيت لكن السرعة زادت فجأة ومحطة البرامكة بدت لي بعيدة على غير العادة. لم أكن أحمل شيئا ولا حتى زوادة ألبسة وأغطية أو كراسة مثلما كان يفعل بقية الراكبين. بحثت في جيبي فلم أجد إلا النقود التي أعطاها لي عمي عز الدين لكي أسلمها لأمي فأحسست بشيء من الراحة. أستطيع على الأقل أن أعيش بهذه النقود أياما، عند الضرورة.

سألني شيخ طاعن في السن، كان يقف بصعوبة كبيرة:

- لوين رايح يا ابني؟

- للجبهة يا عمي. لميسلون. وأنت؟

- مثلك. رايح لميسلون. الله يستر خيبتنا وينصر الحق على الباطل.

- وهل تعرف ماذا يجب أن نفعل هناك؟

- لابد أن نفعل شيئا. كنت ممرضا واستطيع على الأقل أن أداوي الجرحى أو أقوم بأي شيء ينفع المقاتلين. لا أستطيع أن أبقى في البيت. والدك سمح لك بالمجيء؟

صمت لحظة. أردت أن أكذب عليه بعدها لم أجد جدوى من ذلك خصوصا أني كنت ذاهبا نحو الموت ولم أشعر بحاجة لإضافة ذنب آخر إلى سجلي الزاخر بالمقالب التي يعاقب عليها الله.

- لا أعرف كيف جئت. كنت أودع عمي وبعدها عندما رأيت القطار يجري، جريت وراءه حتى ركبت.

- ووالدك ما راح يزعل منك؟

- والدي الله يرحمه. قتله جمال باشا ببيروت. سليم الجزائري، هكذا كان يسمى.

- أنت ابنه لسليم؟ الله يرحمه. أبوك كان رجَال ونص.

من يومها تأكدت أن والدي لم يكن معروفا فقط في الحي المغربي ولكنه كان ابنا فعليا للمدينة. لا أدري إذا كان محقا أم أنه كان يداريني ولكن نظرته أعطتني بعض الراحة وقللت من شكوكي وخوفي منه.

التصقت بالباب نصف المفتوح، كان القطار يلهث والجبال تمر بسرعة. تخيلت ميسلون ساحة كبيرة يركض فيها الأبطال بأحصنتهم وبنادقهم وسيوفهم ويظهرون كل مهاراتهم ويخرجون منتصرين في حروبهم في نهاية المطاف. تخيلت أشياء كثيرة جعلت الوقت يمر بسرعة كبيرة.

تمنيت لو كانت مانيا هنا، بجانبي، على حواف هذا القطار القديم الذاهب نحو المجهول، ولكنها كانت بعيدة تحلم بالألوان والعصافير والبيوت القرميدية والفراشات التي تخاف على هشاشة ألوانها أكثر من خوفها على حياتها.

-٢-

غريب. الشيخ أزاح عني كل حالات الشك والريبة التي انتابتني. وجدت نفسي قريبا منه.

كل المتطوعين تركوا في الخلفية ولم يسمح لهم بالتقدم. لا أعلم إذا كنت متطوعا أم الصدفة هي التي قادتني إلى المواقع الحربية ولكني وجدت نفسي في الزحمة. عندما بدأت القذائف تنزل بجانبنا، الكثير ممن جاءوا سعداء وغنوا طوال اليوم الأناشيد الوطنية، سرعان ما تشتتوا مثل النمل، وعادوا على أعقابهم إما بالقطار أو بالأحصنة والحمير أو حتى مشيا على الأقدام. كل واحد منهم كان يجد المبررات التي تجعل من عودته أمرا مقبولا: الله غالب، مش ممكن نحارب بأيدينا؟ ما فيه لا سلاح ولا قيادة ولا أي شيء. شو بدنا نساوي حبيبي؟. تفرقوا في المعابر وحقول البرتقال والمشاتي والوديان. في لحظة من اللحظات فكرت في العودة فدوي المدافع كان مخيفا ويهز الأبدان من داخلها. ثم قلت في خاطري، يجب أن أعود؟ وماذا سيحدث؟ لا شيء؟ لا أحد يعرف أني جئت ثم عدت؟ بدأت أبني واهدم. لا أعلم ما الذي يجبرني على البقاء؟ يمكن أن يكون أي شيء آخر إلا الشجاعة. خفت كثيرا من

القذائف وأزيز الطائرات التي كانت تحرق كل شيء. ولكن عندما ألفت سماعها وتعودت عليها وعلى سخرية الشيخ منها، لم تعد تخيفني ويبدو أن الخطر له قانونه. الإنسان يحس به عندما يستمع إليه ويستحضر تفاصيله، ولكن عندما ينساه، الخوف نفسه يتراجع. هذا ما كان يقوله عمي ورردده على مسمعي الشيخ كثيراً من المرات:

- اسمع يا ابني، أحسن وسيلة لنسيان الخوف هو أن تنحني وتقوم بعملك الذي على مسؤوليتك وكأنك لست معنيا بما يحدث بجوارك.

- لكن كيف تستطيع أن تعمل وأنت في رأسك حالة الخوف؟

- مجرد عملية ترويض للسماع. يجب أن تنسى كل شيء. الخوف عندما تتذكره يتذكرك بإلحاح، ولهذا يتعود الجندي على الخوف ليس لأنه لا يخاف ولكن لأنه يتآلف معه لدرجة أنه مع الوقت ينساه نهائيا ولا يعود يفكر فيه. يا الله ساعدني حتى نستطيع أن نبرر وجودنا في هذا المكان.

الكثير من المتطوعين عادوا إلى دمشق أو إلى المدن والقرى التي جاؤوا منها. والذين صمدوا لأولى القذائف لم يسمح لهم بالتقدم إلى عمق الجبهة إلا لمن أعطيت لهم أسلحة أو كان معه سلاحه الخاص.

منذ الليلة الأولى بدأت العمل مع الشيخ الذي تغير فجأة عندما بدأ يساعد الأطباء في رشاقة كبيرة في الخيمة التي وضعنا فيها لنبدو كأننا مجرد غجر ووضعت الأبقار والأغنام بالقرب منا لتفادي الطيران المعادي. فجأة جرني الشيخ من يدي:

- إذا أردت أن تبقى هنا وتساعد الجرحى، قل إنك مساعدي أو ابني أو أي شيء سهل عليك ولا تقل أبدا إنك لا تعرف شيئا، وإلا سيبعثون بك إلى أمك.

- سأقول: إنك والدي وإنك علمتني رتق الجروح وتقديم الإسعافات الأولية والبقية أتركها لك.

- يا الله ورجيني شو بتعرف تعمل.

لم أرد عليه هذه المرة ولكني انهمكت معه في تنظيف جروح

الأوائل وتقليد لطفه المعهود تجاه الجرحى. في الكثير من الحالات الصعبة، كان لا يتوانى عن قطع الرجل أو تخييط اللحم على الحي. يعطي قطعة مطاط للجريح، يضعها هذا الأخير بين أسنانه، ثم عندما يبدأ في العملية، يصرخ:

- كلما شعرت بالألم، اضغط على المطاط بقوة وحاول أن تنسى جرحك. كان يساعده طبيب جراح مختص خصوصا عندما تمتلئ الخيمة بالذين يئنون. تعلمت بسرعة ترقيع الجروح البليغة والمفتوحة كثيرا. كنت أفعل مثلما تفعل أمي مع الأقمشة القديمة وأترك البقية للجسد نفسه لكي يقاوم الأمراض والغنغرينا التي كانت تتهدد المرضى خصوصا في غياب المضادات الحيوية.

في الكثير من المرات تبادر إلى ذهني أن أسأل الشيخ ولكنني كنت أخاف من إزعاجه. ومع ذلك تجرأت بعد أن أنهى العملية الأخيرة، وقبل أن يذهب لكي يرتاح في انتظار دفعة جديدة من الجرحى:

- كيف تعلمت الطب يا سيدي؟

- كنت أشتغل في المستشفى التركي. لقد بقيت حتى آخر لحظة، حتى أخرجوني من هناك عندما نقوا المستشفى من المرضى المتهالكين وحولوه إلى ثكنة وبلطوا الأرض على الكثير من الأحياء. كنت في البداية مجرد ممرض ثم رقيت بسبب الخبرة وطول الممارسة. كان المرضى في المستشفى التركي يموتون يوميا. الذين ماتوا بعد انتصار الثورة أكثر من الذين ماتوا في السنوات التي سبقت ذلك ولهذا أشعر دائما بأن هناك خطأ فادحا ارتكب، دمر كل شيء. لورانس كان مجرما، هو الذي أمر بدفن الكثير من الجرحى من الجنود الأتراك. أتذكر جيدا عندما زارنا في المستشفى. كنا ننتظر أن يساعدنا للحصول على دواء ولكنه أعطى أمره للضابط الأسترالي كيركبريد بدفن الأحياء مع الذين تفسخت جثثهم على مرأى من الجيش الأسترالي المرابط عند باب المستشفى. أكثر من خمسمائة ضموا إلى حفرة وهم ما يزالون على قيد الحياة. جرائم شنعاء. وكنت ممن رمى الجير على الكثير منهم. وكدت أنضاف إليهم

لو لم أصرخ بأعلى صوتي بأني لست تركيا ولكني طبيب ممرض وأنا هنا فقط لمساعدة الطبيب الذي يزورهم كلما كان ذلك ممكنا. سأل كيركبريد الطبيب فأكد له ذلك.

- شو صار بعدها؟

- ما صار شي يا حبيبي بس، أنهم ردموا كل شيء وتحول المستشفى مثلما قلت لك إلى ثكنة، بعدما ردم في عمقها الآلاف من الناس تحت زهو الضابط الأسترالي الذي كلفه لورانس بالقيام بالمهمة الحقيرة. وعندما تكون بين الجثث والناس النصف أحياء تتعلم كل شيء ويصير قلبك طيبا وصلبا وباردا، وتعرف كم تساوي الحياة في الحروب التافهة. فالصو falso. لا شيء.

- عمو عز الدين كمان لا يحب لورانس. هو اللي قتل سيدي الأمير عبد القادر الصغير.

- لورانس. كل شيء انتهى أو هو في طريقه إلى ذلك. لا تتصور أني هنا وفي رأسي أننا سنحقق انتصارا عظيما، كل شيء سرق وانتهى الأمر وسيستمر الوضع كذلك مدة طويلة من الزمن ولكني هنا لأني أومن بأننا شهود على زمن يتجاوزنا. لورانس، جاء إلى دمشق كالفاتح وخرج منها غير معني بمصير الناس. كان يخدم فيصل ويخدم أكثر جيوش أللنبي المرابطة في عمق المدينة وعلى أطرافها. مشكلة العرب أنهم دائما تحت وصاية جهة. تبيعهم لهذا، فيبدلونها بوصي آخر.

لم أعرف ما إذا كان الشيخ يائسا أم متفائلا، لم يكن لا جاهلا ولا أميا كما تصورت في البداية. زاد تعلقي به أكثر لصدقه ولعفوية ردود فعله. صرت لا أقوم بشيء في الجبهة إلا بعد استشارته.

لم أتركه طوال مدة بقائي في الجبهة. كان كلما سئل عني وعن وجودي في هذا المكان، قال إنني مساعده وابنه وإنني أريد أن أقدم شيئا للمقاومة من معرفتي.

عندما لاحت تباشير فجر اليوم الجديد، وخرجت الأشعة الأولى من تحت الليل القاسي، بدأ القصف العنيف. كنت أشعر بالطائرات وهي تمر

فوق رؤوسنا محدثة دويا كبيرا. كان الجرحى يصلوننا على ظهور الدواب. شعرت بسلطان النوم يرهقني. تذكرت أني لم أنم إلا قليلا. بدأ الجرحى يصلون إلى الأماكن الخلفية التي كنا فيها. كان المنظر بشعا. في البداية أبعدني الشيخ الممرض خوفا علي، ولكنه في النهاية طلب مني أن أساعده. كان أحيانا يضطر مع بعض الأطباء إلى ترقيع الجسد قبل وضعه في الكفن ودفنه بالقرب من الوادي الذي لا يكلف حفرا كبيرا. يقطعون الأرجل والأيدي الممزقة ثم يخيطون أو يحرقون الجراحات بسكينة حادة وساخنة. لم يكن هناك مستشفى بالمعنى الدقيق، مجرد خيمة واسعة للبدو الرحل ملتصقة ببيت طيني مهجور. تعودت بسرعة على خياطة الجراحات الصغيرة وتسخين السكاكين وحدَ أسنان مناشير القطع ومسحها بالكحول الطبي ليستعملها الطبيب المختص من جديد.

تفاديت رؤية الطبيب الجديد لا لشيء سوى الخوف من طردي. أخدمه بدون أن يراني. هذا ما أوصاني به الشيخ. الطبيب الجديد بعث لمساعدتنا خصوصا في الفترات الصباحية حيث يكون الجرحى كثر قبل أن يلتحق بعد الظهر بمقدمة الجبهة. عندما سمعت صوته للمرة الأولى استغربته قليلا. شعرت برجفة ما في داخلي. ناداني لمساعدته، كنت منزويا في الظل ولكنه رآني. أتيته بإناء مملوء بالماء الساخن. في البداية شككت في الأمر ولكنني عندما قربت القنديل الزيتي منه أكثر، بان وجهه كاملا. كان ينزع الشظايا التي اخترقت ساق الجريح وجزءا من صدره. التفت نحوي لكي أناوله السكينة. ثم فجأة بقي ثابتا فاغرا فمه:

- مين اللي جابك لهيك مكان يا مجنون؟

- عمو فؤاد غصن. عفوا. أنا في عرضك لا تخبر عمو عز الدين.

فجأة أدركت فداحة ما قمت به.

ثم التفت نحو الشيخ الذي كان يفحص جراحات المرضى:

- وأنت؟ هذا هو ابنك؟

- نعم سيدي. ويعرف يرقع الجراحات ويكوي الأجزاء المتفسخة

منها ويسن السكاكين ويسخنها. لم يجرب قص الأيدي والأرجل ولكنه سيتوصل إلى فعل ذلك قريبا. يتطور بسرعة كبيرة.

كنت أنتظر أن يرفع الشيخ عينيه صوبي فقط لأنبهه كي يتوقف وأفهمه أن الطبيب يعرفني جيدا ولكنه لم يفعل إلا بعد أن قال كل شيء. واحمر وجهي من ردة فعل فؤاد غصن الذي كنت متأكدا من أنه سيأمرني بلم حوائجي والخروج حالا نحو الحصان الذي ينتظر عند الباب والقطار بعد ذلك، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث. التفت نحوي وكنت ما أزال أقبض على القنديل وصحن الماء.

- طيب يا شيخ. الله يخلّي لك هذا الابن ويحفظه لك. ضعه في عينيك، لقد أدهشتني شطارته. يقوم بعمله أحسن من الكبار. أنا مطمئن أن المستشفى يسير بك وبه بشكل جيد. الطبيب الأول الذي التحق بالجبهة سيعود مباشرة بعد عودتي من هناك، وستصلك كل الأدوية الناقصة التي طلبتها.

- الله وكيلك ما لي غيره. هو الروح وهو العين التي بها أرى.

نظر إلي الشيخ بعينين مليئتين بالإحساس بالانتصار والغمزات الخفية. في منتصف النهار عندما رجع الطبيب الأول، لبس فؤاد غصن لباسا بدويا وخرج من الجهة الخلفية المؤدية للوادي، باتجاه الجبهة. فجأة سمعت نحنحة حصان عرفتها، ولم أكن مخطئا أبدا. ركضت نحوه فلم أجده. فجأة رأيت من وراء البناية عمو فؤاد غصن وهو يركبه. وبدون أن أدري، ركضت نحو الحصان واحتضنته.

عرفته وعرفني. كان يريد أن يطير من بين يدي.

- المرقط عرفك. قال فؤاد غصن. بتحب أتركه لك.

في لحظة فكرت أن أسترجعه ولكني تخليت عن أنانيتي بسرعة.

- لا عمو، اتركه معك. أنت تحتاج إليه أكثر مني. تتنقل كثيرا بينما نحن لن نغادر هذا المكان. الله يحفظك ويحفظه من كل مكروه.

في البداية حرن ولم يرد أن يتحرك ولا خطوة واحدة ولكني عندما ربت على كتفيه بحنان تحرك.

- شايف حتى حصانك بيشبهك. ما بدو يتركك لحالك.

مسدت مرة أخرى وجهه، حنى رأسه ثم سار باتجاه الوادي.

لم يلتفت فؤاد غصن ولا الحصان باتجاهي. ظللت متمركزا في مكاني ولم أتحرك إلا عندما قادني الشيخ واضعا يده على ظهري.

- الجرحى ينتظروننا يا ابني. خلاص، ما فيه مشكل مع الطبيب، فقد اقتنع نهائيا بكذبتي.

- مضبوط... مضبوط... اقتنع نهائيا.

توغل فؤاد غصن بالمرقط في عمق الوادي الناشف، من الجهة الخلفية بحيث يتفادى الطيران الاستكشافي الذي يسمع صوته من بعيد، حتى غاب نهائيا بينما رجعت إلى عمق المستشفى.

-٣-

كان منظر الجبال من الأعالي جميلا وخلابا. وكان الفجر هادئا، كأن لا شيء يثير الانتباه إلا حركة الطيور الكثيفة التي غادرت أعشاشها وظلت تدور وتدور في أسراب لا حدود لها مشكلة في الفضاء المنخفض، العشرات من الأشكال المختلفة. تحت تحليقها المستمر، كانت الأرانب تبحث عن مخابئها، يبدو الضياع في عينيها واضحا. يقال إن الحيوانات تهرب عندما تستشعر مخاطر الزلازل واهتزازات الأرض، ولكن أي زلزال في جبل رائق ومرتفع صاف كهذا؟

كان الزمن يمر ثقيلا على الجميع.

الليلة الماضية كانت هادئة نسبيا، ولكن في الساعة الثامنة والنصف بالضبط سمعت الرصاصات الصباحية الأولى ثم القذائف المتلاحقة باتجاه المرتفعات المواجهة. بدأت الهجمات الفرنسية المنظمة التي كان الغرض منها في البداية المناورة قبل أن تتحول إلى عمل منظم يهدف الاستيلاء على المناطق العالية والوديان التي تقود بسهولة إلى دمشق. بدأت القوات النظامية تنحدر باتجاه الوادي بصفوف مرصوصة، تحت

المراقبة الصارمة للضباط الفرنسيين والطيران الذي ظل يطن فوق الرؤوس كالذباب الحديدي. كان المشاة السنغاليون هم أول من توزع عبر الوديان وسفوح الجبال بألبستهم الزرقاء والحمراء. كان عددهم كبيرا ولم يكن يبدو عليهم أي خوف أو تراجع.

كان يوسف العظمة يراقب هذه التحركات من أعالي الجبل المطل على كل الهضاب والوديان. لم يتحرك ولم يعط أي أمر بالتقدم. كان ينتظر أولا هجومهم وزحفهم الكبير ولكنهم كانوا حتى الفترة الأولى من الصباح يكتفون بالقصف المدفعي للمواقع المتقدمة التي كان معظمها تمويهيا. لم يكن أمامه حل آخر سوى الهجوم الصاعق في الوقت المناسب حتى يتمكن على الأقل من الحصول على الأسلحة التي يفتقد إليها. في الليلة السابقة للهجوم، تم تلغيم كل الوادي، المعبر الذي ستضطر القوات الفرنسية إلى قطعه إذا أرادت أن تزحف وتتقدم نحو دمشق. هو يعرف جيدا أنه مع أول انفجار يجب مباغتة القوات الفرنسية بالفرق المتقدمة المرابطة ليس بعيدا عن الوادي. يجب دكها قبل أن تنظم نفسها من جديد، وتدميرها وسرقة أسلحتها الثقيلة وتلغيم الوادي من جديد وضفافه المتقدمة، والعودة بسرعة إلى المواقع المحمية لتفادي قصف الطيران الذي كان يتتبع كل الحركات والمواقع المكشوفة لتدميرها.

- بقدر ما تكون المقاومة كبيرة، ستزداد حتما الرغبة في التجنيد لدى المترددين والتحاق الناس بميسلون التي صارت الآن رمزا كبيرا، بل سمة من سمات رد العدوان والمقاومة. نحتاج ليس فقط إلى بشر يرمون بأنفسهم في عمق النار ولكن إلى أناس يفكرون فيما يقومون به.

قال يوسف العظمة لحسن الهندي القريب منه وهو يمسح المنطقة بناظوره الكبير.

- إني أراهم. يتحركون ولكنني متأكد من أن السنغاليين ليسوا في نهاية المطاف إلا لحم المدافع الذي يجب الزج به نحو الألغام لتنقية الطريق. القوات النظامية ما تزال في الخلفية ولم تظهر بعد.

- ماذا نفعل الآن يا سيدي؟ هل نعطي الأمر بالهجوم النهائي؟ قال حسن الهندي الذي كان يخبئ رأسه من وراء الصخرة العالية، كلما مرت طائرة قريبة منهم.

التفت يوسف العظمة نحوه ونحو ياسين الجابي الذي كان في الخلفية يراقب حركة جنده الذين كانوا ينتظرون الإشارة التي تبدأ بها الهجومات الكاسحة بعد تفجير الألغام.

- اتركوهم أولا يدخلون إلى الوادي بشكل كامل ثم نقوم بتفجير الألغام لتشتيت كل قواهم وبعدها ننزل بقوة لنجهز عليهم. كم كنت أتمنى أن يكون غورو في وسطهم ولكنني لا أرى إلا بؤساء سنغاليين يوضعون في المقدمة مثلما يحدث في كل الحروب غير العادلة. يأتون بهم من بعيد ويرمونهم في الموت. هكذا فعل الإنجليز وهكذا فعل الألمان ولن يشذ الفرنسيون عن القاعدة. الذي يموت الأول في مثل هذه الحروب ليس بالضرورة هو الأكثر اقتناعا بقضية ما يقوم به.

ربت يوسف العظمة على كتفي ياسين الجابي وهو يتمتم:

- لا تهتم، سيعرفون كيف يهربون عند الضرورة.

- إنهم كثر يا سيدي وسيموتون كلهم في الوادي ببلادة ولن يربحوا حتى أرواحهم.

- شوف يا ياسين، في مثل هذه الحالات، التردد قاتل ومهلك. يجب. لا حل لنا. لم نكن نريد لهم ذلك ولكنهم جاؤوا لقتلنا. سترى، سيتطايرون هم وآلياتهم وكل أدواتهم الجهنمية في السماء أشلاء وقطعا.

زادت دقات قلوبهم عندما اقتربت الآليات من الوادي متبوعة بصفوف عديدة من العساكر السود. توقفت الآليات على الحواف قليلا قبل أن تنظم صفوفها وتواصل نزولها العميق. أطلقت عليها قذيفة، لا أحد يعلم كيف تم ذلك؟ تفجرت في الفراغ. توغلت القوات السنغالية أكثر نحو العمق متبوعة بفيالق أخرى. اختفت كليا داخل الوادي. تبعتها القوات الفرنسية التي تكشفت أخيرا بأعدادها الهائلة.

- هل ترى ما أراه يا سيدي؟ هذه ليست حربا صغيرة يا سيدي. النية أعمق وأكبر من ميسلون.

- يجب ألا تفكر في كل هذا يا ياسين. قليلون أو كثيرون، علينا أن نصد هذا العدوان بالحيلة والسلاح. انظر لقد دخلوا إلى عمق الوادي. حلو... حلو... هكذا سيكون عددهم كالزبيب. الموت لهم. سيأتي عليهم الانفجار وسيربكهم طويلا وسيعرفون أن الحرب التي يريدونها ليست نزهة أبدا.

عندما صار الفيلق كله بالوادي كانت الآليات قد قطعت الحفر وبدأت تتخطى الضفاف الأخرى.

- ماذا ينتظر هؤلاء الأوغاد لتفجيرهم؟ الوقت المناسب تماما.

- الأوامر واضحة يا سيدي. تفجير الوادي بمجرد دخول الآليات والعساكر ولكنني مثلك مندهش ولا أرى شيئا من هذا. لابد أن يكون قد حصل خلل ما. وأعطيت كل الإشارات التي اتفقنا عليها ولا يمكن ألا يكونوا قد رأوها. أخرج ياسين الجابي مسدسه وأطلق خمسة عيارات ترددت في الفراغات بدون صدى يذكر للمرة الثالثة إيذانا بتفجير الوادي ولكن لم يحدث شيء من ذلك.

زحفت الدبابات وتقدمت أكثر ولم يحدث ما يربك مسارها، سوى قذيفة ضاعت في الفضاء ولم تصب أي هدف، جاءت من أحد المواقع الخلفية البعيدة عن الوادي. كانت الآليات الحربية تتسلق المرتفع باتجاه المرصد الموجود في أعالي الجبل. انتظر يوسف العظمة أن تضرب المدفعية التي كانت على المرتفع ولكن هذه المرة كذلك لم يحدث أي شيء. بدأت قلوب الجميع تخفق بقوة. تساءل يوسف العظمة وهو ينظر إلى حسن الهندي وياسين جابي، غاضبا ومنزعجا:

- ماذا حدث؟ لا مدفع يرد ولا ألغام تنفجر، أشم رائحة خيانة ما. من غير المعقول أن نكون ميتين إلى هذه الدرجة. هناك شيء غير طبيعي حدث ولم نفهمه. قلبي يحدثني أن مكروها قد حدث، مش طبيعي أبدا.

أكاد أجن. كيف لا يرمي جنودنا أهداف العدو التي تزحف نحونا بكل راحة؟

- هل أذهب يا سيدي لمعاينة الوضعية؟ كل شيء ارتبك بسبب الترددات التي صاحبت تسريح الضباط والجيش ثم إعادتهم من جديد نحو مواقعهم. قد يكون هناك سوء تفاهم غير طبيعي، ما يحدث ليس مريحا.

- لا. خليك يا حسين بالموقع للربط بين مختلف القوات. إذا حدث أي مكروه لا قدر الله، هذا مكانك الطبيعي. سأذهب أنا وياسين الجابي. لأن حصن عقبة الطين يحيرني. ياسين، اذهب إلى اليمين وثبت الجنود في أماكنهم وأنا سأسلك طريق الشمال. أشم شيئا يشبه رائحة الخيانة وعفن الجبن. لا يعقل ألا تنفجر الألغام وألا ترد القوى المتقدمة وهي موضوعة في أعلى منعطف الطريق من خط الدفاع وتسيطر على جميع منعطفات الضفة المواجهة التي بدؤوا في اكتساحها، من أول الطريق إلى أسفل الوادي. هذا لا أفهمه أبدا.

غادر الاثنان المخبأ، كل واحد سار في جهتة المحددة سلفا.

كان الضباب الذي نزل في غير وقته، يغطي جزءا من الوادي.

- هل تراهم؟ عل عرفت شيئا؟

- سأنزل نحو السفح يا سيدي، ربما استطعت معرفة التفاصيل.

- احذر أن تصبح في مرمى العسكر الفرنسي.

ثم غاب الصوتان ولم يسمع إلا أزيز الطائرات والانفجارات المتفرقة ودوي المدافع التي كانت تأتي من القوات المقابلة أكثر مما كانت تأتي من القوات العربية.

انتظر الهندي طويلا عودة يوسف العظمة وياسين الجابي ولكنهما لم يعودا. الأخبار التي وصلت إلى الجبهة لا تبشر بخير. البعض منها يقول إن الملك فيصل هرب بعد أن ضمن له الفرنسيون خروجا محترما. الأخبار الأكثر دقة هي تلك التي جاءه بها الضابط خالد، معاون الهندي

المباشر والتي تقول: إن الوزارة انتقلت إلى الكسوة بالقطار، بينما انتقل الملك بسيارة خاصة. وأن الشعب ينتظر بيان الحكومة الذي يبرر الخروج ويدفع بالشعب إلى التحمل وتنظيم المقاومة ولكن البيان لم يخرج على الرغم من الحديث الكثير عنه.

- حابب أعرف شو قصة هالبيان اللي بيظهر وما بيظهر.

- المسألة معقدة قليلا، أجاب خالد، وهو يبحث عن كلماته. لقد تم الاقتراح بأن تعلن الحكومة عن ذلك ولكنها لم تفعل.

- طيب ليش؟ هي حكومة وإلا مجموعة طراطير؟

- مسودة البيان كتبت وسلمت للديوان لتبييضها وإرسالها إلى النشر بعد توقيعها من رئيس الوزراء هاشم الأتاسي. ثم تفرق الجميع ليتم التجمع بعد ذلك في محطة الحجاز استعدادا للرحيل إلى الكسوة في الساعة الواحدة بعد الظهر. الذي أعرفه هو أنه عندما سأل ساطع الحصري هاشم الأتاسي عن قصة البيان، اتضح أن هذا الأخير لم يقرأه بعد، فأخرجه في الحال من جيبه وبدأ يقرؤه.

- شو لعب صبيان؟ ألا يعرفون أن مصير البلاد بين أيديهم؟

- المشكلة هي أنه عندما قرب موعد السفر كان الوزراء جميعا قد حضروا إلى المحطة ما عدا فارس الخوري وعلاء الدين الدروبي. الأول أرسل حقيبته وتخلف هو، بينما غاب الثاني بعد أن أخبر رئيس الوزراء بأنه يرى أن بقاءه في دمشق بصفته وزيرا للداخلية أكثر من ضروري. وعلى الرغم من رفض رئيس الوزراء للمقترح فقد بقي الدروبي متمسكا برأيه. وعندما سأل ساطع الحصري هاشم الأتاسي عن البيان، استشاط هذا الأخير غضبا وصاح بأعلى صوته: البيان... البيان... شو فيه هذا البيان؟ كانت أعصابه متوترة. فرد عليه ساطع الحصري:

«- لأنني أعتقد أننا إذا سافرنا من غير أن نصدر هذا البيان نكون قد هربنا في عيون الناس وتخلينا عن واجباتنا الوطنية. في حين أننا لا نذهب من هنا فرارا ولكن لنتمكن من أداء واجباتنا بأحسن الوسائل

وأكملها. ولا يحق لنا يا سيدي أن نغادر المكان دون أن نصدر البيان، إذ لا يسوغ لنا أن ننهزم من الميدان في هذه الآونة بعد أن أخذنا على عاتقنا مسؤولية الحكم حتى الآن.»

كان الأتاسي قد هدأ، فطلب أن يوصل البيان للدروبي الذي لم ينشره حتى الساعة.

- وفيصل، خرج معهم؟

- كان مرتبكا. أصدقاؤه ووزراؤه لم يروه أبدا في تلك الحالة. فقد انتقل إلى الكسوة بسيارته. كان مشغول البال. يفكر في شيء آخر لم يطلع عليه أحد. البعض فسر ذلك بارتباك الأوضاع بينما أحس الكثير من الوزراء بأنه كان يريد أن يحافظ على الحد الأدنى من صلة الربط مع الفرنسيين. بعد أن استقبل بشكل شخصي ضابطا إنجليزيا مُرسلا، أوفد نوري السعيد لمقابلة الفرنسيين وأرجأ جميع قراراته إلى حين وصول أخبار المقابلة ولهذا لم يعقد أي اجتماع ولم يقل أي كلام حول ما يجب فعله.

- مليح أن الجنود لا يعرفون هذه الأوضاع. أتمنى ألا تكون حقيقية ولكنني أعرفك يا خالد، لا تقول كلاما إلا إذا وزنته العديد من المرات وقلَبته على كل أوجهه. نحن على أبواب الخراب. زجوا بنا في حرب غير متوازنة وانسحبوا حيث يمكنهم أن يقايضوا على رؤوسنا. لابد أن يعرف يوسف بك بكل هذه التفاصيل الخطيرة وكيف يعطيها حق قدرها. وصمته لا يعجبني، عسى أن يكون ذلك خيرا. ت

غادر الهندي موقعه المحصن مؤقتا، ولكنه سرعان ما عاد إليه عندما مرت طائرة بالقرب من رأسه وأفرغت حمولتها ليس بعيدا عنه. شعر بالوحدة والحيرة والخوف من حدوث مكروه ما. منذ أن خرج يوسف وياسين لم يعطيا أية إشارة تثبت أنهما ما يزالان على قيد الحياة، تمتم الهندي وهو يبحث عن ممر لمخادعة الطيران ومدافع الدبابات.

كان يوسف العظمة قد توغل في المنحدر بدون حذر حتى وقف على رأس المسؤول على قطعة المدفعية الذي كان مخبأ وراء صخرة يعد

ما تبقى له من ذخيرة هزيلة. صرخ في وجهه بعنف واضح. فقد كان ضابط المدفعية خائفا على الذخيرة القليلة التي كانت بين يديه. كان قد سمع في المساء خطابا يلح على عدم تضييع الذخيرة في الفراغ. أنبه يوسف العظمة بعنف شديد.

- تنتظر حتى يقتحموا عليك المكان لتتحرك. شو هالعسكر؟ وين كنت قبل هذا الوقت؟

- كنت مساعدا في الجيش التركي ورأيت كيف يسيرون المدافع وحتى كيف ينظفونها. سيدي لم أتلق أمرا بالرد ثم إن الذخيرة قليلة ونريد استعمالها على الحي وليس في الفراغ.

- حتى يهدوا موقعك؟ هذا ما تنتظره؟

- سأحاول ولو أنهم ليسوا في مرماي تماما.

أطلق قذيفة باتجاه الدبابة التي كانت تزحف صوبه بعد أن حددت مكانه بدقة. ضرْبتُهُ لم تحدث شيئا ولكنها كشفته للعدو. وجهت ضرباتها صوبه بشكل محكم فنسفت المكان وكل ما كان يحيط به. وفجأة وصل صوت الضابط الرامي برتبة وكيل من سرية الرشاشات إلى مسامع الهندي وهو يصيح، لم يكن بعيدا عن الموقع:

- سيدي يوسف بك قتل... يوسف بك قتل.

فشد عليه الهندي من رقبته بقوة حتى كاد أن يخنقه وأخرج مسدسه ووضعه على صدغه:

- اسكت يا حمار وإلا أفجر دماغك، عندما يموت القائد لا نعلن ذلك على الملأ. هذه حرب وليست لعبا. هل تريد أن يهرب الجند ويغادروا مواقعهم؟ ألم تعلمك الحرب أن تغلق فمك ولا تخبر إلا قائدك المباشر؟

- ولكنه مات يا سيدي. رأيته بأم عيني وقد تمزق جسده. كان يركض يا سيدي وكأنه كان يريد أن يموت.

- قلت لك تخرس خالص وإلا على روحك السلام. ماذا تختار إذن؟

قال الهندي وهو يهزه بعنف شديد.

- أنت تعرف من يعصي الأوامر زمن الحرب ماذا ينتظره.

صمت الرجل ولم يضف أية كلمة. ظلت عيناه تدوران في مكانهما وكأنهما تحدقان في الفراغ المقلق. طلب الهندي من الضابط أن يقوده بسرعة نحو الموقع المقصوف. كانت الدبابة التي قصفت الموقع تقترب أكثر فأكثر. وجه الهندي نحوها المدفع الذي كان في حالة جيدة وتامة. حشاه الضابط الوكيل.

- على الله لا يخيبنا هذا المدفع. قال الهندي وهو يستعد للرمي.

ثم أطلق القذيفة التي اخترقت الدبابة قبل أن تفجرها نهائيا. عندما حاول العساكر أن يخرجوا منها انطلقت بقية الرشاشات من هنا وهناك وكأن المدفعية كلها كانت نائمة واستيقظت فجأة. في لحظة واحدة مسح كل من كان في الدبابة ومن كان يختبئ وراءها.

تفقد الهندي وجه يوسف العظمة الذي كان يغطي التراب نصف جسمه. عرفه من بقايا ملامحه التي كانت مشدودة من القلق والخيبة على الرغم من الدم والجروح البليغة التي ملأت كل جسده.

بعد لحظات وصل ياسين الجابي وقص على الهندي القصة بكل تفاصيلها وهو لا يعلم ما الذي أخذ العسكري حتى يقصف الدبابة وهو يدرك أنه سينتحر لأنه كان مكشوفا عن آخره في مواجهة الدبابة التي وجهت ضربتها نحو موقعه؟

التفت الهندي صوب الوادي ثم أعطى أوامره بالتراجع. كانت المدفعية والطيران تصبان جام غضبهما. بينما كان مجموعة من الجنود يأخذون جثة يوسف العظمة ويتوغلون بها بعيدا عن مكان المجابهات التي كانت حادة، باتجاه المستشفى.

لكن القوات الفرنسية التي تضاعف عددها، كانت تتقدم بسرعة غير معهودة.

-٤-

في المستشفى الذي زاد جرحاه لم نرتح أبدا. فقد نزل علينا المصابون من الجهات خصوصا بعد قصف المستشفى الرئيسي في الأماكن المتقدمة.

لم أشعر بالتعب أبدا. ولكنني فجأة سمعت نحنحة حصان عند مدخل المستشفى. تخطى الحصان الخيمة بعد أن حرك برأسه جزءا من أغطيتها الأمامية. بدأ قلبي يدق بسعادة لا تتصور. عرفته من صوته الحاد. جريت نحوه. فجأة وجدت نفسي وجها لوجه معه. مسحت على وجهه. شعرت به متعبا. كان كأنه يتلوى من شيء كان يلدغه من حين لآخر. عندما انتبهت لجروحه البليغة، كان قد تهاوى على الأرض. بدأت أبكي كالطفل الصغير. ركضت في كل الاتجاهات ولكنني لم أر إلا الأجسام التي كانت تنقل هناك كلما زاد أزيز الطائرات. عندما بدأت أخرج الشظايا التي اخترقت صدره، لم ينحنح ولم يتحرك برأسه ولا بجسده القوي. كان صبورا يتحمل الألم فقط ليثبت لسيده أنه شجاع ولا يخاف.

ساعدني الشيخ قليلا عندما طلبت إناء من الماء. كنت أُسرع وخائفاً من الضباط الذين يمكن أن يزوروا المكان في أية لحظة، ولن يفهموا أحاسيسي تجاه الحصان. لم يكن أحد قادرا على تحسس آلامي الداخلية وتفجر البراكين التي كانت تحترق في داخلي. كلما انغرست الإبرة المعقوفة في جلده الغليظ، ترنح برأسه قليلا قبل أن يسند أذنيه ويتركني أفعل بعد أن أمسد وجهه.

- شريف بسرعة، نستحقك. أعطني الأدوية... الماء... الآدمي أسبق من الحيوان... بسرعة...

أشتغل مع الشيخ والطبيب، ثم أعود من جديد نحو الحصان وألفُّ على جسده بعض النباتات التي علمني الشيخ فوائدها في رتق الجلد بسرعة ولم أكن أعرف أبدا إذا ما كان ذلك سيؤثر في جلد الحصان مثلما يؤثر في جلد الإنسان.

قضيت وقتا طويلا في رتق جروحه. حمدت الله على أنه دخل من ناحية الخيمة ولم يدخل من الناحية الثانية المقابلة للوادي التي يأتي منها الضباط والأطباء والجرحى وإلا كانوا قد تخلصوا منه برصاصة الرحمة، وخصوصا وأنه لا يستطيع القِيام. كنت أنتظره حتى يقوم ثم أسحبه نحو الشجيرات الكثيفة وهناك أصنع له مأواه وأغطيه وأداويه حتى يشفى من جراحاته.

لم نسمع في اليوم نفسه بمقتل يوسف العظمة ولكن سمعنا كلاما يشبه ذلك. ولهذا لم نعط لما سمعناه قيمة لكن عندما دخل علينا الضابط صبحي العمري والملازم الأول سعيد عمون اللذان رأيتهما مع عمي عز الدين، تأكدت أن المسألة صارت خطيرة. أردت أن أسألهما ولكنهما لم يرياني. استفسرا عن عدد الجرحى من المدنيين والعسكريين ودرجة الجروح. غيرت رأيي في الاقتراب منهما. وفضلت أن أبقى معلقا في النافذة المطلة على الوادي الذي كان يبدو هادئا قبل أن يأتي حصان أو سيارة محملان بالجثث أو الجرحى. عندما سألني الشيخ تعللت بمراقبة حركة الطائرات الحربية كما تعودت أن أفعل عادة. ولكني كنت أصيخ السمع لنداءات حصاني الذي سرعان ما انزلقت نحوه. كان هادئا ومستكينا. عندما رآني فتح عينيه المتعبتين بصعوبة قبل أن يغمضهما. داويته قليلا ثم غطيته كليا. فلم أسمع إلا أنفاسه وهي تتقطع.

فجأة عندما التفت وجدت أمامي ضابطا كان وجهه ممسوحا من أية ملامح. اقترب مني وكان مسدسه ما يزال في يده.

- من أنت؟ ماذا تفعل بهذا المكان؟

كان يبدو كأنه مجنون أو يريد أن ينتقم من شيء ما.

- قلت لك ماذا تفعل هنا؟ منذ ساعة وأنا أتتبع حركاتك المشبوهة. ماذا تخبئ تحت هذه الكومة من الأغطية؟ ما هي الأسرار العظيمة التي تحافظ عليها في هذا المكان والناس يموتون على الجبهة؟

- لا شيء يا سيدي. وحياة أولادك لا شيء.

دفعني بقوة إلى الخلف. نزع الغطاء، فبرزت عينا الحصان المرقط حمراوين وحادتين لم تغادرا وجه الضابط المكلف بحراسة المستشفى.

التفت نحوي وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

- هل تعرف ثمن جريمة مثل هذه؟ الإعدام بتهمة تهريب الأدوية النادرة والمضادات الحيوية لعلاج حيوان على حساب إنسان هو في حاجة ماسة إليها.

- هذا ليس حيوانا ولكنه حصان.

- حصان أو حمار ما بتفرق معي... أنت في وضع لا تحسد عليه.

- ليس حمارا يا سيدي ولكنه حصان أصيل ومربى تربية حسنة.

حاول الشيخ أن يتدخل ولكن الضابط أصر على ضرورة إخلاء المكان لتركه للرجال وهدد أنه بعد نصف ساعة إذا لم يخل المكان سيتصرف بنفسه ثم خرج.

- لازم نطلعه من هون بأية وسيلة قبل أن يعود المخلوق المغبش.

قال الشيخ وهو يرتعش خوفا على الحصان. لكن المخلوق المغبش رجع بعد لحظات ومسدسه في يده:

- لا يوجد أحسن من رصاصة الرحمة.

- ليس من حقك فعل ذلك. في أي شيء يزعجك حصان بريء؟

وقفت بين المسدس الذي شهره نحو الحصان الذي ظل ينظر إليه بعينين حمراوين وبين رأس الحصان الذي كادت ماسورة السلاح أن تلامسه لولا أن فصلتها عنه بجسدي.

- ليس لك حق في فعل ذلك.

ثم أغمضت عيني وصرخت ولا أدري من أين جاءتني تلك القوة:

- اقتلني إذن قبل أن تقتل حصاني الذي جرح في المعركة كأي آدمي.

- على كل حال مازلت عند وعدي كرمى لوالدك وإلا لو على لسانك الطويل كنت قتلته. أنا رجل لا يعرف شيئا آخر غير القانون.

لم استطع أن أتحمل لكن الشيخ الذي صبر طويلا، انفجر مثل البركان.

- خرايا على هيك قانون، وخرايا على هيك دولة وعلى هيك بشر ما بيتذكر القانون إلا لقتل كل بذرة للحياة؟ وين الضرر؟ من ساعة ما جيت وأنت تهددنا وكأننا بنلعب، بينما الزلمي بيموت معايا لإنقاذ الأرواح على الرغم من سنه الصغيرة على الحرب. المفروض أنه في فراش أمه وليس هنا. بدل أن نشجعه على الصبر جاي تعطينا درس في الخزعبلات؟ شو هاد أخي؟ شايفنا بنلعب؟ منذ أكثر من يومين لم ننم أبدا وهلاً جاي تعمل لي حالك قبضاي على حصان. بيكفي.

فوجئت من ردة فعل الشيخ. لم أسمعه يوما يتحدث بهذه اللغة القاسية والباردة كضربة سكين حادة. كان المرقط قد قام من تلقاء نفسه بصعوبة قبل أن يستقيم نهائيا. تدحرج قليلا في مكانه مثل حصان صغير ولد للتو، يحاول أن يقف على قوائمه وعندما استقام كليا، مد رأسه نحوي، حككت وجهه:

- حبيبي المرقط أنت متعب جدا؟

همست في أذنه ولكنه كان يدفع بي نحو الخارج. كان يريد أن يبتعد. فخرجت به وأنا أحك رقبته ووجهه. تأملني بعينين منكسرتين. التفت نحو الرجل الذي كان ما يزال متسمرا في مكانه. احمرت عينا المرقط، وشعرت بأنه سيهجم على الرجل ولكنه توجه نحو المخرج. عندما صار في الهواء الطلق، لم يلتفت وراءه، فأطلق العنان لرجليه وكأنه كان مربوطا بحبل، فركض باتجاه طريق الشام كالبرق أو نجمة تشتتت في الفضاء إلى آلاف الأنجم. جريت وراءه بكل ما أوتيت من قوة وصرخت بأعلى صوتي:

- توقف... أرجوك توقف، أنا كذلك متعب ولا أستطيع الركض وراءك... أرجوك، ارحمني... جروحك ستنفتح من جديد... توقف... جروحك... توقف...

جريت ولم ألتفت ولكنَ آخر شيء سمعته هو صوت الشيخ وهو يركض ورائي:

- ارجع يا شريف... ارجع يا مجنون... الطائرة راح تضربك...

ممزوجا بأزيز الطائرة القادمة من بعيد التي كانت تقترب مني ومن حصاني، بسرعة تجاوزتني، بعدها لم أعرف ما حدث لي ولكنني في أعماقي تمنيت موت الضابط الذي فقد كل أسنانه. انفتحت عيناي فجأة على بهو كبير مليء بالظلمة كنت أسير فيه بسرعة خارقة وأحذر في الوقت نفسه من الاصطدام بأي شيء، فأي جسم صغير كان كافيا لأن يمزقني إلى آلاف القطع. فجأة رأيت ضوءا حادا ونجوما كانت تتفجر لتصير حبيبات صغيرة في الفضاء وتملأ صدر السماء مثل الألعاب النارية التي كانت تتساقط في شكل رماد خفيف قبل أن يحل الظلام نهائيا ويهدأ كل شيء إلا صوت الشيخ الذي استكان على كلمات متقطعة. كنت أسمع ولا أرى شيئا:

- ماذا فعلت بنفسك وبنا يا مجنون... ماذا فعلت؟

غاب كل شيء في بحر من الظلام. بعدها لم أر شيئا.

وعندما حاولت أن أقوم من مكاني، منعني شيء ما وشدني نحو الأرض بقوة. حاولت مرة أخرى، لم أستطع. فتنبهت إلى أن يدي ورجلي كانتا مربوطتين على سرير قديم. لم أفهم وضعي. أغمضت عيني قليلا. لم أسمع إلا أزيز الطائرة التي كانت تذهب وتجيء في حركة شبه رتيبة وعلى علو منخفض جدا.

كان الضابط صبحي العمري قد أعطى الأوامر هو والهندي والملازم الأول بتهريب الجرحى على ظهور الأحصنة ومغادرة المكان نهائيا بعد الضربة الخاطفة التي أخذت في طريقها المرقط والضابط بدون أسنان. عندما أخبرني الشيخ بذلك تألمت على الحصان أكثر من ألمي على الضابط.

لا أدري كم بقيت مرميا بجانب حصاني في الحقل ولكنَ يدا ما

شعرت بدفئها هي التي أنقذتني. لم أسمع سؤال الضابط ولكنني سمعت جواب الشيخ يأتيني من بعد سحيق:

-إذا رأيت الطائرة على علو منخفض، اعرف أنها ستقصف المكان.

حاولت أن أتذكر وأنا أجتهد للقيام من هذه الأرض التي ألصقتني بتربتها:

«كانت الطائرة تحلق على علو منخفض عندما ركضت وراء الحصان ولكنني لم أنتبه. كان تحلق بسرعة كبيرة وفي اتجاه مستقيم لا يمكنه إلا أن يقود مباشرة نحونا. جريت قدر ما أستطيع لكي أرجع الحصان واخفف من جنوحه وجنونه وأنبهه بأن الطائرة ستقصفنا ربما ولكنني لا أعرف بالضبط ماذا حدث بعدها سوى أنه كان يركض نحوها بجنون كبير. فقد اختلط كل شيء في رأسي. كان خوفي على الحصان أكبر من خوفي على نفسي. غرقت فجأة وسط الانفجار الضخم والأدخنة الكبيرة. كم كنت أشتهي أن أسأل الضابط عما ربحه من وراء هذه المجزرة ولكنها أكلته هو كذلك وفي طريقها أكلت الكثيرين. امتزج كل شيء بأصوات انفجارات جافة وحرارة شعرت بها تملأ رأسي وبعدها لم أدر ماذا حدث، كان كل شيء قد صار أسود.»

حاولت مرة أخرى أن أفك عبثا الأربطة التي كانت تلف جزءا كبيرا من جسدي. شعرت كأنني كنت في سجن ولكن الشاش الذي كان يملأ رأسي أبعدني عن هذه الحالة. دخل العديد من الوجوه التي كانت تشبه الأشباح استطعت أن أحدد منها عمي عز الدين، عرفته من صوته الفخم والطبيب فؤاد غصن ورجالا آخرين كانوا يدخلون ويخرجون بدون أن أتمكن من معرفتهم.

جلس عمي عز الدين بجانبي مدة طويلة قبل أن يسألني إذا ما كنت أشعر ببعض الألم. قلت لا.

نظر إلى وجهي طويلا:

- سبحان الله الشبه بينك وبين والدك كبير.

لم أعلق لأنني تذكرت فجأة عمي الشيخ. فهو الوحيد الذي لم أره:

- كان معي طبيب متقاعد في المستشفى وكنت أساعده. لا أعرف وضعه.

- أليس من المفروض أن تعتذر أولا لمجيئك إلى مكان لم يكن من حقك أن تكون فيه؟ كيف وصلت إلى ميسلون وأنت لا تعرف شيئا عنها؟ ألم تفكر في أمك التي تحرقت عليك خوفا؟

- لم أعرف يا عمي ما حدث لي. مد لي الناس الذين ركبوا القطار أياديهم فلم أستطع أن أمنع نفسي من الركوب والسفر. فوجدت الطبيب المتقاعد، ساعدني كثيرا وكنت معه حتى النهاية ولا أعرف بعدها ماذا حدث سوى الركض وراء حصاني الذي رفض ذل الضابط الذي فقد كل أسنانه.

- بعدها الله سترك بس وإلا لزدت لأمك المسكينة ألما آخر فوق كارثة والدك. من حظك أنك كنت في الخارج فمعظم الذين كانوا في الداخل قتلوا أو جرحوا جروحا بليغة.

لم يكن عمي قاسيا بالشكل الذي تخيلته. فقد مد يده إلى رأسي ودفنها في عمق شعري أو ما تبقى منه خارج الشاش الأبيض حتى غالبني النوم من جديد. ذكرني بالضبط بما كان يفعله معي والدي في لحظات القيلولة لكي أنام عندما يصفو ذهنه بشكل كامل ولا يزعجه أصدقاؤه أو الذين يحتاجون إليه أو يزورونه. ومع ذلك وجدت الفرصة لإقلاقه بالسؤال الذي ظل يحفزني من الداخل:

- أتذكر يا عمي الطائرة التي كانت تحلق بسرعة مجنونة وعلى علو جد منخفض وأنا أصرخ بكل ما أملك من قوة وراء الحصان، والضابط المجنون يعنف الطبيب الشيخ الذي ظل يركض باتجاهي وهو منكسر الرأس ويصرخ ورائي بأعلى صوته لكي أتوقف، وأنا أركض نحو الحصان بجنون فقط لأقول له أن يبرك على الأرض ولا ينتحر بهذه الطريقة ولكنه لم يسمعني ولم أسمع أنا أحداً. كنت أصرخ بأعلى صوتي ولا أدري إذا ما فعلت ذلك أم كان مجرد كابوس.

- لا، أنت صرخت بأعلى صوتك ألماً قبل أن يغمى عليك بسبب القنبلة التي رمتها الطائرة في عمق المستشفى. كل الناس يتحدثون عن شجاعتك وعن مساعدتك للشيخ. هو ليس عاديا، هو طبيب اشتغل مع الأتراك ثم ترك كل شيء والتحق بالثورة على الرغم من اعتراضاته على ما كانت تفعله. الشيخ الله يرحمه. ربما جريك نحو الحصان هو الذي أنقذك. لم يبق من الخيمة والمستشفى شيء. الشيخ لفظ أنفاسه الأخيرة بسبب الجروح البليغة. وهو الذي أخبر الضابط بهويتك ومن هنا أخبرت وهو ما أكده لي فؤاد غصن الطبيب الذي عرفك في المكان أول ما رآك. عمرك طويل يا شريف.

- وهل انتصر الثوار في المعركة.

صعب على عمي عز الدين أن يخبئ ابتسامته.

- الانتصار في مثل هذه الحروب مستحيل ولكننا قاومنا بجانب ذلك الرجل العظيم، يوسف العظمة، الذي رفض أن يسلم دمشق دون أن تطلق أية رصاصة. الجيش العربي لم يكن منظما ولا مالكا لأية قوة. المهم كان بالنسبة إلينا هو أن نتجاسر وأن ندافع عن أنفسنا. يوسف العظمة الله يرحمه لم يفعل أكثر من ذلك. عندما ترك ابنته ليلى وراءه، كان يعرف جيدا أن مسافته ستكون محدودة. كان دائما يقول ونحن في النار: سنموت ولكن على الأقل لن يقال عنا إن دمشق سلمت بلا مقاومة ولكنه لم ينمّ أي وهْم وفي أية لحظة من اللحظات. ولم يتوان عن تكرار كلمته التي تذكرني اليوم بغاليليو: آه لو فقط استمع إلينا فيصل.

- هو إذن مات كذلك.

- حتى الذين نحبهم يموتون يا حبيبي. هناك ملمس صغير لا يندثر، هو ما يتركونه من آثار على هذه الصخرة الباردة التي اسمها الوطن. كنا قد بدأنا الانسحاب إلا مقتل العظمة عندما وصلني خبر موتك في البداية ثم جرحك. فؤاد غصن هو من أعلمني بدقة بعد أن عرف أن قصف المستشفى لم يخلف مقتل إلا سبعة أشخاص دفنوا بعين المكان بينما البقية هربت عبر حقول الزيتون حتى صارت في مأمن في

العمق باتجاه الشام. ثم إن جزءا كبيرا من المستشفى كان قد أفرغ. وأنت جئت بك إلى حوران عند هؤلاء الناس الطيبين الذين حملوا السلاح دفاعا عن أرضهم فقط ليقوموا بك ويسهروا على راحتك حتى تقوم بعافية إن شاء الله.

- ما عرفته من الطبيب الشيخ هو أن الملك فيصل سيعيد تنظيم قواته وسيخوض حربا طويلة الأمد وسنسترجع أرضنا المسروقة، ولن تكون ميسلون إلا محطة صغيرة في الطريق الطويل الذي علينا أن نسلكه.

صمت عمي لحظة ثم قال لي قبل أن يقوم:

- الأحسن أن تعود إلى دمشق بمجرد قيامك، أمك تنتظرك. فيصل يا حبيبي رجع عند أحبابه الإنجليز، يمكن أحسن له ولنا. كان ينقصه الإحساس الكبير بأنه ابن هذه التربة التي عليه أن يدافع عنها. تصالح مع الفرنسيين. ترك الكسوة التي ذهب إليها مع الحكومة لتنظيم الوحدات الدفاعية منها ورجع إلى دمشق وعين وزير الداخلية علاء الدين الدروبي، رئيسا للوزراء بأمر من الفرنسيين. لكن الجنرال غوابه، قائد الحملة العسكرية التي احتلت المدينة جمع الحكومة الجديدة وقرأ على أعضائها بيانه الذي اعتبر فيه: «الأمير فيصل هو من جر البلاد إلى مسافة أصبعين من الهلاك وأن مسؤوليته عن كل ما حدث من الاضطرابات الدموية على مسرح سورية، في الأشهر الأخيرة، كبيرة وبديهية إلى درجة لم يعد معها من الممكن استمراره في حكم البلاد.» احتج فيصل ببرقية على هذا التصريح ببيان لم يسمعه أحد إلا هو: «إنني أحتج على التصريح الذي أدلى به قائد حملتكم إلى حكومتي نهار أمس. وأنفي عن نفسي كل مسؤولية أردتم تحميلي إياها. أعتبر كافة التبليغات أو التعليمات التي سترسلونها إلى حكومتي مباشرة، وعن غير طريقي، لاغية وغير مشروعة أمام عصبة الأمم.» مسكين ما يزال يحكي عن عصبة الأمم ونسي أن كل ما حدث له متفق عليه سلفا. حتى سعاداته الصغيرة وأحزانه، هم من كان يصنعها.

- استعاد حكمه وإلا طردوه يا عمو؟

- لا حبيبي لا هذا ولا ذاك. لم يمض وقت طويل على احتجاجه حتى جاءه الكولونيل طولا وسلمه كتابا رسميا من الحكومة الفرنسية تدعوه إلى مغادرة البلد: «أتشرف بإبلاغ سموكم الملكي قرار حكومة الجمهورية الفرنسية، إنها ترجو منكم أن تغادروا دمشق بأسرع ما يستطاع، بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وحاشيتكم. وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يتحرك من محطة الحجاز غدا ٢٨ جويليه عند الساعة الخامسة صباحا.». احتج ولكن لم يسمعه أحد وخرج من الشام في الوقت الذي حدده له الفرنسيون. وعندما وصل إلى درعا، كان عليه أن يختار أحد الطريقين، السفر إلى حيفا مما يعني التخلي عن سوريا والاقتراب أكثر من أوروبا. أو السفر إلى عمان، مما يعني بقاءه على تماس مع الأرض التي استقبلته وحكمها ملكا لأيام؟ اختار الطريق الأول. الغريب أن الفرنسيين أوعزوا لآخر رئيس حكومة عينه هو علاء الدين الدروبي، أن يكاتبه في ٢٩ جويليه ١٩٢٠: «إلى جلالة الملك في درعا. إن السلطات الفرنسية أفادتنا أنها وضعت تحت تصرفكم قطاراً للسفر إلى الحجاز على الطريق الذي تختارونه من طريقي معان وحيفا بدون توقف. فأسترحم جلالتكم حفظا لبلاد حوران من المصائب والخراب تعجيل حركة جلالتكم مولاي.»

فقرر السير نحو حيفا. وطلب من السير هربوت صموئيل الذي كان آنئذ مندوبا ساميا لفلسطين تهيئة السفر والاستقبال. في الوقت نفسه أوعز إلى كبير أمنائه إحسان الجابري بكتابة برقية جوابية إلى علاء الدين الدروبي: «جلالة الملك يقيم في جزء من البلاد التي بايعته، ومع هذا فقد قرر مغادرة درعا في أول آب لأنه يسعى دائما إلى إسعاد البلاد ولا يريد أن يتضرر أحد من أبناء الوطن بسببه.». خرج وهو حانق على رئيس حكومة هو من وضعه. المسكين، لا يدري أنه قشة في مهب الريح.

كان عمي عز الدين يتكلم عندما رأى حيرة تعبرني بقوة كالخيط الحاد. لم أستطع مقاومة شرودي. لا أدري كيف عرف أني كنت منشغلا

على أمي أكثر من حيرتي على الملك فيصل الذي عرف المسالك التي توصله:

- الست صفية بألف خير. وقد أخبرتها أنك بخير ولم نرد أن نعطيها المكان الذي نحن فيه وبمجرد أن أجد فرصة لنقلك إلى هناك سأفعل. أخبرها فؤاد غصن بكل التفاصيل.. فهو يتحرك بحرية كبيرة ولا يعرفون عنه الشيء الكثير سوى أنه كان طبيبا في سجن عاليه ولم يؤذ أحدا، بالعكس كان ملتزما بالمقاومة. وأنت تتذكر جيدا ماذا فعل معك ومع أمك.

- رأيته في المستشفى وكنت أخشى أن يخبرك عن وجودي.

- لم يكن بإمكانه أن يتقدم. كنا في عمق المعركة. ذهبت مع أكثر من مئة فعدت بعشرين فارسا. لم تكن حربا كبيرة ولكنها كانت مرة وقاسية. لم يعد الكثيرون من الجبهة. معرفتنا المعابر والطريق هي التي أنقذت العشرين فارسا وإلا أكلتنا مدافع غوابيه الحارقة وفيالق السنغاليين الذين أطلقوهم كالنار على فيالقنا، يأكلون الأخضر واليابس. لحم المدافع كما يسمونهم هم أنفسهم. الحرب ليست لعبة يا شريف على الرغم من شجاعتك. ستذكر الكتب أن أطفالنا قاوموا ولكن هذا غلط. المفترض أن تكون الآن في البيت نائما، تحضر دروسك، هذا هو المطلوب منك. ليس جيدا أن يقتل الأطفال والأسلحة في أيديهم. قد يبدو لك كلامي غريبا بعض الشيء ولكنك عندما تكبر ستعرف كم أن الحروب تافهة ومؤلمة ولا شيء من ورائها إلا الخراب. ما كانت تقوله ماريكا ليوسف استيفان، لم يكن كلام امرأة أنانية كما كنا نظن ولكن كلام امرأة تعطي الأولوية للحياة فقط وبكرامة طبعا. يجب ألا نمجد الموت والحروب ونترك الحياة تمر بدون أن نتمكن من لمسها بأناملنا الصغيرة.

- هل أستطيع أن أقوم من جديد؟

- إذا التزمت مكانك ولم تحاول أن تعصي أوامر عمك.

- لن أعصيها، أقسم لك. ولكنني لا أستطيع نسيان حصاني يا عمي.

- ستعود إلى الدار ونذهب أنا وأنت ونختار حصانا أجمل من المرقط.

- ولكني يا عمي لست قادرا على نسيانه.

بانت أساريره الفاتحة ومحياه الطيب.

- وهل تظن يا عبيط أننا ننسى عندما نشاء؟ أعرف، ولكن الدنيا تعلمنا الكثير حتى النسيان لا ينجو منها.

ابتسم كعادته وخرج بعد أن فلى شعري.

- المطلوب منك الآن أن ترتاح قليلا فقط. وبعدها ربنا كريم، سنجد حلا يرضيك ويرضي الجميع.

في الليل لم أتذكر شيئا ولا حتى أمي ولكنني تذكرت حصاني المرقط الذي ظل يحدثني كما يفعل الإنسان عن الحرب وعن خسة البشر وعن خياناتهم وبؤسهم وعن الظلم الذي كثيرا ما يعمي الأبصار والقلوب، حتى إني أتذكر تلك الجملة الدقيقة والواضحة التي خرجت من فمه بحدة. قالها وهو يلتفت برأسه نحو الفراغ لكيلا أرى شططه وحزنه وقسوة ما كان يحس به:

- تعرف يا شريف، يجب على هؤلاء الذين يملؤهم اليقين، أن يتأكدوا من شيء واحد: لا شيء أجلب لليأس إلا الظلم القاسي. اليائس في المطلق ليس لديه ما يخسره ولهذا فهو يتمادى إلى أقصى درجات يأسه أي العدمية التي تذيب كل الفواصل والحدود.

وكنت أسمع له كالطفل النجيب وأهز رأسي من حين لأخر بالموافقة وفي إحدى المرات، عندما التفت رأيت بقعة من النور تدحرجت قبالة عيني قبل أن تدور في مكانها وتنسحب بسرعة كالنيزك المتمزق. صرخت ثم كتمت صوتي بحيث لا يسمعني أحد، فقد استيقظت على صرختي وأنا أضع يدي على فمي.

التفتُّ يمينا وشمالا. فلم أر أحدا. عمي كان قد غادر المكان. دفنت رأسي في عمق الفراش بدموع قوية. المرقط الذي لن أراه أبدا ولا

أعتقد أنني سأملك حصانا غيره، كان يملؤني ويعيش في فراشي ويصنع أقداري وكوابيسي. شعرت كأن زمنا بكامله قد مات وانتهى. حتى أمي لم يعد شيء يجبرها على البقاء في الشام؛ تنتظر فقط إشارة أخوالي للذهاب نهائيا إلى فلسطين.

في لحظة من اللحظات أحسست بالأرض تضيق بشكل غير عادي وباختناق في صدري الذي أصبح مليئا بالخوف والفراغ. فضلت أن أندفع عميقا في الفراش وألا أفكر في شيء آخر إلا في مانيا التي بدأت أفتقدها. حتى رسائلها وألوان رسوماتها قلّت، بل انعدمت نهائيا. آخر رسم لها أضحكني، كان عبارة عن رأس فيه فم واسع بضحكة مجنونة، لا يشبهني إلا في شعر رأسي الملفلف، الذي صار في رسم مانيا يشبه الأسلاك اللولبية المنفصلة عن بعضها بعضاً، وكتبت تحته:

«هذا أنت يا أجدب. لو تعرف حجم خسارتك وأنت بعيد عن حبيبتك مانيا لأكلت لحمك أيها المهبول. احمد ربك أنك أجدب وبعيد، وما بتفهم شي في الحب.»

فهرس الجزء الأول

هذا الكتاب

تنفتح رواية ***رماد الشرق*** في جزئها الأول: ***خريف نيويورك الأخير*** على مشهدية انفجار البرجين التوأمين، وعلى جاز، برفقة صديقته ميترا، وهو يصرّ على الانتهاء من سيمفونيا تخلد جدّه الذي اخترق القرن العشرين، وعاش كل الحروب التي جعلت الوطن العربي على ما هو عليه اليوم، من إعدام الأحرار الذين قاوموا العثمانيين وآلة جمال باشا السفاح، إلى فجيعة سايكس بيكو والجغرافيا الجديدة التي فرضتها، إلى انهيار الثورة العربية، إلى قضية فلسطين، إلى الدكتاتوريات العربية وحروبها الخاسرة... وصولاً إلى انفجار البرجين التوأمين الذي ختم دورة القرن منهياً عصراً بكامله. جاز موسيقي أمريكي من أصول عربية، ترك الطب في وقت مبكر ليتفرغ للموسيقى، قبل أن يعود له من جديد تضامناً مع ضحايا انفجار البرجين التوأمين. يفاجأ جاز في المستشفى بنشوء عنصرية لم يعهدها من قبل، تخترق المجتمع الأمريكي وتكبله. لكن إصراره على الاستماع إلى قصة جدّه في توليدو الأمريكية وتجسيدها موسيقياً، تُصَالِحُهُ مع تاريخ خفي يعيد اكتشافه من خلال الموسيقى.

***رماد الشرق* رواية ملحمية تستعيد قرناً من الحياة العربية من خلال حيوات متضاربة لأناس بسطاء، لا يستطيع التاريخ قولها. وحدها الرواية بإمكانها اختراق أسرارها. لا يمكن فهم ما يحدث اليوم من ثورات دموية وانتفاضات إلا داخل هذا الغليان الذي أشعل القرن العشرين مخلفاً وراءه تمزقات تراجيدية، ترابية وإثنية ودينية، من الصعب رتقها بالوسائل التقليدية.**